تهذيب
أعمال القلوب

تأليف

خالد بن عثمان السبت

هذبه

سعد بن محمد فوزي البخيت

مؤسسة العلم والتأصيل

توزيع

دار ابن الجوزي

تهذيب

أعمال القلوب

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السبت، خالد عثمان
تهذيب أعمال القلوب. / خالد عثمان السبت؛ سعد محمد فوزي البخيت.- الدمام، ١٤٤٤هـ
٧٣٦ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٦ - ٨٣ - ٨٣٨٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - الوعظ والإرشاد ٢ - الأخلاق الإسلامية أ. البخيت، سعد محمد فوزي (معد) ب. العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٤٤/١٢٣٤٣

مؤسسة العلم والتأصيل

توزيع

دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر - القاهرة:
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣
٠١١١٢٤٥٨٤٤٤ - ٠١٢٨١٩١٤٠٠١

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٥

٢٠٢٣

الباركود الدولي: 9786038389836

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤٥هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبياء والمرسَلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ:

فإنَّ القلوب تفتقِرُ إلى تعاهُدٍ وتربيةٍ وإصلاح؛ ذلك أن هذه القلوب إذا استقامَتْ وصَلَحَتْ، فإنها تستقيم أحوال الإنسان وتصلُحُ أعمالُه، ويحصُلُ له من الانشراح واللذَّة والسرور والبَهْجة ما لا يقادَرُ قَدْرُه، فيكون في جَنَّةٍ «مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جَنَّةَ الآخرة»[1]، وهذه الجنة لا تحصُلُ للإنسان إلّا بصلاح قلبه.

ولا يخفى أن جِنْسَ الأعمال القلبيَّة أشرف من جِنْس أعمال الجوارح؛ يكفيك أن العمل لا يُقبَل إلّا إذا كان خالصًا لله ﷻ، ومعلومٌ أن الإخلاص عمَلٌ مِن أعمال القلوب.

والإنسان الذي يَعمَل الأعمال الصالحة ـ وإن عَظُمَتْ ـ قد يعتريه من المقاصد الفاسدة والزَّهْو والتعاظُم ما يصير عَمَلُه به مردودًا.

وقد قال الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ

---

(١) قال ابن القيِّم: «سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ قدَّس الله رُوحه ـ يقول: «إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جنةَ الآخرة». «مدارج السالكين» (١/٤٥٢).

أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّهم: «الَّذِينَ يَصُومُونَ، ويُصَلُّونَ، ويَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ»[١].

فنحن بحاجة ماسَّة إلى التعرُّف على ما يُصلِحُ هذه القلوبَ التي طالما اعترَاها مِن ألوان الكَدَرِ الذي يلقاه الإنسان، ما ينغِّصُ عَيْشَه، ويُذْهِب عليه لَذَّتَه؛ فلا يجد قلبَهُ في تلاوة القرآن، ولا في مناجاة الله ﷻ في الصلاة، ولا في غير ذلك مِن أحواله.

ثم إنَّ هذه الأعمال القلبية متلازِمةٌ مترابِطة؛ فحينما نتحدَّث مثلًا عن الإخلاص، فإن هذا الحديث لا بد أن يرتَبِط بقضيَّة الخوف والرجاء كما سيأتي بيانه؛ بإذن الله.

وحينما نتحدَّث عن الإنابة والتوبة، نجد أن الإنسان إنما يتوب؛ لأنه يخاف الله ﷻ، ويحبُّه، ويرجو ما عنده من الثواب.

وهكذا حينما نتحدَّث عن الرجاء والخَوْف والمحبَّة، وغيرها من أعمال القلوب.

والمقصود: التنبيه على أن الأعمال القلبيَّةَ في غاية الارتباط والاتصال، وأنه لا يُغْنِي بعضها عن بعض، بل إن بعضها متوقِّفٌ على بعضها الآخر، والعبد بحاجة إلى أن يستكمِلَها، وأن يربِّيَ قلبه عليها، بل لا أعلمُ شيئًا يمكن أن يَتشاغَلَ به العبد ـ مع الفرائض ـ أفضلَ مِن الاشتغال بأعمال القلوب.

كما أن فساد القلوب ومرَضها يُورِث الحرمان، ويمنع مِن الإقبال على

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)؛ من حديث عائشة ﵂. وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢).

الربِّ الرحيم الرحمن، ويَهوِي بصاحبِهِ في الدركات، ويَحرِمُه بلوغ الدرجات.

فتحتَّم أن نتعاهد قلوبنا بما يُصلِحُها؛ مِن ذكرِ الله، وقراءة القرآن، وبما تقوم عليه من مقامات العبوديَّة، التي من أهمِّها تلك الأعمال القلبيَّة التي قامت عليها قلوبُ المتَّقِينَ، وصلَحَ بها حال المخلِصِين الصادقين، خاصَّةً في هذا العصر الذي غلَبَت فيه النزعة المادِّية، وصارت طاغية على الكثيرين؛ إلّا مَن رَحِمَ الله.

وقد يسر اللهُ فضيلةَ شيخنا المفيد ـ خالد بن عثمان السبت ـ، ووفقه إلى الكتابة في هذا الباب العظيم، متوخيًا فيه النَّهْجَ الصحيح، والسَّنَنَ الواضحَ المستقيم؛ على طريقة أهل السنة المَحْضَة ـ أسأل الله أن يجعلنا مِن أهلها قولًا واعتقادًا، وعملًا وسلوكًا ـ مع رَبْطِ هذه الأعمال بالأصل الذي تتفرَّع عنه، وهو الإيمان؛ وذلك في كتابه القيم (أعمال القلوب)، وقد جرى فيه حفظه الله على طريقة الاستيعاب مع تمام التحرير، وتنويع التقاسيم، وكثرة التمثيل والاستشهاد، مع تنويع الأدلة وحشدها ليكون بمثابة المرجع والمنار لكل من رام التفقه في هذا الباب، على منهج مرضي وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، فرغبت ـ بعد إذن شيخنا ـ في اختصاره إلى نحو الثلث محافظا على مقاصد الأصل، متخففًا من كثرة الأمثلة والأدلة والاستشهادات، وفق منهج عرضته على فضيلته فارتضاه، وذلك ليكون أيسر لعموم الطلبة والمثقفين، قراءةً وتحصيلًا، ومذاكرةً ومدارسةً، ويبقى الأصل مكنزًا أصيلًا غنيًّا؛ لمن رام التوسع ومزيد البحث والتفصيل.

وأمّا منهجي في هذا المختصر، فهو على النحو التالي:

١ ـ حافظت على المواضيع التي وردت في الأصل دون زيادة أو نقصان وهي (١٦ موضوعًا) مِن أعمال القلوب، هي: (الإخلاص، واليقين، والتفكُّر، والخشوع، والمراقبة، والوَرَع، والتوكُّل، والمحبَّة، والرَّجَاء،

والخَوْف، والصبر، والرضا، والشُّكْر، والغَيْرة، والحَيَاء، والتوبة)، هي الأهمُّ مِن الأعمال القلبية. وسبقتها مقدِّمة تتحدَّثُ عن القلب، والأعمال القلبية عمومًا، وبعض مهمات المسائل المتعلقة بذلك.

٢ ـ حافظت على جل العناوين الرئيسية والفرعية تحت كل موضوع، ولم أحذف منها إلا ما كان بمثابة التفصيل لفرع سبق أو سيأتي الكلام عليه ضمن بعض المباحث.

٣ ـ اقتصرت على إيراد الأحاديث الصحيحة والحَسَنة دون غيرها، مع نَقْل حكم عالم ممن يعتمد قوله في التصحيح والتضعيف في الهامش بعد تخريجها، وأنت واجد في الأصل استيعابا أكثر في التخريج، وذكر أقوال العلماء في التصحيح والتضعيف، بل هو يعتبر مرجعًا جامعًا للأحاديث والآثار الواردة في كل باب، مع حسن التخريج، وتتبع أقوال العلماء المعتبرين في كلامهم على الحديث أو الأثر.

٤ ـ اختصرت التعريفات اللغوية والاصطلاحية مكتفيًا بأقربها في الدلالة على المراد، أو ما نص فضيلة شيخنا على أنه الأقرب أو الراجح في المعنى.

٥ ـ تضمن الأصل قدرًا من التوسع والاستيعاب في الأدلة من الكتاب والسنة تحت كل مسألة، مع بيان وجه الاستدلال في الغالب، فاقتصرت في كل ذلك على ما يحقق الغرض من الاستدلال.

٦ ـ وقل مثل ذلك في الأمثلة والشواهد والأقوال المأثورة عن السلف، والعبارات المنقولة عن العلماء؛ فحرصت على انتقاء أقربها وأخصرها في الدلالة على المراد، محاولًا حذف ما تكرر في مواضيع سابقة قدر المستطاع، تاركًا التوسع في كل ذلك لمن أراده بمراجعة أصله.

وقد حرصت على حسن الربط بين العبارات، وصياغة ما يحتاج إلى

ذلك بحيث يظهر الكتاب لمن قرأه وكأنه مؤلَّف مستقل متناسق الجمل، منساب العبارة، دون إخلال بشيء من صياغة الأصل أو عباراته، ثم عرضته على فضيلة شيخنا؛ فراجعه، وأذن في إخراجه.

فأسأل الله الكريم أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يكتب له القبول في الدنيا والآخرة، وأن يجزل المثوبة لشيخنا، ويبارك في علمه وعمله إنه سبحانه خير مسؤول، وأقرب مجيب.

❊ ❊ ❊

مُقَدِّمَة
فِي بَيَانِ مَنْزِلَةِ القَلْبِ
وَأَهَمِّيَّةِ الأَعْمَالِ القَلْبِيَّة

تَوْطِئَة

لا يخفى أن لأعمال القلوب منزِلة، ومَكَانة عظيمة في دين الله ﷻ؛ فإنها تتعلَّق برُكْن شريف؛ ألا وهو القَلْب، وهو مَلِكُ الجوارح والأعضاء، وهي خَدَمُهُ وجنوده؛ ولا شك أن شَرَف العلمِ بشَرَفِ متعلَّقه؛ فالعلم الذي يتعلَّق بالقلب أشرَفُ مِن العلم الذي يتعلَّق بغيره.

وحديثنا في هذا الكتاب سيكون ـ بحَوْل الله ـ عن القَلْب والأعمال المتعلِّقة به.

وهذا الموضوع الجليل العظيم يُعَدُّ مِن المقاصد، لا مِن الوسائل، ونحن إنما ندرُسُ بعض العلوم ـ كأصول الفقه، ومصطلح الحديث، والنحو، وما إلى ذلك ـ ليكون مِرْقاةً للفقه في الدين؛ أصولًا وفروعًا، وإنَّ مِن أعظَم الفقه في الدين وأجلّه؛ الفقه المتعلِّق بالأعمال القلبيَّة؛ فإن قلوبنا إذا صلَحَتْ، صلَحَت أعمالنا، واستقامتْ أحوالنا، وزال كثيرٌ مِن مشكِلاتنا، وإن فسَدَتْ هذه القلوب، فسَدَتْ أعمال العبد، واضطرَبَتْ عليه أحواله، ولم يَعُدْ يتصرَّفُ التصرُّفَ الرشيد الذي يُرْضِي ربه ومولاه؛ فيَخسَرُ الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى القَلْبِ وَحَقِيقَتُهُ

القلب في اللغة له معنيان[١]:

الأول: خالصُ الشيء وشريفُه.

الثاني: رَدُّ شيء على شيء، مِن جهة إلى جهة؛ يقال: قلَبَ الشيءَ وقَلَّبَهُ: حَوَّلَهُ ظهرًا لبطن.

فعلى المعنى الأوَّل: سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لأنه أخلَصُ شيء فيه وأرفَعُه.

وعلى المعنى الثاني: سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لكثرةِ تقلُّبه[٢] مِن حال إلى حال؛ فهو يتقلَّب مِن هدى إلى ضلال، ومِن إيمان إلى كفر، ومِن إخلاص إلى نفاق؛ ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[٣].

قال الشاعر[٤]:

مَا سُمِّيَ القَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ   وَالرَّأْيُ يَصْرِفُ بِالإِنْسَانِ أَطْوَارَا

والمعنيان متحققان في القلب، فإنه أشرف أعضاء الجسد، وهو كثير التقلب والتحول.

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (١٧/٥)، (ق ل ب)، و«لسان العرب» (٢٦٩/١١)، (ق ل ب).

(٢) انظر: «لسان العرب» (٢٦٩/١١)، (ق ل ب). وزاد في الكليات: (ص٧٠٣) «ولأنه مقلوب الخِلْقَة والوضع، كما يشهد به علم التشريح».

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس ﷺ، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» (٢٢٥).

(٤) انظر: «تاج العروس» (٧٠/٤)، (ق ل ب).

وأما القلبُ في الاصطلاح، فيُطلَق على أمرَيْن[١]:

الأول: العضو الصَّنَوبَرِيُّ الشكل، المُودَع في الصدر.

الثاني: أنه لَطِيفة ربانيَّة، لها بذلك العضو تعلُّق وَثِيق.

وقد ورَدَ المعنيان في حديث النبي ﷺ، ففي حديث النُّعْمان بن بَشِير رضي الله عنه: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[٢].

وفي حديث أنَس بن مالك رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ...»، قال أنس: وقد كنتُ أرى أثَرَ ذلك المِخْيَطِ في صدره[٣].

فهذا الذي فعَلَهُ جبريل عليه الصلاة والسلام يَدُلُّ دَلَالةً واضحةً على أن المرادَ بالقلب هو العضو الذي في الصدر، وأنَّ الهدى والضلال يتعلَّقان بهذا القلب، وأن هذا العضو في الإنسان به لطيفة غَيْبِيَّة تؤثِّر في أفعاله.

وقد يَرِدُ القلب بمعنى العَقْل؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ لأن العَقْلَ محلُّهُ القلب؛ كما دلَّت على ذلك الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة؛ خلافًا لمن قال: إنَّ العقل في الدماغ[٤].

ومِن النصوص الدالَّة على أن العقل في القلب:

١ ـ قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ولم يَقُلْ: «ولكنْ تَعمَى القلوبُ التي في الأَدْمِغة».

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (ص١٧٨)، و«التعريفات الفقهيَّة» (ص ١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦١، ١٦٢)؛ واللفظ له.

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٢/٦٤)، و«مجموع الفتاوى» (٩/٣٠٣ ـ ٣٠٤).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]؛ فجعَلَ القلب مَحلًّا للعقل.

٣ ـ قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(١).

فقوله ﷺ: «مُضْغَةً» نصٌّ في القلب الحِسِّيِّ اللَّحْميِّ المعروف، والمُضْغة: هي القطعة من اللَّحْم على قَدْرِ ما يُمضَغ(٢).

قال الحافظ ابن حجر: «ويستدَلُّ به ـ أي: الحديث ـ على أن العقل في القلب»(٣).

أما الطِّبُّ الحديث، فإن غاية ما يقرِّره: أن المكان الذي يؤثِّر على الأفعال الحسِّيَّة هو الدماغ، أما حقيقة هذه القضيَّة، وما شابهها من القضايا مثل: ما الذي يؤثِّر على أعمال الإنسان المعنويَّة وإرادتِه؟! وأين وكيف يحصل له الخوف والرجاء، والمحبَّة والكراهية، والرضا والسَّخط، والسرور والحُزْن والانقباض، وغير ذلك مِن الأمور؟!، فالطِّبُّ لا يستطيع أن يحدِّد ذلك.

وجمَعَ بعض العلماء بين القولين بأن قال: «إن أصلَ العقلِ في القَلْب؛ كما في الكتاب والسنة، إلّا أن نُورَهُ يتصِلُ شُعَاعُهُ بالدماغ»(٤).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «قيل: إنَّ العقل في الدماغ؛ كما يقوله كثير مِن الأطباء، ونُقِلَ ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفة مِن أصحابه: إن أصل العقل في القلب، فإذا كَمُلَ، انتهى إلى الدماغ. والتحقيق: أن الرُّوح ـ التي هي النَّفْس ـ لها تعلُّق بهذا وهذا، وما يَتَّصِفُ مِن العقل به

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣٣٩/٤)، (م ض غ).
(٣) «الفتح» (١٥٦/١).
(٤) «العذب النمير» (١٦٠/١).

يتعلَّقُ بهذا وهذا، لكنَّ مَبدَأَ الفكر والنظَرِ في الدماغ، ومَبْدَأَ الإرادة في القلب»[١].

ولا يخفى أن حياة الإنسان الظاهِرة متعلِّقة بالقلب والدماغ معًا على نحوٍ ظاهر؛ فيُمكِن أن تتعلَّق إراداته وأحاسيسه بالقلب والدماغ معًا؛ فإن الإنسان لا يستطيع أن يَعِيشَ على نحوٍ سَوِيٍّ إلّا بسلامة قلبه ودِمَاغه.

فما المانع أن يكون بين قلبِهِ ودماغِهِ تعلُّقٌ وثيقٌ مؤثِّرٌ على أفعالِهِ وتصرُّفاتِهِ المعنويَّة، ومنها ما نسمِّيه بالأمراض القلبيَّة، والإحساساتِ والمشاعِرِ الداخليَّة؟! لكنَّ الطِّبَّ لم يتوصَّلْ إلى معرِفة هذا التعلُّق وكيفيَّته.

ويرد هنا السؤال المشهور وهو: إذا كان القلب محلَّ التوحيدِ والإيمان والتقوى، أو الشركِ والكُفْرِ والنفاق، فهل إذا استُؤْصِلَ قلب امرئ مسلم، ووُضِعَ له قلبُ امرئ كافر، سيتحوَّل المسلِمُ إلى عقيدة ذلك الكافر؛ فيكون مثلَه؟:

فالجوابُ: أنَّ الطبَّ الحديث له تجارِبُ في ذلك، لكنْ مع التتبُّع وسؤال أهل الاختصاص، لم أجدْ في ذلك إجابةً علميَّةً دقيقةً عن دراسةٍ معتبَرة؛ إلا أن هذا لا يعني ـ والله أعلم ـ أنَّ الإنسان يتحوَّل مِن الإيمان إلى الكفر، أو العكس؛ لكن لا يُعْرَف كثيرًا مدى التغيُّر الذي يمكن أن يحصُلَ له بسبب تغيُّرِ هذا القلب، ومدى التأثُّرِ الذي يناله مِن صاحب ذلك القلبِ الذي نُقِلَ إليه.

إلّا أنه لا يبعُدُ أن يتأثَّر صاحبُهُ بعض التأثُّر؛ كيف لا والإنسان يتأثَّر بالمخالَطة والنظر، ويتأثَّر بما يسمع، وبما يَشَمُّ وبما يأكُل؟! فأكلُ الحلال يؤثِّر في قلب الإنسان، كما يؤثِّر فيه أكلُ الحرامُ؛ بل إنَّ اللغة أيضًا تؤثِّرُ في عقله وقلبه[٢].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٥٢٧).

مَنزِلَةُ القَلْبِ

«اعلَمْ: أن أشرَفَ ما في الإنسان قلبُه؛ فإنه العالِم بالله، العامِلُ له، الساعي إليه، وإنما الجوارِحُ أتباعٌ وخَدَم له، يستخدِمُها القلب استخدامَ الملوك للعبيد»[١]، فإذا صلَحَ هذا القلب بالمعارِف، ومحاسِن الأحوال والأعمال، صلَحَ الجسد كله بالطاعة والإذعان، وإذا فسَدَ بالجهالات، ومَسَاوِئ الأحوال والأعمال، فسَدَ الجسد كله بالفسوق والعصيان[٢].

من هنا عظمت عناية السلف بأمر القلب، وكثرت عباراتهم وتنوعت في التنويه بشأن إصلاحه والعناية باستقامته.

يُروَى عن سَلْمان الفارسي ﷺ؛ أنه قال: «لكل امرئ جَوَّانِيٌّ وبَرَّانِيٌّ؛ فمن يُصلِحْ جَوَّانِيَّهُ، يُصْلِحِ الله بَرَّانِيَّهُ، ومَن يُفسِدْ جَوَّانيَّهُ، يُفسِدِ الله بَرَّانِيَّهُ»[٣]؛ جَوَّانِيُّه: سِرُّه، وبَرَّانيُّه: علانيَتُه[٤].

وقال سعيد بن يَزِيد: سمعت أبا خُزَيْمة يقول: «القصد إلى الله بالقلوب أبلَغُ مِن حَرَكات الأعمال في الصلاة والصيام ونحوهما»[٥].

وفي هذا المعنى قال أبو الدرداء ﷺ: «يا حبَّذا نَوْمُ الأكياس

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٩٣)؛ بتصرف.
(٢) ينظر: «قواعد الأحكام» (١/١٩٨).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٢٠٣).
(٤) انظر: «لسان العرب» (٢/٤٣٠)، (ج وا).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣١١).

وإفطارُهم! كيف يَغْبِنُون سَهَرَ الحمقى وصيامهم، ولَمثقال ذرَّة مِن صاحب تقوى ويَقِينٍ أعظم وأفضل وأرجح مِن أمثال الجبال عبادةً من المغترِّين؟!»[١].

فمحلُّ نَظَر الله ﷻ هو قَلْب العبد؛ فإذا صلَحَ قلبه، صلَحَتْ أعماله، وكان مقبولًا عند الله تعالى، وإذا كان القلب فاسدًا، فلربما سجَدَ صاحبه وركَعَ مع رسول الله ﷺ، وهو في الدَّرْك الأسفل من النار؛ كعبد الله بن أُبَيِّ ابنِ سَلُولَ ومَن معه من المنافقين؛ فقد كانوا يَخرُجون مع رسول الله ﷺ في الغَزَوات، ويشهدون معه الجمع والجماعات، ومع ذلك لم تَزْكُ نفوسهم، ولم تصلُحْ قلوبهم ولا أعمالهم؛ لأن هذه القلوب قد انطوت على معنى سيِّئٍ أفسَدَها، وعلى نجاسةٍ كبرى لا تطهِّرها مياه البحار؛ وهي النفاق.

وقد كان الحسن البصري يَجلِس في مجلسٍ خاصٍّ في منزله لا يتكلَّم فيه إلّا في معاني الزُّهْدِ والنُّسك، وأعمال القلوب؛ فإنْ سُئِلَ سؤالًا يتعلَّق بغيرها في ذلك المجلس، تبرَّم، وقال: «إنما خَلَوْنا مع إخواننا، نتذاكَر»[٢].

فينبغي على الإنسان أن يكون له مجالِسُ يتذاكَرُ فيها مع إخوانه أحوال القلوب، ويرقِّق فيها قلبه، ويُصلِحُ ما فسَدَ منه في زحمة الأعمال ـ ولو كانت أعمالًا دعويَّة ـ؛ بزيارة القبور، وذِكْرِ الموت، وغيرِ ذلك من الأمور التي سيأتي ذكرها؛ إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٣٨)، وفي سنده انقطاع.

(٢) انظر: «قوت القلوب» (١/٢٥٧).

مُصْلِحَاتُ القَلْبِ

وهي الأمورُ التي يكونُ بها صلاحُ القَلْب، ومنها:

١ ـ التوجُّهُ الخالص إلى الله؛ بحيثُ لا يكون قلبُهُ متعلِّقًا إلّا بربِّهِ ومعبودِهِ:

فالله ﷻ خلَقَ هذا القلبَ، وركَّبه تركيبًا؛ بحيث لا يصلُحُ بحال من الأحوال إلّا إذا تعلَّق بربِّه ومَلِيكه، فإذا تعلَّق بغير الله من المخلوقات، عُذِّبَ به أيًّا كان؛ حَجرًا، أم رجلًا، أم امرأة، أم مَركَبًا، أم عقارًا، أم مالًا، أم غير ذلك.

ولذلك تجد كثيرًا من الناس يسألون عن قضايا تتعلَّق بروابطَ ووشائِجَ مع بعض إخوانهم، ويَختلِط عليهم الأمر كثيرًا؛ فهم يظنُّون ذلك لله وفي الله، وأن ذلك يقرِّبهم إليه سبحانه، مع أنهم يَجِدُون ألمه في قلوبهم، ويَجِدون له حسرةً تَعصِف بهذه القلوب.

فالعلائِقُ والأعمال، والأحوال والارتباطات، والمجالس والأقوال، إذا كانت صحيحةً، مع صحة قَصْد صاحبها، فإنها تُورِث في القلب نُورًا وانشراحًا، وإذا كانت على غير الجادَّة، انعصَرَ القلب وتألَّم.

«ففي القلبِ شَعَثٌ لا يَلُمُّهُ إلّا الإقبالُ على الله، وفيه وَحْشَةٌ لا يُزِيلها إلّا الأُنْس به في خَلْوتِه، وفيه حُزْنٌ لا يُذهِبُهُ إلّا السرورُ بمعرفتِهِ وصِدْقُ معاملتِه، وفيه قَلَقٌ لا يُسْكِنُهُ إلّا الاجتماع علَيْه، والفِرَارُ منه إلَيْه، وفيه نِيرانُ حَسَراتٍ لا يُطْفِئُها إلّا الرضا بأمرِهِ ونَهْيِهِ وقضائِه، ومعانَقةُ الصبرِ على ذلك إلى وقتِ لقائِه، وفيه طَلَبٌ شديدٌ لا يَقِفُ دون أن يكون هو وحدَهُ مطلوبَه،

وفيه فاقةٌ لا يَسُدُّها إلّا محبَّتُهُ والإنابة إليه ودوام ذِكْره، وصِدْقُ الإخلاص له»[١].

٢ ـ الأعمال الصالحة، الظاهِرة والباطِنة؛ مِن الواجِبات والمستحَبَّات:

قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: «إن للحَسَنةِ نُورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وزيادةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسَّيِّئةِ سوادًا في الوجه، وظُلْمةً في القلب، ووَهْنًا في البدن، ونَقْصًا في الرزق، وبِغْضةً في قلوب الخلق»[٢].

٣ ـ ذِكْر الله ﷻ وقراءة القرآن:

قال إبراهيم الخَوَّاص: «دواءُ القلبِ خمسةُ أشياء: قراءةُ القرآنِ بالتدبُّر، وخَلَاءُ البطن، وقيامُ الليل، والتضرُّعُ عند السَّحَر، ومجالَسةُ الصالحين»[٣].

وقال: «الذِّكْر للقلب، بمنزِلة الغذاء للجسد؛ فكما لا يجد الجسد لَذَّة الطعام مع السَّقَم، فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذِّكْر مع حُبِّ الدنيا»[٤].

٤ ـ مجالَسَةُ الصالحين الذين يذكُرُونَ الله ﷻ، ويذكِّرُونَ به سبحانه:

فمِن الناس: مَن إذا نظَرْتَ إلى وجهِهِ، انشرَحَ صدرُك، وذهَبَتْ عنك الأوهام والهموم والمخاوف.

قال ابن القيِّم: «كنا إذا اشتَدَّ بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه ـ يعني: شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ فما هو إلّا أنْ نراه، ونَسمَعَ كلامَهُ، فيَذهَبَ ذلك كله، ويَنقلِب انشراحًا وقوَّةً ويقينًا

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٦٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٤٢٤).

(٣) المصدر السابق (١٠/٣٢٧).

(٤) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٩/٣١٢).

وطمأنينةً»[١]؛ وذلك لِمَا يرون في وجهه من الضياء والإنارة، والأمارات الدالَّة على انشراح الصدر، وثبات القلب، والخَوْفِ مِن الله ورجائه؛ فإن الوجه مِرْآةٌ للقلب.

يقول جعفر بن سليمان: «كنتُ إذا رأيتُ مِن قلبي قسوةً، نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، وكان وجهُهُ كأنه وجهُ ثَكْلَى»[٢]؛ وذلك من آثار خوفه من الله ﷻ؛ فآثار الإشفاق بادية عليه؛ فإذا نظروا إلى وجهه، رَقَّت قلوبهم قبل أن يتكلم.

وهذه المسائلُ قَلَّ مَن يتكلَّم فيها؛ مع أننا في أَمَسِّ الحاجة إليها؛ فقلَّ مَن يَسعَى إلى مجالس الصالحين الذين يَنتَقُونَ أطايِبَ الكلام، ويجدِّدُونَ الإيمان في قلوب الناس، وقَلَّ مَن يزورُ القبورَ؛ معتبِرًا بها، متذكِّرًا الآخرة.

٥ ـ الإكثار من رُؤْية المحتضَرِين، وزيارةِ القبور، وذِكْرِ الموت:

فذِكْرُ الموت يُحيِي القلب، ويُلِين ما فيه من القَسْوة؛ فاجعَلْ لنفسك وقتًا تتفكَّر فيه في هذا المعنى، وتَزُور فيه المقابر؛ فقد كان سعيد بن جُبَيْر يقول: «لو فارَقَ ذِكْرُ الموت قلبي، خَشِيتُ أن يَفْسُدَ عليَّ»[٣].

٦ ـ المجاهَدةُ بفعلِ مُصلِحاتِ القَلْب، وتركِ مفسِداتِه:

يحتاجُ الإنسانُ إلى مجاهَدةٍ دائمةٍ ومستمرَّة، وإلى مكابَدة؛ يقول ابن المُنْكَدِر: «كابَدتُّ نفسي أربعين سنةً، حتى استقامت»[٤]، وكان يقول: «إني لأدخُلُ في الليل، فيَهُولُني، فأُصبِحُ حين أَصبِحُ، وما قَضَيْتُ منه أَرَبي»[٥]؛

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ١١٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٤٧)، (٦/٢٨٨).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٧١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣/١٤٧).

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/٤٨).

أي: إذا أقبَلَ الليل، وبادرتُ إلى الصلاة، وخلوتُ بربي؛ فإذا بالليل قد انقضى، وتصرَّمت ساعاته، ولم أشعُرْ بذلك، ولم يحصُلْ ما كنت أؤمِّلُهُ مِن طول المناجَاة، فهي قصيرة في نَظَره؛ لشدَّة شَغَفِه وتعلُّقِهِ بذلك!

فبالله! كيف نَصِلُ إلى هذه المرحلة، ونحن إذا صلَّى الإمام، فأطال قليلًا، تَمَلْمَلْنا وضَجِرْنا؟! فترى بعضَنا يتنحنح، وبعضَنا يحرِّك أصابعه ويُفرقِعُها، وربما عاتَبْنا الإمامَ بعد الصلاة! وترى الواحد منا وهو يصلِّي كأنه طائر في قَفَصٍ يبحث عن حِيلَةٍ يتخلَّص بها، ولو كانت قلوبُنا عامرةً بمحبَّة الله والإقبال عليه، لَمَا شَبِعْنا من صلاتِنا وعبادتِنا؟!

يقول أبو حفص النيسابوري: «حَرَسْتُ قلبي عشرين سنة، ثم حَرَسَني قلبي عشرين سنة، ثم ورَدَتْ حالةٌ صِرْنا فيها محروسَيْنِ جميعًا»[1].

ومعنى هذا الكلام: أنه كان في مكابَدةٍ عشرينَ سنةً حتى استقام قلبُهُ، فحرَسَهُ عشرين سنة، ثم مَرَّتْ عليه أحوال، صار قلبُهُ فيها محروسًا، وصارت جوارحُهُ محروسةً؛ حينما تَرَوَّضَتْ على طاعة الله ﷻ؛ فأصبَحَت عينه لا تنظُر إلّا إلى ما يُرضِي الله، وصار قلبُه يَنْفِرُ من السماع المحرَّم الذي يَعشَقُهُ كثير من الناس، وتميل إليه قلوبهم، وصارت أُذُنُه تَمُجُّه؛ فلا يجد له لذَّةً ولا حلاوة، كما يجدها أولئك الذين مَرِضَتْ قلوبهم.

فحيث استقام قلبُ العبدِ، استقامَتْ أقوالُه وأعمالُه وجوارحُه، فإذا رأى شيئًا تلتفِتُ إليه كثير من النفوس الضعيفة، ويتطلَّعُ إليه أصحاب القلوب المريضة، فيَطمَعُ الذي في قلبِهِ مرض ـ: انصرَفَ قلبه عن هذه الأمور المَشِينة، ولم يلتفت إليها، مستحضِرًا عَظَمةَ الله وجلاله، وجميلَ فضلِه وثوابِه، عالمًا بمراقَبةِ الله ﷻ له؛ فلا تتحرَّكُ نفسه للمعصية، أو الوقوع في الرِّيبَة.

---

(١) «صفة الصفوة» (٤/١٢٠).

مُفْسِدَاتُ القَلْبِ

وهي خلافُ ما يَتِمُّ به صلاح القلب، ومَن تأمَّل عوامل صلاحه، تعرَّف على عوامل فساده؛ وإذا فسد القلب، قسا ومرض، أو مات وهلك، وسيأتي الحديثُ عما يَتبَعُ فساد القلب، ومِن أعظم ما يُفسِدُ القلب:

١ ـ ألَّا يخلُصَ القلبُ لله؛ بحيث يتعلَّق بغير الله ﷻ:

فـ «كلُّ مَن علَّق قلبَهُ بالمخْلُوقين أن ينصُرُوهُ أو يرزقوه أو أن يَهْدُوه، خضعَ قلبه لهم، وصار فيه من العبوديَّة لهم بقَدْرِ ذلك، وإنْ كان في الظاهر أميرًا لهم، مدبِّرًا لأمورهم، متصرِّفًا بهم؛ فالعاقل ينظُرُ إلى الحقائق، لا إلى الظواهر.. فالحرِّيَّة حرية القلب، والعبوديَّة عبوديَّة القلب؛ كما أن الغنى غنى النفس»[(١)].

وإنَّ أعظَمَ تلك التعلُّقات إفسادًا للقلب: الشِّرْكُ بالله ﷻ، وتوجُّهُ القلب بعبوديَّته إلى غير فاطِرِهِ وخالِقِهِ الذي يَملِك النفع والضُّرَّ، وله كل شيء.

وقد ضرَبَ الله تعالى مثَلَ هؤلاء بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ ـ ٤٣].

٢ ـ ارتكاب المعاصي، وتعاطي المحرمات:

فجميع المعاصي مفسدة للقلب، وكل ما حرَّم الله ﷻ إذا تعاطاه العبد، مِن نَظَر، أو سَمَاع، أو أكل، أو غير ذلك، فإنه يفسُدُ به قلبه.

---

(١) «العبودية» (ص ٨٧ ـ ٨٨).

قال مكحول: «أرقُّ الناس قلوبًا، أقلُّهم ذنوبًا»[١].

وقال ابن المبارك[٢]:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وهكذا اللَّغْوُ في المَجالِس، والإغراق في الدنيا، والإكثار مِن ارتياد أماكن اللهو؛ كأنْ يكون الإنسان مِن أوَّل نهاره إلى آخره في الأسواق؛ فإنَّ ذلك يؤثِّرُ على قلبه، فيحتاجُ إلى صَقْلِه، وكيف يصقُلُ قلبه، وهو بمجرَّدِ أن يصلِّيَ ينصرِفُ مباشَرةً بعد السلام، ولا يتمهَّلْ ليسمع كلمةً تنفعُهُ أو موعظةً تُرشِدُه؟! فمتى يَنصلِحُ قلب هذا الإنسان؟! أينصَلِحُ في السوق، أو في المَتجَرِ، أو عند مشاهَدة القنوات؟!

وقد قال إبراهيم بن أَدْهَمَ: «كَثْرةُ النَّظَر إلى الباطل تَذْهَب بمعرِفة الحقِّ مِن القلب»[٣].

٣ ـ الفضول مِن كلِّ شيء:

الفضولُ مِن الأكل والشرب، والنوم والكلام، والمخالَطة والمجالَسة، والضحك.

فالذي يأكل كثيرًا يَقْسُو قلبه، والذي ينام كثيرًا يتبلَّد قلبه، وتحصُلُ له الغفلة، والذي يَضحَكُ كثيرًا يموت قلبه، والذي ينظُرُ كثيرًا فيما يَحِلُّ وما لا يَحِلّ، لا تَسأَلْ عن شرودِ قلبِهِ ومعاناته، وهكذا في كثرة المخالَطة؛ لأنَّ المخالَطة ـ كما ذكر ابن القيم[٤] ـ لِقَاح، وإنما يُحتَاجُ إليها لشَحْذِ النَّفْس،

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٨٠).
(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٧٧).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٢).
(٤) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/٨٢٠ ـ ٨٢٣).

وتجديد العزيمة، ودَفْع السآمة، والتقاط أطايب الكلام، وأمَّا الإكثار من ذلك، فإنه يضُرُّ ولا ينفع.

فكل شيء من هذه الأشياء إذا أكثَرْتَ منه ضرَّك، إلّا العبادة؛ فكلما أكثَرْتَ منها، زاد ذلك في صلاح قلبك.

يقول الفضيل بن عِيَاض: «خَصْلتانِ تقسِّيانِ القلب: كَثْرةُ الكلام، وكَثْرةُ الأكل»[١].

«..والذِّهْنُ الصحيح أشرف من تبديدِهِ وتعطيلِهِ بالقَدْرِ الحقيرِ من طعام يَؤُولُ أمرُه إلى ما قد عُلِم، ولو لم يكنْ مِن آفات كثرة الطعام والشراب إلّا الحاجةُ إلى كثرةِ دخول الخَلَاء، لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يَصُونَ نَفْسَهُ عنه. ومن رام الفلاحَ في العلمِ وتحصيلَ البُغْيةِ منه، مع كثرة الأكل والشرب والنوم، فقد رام مستحيلًا في العادة»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/٤١٥).

(٢) «تذكرة السامع والمتكلِّم، في أدب العالم والمتعلِّم» (ص ٧٤).

أَحْوَالُ القَلْبِ

قَسْوة القلب ومَرَضُه:

قال مالك بن دِينار: «إنَّ لله تعالى عقوباتٍ؛ فتعاهَدُوهُنَّ مِن أنفُسِكم في القلب والأبدان: ضَنْكًا في المَعِيشة، ووَهْنًا في العبادة، وسَخْطَةً في الرزق»[1].

علامات قَسْوة القلبِ ومَرَضِه:

قال الغزاليُّ: «اعلم أنَّ كل عُضو من أعضاء البدن خُلِق لفِعْل خاصٍّ به، وإنما مَرَضُه أن يَتَعَذَّر عليه فِعْله الذي خُلِق له، حتى لا يَصدُر منه أصلًا، أو يَصدُر منه مع نَوْع من الاضطراب، فمَرَض القلب أن يَتَعَذَّر عليه فِعْله الخاصّ به الذي خُلِق لأجله؛ وهو العِلْم والحكمة والمعرفة، وحُبّ الله تعالى وعبادته، والتَّلَذّذ بذِكْره، وإيثاره ذلك على كل شَهْوة سواه..

فلو عَرَف كل شيء ولم يعرِف الله ﷻ فكأنه لم يَعْرِف شيئًا، وعلامة المعرفة المحبة، فمن عَرَف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة أن لا يُؤْثِر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات... فمن عنده شيء أَحَبّ إليه من الله فقلبه مريض...

ومرض القلب مما لا يَعْرفه صاحبه، فلذلك يَغْفل عنه، وإن عَرَفه صَعُب عليه الصبر على مَرَارة دوائه؛ فإن دواءه مُخَالفة الشهوات»[2]؛ وهذا شديدٌ على أصحاب الأهواء.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/٣٦٤).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/٦٣).

أنواع القلوبِ مِن حيثُ الثباتُ والتردُّدُ في الخير والشر:

قال الغزاليُّ: «اعلم أن القلوب في الثبات على الخير والشَّرِّ والتردُّد بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قَلْبٌ عُمِّرَ بالتقوى، وطُهِّرَ من خبائث الأخلاق، فتَنقدِح فيه خواطر الخير؛ فعند ذلك يمدّه الله بجنود لا تُرَى، ويهديه إلى خيرات أخرى.

القلب الثاني: القلب المخذول، المشحُون بالهوى، المُدَنَّس بالأخلاق المذمومة والخبائث، فيَقْوى سلطان الشيطان لاتِّساع مكانه بسبب انتشار الهوى، ويضعُف سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بدُخَان الهوى، حتى تَنْطَفِئ أنواره، فيصير كالعين التي ملأ الدُخَان أجفانها، لا يُمكِنها النَّظَر، ولا يؤثِّر فيه زَجْرٌ ولا وَعْظ.

القلب الثالث: قَلْب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشَرّ، فيَلْحَقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير.. فلا يزال يَتَرَدَّد بين الجندين مُتَجَاذَبًا بين الحزبين إلى أن يَغْلِب على القلب ما هو أولى به»(١).

أنواع القلوب بالنَّظَر إلى ما يقوم بها مِن إيمان أو كُفْر أو نفاق:

عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن حُذَيْفة؛ قال: «القلوب أربعة: قَلْبٌ أَغلَف؛ فذلك قلب الكافر، وقلبٌ مُصْفَح؛ فذلك قلب المنافق، وقلبٌ أَجْرَد، فيه سِرَاجٌ يُزْهِر؛ فذاك قلب المؤمن، وقلبٌ فيه نفاق وإيمان؛ فمثَلُ الإيمان كمثَلِ شجرة يمُدُّها ماء طيب، ومثَلُ النِّفَاقِ مثَلُ القُرْحة يمُدُّها قَيْحٌ ودَم؛ فأيُّهما غَلَب عليه غَلَب»(٢).

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/٤٦ ـ ٤٧) بتصرف واختصار.

(٢) المصدر السابق (١/٢٧٦).

أحوال القلب سِتَّة:

قال أبو بكر الورَّاق: «للقلب سِتَّةُ أشياء: حياةٌ وموت، وصِحَّة وسَقَم، ويَقَظة ونوم؛ فحياته: الهدى، وموته: الضلالة، وصِحَّتُهُ: الطهارة والصفاء، وعِلَّتُهُ: الكُدُورة والعَلَاقة، ويَقَظته: الذِّكْر، ونَوْمه: الغفلة؛ ولكل واحد من ذلك علامة؛ فعلامة الحياة: الرغبة والرهبة والعمل بها، والميت: بخلاف ذلك، وعلامة الصِّحَّة: اللذة، والسَّقَمُ: بخلاف ذلك، وعلامة اليقظة: السمع والبصر، والنائم: بخلاف ذلك»(١).

علاقة القلب بالجَسَد:

عن سَلْمان رضي الله عنه، قال: «مثَلُ القلب والجَسَد مثَلُ أعمى ومُقعَد، قال المُقعَد: إني أرى ثمرة ولا أستطيع أن أقوم إليها فاحمِلْني، فحَمَلَه، فأكَلَ وأطعَمَه»(٢).

قوَّة المؤمِن في قلبه:

قال شُمَيْط: «إن الله عز وجل جعَلَ قوَّة المؤمن في قلبه، ولم يجعلها في أعضائه؛ أَلَا تَرَوْنَ أن الشيخ يكون ضعيفًا يصوم الهواجر، ويقوم الليل، والشابَّ يعجز عن ذلك؟!»(٣).

* * *

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١٠/٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) المصدر السابق (١/٢٠٥).

(٣) المصدر السابق (٣/١٣٠).

المُرَادُ بِأَعْمَالِ القُلُوب

أعمال القلوب: هي تلك الأعمال التي يكون محلُّها القلب، وأعظَمُها الإيمان بالله ﷻ الذي يكون في القلب منه التصديقُ الانقياديُّ والإقرار؛ هذا بالإضافة إلى المحبَّة التي تقع في قلب العبد لربِّه ومعبوده، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكُّل، والصبر واليقين، والإخبات والإشفاق والخشوع، وما إلى ذلك.

فهذه هي الأعمال القلبيَّة المطلوبة مِن العبد لصلاح قلبه وسلامته؛ وبهذا نَعرِفُ الفرق بينها وبين أعمال الجوارح واللسان؛ فأعمال اللسان: أقواله، وأعمال الجوارح: أفعالها؛ كالركوع، والسجود، وغير ذلك مما يَفعَلُه الإنسان ببدنِه وجوارحه وأعضائه.

***

أَحْكَامُ الأَعْمَالِ القَلْبِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ

أعمال القلوب كأعمال الأبدان مِن هذه الجهة، مع أنَّ أعمال القلوب أشرَف ـ كما سيأتي ـ فالثواب والعقاب فيها آكَد؛ فالعبدُ آثِمٌ متعرِّضٌ للعقوبة إذا اغتاب أحدًا بلسانه؛ وكذلك: إذا نقص من إيمانه الواجب؛ فإنه يتعرَّض للعقوبة، وأما إذا توكَّل على غير الله، أو دعا غير الله، أو خاف غيرَهُ خوفًا لا يصلُحُ إلا لله ﷻ؛ فإنه سيواجِهُ أشد العقوبات إن لم يَتُبْ إلى الله ﷻ.

وهكذا ما يقع في القلب مِن الأعمال القلبيَّة الفاسِدة؛ كالعِشْق المحرَّم، والمحبَّة المحرَّمة، وما يقع في قلبه مِن الشِّرْكِ وسوء الظنِّ بالله ﷻ، أو بإخوانِهِ المؤمنين، وغير ذلك[١].

* * *

(١) انظر: «زاد المعاد» (٤/١٨٥، وما بعدها).

أَهَمِّيَّةُ أَعْمَالِ القُلُوب وَالمُفَاضَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْمَالِ الجَوَارِح(١)

قال ابن القيِّم: «مَن تأمَّل الشريعة في مصادرها ومواردها، عَلِمَ ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، فعمَل القلب هو رُوح العبودية ولُبُّها، فإذا خلا عمل الجوارح منه، كان كالجسد المَوَات بلا روح،... وأعمال القلوب أَفْرَض على العبد من أعمال الجوارح؛ وهل يميِّز المؤمن عن المنافق إلّا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينهما؟!... ولهذا كان الإيمانُ واجبَ القلب على الدوام، والإسلامُ واجبَ الجوارح في بعض الأحيان؛ فمَركَب الإيمان القلب، ومَركَب الإسلام الجوارح... وحَرْف المسألة: أنَّ أعمال الجوارح إنما تكون عبادة بالنيَّة»(٢).

ويمكن تفصيل هذه الجُمْلة ـ في بيان فضل عبادات القلوب وأعمالها ـ مِن وجوه متعدِّدة:

الأوَّل: أن أعمال القلوب أساسُ النجاةِ مِن النار والفَوْزِ بالجنة:

كالتوحيد؛ فهو عبادة قلبيَّة مَحْضة، وعليه قيام الأمر كله، وسلامةُ الصدر للمسلمين عبادة قلبيَّة عظيمة الشأن.

الثاني: أن أعمال القلوبِ سببٌ لنيل المراتِب العالية في الجَنَّة:

فالحُبُّ في الله عبادة قلبيَّة مَحْضة؛ وقد صحَّ مِن حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/١٨٤ ـ ١٨٥)، (٢٦/٢٥)، و«مدارج السالكين» (١/١٠١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/١١٤٦ ـ ١١٤٧).

أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لله جُلَسَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ ـ وَكِلْتَا يَدَيِ الله يَمِينٌ ـ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، وُجُوهُهُمْ مِنْ نُورٍ، لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ وَلَا صِدِّيقِينَ»، قيل: يا رسولَ الله، مَنْ هُمْ؟ قال: «هُمُ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِ الله تَعَالَى»(١).

وهكذا أيضًا: الأخلاق الحسَنة؛ كالحَيَاء والرضا والصبر وغير ذلك مِن الأخلاق الطيِّبة الكاملة؛ وهي من أعمال القلوب؛ فعن أبي الدَّرْداء رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»(٢).

الثالث: أن أعمال القلوب محرِّكةٌ ودافعةٌ لأعمال الجوارح:

فكلَّما عَظُمَ الإيمان والتوحيد، وعَظُمَتْ محبَّة الله في القلب، كان ذلك دافعًا للعبادات الظاهرة.

يقول عُتْبَة الغُلَام: «مَن عرَفَ الله أحبَّه، ومن أحبَّ الله أطاعه»(٣)، فإذا وُجِدَ الإقبال والمحبَّة في قلب العبد، أقبلَتْ جوارحه طوعًا، وهان عليها التعب في الطاعة والعبادة.

الرابع: أنَّ اختلال أعمال القلوب، قد يَهدِم أعمال الجوارح:

ومِن أمثلة ذلك:

١ ـ **الإخلاص**: فإن إخلاص النية لله تعالى عمل قلبي؛ فإذا زال الإخلاص مِن قلب العبد، فوقَعَ في الشرك، أو في النفاق الأكبر، فإن إيمانه يبطُل، وإذا وقع في الرياء، فإن إيمانه يَختَلّ، وعمله الذي خالطه الرياء

---

(١) أخرجه الطبراني (١٢/١٠٤/١٢٦٨٦)، وصحَّحه الألباني بشواهده في «صحيح الترغيب» (٣٠٢٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢)؛ وصحَّحه، وكذا ابن حجر في «الفتح» (١٠/٤٧٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٣٦).

يكون باطلًا؛ فالله طَيِّبٌ لا يقبل إلّا طيِّبًا؛ كما قال الله تبارك وتعالى في الحديث القُدْسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

٢ ـ التواضع: وهو عمَلٌ قَلْبيٌّ يظهر أثره على الجوارح، ويُبطِلُه الكِبْر الذي هو تعاظُمٌ في القلب، يَظهَرُ أثره على جوارح العبد؛ فيدلُّ ظهوره على انتفاء التواضع مِن قلبه، ومعلوم أنَّ الكبر مانعٌ مِن دخول الجنة.

الخامس: أن أعمال القلوب أشَقُّ مِن أعمال الجوارح:

يقول يونس بن عُبَيْد ـ وقد كتَبَ إليه أحد إخوانه يسأله عن مسائل ـ: «أتاني كتابُكَ تسألني أن أكتُبَ إليك بما أنا عليه، وأُخبِرُكَ أنِّي عَرَضْتُ على نفسي أن تُحِبَّ للناس ما تُحِبُّ لها، وتكرَهَ للناس ما تكرَهُ لها؛ فإذا هي مِن ذلك بعيد، ثم عَرَضْتُ عليها مرةً أخرى تركَ ذِكْرِهم إلّا مِن خير؛ فوَجَدتُّ الصومَ في اليومِ الحارِّ الشديدِ الحَرِّ بالهواجرِ بالبَصْرة أيسَرَ عليها مِن ترك ذكرهم»(٢).

وهذا يبيِّن لك: أن عبادات القلوب وأعمالها شاقَّة حتى تُروَّضَ النفوس عليها ابتغاء وجه الله؛ وقد قال أبو سُلَيْمان الداراني: «أفضل الأعمال: خلاف هوى النفس»(٣).

السادس: أن أعمال القلوب أعظَمُ أجرًا ومثوبةً مِن أعمال الجوارح:

فقد كان كثير من السلف يفضِّلون عبادات القلب على الإكثار من عبادة الجوارح، مع عدَم إهمالهم لعبادات الجوارح؛ لأنها تَمُدُّ وتزيد في عبادات القلوب:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٨/٣).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه».

فقد كان أبو الدرداء ﷺ يقول: «تفكُّرُ ساعة خيرٌ مِن قيام ليلة»[١].

وفي هذا المعنى يقول الحسَنُ البصري: «أفضَلُ العبادة: التفكُّر والورَع»[٢].

السابع: أن أعمال القلوب تعظِّم أعمال الجوارح:

قال شُفَيُّ بن ماتِع الأصبَحي: «إن الرَّجُلَيْنِ ليكونان في الصلاة مَناكِبُهما جميعًا، ولَمَا بينهما كما بين السماء والأرض، وإنهما ليكونان في بيتٍ صيامُهُمَا واحد، ولَمَا بين صيامِهما كما بين السماء والأرض»[٣].

ويقول ابن المبارَك: «رُبَّ عمَلٍ صغيرٍ تعظِّمه النيَّة، ورُبَّ عمَلٍ كبيرٍ تصغِّره النيَّة»[٤].

وهذا كما يقال في الطاعات، يقال في المعاصي؛ فقد يعمل رجلٌ معصيةً واحدةً وهو مستهتر، مستخِفّ، متبجِّح، يتباهى بعَمَلها، ويجاهِر بها، وكأنها ذباب جاء على وجهه، فقال به هكذا، وآخر: يَعمَلُها وهو خائف من الله، مُستَحٍ منه، يستشعر أن الله يراه ويراقبه؛ لكنه غُلِبَ في حال ضَعُفَتْ نفسه فيها، ثم لا يَلبَث أن يراجع نفسه؛ فشتان بين هذا وهذا!

فالأوَّل: تهوي به معصيته في دَرَكات الغَيِّ وأوحاله؛ إنْ لم يتدارَكْهُ الله ﷻ بلُطْفه ورحمته.

والآخر: تصغُرُ معصيته وتتضاءل بما قام في قلبه من الخوف والحياء من الله؛ فهو في غاية الوَجَل، وإذا تذكَّرها، خاف وأشفق منها.

فكم من الفرق بين هذا وهذا؟!

---

(١) أخرجه ابن المبارك (٩٤٩)، وأحمد (ص ١٣٩)، كلاهما في «الزهد».
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٣٧).
(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٩٧).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٧٠).

الثامن: أن أعمال القلوب أجمَل أثرًا من أعمال الجوارح، وهي مجمِّلةٌ لها:

فحلاوة الإيمان إنما هي ثمرة لأعمال القلوب، ولقد كان بعض السلف يقول: «مساكينُ أهلُ الدنيا، خرَجُوا من الدنيا وما ذاقوا أطيَبَ ما فيها»، قالوا: وما أطيَبُ ما فيها؟ قال: «محبَّة الله، والأُنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه»(١).

وقال إبراهيم بن أَدهَم: «لو عَلِمَ الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم، لَجَالَدُونا عليه بالسيوف!»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جنةَ الآخرة»(٣).

ومراد إبراهيم بن أَدهَم وشيخ الإسلام: عباداتُ القلوب وأعمالُها؛ من الإخلاص لله تعالى ومحبَّته والإنابة إليه، والاستعانة به والتوكُّل عليه؛ فتلك جَنَّةُ الدنيا، وسرورها ونعيمها.

التاسع: أن أعمال القلوب تقوم في بعض الأحيان مقام أعمال الجوارح:

ومِن أمثلة ذلك: الجهاد في سبيل الله ﷻ؛ كما قال النبي ﷺ: «إن بالمدينة أقواما مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ؛ قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حَبَسَهم العُذر»(٤).

فالنيَّة الصادقة تكون عوضًا عن العمل عند العَجْز عن القيام به؛ وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ سَأَلَ الله الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ الله مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ؛ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»(٥).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٥٤).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٧/٣٧٠).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/٤٥٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (١٩٠٩)؛ من حديث سهل بن حُنَيف رضي الله عنه.

العاشر: أن أعمال القلوب لا حد لها ولا وقت، ومِن ثَمَّ فهي تُضَاعَف بلا حَدّ، بخلاف أعمال الجوارح[١]:

وذلك لأنَّ أعمال الجوارح مهما كَثُرَتْ وعَظُمَتْ، فإنَّ لها وقتًا معلومًا، وحَدًّا محدودًا؛ تفعل فيه وتنتهي إليه.

أما أعمال القلب: فإنها تكون حالًا ملازِمة للعبد في صَحْوِهِ ونومه، وصحَّته ومرضه، وصفائه وكَدَره، وفي جميع أموره؛ ولهذا تُضاعَف أضعافًا مضاعفة.

وهذا يدل على سموِّ الأعمال القلبية على أعمال الجوارح.

الحادي عشَرَ: أن أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح فرع عنها:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالًا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان»[٢].

يقول الشافعي: «إذا ثبَتَ الأصل في القلب، أخبَرَ اللسان عن الفروع»[٣].

* * *

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢٢٨/٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٥٥/١٠). والمراد بكمال الإيمان من أعمال الجوارح: بعضُ آحادِها، لا جِنْسُها؛ فإن جنس أعمال الجوارح أصل في الإيمان الصحيح المقبول عند الله تعالى؛ كما أن بعض آحاد أعمال الجوارح هو أيضًا أصل في الإيمان؛ كنطق الشهادتَيْن، والصلاة، ونحو ذلك، وأكثَرُ آحاد أعمال الجوارح فَرْع، وهي من الكمال الواجب أوالمستحَبّ، ومراد شيخ الإسلام: أن الأصل العامَّ: أن ما في القلب أصل، وما في الجوارح فرع، والله أعلم.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٢٠/٩).

تَفَاوُتُ النَّاسِ فِي أَعْمَالِ القُلُوبِ

الناس في هذا الباب على ثلاث دَرَجات:

١ ـ الظالم لنَفْسِه؛ وهو مَن ترَكَ الواجب، أو فعَلَ المحرَّم.

٢ ـ المقتصِد؛ وهو مَن أتى بالواجب، وترَكَ المحرَّم فحَسْبُ.

٣ ـ السابق بالخيرات؛ وهو مَن ترَكَ المحرَّم والمكروه، وفعَلَ الواجب والمستحَبّ.

فكلُّ مَن كان معه إيمان حقيقي، فلا بد أن يكون معه مِن هذه الأعمال القلبيَّة بقَدْر إيمانه، وإنْ كان له ذنوب، وأمَّا مَن ترَكَها بالكلية، فهو إمَّا كافر أو منافق؛ كالذي يترُكُ أعمال الجوارح بالكليَّة؛ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة[١].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/١٨٤ ـ ١٨٥).

لُزُومُ العِنَايَةِ بِأَعْمَالِ القُلُوبِ وَأَعْمَالِ الجَوَارِحِ وَأَحْوَالُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ

والناس في ذلك على ثلاثة أحوال[١]:

الأولى: مَن اشتغَلُوا بالأمور القلبيَّة، وإصلاح القلب، ومراقبة الخَطَرات، وقصَّروا في الأعمال الظاهرة؛ وهذا غلط؛ لأن الدِّين لا قوام له إلّا بالشريعة؛ إذ أعمال القلوب لا تتم إلّا بأعمال الأبدان[٢].

الثانية: مَن اشتغَلُوا بالأعمال الظاهرة؛ كالصيام والصلاة، وتركوا إصلاح القلوب؛ فامتلأت قلوبهم بالأحقاد، وحُبِّ التنافس على الرياسات؛ حتى قست تلك القلوب، وصار فيها مِن تعظيم المخلوقين، أو الخوفِ منهم ما لا يُقادَرُ قَدْرُه.

الثالثة: وهم الوسَط، وهم الذين اعتنَوْا بالأمور القلبية وأعمال الجوارح معًا؛ فهذا سبيل المرسَلِين عليهم الصلاة والسلام.

فالواجب أن يربي الإنسان نفسه وغيره على العناية بأعمال القلوب، مع العناية بالشرائع الظاهرة؛ لأن الصلاح والفلاح في الدنيا الآخرة مرتهن بذلك، متوقِّف عليه.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «الفوائد» (ص ١٢٤)، و«إغاثة اللهفان» (١/٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٥).

التَّلازُمُ بَيْنَ أَعْمَالِ القُلُوبِ وَأَعْمَالِ الجَوَارِحِ(١)

لمَّا كان القلب مَلِكًا لسائر الأعضاء، كان صلاحُهُ سببًا لصلاحها ولا بُدَّ، وكما أن فساد أعمال العبد تُنبِئُ عن فساد في قلبه، فكذلك أيضًا تكون مؤثِّرةً على قلبه؛ فإذا تكاثَرَتِ الذنوب، نتَجَ عن ذلك طمسُ القلب، وتكوَّنت عليه طبقةٌ تغطِّيه وتغلِّفه، يقال لها: الرَّانُ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]،

فـ «الظاهر والباطن متلازِمان، لا يكون الظاهِرُ مستقيمًا إلّا مع استقامة الباطن، وإذا استقام الباطن، فلا بد أن يستقيم الظاهر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(٢)»(٣).

«فإن ما في القلب من النُّور والظُّلْمة، والخير والشر، يسري كثيرًا إلى الوجه والعَيْن، وهما أعظم الأشياء ارتباطًا بالقلب؛ ولهذا يُرْوَى عن عثمان أو غيره؛ أنه قال: «ما أَسَرَّ أحدٌ بسريرةٍ إلّا أبداها الله على صَفَحاتِ وَجْهِه، وفَلَتاتِ لسانِه»(٤).

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٩٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٨/٢٧٢).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٠)؛ في «الزهد»، والبيهقي في «الشُّعَب» (٦٥٤٢)، وقال: «هذا هو الصحيح عن عثمان».

هذا آخر ما قصدنا إيراده مِن المُقَدِّمات المُتَعَلِّقة بالقلب، ونذكر بعدها الأعمال القلبية.

❊ ❊ ❊

الأَخلَاص

تَوْطِئَة

لا بد للأفعال الإراديَّة من محرِّكات تدعو الإنسان إلى فِعْلها وتحقيقها، وهذه المحرِّكات مِن حيث هي بواعثُ وتصوُّراتٌ، تكون علَّة فاعلة تطلُبُ مرادها، ومِن حيث إنها شيء خارجي يسعى الإنسان إلى تحقيقه ونَيْلِه، تُصبح هدفًا وغاية.

ومن هنا: فإنه لا بد للمسلم أن يحدِّد ويوحِّد غايته، حينما يَهمُّ بعمل مما يتقرَّب به إلى الله؛ بحيث تكون غايته من عمله طَلَبَ مرضاة الله تعالى وحده؛ وهذا هو الإخلاص.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى الإِخْلَاصِ وَحَقِيقَتُهُ

الإخلاص في اللغة: مأخوذ مِن الخَلَاص؛ وهو الصفاء والنقاء؛ تقول: «خَلَصَ الشيءُ يخلُصُ خُلُوصًا وخَلَاصًا، فهو خالص: إذا صفا وزال عنه ما يَشُوبُه».

وأخلَصَ لله دِينَهُ: أمحَضَهُ، وقصَدَ وجهَه، وترَكَ الرياء.

وأما الإخلاص في معناه الشرعي: فعبارات العلماء فيه متقارِبة:

فقيل: هو إفرادُ الحقِّ سبحانه بالقصد والطاعة.

وقال سَهْل التُّسْتَرِي: «نَظَرَ الأكياسُ في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حَرَكاته وسُكُونه في سرِّه وعلانِيَتِهِ لله وحده لا شريك له، لا يمازِجُهُ شيء: لا نَفْسٌ، ولا هوًى، ولا دُنيا»[(١)].

وعليه: فالإخلاص: هو توحيد الإرادة والقَصْد؛ حتى يكون الله هو مرادَكَ وَحْدَه؛ فلا تَلْتفِتْ إلى شيء معه سبحانه[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الصغرى» (٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٩٣).

أَهَمِّيَّةُ الإِخْلَاصِ وَمَنْزِلَتُه

وهذا يتبيَّن من وجوه مختلِفة:

أولًا: أن الإخلاص هو حقيقة الإسلام الذي بعَثَ الله ﷻ به المرسَلين ﵈:

كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ فقال: «إخلاص الدِّين لله هو الدِّين الذي لا يَقْبَلُ الله سواه؛ فهو الذي بعَثَ به الأوَّلين والآخِرين من الرسل، وأنزَلَ به جميع الكتب، واتفَقَ عليه أئمَّة أهل الإيمان؛ وهذا هو خُلَاصةُ الدعوة النبويَّة، وهو قُطْبُ القرآنِ الذي تَدُورُ عليه رَحَاه»[1].

ثانيًا: أنَّ الإخلاص هو الفِطْرة التي فطَرَ الله الناسَ عليها، وبه قِوَامُ الأمَّة[2]:

فإنَّ الله تعالى لم يَفطُرِ الناس على الرياء، ولا المقاصِد السيئة، وإنما فطَرَهم على التوحيد الذي هو إخلاص العمل لله، مع إفراد القَصْد إليه؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾... الآية [البيِّنة: ٥]، وقال سبحانه في الحديث القُدْسي: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ»[3].

ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب ﷺ مَرَّ على مُعَاذ بن جَبَل، فسأله: «ما قِوَامُ هذه الأمَّة؟ قال مُعَاذ: ثلاثٌ، وهُنَّ المُنجِيات: الإخلاص؛ وهو

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٩).

(٢) انظر: «درء التعارض» (٨/٣٧٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)؛ ضمن حديث طويل عن عِيَاض بن حِمَار ﷺ.

الفِطْرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. والصلاة؛ وهي المِلَّة. والطاعة؛ وهي العِصْمة؛ فقال عمر رضى الله عنه: صدَقْتَ»[١].

ويقول ابن أبي جَمْرة ـ وهو أحد شرَّاح «الصحيح» ـ: «وَدِدتُّ أنه لو كان من الفقهاء مَن ليس له شُغْلٌ إلّا أن يعلِّمَ الناس مَقاصِدَهم في أعمالهم، ويَقْعُدَ إلى التدريس في أعمال النيات ليس إلَّا؛ فإنه ما أُتِيَ على كثير من الناس إلّا من تضييع النيَّات»[٢].

ثالثًا: أن الإخلاص هو رُوحُ العمل:

فعمَلٌ لا إخلاص فيه، كجَسَد لا رُوح فيه؛ فالإخلاص من العمَل بمنزِلة الرُّوح من الجسد.

يقول ابن الجوزي: «الإخلاص: مِسْكٌ مَصُونٌ في مَسْكِ القلب، ينبِّهُ رِيحُهُ على حامِلِه؛ العمل صورة، والإخلاص رُوح؛ إذا لم تُخْلِصْ، فلا تَتْعَب، لو قَطَعْت سائر المنازل ـ في الحج ـ لم تكن حاجًّا إلّا بشهود المَوْقِف»[٣].

وهو يريد بهذا: أن الإخلاص محفوظ في هذا الوِعَاءِ الذي هو القَلْب، وأن مَنزِلةَ الإخلاص مِن الأعمال كمَنْزِلةِ الوقوف بعَرَفةَ مِن أعمال الحج؛ فلو أنَّ الإنسان أَتَمَّ أعمال الحج، ولكنه لم يَقِفْ بعَرَفة، لم يَصِحَّ حجُّه؛ كما هو معلوم.

وبهذا نَعلَمُ: أن الإخلاص هو عمودُ الأمر وذِرْوةُ سَنَامه؛ لأن العامل بدون إخلاص كَادِحٌ مُتْعِب نفسه، لا أجر له، مع ما عليه من الإثم والعقوبة؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٨/٤٩٣ ـ ٤٩٤).

(٢) «المدخل» لابن الحاج العبدري (١/٣).

(٣) «اللطف في الوعظ» (ص ٢٧). وانظر: «المدهش» (ص ٤٣٤).

[الفرقان: ٢٣]، ويقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ولم يَقُلْ: ليبلوكم أيُّكم أكثر عملًا؛ فليست العِبْرة بالكثرة، إنما العِبْرة بالصواب مع حُسْن القصد، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١).

قال الفُضَيْل بن عِيَاض في قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]؛ قال: «أَخْلَصُهُ وأَصوَبُهُ؛ قال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا، لم يُقْبَلْ؛ حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السُّنَّة»(٢).

رابعًا: أنه لا سبيل إلى الخلاص والانفكاك من التَّبِعات إلّا بالإخلاص:

فالإنسان يُحاسَب على أعماله، كما يُحاسَب على نيَّاته وإراداته، وإذا نُصِبَتِ الموازين، ونُشِرَتِ الصحف، أبصَرَ العبد عند ذلك عمله، وعرَفَ حاله ومنزلته عند الله ﷻ.

يقول ابن القيِّم: «قال بعض السلف: ما من فِعْلةٍ وإن صَغُرَتْ إلّا يُنشَر لها ديوانان: لِمَ؟ وكَيْفَ؟ أي: لم فَعَلْتَ؟ وكيف فَعَلْتَ؟

فالأول: سؤال عن عِلَّةِ الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حَظٌّ عاجل من حظوظ العامل، وغرَضٌ من أغراض الدنيا؛ من محبَّة المدح من الناس، أو خوف ذَمِّهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دَفْع مكروه عاجل؟! أم الباعث على الفِعْل القيامُ بحَقِّ العبوديَّة، وطلَبُ التودُّد والتقرُّب إلى الرب سبحانه وتعالى، وابتغاءُ الوسيلة إليه؟! ومحلُّ هذا السؤال: أنه هل كان عليك أن تَفعَلَ هذا الفعل لمولاك، أم فعلتَهُ لحَظِّكَ وهواك؟!

والثاني: سؤال عن متابَعةِ الرسول ﷺ في ذلك التعبُّد؛ أي: هل كان ذلك العمل مما شَرَعْتُهُ لك على لسان رسولي، أم كان عملًا لم أَشرَعْهُ ولم أَرْضَهُ؟!

---

(١) أخرجه البخاري (١)؛ واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧)؛ من حديث عمر ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٢٢).

فالأوَّل: سؤال عن الإخلاص، والثاني: عن المتابَعة؛ فإن الله سبحانه لا يَقبَلُ عملًا إلّا بهما؛ فطريق التخلُّص من السؤال الأوَّل: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلُّص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابَعة.

وسلامة القلب: مِن إرادةٍ تعارِضُ الإخلاص، وهوًى يعارِضُ الاتِّباع؛ فهذه حقيقة سلامة القلب التي ضَمِنَتْ له النجاة والسعادة»[١].

* * *

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٤٢ ـ ٤٣).

الإخلَاصُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

ورَدَ الإخلاصُ في كتاب الله تعالى في مواطِنَ كثيرةٍ:

فتارَةً: يأمُرُ الله ﷻ به؛ كقولِه: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وتارَةً: يُخبِرُ أنه دعوةُ الله لخلقه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وتارَةً: يُخبِرُ أنَّ الجنةَ لا تصلُحُ إلّا لأهلِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلِصِينَ(١) * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٤٠ ـ ٤٣].

وتارَةً: يُخبِرُ أنه المَنْجاةُ مِن شرِّ الشيطانِ وشركِهِ وغَيِّه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الواردةِ في كتاب الله تعالى.

وأمَّا ما ورَدَ في السُّنَّةِ، فكثيرٌ أيضًا، ومِن ذلك:

حديثُ أبي أُمامةَ الباهليِّ ؓ؛ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: أرأَيْتَ رَجُلًا غزا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ»... ثُمَّ قال: «إِنَّ الله لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»(٢).

---

(١) بكسر اللام، وهي قراءة متواترة، قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر. ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص ٢٤٦).

(٢) أخرجه النسائي (٣١٤٠)، وقال ابن رجب في «شرح الأربعين»: «إسناده جيِّد».

وعن أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[(١)]؛ فالأعمالُ التي تختلِطُ فيها الإراداتُ، ويريدُ أصحابُها وجهَ الله وغيرَه، ويُشرِكُون في قصدهم بين الله وخلقِه؛ فهذه أعمالٌ اللهُ غنيٌّ عنها، وسيُحبِطها يومَ القيامة، ولن يُقِيمَ لها وزنًا.

وحديثُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...»[(٢)] شاهدٌ واضحٌ في الدلالة على هذا المعنى.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) تقدم تخريجه.

مَرَاتِبُ الإِخْلَاصِ(١)

إنَّ العمل الذي يكون خالصًا مقبولًا على مرتبتَيْنِ، إحداهما أعلى مِن الأخرى:

المرتبةُ الأولى: أن يتمحَّضَ القصدُ لإرادةِ وجه الله ﷻ وما عنده من الثواب والجزاء؛ فلا يَشُوبُهُ شيءٌ آخَرُ وإن كان مباحًا؛ فهو يجاهِدُ يريدُ ما عند الله فحَسْبُ، لا يريدُ غنيمةً، فضلًا عن المقاصدِ السيئة؛ كالرياء والسُّمْعة؛ وهو بصومِهِ يريد ما عند الله ﷻ، ولا يلتفِتُ إلى أمرٍ يجوزُ الالتفات إليه؛ كتخفيف الوزن، أو تحسين صِحَّة البَدَن، أو غير ذلك، فهذا أعلى المراتب.

ولا يَبْعُد أن يُلحق بهذه المرتبة ما كانت تَوَابِعُه مَقْصُودة للشارع، كالاستشفاء بالقرآن من عِلَل القلوب والأبدان، ومُلاحَظَة ما للأذكار المُتنوعة من الآثار التي نص الشارع عليها، كأذكار الصباح والمساء، وعند النوم، وكذا نزول المنزل، إلى غير ذلك مما يكون سببًا لِحِفْظِه من الشياطين والجن، وغير ذلك مِن الآفات.

وآثار هذا النوع على ثلاثة أقسام:

---

(١) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٣٨٤/٤)، و«قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١٥١/١)، و«الفروق» للقرافي (٢٢/٣، ٣٦)، و«الموافقات» (١٣٩/٣) فما بعدها، و«مقاصد المكلفين» (ص٤٥٢) فما بعدها.

الأول: ما يكون في الآخرة، مِن الأجر، ورفع الدرجات، وتكفير السيئات، وما يُغْرَسُ في الجنة، إلى غير ذلك، فَطَلَب هذا لا أَثَر له في الإخلاص.

الثاني: ما يكون في الدنيا مما يكون عَوْنًا على استقامة العبد، وصِحَّة سَيْرِه إلى مولاه، كحِفْظِه مِن الشيطان وإغوائه، ونحو ذلك، فهذا كالذي قبله.

الثالث: ما يكون في الدنيا، كحِفْظِه مِن الآفات وما يَضُرّه ويُؤْذِيه في بدنه أو ماله، ونحو ذلك مما نص عليه الشارع ـ بحيث لا يكون القصد منحصرًا فيه، وكذلك لا يكون هو مقصده الأول؛ وإنما على سبيل التبع ـ فمُلاحظة ذلك لا يُخِل بالإخلاص إن شاء الله، مع استحضار نية العبادة. والله أعلم.

المرتبةُ الثانية: أن يَقصِدَ العبدُ بالعملِ وجهَ الله ﷻ، ولكنه يلتفِتُ إلى معنًى يجوزُ الالتفات إليه ـ على سبيل التبع ـ؛ كالذي يَحُجُّ يريدُ وجهَ الله، ويريدُ أيضًا التجارة؛ فهذا لا مانعَ منه؛ فالله ﷻ يقولُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]؛ وهي التجارةُ في مواسم الحجّ، وكالذي يصومُ لله، وليَصِحَّ بَدَنُه، ـ وهذا غير الرياء والسُّمْعة ـ فهذا أمرٌ يجوزُ الالتفاتُ إليه، ولكن مَن التفَتَ إليه أو إلى ما يُشبِهُهُ؛ فهو في مرتبة دون مَن لم يلتفِتْ إلى شيءٍ غيرِ الله ﷻ.

وقد يدل لذلك قول النبي ﷺ: «ما مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو في سبيل الله فَيُصِيبُون الغنيمة، إلّا تَعَجَّلُوا ثُلثي أجرهم مِن الآخرة، ويبقى لهم الثُّلُث، وإن لم يُصيبوا غنيمه، تَمَّ لهم أجرهم»(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٦). وقد يقال: بأن الحديث لا تعرض فيه للمقاصد، وإنما ذكر ما يتعجلون من العرض الدنيوي، وقد يكون بعضهم ممن تمحَّضت نيته للعبادة فحسب، وقد يجاب عن هذا الإيراد بأن أخذه للغنيمة دليل على طلبه لها ورغبته فيها، والله أعلم.

دِقَّةُ الإِخْلَاصِ

الإخلاصُ أمرٌ شاقٌ على النفسِ؛ ويحتاجُ العبدُ في معالجتِهِ إلى مجاهدةٍ عظيمة؛ مِن مراقَبةٍ للخَطَرات والحَرَكات، وكلٍّ ما يَرِدُ على قلبه، ويصدُرُ منه، حتى يَتِمَّ له أمرُه، فإذا تَمَّ، كان الإخلاصُ أفضلَ شيءٍ لديه، وأحبَّ شيءٍ إليه.

يقول أُوَيْسٌ القَرَنيّ: «إذا قُمْتَ، فادْعُ الله أن يُصلِحَ لك قلبَكَ ونِيَّتك؛ فلن تُعالِجَ شيئًا أشدَّ عليك منهما»[1].

وقال يوسُفُ بنُ أَسْباطٍ: «تخليصُ النيةِ مِن فسادِها أشدُّ على العامِلِينَ من طول الاجتهاد»[2].

ومما يدل على هذا المعنى ما سيأتي من الأحاديث الدالة على أن الشرك أخفى مِن دبيب النَّمل، وأن الشرك الأصغر هو أَخْوف ما تَخَوَّفَه النبي ﷺ على أُمّته، وأن الشرك الخَفِي أَخْوف عنده على أُمَّته من المسيح الدَّجَال، إلى غير ذلك ما يُؤَكِّد هذا المعنى.

فلماذا كانت هذه المشقَّةُ في أصل العبادة، وفي سِرِّ القَبُول؟! ولماذا احتاج إلى هذه المجاهَدة الكبيرة الطويلة حتى آخِرِ اللحظات؛ حينما يفارِقُ الإنسانُ هذه الحياة؟!

---

(١) «صفة الصفوة» (٥٥/٣).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٩٤٦).

أسبابُ ما في الإخلاص من مَشَقَّة، وشيءٌ من طرقِ المُعَالَجة لذلك:

كلُّ ذلك كان لأسبابٍ منها:

أولًا: أنَّ الإخلاص لا نصيبَ للنفس فيه[1]؛ فكثيرٌ من الأعمال التي للنفس فيها حَظٌّ عاجلٌ قد لا تضطرِبُ على الإنسان فيه نيَّته، أما الإخلاصُ: فالإنسانُ يجرِّدُ فيه نفسَهُ في قصدها مِن كلِّ إرادة والتفات؛ فلا يلتفِتُ إلى حظٍّ عاجلٍ مِن حظوظِ الدنيا مما للنفسِ إليه مَطْمَع؛ كتعظيمِ الناسِ له، والثناءِ عليه، وغيرِ ذلك؛ ومِن ثَمَّ: كان الإخلاصُ شَاقًّا على النفسِ؛ لتنزُّهها عن إرادةِ ما لها حظٌّ فيه؛ في جملةِ أعمالها، واختلافِ أحوالها.

ثانيًا: أنَّ الخواطِرَ التي تَرِدُ على القلب لا تتوقَّف؛ فالقلبُ ـ كما تقدَّم ـ إنما سُمِّيَ قَلْبًا؛ لكثرةِ تقلُّبه، وقيل له: الفؤادُ أيضًا؛ لكثرةِ تفؤُّده؛ فهو متوقِّدٌ بالوارداتِ والخواطر.

فلمَّا كان الإخلاصُ بتلك المَثَابةِ، شَقَّ على العبد أن يلاحِظَهُ في كلِّ حَرَكاته، وأن يَضبِطَهُ في كلِّ لَحَظاتِه.

ولهذا قال سفيان الثوريُّ: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نيَّتي؛ إنَّها تَقلَّبُ عليَّ»[2].

وقال بعضُهم: «اثنتانِ أنا أُعالِجُهما منذ ثلاثينَ سنةً: تَرْكُ الطَّمَع فيما بيني وبين الناس، وإخلاصُ العمل للهِ ﷻ»[3].

ثالثًا: ما جُبِلَ عليه الإنسانُ من حبِّ لذةِ الرياسة والشهرة، والمنزلةِ في قلوب الخلق، والمَحمَدةِ في نفوسهم.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٩٢).

(٢) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (ص٦٩٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٧١).

فهي لذةٌ تُبذَلُ في سبيلها الأموالُ والمُهَج؛ فربَّما أنفَقَ الرجلُ ماله ليقال: جَوَادٌ، وربما قاتل الأبطالَ ونازل البُسَلاءَ ليقالَ: شُجَاعٌ.

وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى تلك الفتنةِ العظيمةِ مبيِّنًا أثرها على دِين العبد بقوله: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[1]، فذكَرَ حُبَّ الرياسة، وطلَبِ المَحمَدة، والحرص على المال.

وقال سفيانُ الثوريُّ: «ما رأيتُ الزهدَ في شيءٍ أقلَّ منه في الرياسة؛ ترى الرجلَ يزهدُ في المطعم والمشرب، والمال والثياب؛ فإذا نُوزِعَ في الرياسة، حامى عليها وعادى»[2].

وقال أبو العَتَاهِيَة[3]:

حُبُّ الرِّيَاسَةِ أَطْغَى مَنْ عَلَى الأَرْضِ ... حَتَّى بَغَى بَعْضُهُمْ مِنْهَا عَلَى بَعْضِ

إِنَّ القُنُوعَ لَزَادٌ إِنْ رَضِيتَ بِهِ ... كُنْتَ الغَنِيَّ وَكُنْتَ الْوَافِرَ العِرْضِ

فهذه الأمورُ التي جُبِلْنا عليها تؤثِّر على الإخلاص؛ فيكونُ شديدًا عسيرًا على النفس؛ ورَحِمَ الله أبا سليمانَ الدَّارَانيَّ إذ يقول: «أفضلُ الأعمالِ خلافُ هوى النفس»[4].

والمقصود مِن التنبيه على ذلك: أن يُجاهِد المؤمن نفسه ليكون عمله خالصًا لله تعالى، وليس المُراد أن الإخلاص عزيز المَرَام، فإن الله جعله شرطًا لقبول الأعمال، ولا يكون ذلك إلّا فيما يكون مقدورًا للمُكلفين وفي وُسْعهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)؛ من حديث كعب بن مالك ﷺ، وصحَّحه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٩).

(٣) «ديوان أبي العتاهية» (ص ٢٤٢).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٤/١٢٧).

ثَمَرَاتُ الإِخْلَاصِ وَآثَارُهُ السُّلُوكِيَّة

وهذه الآثارُ على قسمَيْن:

- آثارٌ معجَّلةٌ تحصُلُ للعبد في الدنيا.
- وآثارٌ مؤجَّلةٌ يجدُها في آخرتِه.

❊ ❊ ❊

الآثارُ المُعجَّلةُ للإخلاصِ

وهي كثيرةٌ جِدًّا، ومنها:

أولًا: أنَّ الإخلاصَ هو أصلُ القَبُول عند الله ﷻ:

بحيثُ إنه إذا ألبِسَهُ أيَّ عملٍ - ولو كان مِن المباحات والعادات - تحوَّل إلى عبادةٍ وقُرْبة، فإذا قام العبدُ بشيءٍ من الأمورِ المباحة؛ كالنوم، أو الأكل، أو الشرب، أو المَشْي، أو غير ذلك، يريدُ به التقرُّب إلى الله ﷻ؛ كأن يقوِّيَ بدنَهُ ليُجاهِدَ في سبيلِ الله، أو ينامَ في النهارِ ليقومَ مِن الليل، أو يأكُلَ ليتقوَّى على الطاعة -: صارت تلك المباحاتُ في حقِّه قُرُبات؛ وعلى هذا كان السلف.

قال زُبَيْدٌ اليامِيّ: «يَسُرُّني أن يكونَ لي في كلِّ شيءٍ نيةٌ حتى في الأكل والنوم»(١)، وسيأتي في ذكر حال السلف ما يتعلَّقُ بهذا المعنى.

وهذا الأثر هو أعظم ثمرات الإخلاص وأجلُّها، وهو روح القُرْبى، ولباس التقوى.

ثانيًا: إلقاءُ القَبُولِ لصاحبِهِ في الأرض، مع وفور المَهابة في قلوب الخَلْق:

قال ابن القيِّم: «وقد جرَتْ عادةُ الله التي لا تبدَّلُ، وسنتُهُ التي لا تحوَّلُ: أن يُلبِسَ المخلِصَ - مِن المهابة والنُّور والمحبَّة، في قلوب الخَلْق

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٩٥).

وإقبال قلوبهم إليه ـ ما هو بحَسَبِ إخلاصه ونيَّته ومعامَلته لربِّه، ويُلبِسَ المرائِيَ اللابسَ ثَوْبَيِ الزُّور ـ مِن المقت والمهانة والبِغْضة ـ ما هو اللائقُ به؛ فالمخلِصُ: له المهابةُ والمحبَّة، وللآخرِ: المقتُ والبغضاء»(١).

فقد قيل لحَمْدون بن أحمد القَصَّار: «ما بال كلام السلف أنفع مِن كلامنا؟ قال: لأنهم تكلَّموا لِعِزِّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلَّم لعِزِّ النفس، وطلب الدنيا، وقَبُول الخلق»(٢).

وعن ابن السَّمَّاك؛ قال: «قال ذَرٌّ لأبيه عمر بن ذَرٍّ: ما بالُ المتكلِّمين يتكلَّمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلَّمْتَ يا أبتِ، سمعتُ البكاء مِن ههنا وههنا؟! فقال: يا بُنَيَّ! ليستِ النائحةُ المستأجَرَةُ، كالنائحةِ الثَّكْلَى»(٣).

ثالثًا: أنَّ الإخلاصَ هو الطريقُ إلى مَحَبَّةِ الله ﷻ ونصرِهِ ورعايتِه:

فالله ﷻ يقول عن أهل بَيْعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]؛ فرتَّب إنزال السكينة عليهم وإثابتَهم فتحًا قريبًا، على عِلْمِهِ بما في قلوبِهم من إخلاص وصدق وصِحَّة إرادة وقَصْد، ومعلوم: أن الحكم المرتَّب على وصفٍ يزيدُ بزيادته، وينقُصُ بنقصانه؛ فكلما زاد إخلاص العبد، زادت هذه الأمور التي تتنزَّل عليه من نَصْر الله ﷻ، وطمأنينة القلب، وسكينة النَّفْس.

والتعقيب بالفاء في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، بعد قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، يَدُلُّ على أن سبب نزول السكينة عليهم، وسبب إثابتهم هذا الفتحَ القريبَ: هو عِلْمُهُ بما في قلوبِهم من إخلاص؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الإخلاص سببٌ للانتصار على العَدُوّ، ونزولِ السكينة في قلوب

(١) «إعلام الموقعين» (٦/١٠٦)، وينظر: جلاء الأفهام (ص ٢٠٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٣١).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٥٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١١٠)؛ واللفظ له.

المؤمنين؛ سواءٌ عند القتال، أو عندما يُرجِفُ بهم الناس من كلِّ جانب، ويخوِّفونهم بالذين مِن دونه ﷻ.

وفي الحديث: «إِنَّمَا يَنْصُرُ الله هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا؛ بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»[١].

رابعًا: بالإخلاصِ يكثُرُ العملُ ويتعاظَمُ:

فالإخلاصُ يكثُرُ به قليلُ العمل، ويعظُمُ به حقيرُهُ وصغيره؛ لأنَّ الله ﷻ ينمِّيه لصاحبِهِ ويبارِكُ له فيه، حتَّى إنه لَيَجِدُ ذلك العملَ يوم القيامة فوق ما يَحتسِب.

ويدلُّ لذلك: حديثُ أبي هريرة ؓ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ الله إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ؛ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ»[٢].

فليست العِبْرةُ بالكَثْرة؛ قال أبو بكر بن عيَّاش: «ما سبَقَكم أبو بكرٍ بكَثْرةِ صوم ولا صلاة، ولكنْ بشيءٍ وقَرَ في قلبِه»[٣].

وكان أحدُ السلفِ يُوصي بعضَ إخوانه فيقولُ: «أَخلِصِ النيةَ في أعمالِكَ يَكْفِكَ القليلُ مِن العمل»[٤].

وقال داود الطائي: «رأيتُ الخيرَ كلَّه إنما يَجمَعُهُ حُسْنُ النيَّة، وكفاك بها خيرًا وإن لم تَنصَبْ»[٥].

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٧٨)؛ من حديث سعد بن أبي وقَّاص ؓ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٩/٢)، وقال: «على شرط الشيخَيْن».

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٨)، من قول بكر المُزَني.

(٤) «إحياء علوم الدين» (٣٧٨/٤).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٦٤).

خامسًا: صاحب الإخلاص يثبُتُ على العمل، ولا ينقطِع عن دَأْبِهِ فيه:

فالإخلاص يَمُدُّ أصحابه بقوَّة الاستمرار؛ لأن الذي يَعمَلُ لغير الله سرْعانَ ما ينقطِعُ إذا لم يجد ما يَسُدُّ شهوته، ويحصِّلُ به بغيته، وأمَّا الذي يَعمَلُ لوجه الله، فوجهُ الله باقٍ إذا غابت الوجوه؛ ولهذا قيل: «ما كان لله دام واتصَلْ، وما كان لغير الله انقطَعَ وانفصَلْ».

سادسًا: ما يجده صاحبُهُ مِن إجابةِ الدعاء، وانشراحِ الصدر، والسعادةِ الغامرة، واللَّذَّةِ التي لا تدانيها لَذَّة:

يقول شيخ الإسلام - وهو يذكُرُ درجاتِ الناس فيما يجدونه من ثَمَراتِ التوحيدِ والإخلاصِ والتوكُّل -: «مَن ذاق طعم إخلاصِ الدِّين لله، وإرادةِ وجهه دون ما سواه، يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده مَن لم يكن كذلك، بل مَن اتبع هواه في مثل طلب الرياسة والعُلُوّ، وتعلُّقِهِ بالصور الجميلة، أو جمعِهِ للمال، يَجِدُ في أثناء ذلك من الهمومِ والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبَّرُ عنه، .. وأولياءُ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنُون؛ فإذا ذاق [العبد] حلاوةَ الإخلاص لله والعبادة، وحلاوةَ ذكرِه ومناجاتِه وفهمِ كتابه، وأسلَمَ وجهه لله وهو محسِنٌ؛ بحيث يكون عمله صالحًا، ويكون لوجه الله خالصًا؛ فإنه يَجِدُ من السرور واللذَّة والفرَح ما هو أعظَمُ مما يَجِدُهُ الداعي المتوكِّلُ الذي نال بدعائه وتوكُّله ما ينفعه من الدنيا، أو اندفَعَ عنه ما يَضُرُّه؛ فإن حلاوة ذلك هي بحَسَب ما حصل له من المنفعة، أو اندفَعَ عنه من المضرَّة، ولا أنفَعَ للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أَضَرَّ عليه من الإشراك، فإذا وجَدَ حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، مع حقيقة التوكُّلِ التي هي حقيقة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كان هذا فوقَ ما يجده كلُّ أحد لم يَجِدْ مثلَ هذا، والله أعلم»(١).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٥٠ - ٦٥٢).

سابعًا: استقامة أحوال المجتمَعات، وصلاح الراعي والرعيَّة:

فإذا صلَحَتْ نيات الناس، صلَحَتْ أمورهم، واعتدَلَتْ أحوالهم؛ كما قال شيخ الإسلام: «ومِلَاكُ ذلك كلِّه: صلاحُ النيَّة للرعيَّة، وإخلاصُ الدِّينِ كلِّه لله، والتوكُّلُ عليه؛ فإن الإخلاص والتوكُّل جِمَاعُ صلاح الخاصَّة والعامَّة»[1].

ثامنًا: صاحبَ الإخلاصِ يكفيه الله ﷻ من وجوهٍ عِدَّةٍ؛ ومن ذلك:

١ ـ أن الله ﷻ يكفيه أَمْرَ الناس؛ فلا يَصِلُهُ شيء منهم يكرهه:

قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٦].

فذكَرَهُ ـ سبحانه ـ هنا بالعبوديَّة التي أضافها إلى نفسه، ولم يَقُلْ: أليس الله بكافٍ خَلْقَهُ، أو أليس الله بكافٍ محمدًا، وإنما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؛ ليَدُلَّ ذلك على أن سِرَّ الكفاية هو تحقيق العبوديَّة، ولا تتحقَّق العبوديَّة إلّا بتمام الإخلاص.

وعن عامر الشَّعْبي؛ قال: كتب عمر إلى أبي موسى ﵄: «مَن خَلُصَتْ نيَّته في الحقِّ ولو على نَفْسِه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن لهم بما ليس في قَلْبه، شانه الله»[2].

وعن عَوْن بن عبد الله؛ قال: «كان الفقهاء يتواصَوْنَ بينهم بثلاث، ويكتُبُ بذلك بعضُهم إلى بعض: مَن عَمِلَ لآخرته، كفاه الله دنياه، ومَن أصلَحَ سريرتَهُ، أصلَحَ الله علانيته، ومَن أصلَحَ ما بينه وبين الله، أصلَحَ الله ما بينه وبين الناس»[3].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٣٦١).

(٢) أخرجه هنَّاد في «الزهد» (٨٥٩)؛ وغيره من طرق منقطِعة، لكن قال ابن عبد البر: «وهذا الخبر رُوِيَ عن عمر بن الخطاب ﵁ مِن وجوه كثيرة؛ من رواية أهل الحجاز، وأهل العراق، وأهل الشام ومصر؛ والحمد لله».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٨٤٨).

فإيَّاك أن تَعبأَ بالناس، أو تلتفِتَ إليهم، أو تتجمَّل لهم بعملك؛ فالله يكفيك شأن الناس؛ إن أنت وَثِقْتَ به ولم تَعمَلْ إلّا لوجهه سبحانه.

٢ ـ أن الله يُنجِي صاحبَ الإخلاصِ عند الشدائد والكروب، ويَجعَلُ له مِن بعد كربِهِ فَرَجًا، ومِن بعد حزنِهِ فَرَحًا:

ففي خبر عِكْرِمة بن أبي جَهْل ﷺ، لما فتح النبي ﷺ مكة؛ أنه فرَّ إلى اليمن، فرَكِبَ البحرَ، «فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أَخلِصُوا؛ فإنَّ آلهتكم لا تُغنِي عنكم شيئًا ها هنا، فقال عِكْرِمة: والله، لئن لم ينجِّني من البحرِ إلّا الإخلاصُ لا ينجِّيني في البَرِّ غيره، اللهم، إنَّ لك عليَّ عهدًا إنْ أنت عافيْتَني مما أنا فيه: أنْ آتي محمدًا ﷺ، حتى أضع يدي في يده؛ فلأَجِدَنَّهُ عفُوًّا كريمًا، فجاء فأسلَمَ»(١).

وهذا إبراهيم ﷺ لما اعتزَلَ قومه وهَجَرهم في الله، قال الله تعالى في حقِّه: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]، فكان كما قال النبي ﷺ: «إنَّك لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لله إِلَّا بَدَّلَكَ الله بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»(٢).

فالعبد إنْ كان له خبيئةٌ مِن عملٍ صالحٍ؛ من صلاة أو صَدَقة أو معروف لا يَطَّلِعُ عليها إلّا الله ﷻ، فإنها تبلِّغُهُ رضوانه سبحانه؛ كما أنها تكون سببًا لنجاته من كثير من الكروب، وسببًا لتثبيته عند الشدائد ومَوَاطِن الابتلاءات؛ فقد يُمْشَطُ بأمشاط من حديد، ومع ذلك يَثْبُت، فيعوِّضه الله ﷻ ألوانًا من اللذّات وانشراح الصدر؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبُسْتاني في صدري؛ إنْ رُحْتُ، فهي معي لا

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٦٧)؛ من حديث سعد بن أبي وقَّاص ﷺ، وصحَّحه شيخ الإسلام في «الصارم المسلول» (٢/٢٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٧٨، ٧٩، ٣٦٣)؛ من حديث رَجُلٍ من أهل البادية ﷺ، وصحَّحه الألباني في «الضعيفة» (١/٦٢).

تُفارِقُني، إنَّ حبسي خَلْوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بَلَدي سِيَاحة»(١)، وكان يقول في مَحبَسِهِ في القلعة: «لو بَذَلْتُ مِلْءَ هذه القلعةِ ذهبًا، ما عدَلَ عندي شكرَ هذه النعمة»(٢).

ولهذا قال عبد الله بن داود الخُرَيْبي: «كانوا يَستحِبُّونَ أن يكون للرجل خبيئةٌ مِن عمل صالح لا تَعلَمُ به زوجتُهُ ولا غيرها»(٣).

٣ ـ أن الله ﷻ يَصرِفُ عنه الخواطرَ المُرْدِية، والوساوسَ المسلَّطة:

كما قال أبو سُلَيْمان الدَّارَاني: «إذا أخلَصَ العبد، انقطَعَتْ عنه كثرةُ الوساوس والرياء»(٤).

وقال شيخ الإسلام: «فقد تبيَّن: أن إخلاص الدين لله يمنع مِن تسلُّط الشيطان، ومِن وَلَايةِ الشيطان التي توجب العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإذا أخلص العبدُ لربه الدِّين، كان هذا مانعًا له مِن فِعْلِ ضدِّ ذلك، ومِن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك، وإذا لم يُخلِصْ لربه الدِّينَ، ولم يَفعَلْ ما خُلِقَ له وفُطِرَ عليه، عُوقِبَ على ذلك، وكان مِن عقابه: تسلُّطُ الشيطان عليه، حتى يزيِّنَ له فِعْلَ السيِّئات، وكان إلهامُهُ لفجوره عقوبةً له على كونه لم يَتَّقِ الله»(٥).

٤ ـ أن المخلِصَ يُكْفَى الغِلَّ والحسَدَ والغِشَّ لإخوانِهِ المسلمين:

فيكونُ قلبه نَقِيًّا طاهرًا سليمًا لإخوانه؛ والقلب كثير الشواغل، يَنصرِف

---

(١) «الوابل الصيِّب» (ص ١٠٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «تهذيب الكمال» (٤٦٤/١٤).

(٤) «الرسالة القُشَيْرية» (٣٦٢/٢).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٣٣٢/١٤ ـ ٣٣٣).

عن الخير لأدنى مُلابَسة، والإخلاصُ كفيلٌ بأن يصفِّيَ القلب، ويُمِيلَهُ إلى مولاه؛ يقول النبي ﷺ: «ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ...»؛ الحديثَ(١).

٥ ـ أن الله يَصرِفُ عنه السوءَ والفحشاءَ بإخلاصِه:

يقول شيخ الإسلام: «وكلَّما حقَّق العبدُ الإخلاصَ في قول: لا إله إلّا الله، خرجَ من قلبه تألُّهُ ما يَهْوَاه، وتُصرَفُ عنه المعاصي والذنوب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فعلَّل صَرْفَ السوء والفحشاء عنه بأنَّه من عباد الله المخلَصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]،..»(٢) فإذا امتلأ القلب بالإخلاص، لم يتلذَّذ العبد إلّا بالتقرُّب إلى الله ﷻ، ولم يَعُدْ له بغير الله تعلُّق، ولم يَعُدْ لغير الله بقلبه مَحَلّ، وبذلك يُصرَفُ عنه السوءُ والفحشاءُ بإخلاصِه، ويَتِمُّ خلاصُهُ من شوائب الشرك وعلائق الدنيا.

تاسعًا: التحرُّرَ من العبوديَّة لغير الله ﷻ(٣):

لأن العبد إذا حقَّق العبودية لله، تخلَّى عن عبوديَّة ما سواه، وكلما نقَصَتْ عبوديتُهُ لله ﷻ، كان ذلك أدعى إلى عبوديَّته للمخلوقين؛ فإنَّ هذا القلب مجبولٌ على العبوديَّة؛ فإمَّا أن يُعبِّدَ لله ﷻ، وإما أن يُعبَّدَ لغيره.

وبالعبوديَّة لله ﷻ يتحرَّر الإنسان من أهوائه ونَزَواته وشَهَواته؛ فالهوى شرُّ وَثَنٍ يُعبَدُ من دون الله ﷻ؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، فخضوعُ النفس لأهوائها من أعظم ما حرَّم الله، بل هو مِن عبوديَّة غيره سبحانه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٣/٥)؛ من حديث زيد بن ثابت ﷺ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٦٠/١٠ ـ ٢٦١).

(٣) انظر: «مقاصد المكلَّفين» للأشقر (ص ٣٧٢).

أما الترفُّع عما تدعو إليه النَّفْس من ذلك ـ وإن كانت مجبولةً على محبَّته ـ فتلك هي الحرِّية حقًّا، وبها يتخلَّص العبد من إسار الهوى.

والذين يَزْعُمون ويتوهَّمون أن الحرِّية إنما هي التخلُّص مِن كل قيد حتى مِن قيد العبوديَّة لله، فالواقع: أنهم يَفِرُّونَ من عبوديَّة المَلِكِ الديَّان، إلى عبوديَّة النفس والهوى والشيطان، ومِن عبوديَّة ربِّ العالمين، إلى عبوديَّة المخلوقين، وكان شيخ الإسلام يقول: «المحبوسُ: مَن حُبِسَ قلبُهُ عن ربِّه تعالى، والمأسورُ: مَن أَسَرَهُ هواه»[1].

وهكذا يعجِّلُ الإخلاصُ آثارًا يَجِدُها صاحبُهُ في الدنيا قبل الآخرة.

* * *

(١) «الوابل الصيِّب» (ص ١٠٩).

الآثارُ الأُخرويّةُ لِلإخلَاصِ

وأما الآثارُ المؤجَّلةُ للإخلاص، وهي التي تكونُ في الآخرة، فهي كثيرةٌ أيضًا؛ ومنها:

أولًا ـ وهو أعظمُها ـ: دخولُ الجنَّة، والنجاةُ مِن النار، وتحصيلُ رضا الربِّ تبارك وتعالى:

وقد جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «تَكَفَّلَ الله لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخرِجُهُ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ: بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»[1].

والأحاديث والآثار في هذا المعنى كثيرة مشهورة.

ثانيًا: الإخلاص يبلُغُ بصاحبه في درجات الجنَّة ما لا يبلغه بعمله:

فعن سَهْل بن حُنَيْف ﷺ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ الله الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ الله مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[2].

ومِن لطائف ما يُذكَرُ في هذا: أنَّ عمرَو بنَ الليثِ لمَّا مات، رُئِيَ في المنام، فقيل له: ما فعَلَ الله بك؟ فقال: «أَشْرَفْتُ يومًا مِن جبلٍ على

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٣)؛ واللفظ له، ومسلم (١٨٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

جيوشي، فأعجَبَتْني كَثْرَتُهم، فتَمَنَّيْتُ أنني كنتُ حضَرْتُ مع رسولِ الله ﷺ، فنَصَرْتُهُ وأَعَنْتُهُ، فشكَرَ الله لي، وغفَرَ لي»[١].

ثالثًا: أنَّ أعمالَ صاحبه تفضُلُ أعمالَ الآخَرِين:

وذلك أنَّ الأعمال تتفاضَلُ بالإخلاص، فتَرجَحُ في الموازينِ إذا كان الإخلاص فيها تامًّا كاملًا وافيًا. كما تقدم بيان طرف من ذلك.

رابعًا: الظَّفَرُ برحمةِ الله ﷻ:

إنَّ أحقَّ الناس برحمة الله ﷻ هم أهلُ التوحيد والإخلاص؛ فكلُّ مَن كان أكمَلَ في تحقيقه إخلاصَ (لا إله إلّا الله) عِلْمًا وعقيدةً، وعملًا وبراءةً، وموالاةً ومعاداةً، كان أحقَّ برحمة الله ﷻ؛ كما صرَّح بذلك غيرُ واحد من أهل العلم؛ كشيخ الإسلام ابن تيميَّة[٢].

خامسًا: غفرانُ الذنوب:

قال ابنُ تيميَّة: «والنوع الواحد مِن العمل قد يَفعَلُه الإنسان على وجهٍ يكمُلُ فيه إخلاصه وعبوديَّته لله؛ فيغفِرُ الله له به كبائرَ...»، وذكَرَ حديث البطاقة[٣]، ثم قال: «فهذه حالُ مَن قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص؛ وإلا فأهلُ الكبائر الذين دخَلُوا النارَ كلُّهم كانوا يقولون: لا إلَهَ إلّا الله»[٤].

سادسًا: السعادةُ بنيل شفاعة النبي ﷺ:

فقد أخرج البخاريُّ في «صحيحه»، عن أبي هريرةَ ﷺ؛ أنه قال: يا

---

(١) «الشفا، بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٢/٥٨٥)؛ بتصرف.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/٤١٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)؛ من حديث عبد الله بن عمرو ﭭ، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥).

(٤) «منهاج السنة» (٦/٢١٨ - ٢١٩).

رسولَ الله، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَلَّا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»[١].

قال الحافظ ابن حجر: «في قوله: «أَسْعَد» إشارةٌ إلى اختلاف مَرَاتبهم في السَّبْق إلى الدخول، باختلاف مَرَاتبهم في الإخلاص»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

(٢) «فتح الباري» (١١/٤٥١).

عَاقِبةُ النِّيَّاتِ وَالمقَاصِدِ السَّيِّئة

إذا أصلَحَ العبدُ ظاهره بالعمل الصالح، وأفسَدَ باطنه بالنيَّة الفاسدة، فتصنَّع بالظواهر إرادةً لما عند الناس؛ مِن حسن الثناءِ أو الجاه أو المال أو غير ذلك مِن المطالب السافلة؛ عُوقِبَ على سُوءِ قصده بأنواع العقوبات التي منها:

١ ـ التعرُّضُ لمَكْرِ الله ﷻ:

يقول حمَّاد بن سَلَمة: «مَن طلَبَ الحديثَ لغير الله، مُكِرَ به»[1].

وصدَقَ؛ فإنَّ العبدَ قد يستقيمُ ـ فيما يبدو للناس ـ مُدَّةً من الزمان طالبًا للعلم، ثم ما يَلبَثُ أن يتغيَّرَ حالُه، ويترُكَ ما كان عليه، ويصيبَهُ الحَوْرُ بعد الكَوْر، والإدبارُ بعد الإقبال، والانتكاسةُ بعد الاستقامة، وقد يكون ذلك بسبب سُوءِ نيَّته.

ولو أن العبد صدَقَ في إقباله على الله ﷻ، وأحسَنَ اللجوء إليه؛ فإن الله ﷻ يحفظه ويَكْلَؤُه، ويرعاه ويُدنِيه، ويثبِّتُهُ بالقول الثابت حتى يلقاه.

٢ ـ ذَهَابُ بَرَكة العمل، وتلاشيه واضمحلالُه:

فلا يكون لعَمَله كثيرُ بَرَكة؛ فكم من تصانيفَ لم يكتب لها القبول، ولم يُنتفَعْ بها، مع ما فيها من العلم! وكم مِن أعمال أُنشِئَتْ وأُنفِقَتْ عليها أموال طائلة، وبُذِلَتْ لأجلها جهودٌ عظيمة، ثم لم يكن من وراء ذلك كبيرُ شيء من تحصيل نفعٍ أو آثار محمودة!

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٥١)، وابن عبد البر في «الجامع» (١١٥٣).

ولعل ذلك يرجع إلى كونها لم تُبن على أساس صحيح من النيات والمقاصد الطيبة، فكلَّما ضَعُفَ الإخلاص في قلب العبد، كان ذلك سببًا لاضمحلال بَرَكة عمله وتلاشيه.

قال ابن المبارَك: «رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُهُ النيَّة، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّرُهُ النيَّة»(١).

ويقول محمد بن الحنفيَّة، والربيع بن خُثَيْم رحمهما الله تعالى: «كلُّ ما لا يُبتغَى به وجه الله يَضْمَحِلّ»(٢).

٣ ـ إعراضُ القلبِ عن الله، واشتغالُهُ بغيره:

فيصيرُ عبدًا لذلك الذي توجَّه قلبه إليه.

يقول ابن القيِّم: «وأصلُ الغيِّ: من الحُبِّ لغير الله؛ فإنه يضعُفُ الإخلاص به، ويَقوَى الشركُ بقوَّته؛ فأصحابُ العشق الشيطاني لهم مِن تولِّي الشيطان والإشراك به بقَدْرِ ذلك؛ لِمَا فيهم من الإشراك بالله، ولِمَا فاتهم من الإخلاص له؛ ففيهم نصيبٌ من اتخاذ الأنداد؛ ولهذا ترى كثيرًا منهم عبدًا لذلك المعشوق، متيَّمًا فيه، يصرُخُ في حضورِهِ ومَغِيبه: أنه عبده؛ فهو أعظم ذكرًا له مِن ربه، وحبُّه في قلبه أعظَمُ من حبِّ الله فيه، وكفى به شاهدًا بذلك على نفسه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].

فلو خُيِّرَ بين رضاه ورضا الله، لاختار رضا معشوقِهِ على رضا ربه، ويقدِّم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه... يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويَجعَلُ لربِّه مِن ماله ـ إنْ جعَلَ له ـ كلَّ رذيلة!»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٣٥).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/٨٦٩ ـ ٨٧٠).

٤ ـ صاحبُ القَصْدِ السَّيِّئِ يَخسَرُ نصيبَهُ في الآخرة، ولا يجدُ ثمرَةَ عمله:

فعن شُفَيٍّ الأصبَحيِّ؛ أنَّه دخل المدينة؛ فإذا هو برجلٍ قد اجتمَعَ عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، قال: فدنوتُ منه حتَّى قعَدتُّ بين يديه، وهو يحدِّثُ الناس، فلما سكتَ وخَلَا، قلتُ له: أسألك بحقٍّ وبِحَقٍّ لَمَا حدَّثْتَني حديثًا سمعتَهُ من رسول الله ﷺ، عَقَلْتَهُ وعَلِمْتَهُ، فقال أبو هريرة: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ، عَقَلْتُهُ وعَلِمْتُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرةَ نَشْغَةً[1]، فمَكَثْنا قليلًا، ثم أفاق، فقال: لَأُحَدِّثَنَّكَ حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيرُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرة نَشْغَةً شديدة، ثم أفاق، فمسَحَ وجهه، فقال: أَفْعَلُ لَأُحَدِّثَنَّكَ حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ، وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيرُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرةَ نَشْغَةً شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه، فأسندتُّهُ عليَّ طويلًا، ثم أفاق، فقال: حدَّثني رسول الله ﷺ: «أَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ؛ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ: رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ:

فَيَقُولُ الله لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ الله لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ الله: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ، فَيَقُولُ الله لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ الله لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ الله تَعَالَى: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

---

(١) أي: شَهِقَ وغُشِيَ عليه.

وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله، فَيَقُولُ الله لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ الله تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ الله: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ».

ثم ضرَبَ رسولُ الله ﷺ على رُكْبتي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ الله تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وزاد الترمذي، عن العلاء بن أبي حَكِيم؛ أنه كان سَيَّافًا لمعاوية، فدخَلَ عليه رجل، فأخبَرَهُ بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: «قد فُعِلَ بهؤلاءِ هذا؛ فكيف بمَن بَقِيَ من الناس؟! ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بِشَرٍّ، ثم أفاق معاوية، ومسَحَ عن وجهه، وقال: صدَقَ الله ورسولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]».

وقد صح عنه ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، قالوا: وما الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله؟! قال: «الرِّيَاءُ؛ يَقُولُ الله ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا؛ فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟!»(٢).

ومما تقدَّم من الأخبار والآثار: يتبيَّن عظيمُ شأن الإخلاص، وخَطَرُ شأن الشرك والرياء بما لا يجوز معه التهاوُنُ في هذا الجانب في كثير الأعمال أو قليلها، كبيرها أو صغيرها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٣)، وأصله في «صحيح مسلم» (١٩٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٨/٥)؛ من حديث محمود بن لَبِيد ﷺ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٩٥١).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الإِخْلَاصِ وَدَفْعِ الرِّيَاءِ

إذا عَرَفْتَ شَأن الإخلاص ودِقَّتَه، فيحسُنُ بنا أن نذكُرَ جملةً من الأمور التي يُمكِنُ للعبد معها أن يقوِّيَ إخلاصَهُ، ويَدفَعَ أضدادَهُ من قَلْبه:

١ ـ أن يستعينَ بالله ﷻ على تحقيقِه:

وأن يتعوَّذ بالله تبارك وتعالى من الرياء، وأن يراقِبَ ربَّه، وأن يحاسِبَ نفسه، وقد جاء عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»؛ فقال له مَنْ شاء الله أن يقولَ: وكيف نَتَّقِيهِ وهو أخفى مِن دَبِيبِ النَّمْلِ يا رَسُولَ الله؟! قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شيئًا نَعْلَمُهُ، ونَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»[١].

وكان مِن دعاء علي بن الحسين زَيْن العابدين: «اللَّهُمَّ، إني أعوذُ بك أن تحسِّنَ في لوامعِ العيونِ علانيتي، وتقبِّحَ في خَفِيَّاتِ العيونِ سريرتي، اللَّهُمَّ، كما أسأتُ وأحسَنْتَ إليَّ، فإذا عُدتُّ، فَعُدْ عَلَيَّ»[٢].

وكان من دعاء مطرِّفِ بن عبد الله: «اللَّهُمَّ، إني أستغفِرُكَ مما تُبْتُ إليك منه، ثم عُدتُّ فيه، وأستغفِرُكَ مما جعلتُهُ لك على نفسي، ثم لم أَفِ لك به،

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠٣/٣)؛ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٣٤/٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٠٩/٤١)؛ واللفظ له.

وأستغفِرُكَ مما زَعَمْتُ أني أَرَدتُّ به وجهَكَ، فخالَطَ قلبي فيه ما قد عَلِمْتَ»(١).

فتوجَّهْ إلى الله بتمام الفقر إليه، والذلِّ بين يديه، واسأَلْهُ أن يصحِّح قصدك ونيَّتك؛ فإنه لا بلاغ إلّا بإعانته وتسديده وتوفيقه، وإذا تخلَّى الربُّ عن العبد، خُذِلَ العبد أحوَجَ ما يكون إلى الإعانة، ومَن التفَتَ إلى نفسه وقوَّته وطاقته، أو إلى عمله وجهده وتحصيله، خُذِلَ أيضًا.

٢ ـ أن يعبِّدَ قلبَهُ وجوارحَهُ لله ﷻ:

فهذا القلبُ لا بد أن يُمْلَأَ بالإرادات والخواطر، ولا بد له مِن أحد يتوجَّهُ إليه؛ فإما أن يتوجَّه إلى الله ﷻ، وإما أن يتوجَّه إلى المخلوقين، وهذه الجوارح كذلك لا بد لها من عبوديَّة ـ شاء الإنسان أم أبى ـ فإما أن يسخِّر جوارحَهُ في مرضاة الله ﷻ؛ فيكون عبدًا لله، وإما أن يسخِّرها في تحقيق شهواته وتحصيل مطلوباته القريبة العاجلة؛ فيكون عبدًا لها، وإما أن يسخِّرها في طلب ثناء الناس، والمنزلة في قلوبهم؛ فيكون عبدًا لهم.

يقول ابن القيِّم: «فمَن عوَّد نفسَهُ العمل لله، لم يكن عليه أشقُّ مِن العمل لغيره، ومن عوَّد نفسه العمل لهواه وحظِّه، لم يكن عليه أشقُّ من الإخلاص والعمل لله»(٢).

وكلامه هذا في غاية النَّفَاسة؛ لبيان مَنزِلة الإخلاص، وحقيقةِ مقامه، وصفة تنزُّله في قلب العبد.

٣ ـ أن يتعرَّف على ما يضادُّ الإخلاصَ من آفات القلوب؛ ليتحرَّز منه:

فإن العبد مطالَبٌ بمعرفة عدوِّه، ومعرفة الأدواء التي تنفُذُ إلى قلبه، وقد

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٠٧)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/٣٢٧)؛ واللفظ له.

(٢) «عدة الصابرين» (ص ١٠٧).

حَذَّرَنا النبي ﷺ من تلك الآفات؛ فعن أبي سعيد الخدري ﵁؛ قال: خرَجَ النبي ﷺ يومًا على أصحابه وهم يتذاكرون الدجّال، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟»، قال: قلنا: بلى، فقال: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[(١)].

فهذا يخافه النبي ﷺ على أمَّته أعظم من خَوْفه عليهم من الدجَّال؛ وهذا يَدُلُّ على عِظَمِهِ مِن جهة، ودِقَّتِهِ حيث يخفى على الكثيرين مِن جهة أخرى.

ومعلوم أن جِنْس الشرك أعظَمُ من جِنْس الكبائر.

قال ابن رجب: «وإنما زاد عذابُ أهل الرياء على سائر العُصَاة؛ لأن الرياء هو الشِّرْكُ الأصغر، والذنوبُ المتعلِّقةُ بالشرك أعظَمُ من المتعلِّقة بغيره»[(٢)].

والعبد إذا أراد أن يتخلَّص، فعليه أن يخلِّص قلبه مِن هذا الإشراك، وقد يَعمَلُ العبدُ معصيةً ظاهرة، فتكون أخف وأهون عليه في الحساب من صلاةٍ طويلةٍ يُرَائي بها، أو صيامٍ في يوم طويل شديد الحَرِّ يتزيَّن به أمام المخلوقين.

فينبغي على العبد أن يتبصَّر في نفسه، وفيمن حوله، وأن يكون شغله في إصلاح قَلْبِهِ قبل كل شيء؛ فإنه قد يُرَائِي في أمور لا يتفطَّنُ لها كثير من الناس[(٣)]؛ وقد يُرائي بالبكاء وإظهار التأثُّر في مَجَامِع الناس؛ كالذي يصلي بالناس، ويتكلَّف البكاء أو النَّشِيج؛ فأين هذا من فِعْلِ السَّلَف وما كانوا عليه مِن إخلاص العمل لله، وتوقِّي الرياء؟!

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤)؛ وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٠).

(٢) «التخويف من النار» (ص ٢٨٣).

(٣) ينظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٤٢).

وقد كان أبو وائل إذا صلَّى في بيته يَنشِجُ نَشِيجًا لو جُعِلَتْ له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه، ما فعَلَهُ[١].

أما تكلُّف البكاء في الصلاة، فإنما يكون حينما يُغلِق الإنسان عليه بابه، ولا يَطَّلِع عليه أحد؛ أما أن يتكلَّف الإنسان ذلك في جموع المصلِّين، فهذا أمر لا يَسُوغ، لكن مَن غلبه البكاء، فهذا شأن آخر، وقد مَرَّ بك من حال السلف ما فيه الكفاية.

٤ ـ أن يقطَعَ الطمعَ في المخلوقين، ولا يلتفِتَ إلى مدحِهم:

وهذا لا يتحقَّقُ ـ مع الصبر واليقين ـ إلّا بأمرَيْن:

الأول: أن يَعرِفَ ربَّه معرفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته؛ فيعرِفَ عظمتَهُ وجلاله، وأنَّ بيده النفعَ والضرَّ، والعطاءَ والمنع؛ فيتوجَّهُ إليه قلبُهُ بكلِّيَّته، ويُقبِلُ عليه.

الثاني: أن يَعرِفَ ضعفَ الخَلْق وعجزَهم عن أن يحصِّلوا لأنفسِهم نفعًا أو يدفعوا ضرًّا، فضلًا عن غيرهم؛ وبذلك ينقطِعُ طمعُهُ فيهم.

قال الفُضَيْلُ: «تزيَّنْتَ لهم بالصُّوفِ ولم تَرَهُمْ يرفعونَ بك رأسًا، تزيَّنْتَ لهم بالقرآنِ فلم تَرَهُمْ يرفعونَ بك رأسًا، تزيَّنْتَ لهم بشيءٍ بعد شيءٍ كلُّ ذلك إنما هو لحبِّ الدنيا»[٢].

وقال لرجلٍ: «لأُعَلِّمَنَّكَ كلمةً هي خيرٌ مِن الدنيا وما فيها: والله، لَئِنْ عَلِمَ الله منك إخراجَ الآدميِّين من قلبك، حتى لا يكونَ في قلبك مكانٌ لغيره، لم تَسأَلْهُ شيئًا إلّا أعطاك»[٣].

وفي هذا المعنى، يقولُ ابن القيِّم: «لا يجتمِعُ الإخلاصُ في القلبِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠١/٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩٨/٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإشراف» (٤٨٠).

ومحبَّةُ المدح والثناء والطَّمَع فيما عند الناس، إلّا كما يَجتمِع الماء والنار، والضبُّ والحُوت، فإذا حَدَّثَتْكَ نفسُكَ بطلب الإخلاص، فأَقبِلْ على الطمع أولًا، فاذبَحْهُ بسِكِّينِ اليأس، وأَقبِلْ على المدح والثناء، فازهَدْ فيهما زُهْدَ عُشَّاقِ الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذَبْحُ الطَّمَع، والزهدُ في الثناء والمَدْح، سَهُلَ عليك الإخلاص.

فإنْ قلتَ: وما الذي يسهِّل عليَّ ذبحَ الطَّمَعِ والزهدَ في الثناء والمَدْح؟

قلتُ: أما ذبحُ الطمع، فيسهِّله عليك: عِلْمُكَ يقينًا أنه ليس من شيء يُطْمَع فيه إلّا وبيد الله وحده خزائنُهُ لا يملكها غيره، ولا يُؤتِي العبدَ منها شيئًا سواه، وأمَّا الزهد في الثناء والمَدْح: فيسهِّله عليك عِلْمُكَ أنه ليس أحد يَنفَعُ مدحُه ويَزِينُ، ويَضُرُّ ذمُّه ويَشِينُ إلّا الله وحده؛ كما قال الأعرابي للنبي ﷺ: «إنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وإنَّ ذَمِّي شَيْنٌ»، فقال النبيُّ ﷺ: «ذاكَ الله ﷻ»[(١)].

فازهد في مدحِ مَن لا يَزِينُك مَدْحُه، وفي ذمِّ مَن لا يَشِينُكَ ذمُّه، وارغَبْ في مدحِ مَن كلُّ الزَّيْن في مَدْحِه، وكلُّ الشَّيْن في ذَمِّه.

ولن تَقدِر على ذلك إلّا بالصبر واليقين؛ فمتى فقَدتَّ الصبر واليقين، كنتَ كمن أراد السفر في البحر في غير مَرْكَب؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]»[(٢)].

٥ ـ أن يُخْفِيَ عمَلَهُ:

ولهذا كان الصوم من أجلِّ الأعمال؛ لأنه يَخفَى على الناس، ويحتاج إلى الصَّبْر، وكانت صدقةُ السرِّ في الجملة أفضلَ مِن صدقة العلانية، وكانت الصلاة في جَوْف الليل أفضلَ الصلاة بعد المكتوبة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧)؛ من حديث البَرَاء بن عازب ﷺ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٠٥).

(٢) «الفوائد» (ص ٢١٩ ـ ٢٢٠).

يقول ابن مسعود ﷺ: «إذا أصبحتم صيامًا، فأَصْبِحوا مُتَدَهِّنين»[١].

ويقول بِشْر الحافي: «لا تَعمَلْ لِتُذكَر؛ اكتُمِ الحَسَنة كما تكتُمُ السيِّئة»[٢].

إلا أن صَدَقة العلانية قد تكون أحيانًا أفضل من صدقة السِّرّ، بحيث يترتب عليها مصلحة أعظم من إسرارها، كأن يكون المتطوِّع ممن يُقتدَى به ويُتَّبَعُ وتَنبَعِثُ الهِمَم على التطوُّع بالإنفاق، وسَلِمَ قصدُهُ، فالإظهار أولى، والله أعلم[٣].

٦ ـ أن يحاسِبَ نفسه على الخطَرَات والإرادات والنيَّات:

فيسأَلُ نفسَهُ دائمًا ويُحاسِبُها: ماذا أَرَدتَّ بهذه الكلمة؟ ماذا أَرَدتَّ بهذه الصدقة؟ ماذا أَرَدتَّ بهذا العمل؟

قال الحسن: «المؤمِنُ قَوَّامٌ على نفسه، يُحاسِب نفسه لله ﷻ، وإنما خَفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسَبُوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شَقَّ الحساب يوم القيامة على أقوام أَخَذُوا هذا الأمر من غير محاسَبة»[٤].

قال الذهبي: «ينبغي للعالم أن يتكلَّم بنية وحُسْنِ قَصْد؛ فإنْ أعجبه كلامه، فليَصْمُت، فإنْ أعجبه الصَّمْت، فلينْطِق، ولا يَفتُرْ عن محاسَبة نفسه؛ فإنها تُحِبُّ الظهور والثناء»[٥].

٧ ـ أن يجاهِدَ العبدُ نفسَهُ وهواه، وشيطانَهُ ودنياه:

والله ﷻ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ فعلَّق الهداية بالجهاد؛ وذلك أن الحكم المعلَّق على وصفٍ يزيد بزيادتِه، وينقُصُ

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/٤٧٦).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٣/٣٤٠).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠٧).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤/٤٩٤).

بنقصانِه؛ فالحكم هو الهداية، والوَصْفُ هو المجاهَدة؛ فكلما ازدادت مجاهَدة العبد، ازدادت هدايته، وكلما قَلَّت مجاهَدته، قلَّت هدايته.

٨ ـ أن يتباعَدَ العبدُ جهدَهُ عن المواطن التي يحتاجُ فيها إلى التكلُّف والتصنُّع للمخلوقين:

وقد قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]؛ فالتكلُّف غير محمود؛ ومن ثَمَّ فإنه يَتباعَدُ عن الأمور التي تستدعي منه هذا التكلُّف.

وفي هذا قال عليُّ بن بَكّار: «لَأَنْ أَلْقَى الشيطانَ أحبُّ إليَّ من أن ألقى فلانًا؛ أخاف أن أتصنَّعَ له فأسقُطَ من عَيْن الله»(١).

قال المَرُّوذِيُّ: «ذُكِرَ لأحمد أن رجلًا يُرِيدُ لقاءه، فقال: أليس قد كَرِهَ بعضُهم اللقاء؟ يتزيَّنُ لي، وأتزيَّنُ له!»(٢). فخيرٌ للعبد أن يُخالِط ويُجالِس مَن لا يتكلَّف لهم، فيكون معهم على سَجِيَّته، وتكون له نيَّة في كلامه، وفي كل أفعاله: إنْ صلَّى، فنيَّته خالصة، وإنْ تكلَّم، فكذلك، وإنْ تصدَّق، فكذلك، وكذلك إنْ قام لِخِدْمَتِهم.

٩ ـ أن يَجتنِبَ العبدُ أسبابَ الشُّهْرة قَدْرَ الإمكان:

وكلَّما تأمَّل العبد هذا المعنى، وكلام السلف فيه، ومُجانَبَتهم لأسباب الشُّهْرة والرياسة، دعاه ذلك إلى التفكير الطويل، والوقوف مع نفسه، والنظر في عمله وحاله.

وهذا لا يعني أن يَجلِس الواحد منا في بيته ويُغلِق عليه بابه، فالمتقدِّمون مع مدافَعَتهم لتلك الآفات وإعراضهم عنها، ومَنْعِ أنفسهم من تعاطي أسبابها، كانوا يُظهِرون العلم للناس، ويُجاهِدون في سبيل الله، ويَفعَلون ما

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٧٠)، (٩/٣١٨ ـ ٣١٩)؛ بتصرف.
(٢) «تاريخ الإسلام» (١٨/٨٢).

أمر الله ﷻ به، ولكنه - مع التفاته إلى إصلاح قلبه - لا يَلتفِت إليه معرِضًا عما أمره به ربُّه، ولا يترُكُ الناس جاهلين تَعبَثُ بهم الشياطين، وتُورِدُهم مَوَارِدَ الهَلَكة.

١٠ - أن يربِّيَ العبدُ نفسَهُ على إصلاح السريرة، بالإخلاص وإخفاء العمل:

فعلينا أن نربِّيَ أنفسنا ومَن تحت أيدينا على الإخلاص، وإخفاء العمل، وإصلاح السريرة؛ حتى يتهيَّأَ لنا ولهم في أمر الآخِرة صحَّة القَصْد، وأسباب التشمير، غيرَ ملتفِتِين إلى طلب الثناء وحسن الإطراء.

قال سفيان: «كان يقالُ: مَن كانت سريرتُهُ أفضلَ مِن عَلانِيَته، فذلك الفضل، ومَن كانت سريرته شَرًّا مِن عَلانِيَتِهِ، فذلك الجَوْر»[١].

وللأسف: فإنَّ العالَم الماديَّ الذي نَعِيشُ فيه اليوم لا يُعِينُ على تحقيق هذا المطلوب؛ وهو الإخلاص؛ حيث أصبحت الحوافز الماديَّة والمعنويَّة هدفًا لدى كثير مِن الناس، ولا ريب: أن الحوافز تقوِّي النفس، وتجدِّد النشاط، ولكنْ حينما تتحوَّلُ هذه الحوافز إلى هدَفٍ، فهذا أمر سيِّئ؛ بحيث يكون لا هَمَّ للإنسان إلّا جِدُّهُ واجتهادُه في أن يحصِّل ترقيةً أو يَسمَعَ مَدْحًا.

١١ - أن ينظُرَ العبدُ في عاقبة الرياء في الدنيا:

وقد كتَبَتْ عائشةُ إلى معاوية ﵄: «أمَّا بَعْدُ، فإن العبد إذا عَمِلَ بمعصية الله، عاد حامِدُهُ مِن الناس ذامًّا»[٢]؛ ويتأكَّد مثل هذا فيمن يَعمَلُ لحمد الناس وثنائهم؛ فإنه يُعامَلُ بنقيض قَصْده، والجزاءُ من جنس العمل.

ورُوِيَ عن عمر ﵁: «من خَلُصَتْ نيَّته في الحق، ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن تزيَّنَ لهم بما ليس في قلبه، شانَهُ الله»[٣].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٠).

(٢) أخرجه وكيع في «الزهد» (٥٢٣).

(٣) تقدم تخريجه.

١٢ ـ أن ينظُرَ في عواقب الإخلاص، وعواقب الرياء في الآخرة:

وقد ذكرتُ طَرَفًا من ذلك عند الكلام على عاقبة المقاصِد السيِّئة.

* * *

هَلْ يَكُونُ إِظْهَارُ العَمَلِ مُنَافِيًا لِلإِخْلَاصِ؟

والجواب: لا نستطيع أن نحكُمَ على عمل أحد بأنه رياء؛ لأن هذا بينه وبين الله ﷻ، وقد يُظهِرُ الإنسان عملًا يريد به وجه الله؛ فإظهار العمل لا يعني بالضرورة الرياء، والتحدُّثُ بالعمل لا يعني بالضرورة السُّمْعة، وإنما الرياء والسمعة شيء لا يعلمه إلّا الله ﷻ؛ فكم من مُظهِرٍ عَمَلَهُ كان إظهار عمله أحبَّ إلى الله من إخفائه.

قال الجُنَيْد: «الإخلاصُ: سِرٌّ بين الله وبين العبد»[1].

وقال مكحول: «رأيت رجلًا يصلي، وكلما ركَعَ وسجَدَ، بكى، فاتَّهَمْتُهُ أنه يُرائي ببكائه، فحُرِمْتُ البكاءَ سنةً»[2].

ويقول شيخ الإسلام: «ومَن كان له وِرْدٌ مشروع من صلاة الضُّحَى، أو قيام ليل، أو غير ذلك، فإنه يصلِّيه حيث كان، ولا ينبغي له أن يَدَعَ وِرْدَهُ المشروع؛ لأجل كونه بين الناس؛ إذا علم الله مِن قلبه أنه يَفْعَلُهُ سرًّا لله، مع اجتهاده في سلامته من الرياء، ومُفْسِدات الإخلاص»[3].

وقد نُقِلَ عن جماعة من السلف: أنهم أخبَرُوا عن بعض الأعمال الصالحة التي عَمِلُوها؛ فلا يُمكِنُ أن يقالَ في مثل ذلك: إنه شِرْك، أو رياء.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٩٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٨٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٣/١٧٤).

وخلاصةُ ما يقالُ في هذا الباب:

إنَّ الطاعات على ثلاثة أقسام[١]:

القسم الأوَّل: ما شُرِعَ مجهورًا؛ كالجهاد، والأذان، والإقامة، وحضور الجمعةِ والجماعة، وغيرِ ذلك من العبادات التي يُشرَعُ الجَهْرُ بها؛ فهذه لا إشكال في عَمَلِها علانيةً.

القسم الثاني: ما يكونُ إسرارُهُ أفضَلَ من إعلانِه؛ مثل: الذكر - في غير الحالات التي يشرع الجهر به -، وإسرار الدعاء، وغير ذلك.

القسم الثالث: ما يُظهَرُ تارَةً، ويُخفَى تارَةً؛ مثل الصدقة؛ فإذا خاف على نفسه الرياء، فيتعيَّنُ إخراجها سرًّا؛ ليسُدَّ على نفسه باب الرياء، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ومَن أَمِنَ الرياء، فله حالان:

الأولى: أن يكون في مَوضِعِ القدوة؛ فقد يحسُنُ أن يُظهِرَ ذلك؛ من أجل أن يقتدِيَ به الناس.

والثانية: إنْ لم يكنْ مَوضِعَ قدوةٍ؛ فالأفضل: أن يَعمَل هذا العمل سِرًّا، وإنْ أَمِنَ على نفسه الرياء، والله أعلم.

تنبيه:

ورَدَتْ عبارةٌ مشهورة عن الفُضَيْل بن عِيَاض؛ أنه قال: «تَرْكُ العملِ لأجلِ الناسِ رياء، والعمَلُ مِن أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافِيَكَ الله منهما»[٢].

وجاء عن ابن المبارَك؛ أنه قال: «لو أن رجلَيْنِ اصطحَبَا في الطريق،

---

(١) انظر: «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١/١٥٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٤٦٩).

فأراد أحدُهما أن يصلِّيَ ركعتَيْنِ، فتركهما لأجل صاحبه، كان ذلك رياءً، وإنْ صلَّاهما مِن أجلِ صاحبه، فهو شِرْك»[١].

وفي ذلك إشكال؛ ولبعض أهل العلم تفصيل في هذه المسألة[٢]، وخلاصةُ ذلك: أنَّ كون (العمل مِن أجلِ الناس شرك) هذا واضح، وأمَّا أنَّ (تَرْكَ العمل لأجل الناس رياء)، فليس على إطلاقه، والعبارة ليست عن معصوم، ولولا أنها قولة مشهورةٌ لَمَا ذكَرْتُها؛ فالعمل من أجل الناس وقصدهم هو من الشرك نعم، لكنّ تَرْك العمل أو الإحجام عنه من أجل الناس غايته أنه خطأ، وليس من الرياء في شيء؛ فينبغي للإنسان ألَّا يترُكَ عمله، وإنما يصحِّحُ قصده ونيَّته، بل إن الحارث بن قَيْس يقول: «إذا أتاك الشيطانُ وأنت تصلِّي، فقال: إنك تُرائِي، فزِدْها طُولًا»[٣]، ولو أنه دخَلَ عليه داخل، وهو يقرأ في المصحف، فترَكَ القراءة، ونشَرَ ثوبَهُ على المصحف؛ فمثلُ هذا لا يقالُ: إنه أشرك، وإنما يقالُ: كان ينبغي عليه أن يواصِلَ عمَلَه.

وقد ذكر بعض أهل العلم مَحْمل قول الفُضيل: «تَرْك العمل لأجل الناس رياء» أن ذلك باعتبار أن عمله لو كان لله لم يَضُرّه اطلاع الناس عليه[٤]؛ لأنه لا يُبالي بنَظَرهم واطِّلاعهم، لكن لما كان مُلْتَفِتًا إليهم صار مُرائيًا[٥].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٧١).

(٢) ينظر: «فتاوى اللجنة الدائمة» (المجموعة الأولى) (١/٧٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٦٠).

(٤) ينظر: «روح البيان» (٤/١٠٩)، و«الدرر السنية» (٤/٣٧٧).

(٥) ينظر: «الفروق» للقرافي (٣/٢٢)، لمزيد توجيه العلماء لكلمة الفضيل ـ رحمه الله ـ.

أَنْوَاعُ العَمَلِ المَرْدُودِ(١)

النوع الأول: مَن تمحَّضَتْ إرادتُهم لغير الله تبارك وتعالى؛ وهم على قسمَيْنِ:

أوَّلهما: من تمحَّض قصدُهُ للرياء والسُّمْعة؛ فهم لا يريدون ما عند الله ﷻ، إنما يفعلون الشيء نفاقًا أو رياءً أو سُمْعةً؛ فمثل هؤلاء لا نَصِيبَ لهم عند الله ﷻ.

القسم الثاني: وهم أولئك الذين تمحَّضت إرادتُهم للدنيا، لكنْ لا للرياء والسُّمْعة؛ كمَن يصومُ لِيَصِحّ، ويَصِلُ الرحمَ لِيُنسَأ له في أثره، ويزكِّي ماله لينمُوَ ويبارَكَ له فيه، وكالذي يغزو وهو لا يريد وجه الله، وإنما يريد الغنيمة فقطْ؛ فأولئك لا نَصِيبَ لهم في الآخرة على هذه الأعمال.

وأما أصحاب القسم الأول: فإنْ كان رياؤهم في أصل الإيمان، فإنَّ ذلك يجعلهم ممن توعَّدهم الله ﷻ بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]؛ فحكَمَ عليهم بحبوط الأعمال، ودخول النار؛ وهكذا مَن كان بكل حال مريدًا للدنيا لا يريد سواها: فهي غايةُ هَمِّه، ومَجمَعُ عَزْمه، وهي طَلِبَتُهُ التي مِن أجلها يقومُ ويَقعُد، ومِن أجلها يعمل؛ فليس له مطلوب سواها؛ فمثلُ هذا متوعَّدٌ بهذه العقوبة.

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٣٨٤/٤)، و«قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١٥١/١)، و«الفروق» للقرافي (٢٢/٣ ـ ٢٣)، و«مقاصد المكلفين» (ص ٤٥٢).

النوع الثاني: وهو أن يريدَ وجه الله ﷻ، ويَلتفِتَ مع ذلك إلى أمر لا يجوزُ الالتفات إليه؛ كمَن يَحُجُّ يريد وجه الله ﷻ، ويريدُ مع ذلك أن يقالَ: فلان حاجٌّ، ويجاهِدُ يريد وجه الله ﷻ، ويريدُ مع ذلك أن يقالَ: فلانٌ مجاهِدٌ، أو شجاع، ويتصدَّقُ يبتغي وجه الله ﷻ، ويريدُ أن يقالَ: فلانٌ جَوَادٌ، وهكذا. وهذا هو الرياءُ والسُّمْعة.

فهؤلاء لا نَصِيبَ لهم عند الله ﷻ على هذا العمل، وفي الحديث القُدْسي الصحيح: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

وبعد هذا العَرْضِ يحسُنُ الكلام على هاتَيْنِ العِلَّتَيْنِ: (الرياء والسمعة) بشيء من التفصيل.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

الرِّيَاءُ والسُّمْعَة

معنى الرياء:

الرياء: في كلام العرب: أن يُرِيَ غيرَهُ خلافَ ما هو عليه؛ فيُظهِرَ الخشوع وليس بخاشع، ويُظهِرَ التقوى وليس بتقي[١].

وعبارات العلماء في معنى «الرياء» متفاوِتةٌ، مع تقارُبها في المعنى[٢]:

ومن أدق تعريفاته قول من قال: هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس؛ فيَحْمَدوا صاحبَها.

وهو اختيار الحافظ ابن حَجَر[٣]؛ فصار الرياء يتعلَّق بأمرٍ مُظهَرٍ لقصدِ رؤية الناس؛ لأن الرياء يتعلَّق بحاسَّة البصر.

وقد فرَّق بعضهم بين الرياء والإخلاص؛ بـ «أن المرائي يَعمَلُ لِيُرَى، والمخلِصَ يَعمَلُ لِيَصِل»[٤].

وأما السُّمْعة: فتتعلَّق بحاسَّة السمع؛ وعليه فالتسميع لا يكون إلّا بالعبادات التي تُسمَع؛ كقراءة القرآن، وذكر الله تعالى.

ويُلحَقُ بها: ما يفعله الإنسان من العبادات التي تُرَى؛ كالصلاة والجهاد

---

(١) انظر: «تاج العروس» (١٠٥/٣٨)، (ر أ ى).

(٢) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٣٦).

(٣) «فتح الباري» (١١/٣٤٤ ـ ٣٤٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٨١)، عن جعفر بن محمد الخُلْدِي.

والصَّدَقة، وغير ذلك مما لم يَطَّلِعْ عليه أحد، ولكنه تحدَّث به وأخبَرَ عنه لِيُذْكَرَ بحسن الثناء؛ فصار بذلك مسمِّعًا.

ومنها أيضًا: أن يَطلُبَ من الناس أن يتحدَّثوا عن أعماله، أو يطلُبَ أن يُكتَبَ ذلك عنه، ونحو ذلك.

والتسميع ينقسِم إلى قسمَيْن[١]:

١ ـ تسميعٌ بعمل قد حصَل.

٢ ـ تسميع بعمل لم يُوجَدْ أصلًا.

وكلاهما باطل، وصاحبُهُ متوعَّد بالعقوبة، وعمله مردود:

والثاني أقبح من الأول: فإن صاحبَهُ كلابس ثوبَيْ زُور، متشبِّعٌ بما لم يُعْطَ، يقول: فَعَلْتُ، ولم يَفعَلْ، وقلتُ، ولم يَقُلْ.

وقد يجمع بين الرياء والسُّمْعة، كما لو أنه عَمِلَ أعمالًا أمام الناس يرائي بها، ويشرِّكُ فيها بالنيَّة تشريكًا محرَّمًا، ثم ينقلِبُ إلى آخرين يحدِّثهم بها؛ فهذا يَجمَعُ بين الرياء والسُّمْعة؛ حيث راءى بعمَله الظاهر أمام الناس، ثم سمَّع به في آخرين[٢].

الفَرْق بين الرياء والعُجْب[٣]:

العُجْبُ من أدواء العاملين، وآفات غير المُخبِتين، أمَّا المؤمنون، فخاشعون منكسِرُونَ؛ ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

والعُجْبُ آفةٌ تُحبِطُ العمل؛ يقول النووي: «اعلَمْ: أنَّ الإخلاص قد

(١) انظر: «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١/١٤٧ ـ ١٤٨).
(٢) انظر: «فتح الباري» (١١/٣٤٤)، و«مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٣٧).
(٣) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٣٨).

يَعرِضُ له آفةُ العُجْب؛ فمَن أُعجِبَ بعمله، حَبِطَ عملُه، وكذلك مَن استكبر، حَبِطَ عملُه»[١].

وقال مطرِّف بن عبد الله: «لَأَنْ أَبِيتَ نائمًا وأُصبِحَ نادمًا، أَحَبُّ إليَّ مِن أن أَبِيتَ قائمًا وأُصبِحَ معجَبًا»[٢].

والفَرْقُ بين الرياء والعُجْب: أن الرياءَ مِن باب الإشراك بالخَلْق، وأمَّا العُجْبُ، فإنه من باب الإشراك بالنَّفْس؛ بحيث يَلتفِتُ إلى نفسه، وأنه بذَلَ وقدَّم وعَمِلَ، وأنه جاد بهذه الأعمال الصالحة، وبهذه الصدقات؛ «وهذا حال المستكبِر، فالمرائِي لا يحقِّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والمعجَبُ لا يحقِّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فمَن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، خرَجَ عن الرياء، ومَن حقَّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، خرَجَ عن الإعجاب»[٣].

* * *

---

(١) «شرح الأربعين» للنووي (ص٧).

(٢) أخرجه ابن المبارك (٤٤٨)، وأحمد (ص٢٤١)؛ كلاهما في «الزهد».

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٧٧).

عَلاماتُ الإخلَاص(١)

مِن العلامات الدالَّة على إخلاص العبد أمور:

أولًا: أن يكون هَمُّهُ ذيوع الخير وظهور الحق، وعمل الناس وانتفاعهم به؛ سواءٌ ظهر ذلك على يده، أم ظهر على يد غيره؛ فمقصوده: تكثير الخير، وتقليل الشرّ.

قال الربيع بن سليمان المُرَادي: «دخلتُ على الشافعيِّ وهو مريض، فسألني عن أصحابنا، فقلتُ: إنهم يتكلَّمون، فقال لي الشافعي: ما ناظَرْتُ أحدًا قَطُّ على الغَلَبة، وبوُدِّي أن جميع الخلق تعلَّموا هذا الكتاب - يعني: كُتُبَه - على ألَّا يُنسَبَ إليَّ منه شيء؛ قال هذا الكلام يوم الأحد ومات هو يوم الخميس»(٢).

ثانيًا: أنه لا يبالي بثناء الناس ومَدْحهم وإطرائِهم:

وقد سُئِلَ ذو النُّون عن علامة الإخلاص؟ فقال: «إذا لم يكن في عمَلك محبَّةُ حَمْدِ المخلوقين، ولا مخافةُ ذمِّهم، فأنت مُخلِصٌ إن شاء الله»(٣).

وأما غير المخلِص: فإنَّ الكلمة التي فيها تعظيمه تُرضِيه ولو كانت باطلًا، والكلمةَ التي فيها تنقُّصُهُ تُسخِطُهُ ولو كانت حقًّا، بينما المخلِص حقًّا يَفرَح بالنصح، فيعمل على إقامة ما اعوَجَّ، وإصلاح ما فسَدَ.

---

(١) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٧٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٤٣٢/٢).

(٣) «حلية الأولياء» (٢٤٣/١٠).

قال الحافظ ابن كَثِير: «وقد صنَّف الحافظ عبد الغني - يعني: الأَزْدِيَّ - كتابًا فيه أوهامُ الحاكم، فلما وقف الحاكم عليه، جعَلَ يقرؤه على الناس، ويَعترِف لعبد الغنيِّ بالفضل ويشكُرُه، ويَرجِعُ فيه إلى ما أصاب فيه من الردِّ عليه؛ رحمهما الله»(١).

ثالثًا: أنه لا يبالي لو خرَجَ كلُّ قَدْرٍ له في قلوب المخلوقين؛ فسواءٌ عنده أحبوه أم أبغضوه، أكرموه أم أهانوه، قرَّبوه بالولاء أم نابذوه بالعداء:

وإنما همُّه: إصلاح القلب، وإصلاح العمل، وتصحيح القَصْدِ والإرادة؛ ومِن ثَمَّ: فهو لا يُحِبُّ أن يطَّلع أحد من الخلق على عمَلٍ عمله، بل يُحِبُّه مخبوءًا مستورًا.

رابعًا: أنه إذا عرَضَ له أمران؛ أحدُهما: يُرضِي الله ويُسخِط الناس، والثاني: يُرضِي الناس ويُسخِط الله، قدَّم رضا الله تبارك وتعالى على رضا الناس، ولم يَضُرَّه ما يُصِيبه في جَنْب الله مِن أذاهم:

فإن أرادوا قَتْلَهُ، قال(٢):

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أيِّ شِقٍّ كَانَ فِي الله مَصْرَعِي

وإن أرادوا نَفْيَهُ قال: «ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبستاني في صدري؛ أين رُحْتُ، فهي معي لا تُفارِقني؛ إنَّ حبسي خَلْوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بَلَدي سِيَاحة»(٣).

هكذا يكون المخلِص الذي يريد وجه الله ﷻ؛ لا يَهُمُّهُ أن يتبوَّأ شيئًا من المَرَاتِبِ العالية في الدنيا، إنما هَمُّهُ في مَرْضاة الله ﷻ.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٥/٥٧٨)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/١٠٤٨).

(٢) القائل: هو خُبَيْب بن عَدِيّ رضي الله عنه؛ قاله قبل مقتله؛ وقصَّة مقتله أخرجها البخاري (٣٠٤٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «الوابل الصيِّب» (ص١٠٩).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الإِخْلَاص

قد يتقاصر الإنسان أمام الأنبياء والمرسَلين عليهم الصلاة والسلام، ويقولُ: هؤلاء أيَّدهم الله ﷻ بالوَحْي، ولا سبيل للشيطان عليهم، ولا حاجة لهم بالدنيا، ولكنَّ هؤلاء ممن نذكُرُ أخبارَهم، لم يكونوا من النبيِّين، ولكنْ من ورَثَتِهم مِن العلماء والصِّدِّيقين.

أولًا: حِرْصُهم على استصحاب النيَّة في كلِّ شيء:

فقد كان الإمام أحمد يقول لابنه: «يا بُنَيَّ، انوِ الخير؛ فإنك لا تزالُ بخيرٍ ما نَوَيْتَ الخير»[(١)].

وقال زُبَيْد اليامي: «انوِ في كلِّ شيءٍ تريده الخيرَ، حتى خروجِك إلى الكُنَاسَة[(٢)]»[(٣)].

وقال محمد بن أبي حاتم وَرَّاقُ البخاري: «ورأيته - يعني: البخاري - استَلْقَى على قفاه يومًا، ونحنُ بفَرَبْرَ في تصنيف التفسير، وكان أتعَبَ نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: يا أبا عبد الله، سمعتُكَ تقول يومًا: إني ما أتيتُ شيئًا بغير علم قطُّ منذ عَقَلْتُ؛ فأيُّ علم في هذا الاستلقاء؟ فقال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثَغْرٌ من الثغور؛ خشيتُ

(١) نقله ابن مُفلِح في «الآداب الشرعيَّة» (١/١٣٣).
(٢) الكُنَاسة: موضع إلقاء القمامة.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٦٣).

أن يحدُثَ حدَثٌ مِن أمر العدو، فأحببتُ أن أستريح وآخُذَ أُهْبةَ ذلك؛ فإنْ غافصنا العدو، كان بنا حَرَاك»(١).

وكان نُور الدين زِنْكي ـ الملك المجاهد ـ يُكثِرُ اللعب بالكُرَة، فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك؟ فقال: «إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما أريد بذلك تمرينَ الخَيْلِ على الكرِّ والفرِّ، وتعليمَها ذلك، ونحن لا نترُكُ الجهاد»(٢).

ثانيًا: كِتْمانهم أعمالهم:

يقول الحسن البصري: «إنْ كان الرجل لقد جمَعَ القرآن، وما يشعُرُ به جاره، وإنْ كان الرجل لقد فَقِهَ الفقهَ الكثير وما يشعُرُ به الناس، وإنْ كان الرجل ليصلِّي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوَّار وما يشعُرُون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض مِن عَمَلٍ يَقدِرُونَ على أن يعملوه في سِرٍّ، فيكون علانيةً أبدًا»(٣).

وقال عبد الرحمن بن مَهْدِيّ: «قلت لابن المبارَك: إبراهيم بن أَدْهَم ممن سَمِع؟ فقال: قد سَمِعَ من الناس، ولكنْ له فضل في نفسه، صاحبُ سرائر، وما رأيته يُظهِرُ تسبيحًا، ولا شيئًا من الخير، ولا أكل طعامًا مع قوم قطُّ إلّا كان آخِرَ مَن يرفع يده»(٤).

ثالثًا: إخلاصُهم في جهادهم:

وفي مقام الجهاد تشتدُّ الحاجة إلى إخلاص النيَّة؛ وإلا فالموت والفوت؛ فهذا عبد الله بن المبارَك حينما خرَجَ في غزو بلاد الرُّوم، فالتقى

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/٢).
(٢) «البداية والنهاية» (٤٨٢/١٦).
(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص ٤٥).
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٨٩/٦)، وذلك حرصًا منه على أن يظهر أنه كسائر الناس، وليس ممن يكتفي بلقيمات، فيظن به الزهد والتقلل.

المسلمون بالعدو، وخرَجَ عِلْجٌ من العدو يطلب المبارزة، ويجول بين الصَّفَّيْن، فخرَجَ له رجل من المسلمين، فما أمهله؛ قتله العِلْج، وخرج الثاني فقتله، وخرج الثالث فقتله، فبرَزَ له رجل آخر، فصاوله ثم قتَلَ العِلْجَ، فاجتمَعَ الناس عليه ينظرون مَن هو؟ فجعَلَ يغطِّي وجهه بكُمِّهِ لئلا يَعرِفه أحد، فجاءه رجلٌ يقالُ له: أبو عمرو، فرفع كمَّه عن وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارَك، فقال: «وأنتَ يا أبا عمرو! ممن يشنِّعُ علينا؟!»[١].

رابعًا: إخلاصُهم في صَدَقاتهم:

كان علي بن الحسين زَيْن العابدين إذا كان الليل يَحمِل الصدقات والجُرُب من الطعام على ظهره، ويُوصِلُ ذلك إلى بيوت الأرامل والفقراء في المدينة، ولا يعلمون مَن وضَعَها، وكان يقول: «إن صدقة السر تُطفِئ غضَبَ الربّ»[٢]فلما مات، وجَدُوا في ظهره آثارًا مِن سواد، فعلموا أن ذلك بسبب ما كان يَحمِلُهُ على ظهره من الطعام إلى هؤلاء، فما انقطَعَتْ صدَقَةُ السِّرِّ في المدينة في ذلك الوقت حتى مات[٣].

وهذا ابن المبارَك كان «كثير الاختلاف إلى طَرَسُوس، وكان يَنزِل الرَّقَّة في خان، فكان شاب يَختلِف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، قال: فقَدِمَ عبد الله الرَّقَّةَ مرَّةً، فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجِلًا، فخرج في النفير، فلما قفَلَ من غزوته، ورجَعَ إلى الرَّقَّة، سأل عن الشاب، قال: فقالوا: إنه محبوس لِدَيْنٍ ركبه، قال: فقال عبد الله: وكم مَبلَغ دَيْنه؟ قالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلًا، ووزن له عشَرة آلاف درهم، وحلَّفه ألَّا يُخبِر أحدًا ما دام عبد الله

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/١٦٥).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/١٣٥).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/١٣٦).

حيًا، وقال: إذا أصبَحْتَ، فأخرِجِ الرجل من الحبس، وأدلَجَ عبدُ الله، فأُخرِجَ الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله بن المبارك كان هاهنا، وكان يذكُرُك، وقد خرَجَ، فخرج الفتى في أثره، فلَحِقَهُ على مرحلتَيْن ـ أو ثلاث ـ من الرَّقَّة، فقال: يا فتى، أين كنت؟ لم أرك في الخان، قال: نعم يا أبا عبد الرحمن! كنتُ محبوسًا بدَيْن، قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني، ولم أَعلَمْ به حتى خرجتُ من الحبس، فقال له عبد الله: يا فتى، احمَدِ اللَّهَ على ما وفَّق لك من قضاء دينك؛ فلم يُخْبِرْ ذلك الرجل أحدًا إلّا بعد موت عبد الله»[(١)].

ولهذا قال الإمام أحمد: «ما رفَعَ الله ابن المبارَك إلّا بخبيئة كانت له»[(٢)].

خامسًا: إخفاؤهم لتأثُّرهم وبكائهم:

والأخبار عنهم في ذلك كثيرة موفورة:

فعن الحسَن؛ قال: «إنْ كان الرجل لَيَجْلِسُ المجلِسَ فتجيئه عَبْرَتُه فيردُّها، فإذا خشي أن تسبقه، قام»[(٣)].

وعن محمد بن واسع؛ قال: «لقد أدركتُ رجالًا كان الرجل يكون رأسُهُ ورأسُ امرأته على وساد واحد، قد بَلَّ ما تحت خدِّه من دموعه لا تشعُرُ به امرأته، والله، لقد أدركت رجالًا كان أحدُهم يقوم في الصفّ فتَسِيلُ دموعُهُ على خدِّه لا يشعُرُ الذي إلى جنبه»[(٤)].

فأين هذا ممن يتصنَّع البكاء أمام الناس في أماكن حافلة بالمصلِّين؟! لا

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/١٥٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/٤٥٥)؛ واللفظ له.

(٢) «صفة الصفوة» (٤/١١٥).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٦٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٣٦).

أقول: يغلبه البكاء؛ فمَن غلبه البكاء، فسمع الناس بكاءه، فهو غير ملوم، لكنْ أن يتباكى ويتكلَّف البكاء في صلاته، والناس خلفه، وربما كان أمام أجهزة التصوير، فهذا أمر مذموم.

أمَّا ما صح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ أنه قال: «ابْكُوا؛ فإن لم تَبْكُوا فتَبَاكَوْا»[(١)]، فإنه محمول على فعله خاليًا؛ حيث لا يراه الناس، يقول: تباكَوُا اليومَ تَبْكُوا غدًا، أو تباكَوْا وتشبَّهوا بالبكَّائين.

سادسًا: حِرْصُهم على كتمان صلاة الليل، والعبادة:

فقد كان الواحد منهم يدخُلُ في فراش زوجته، ثم يخادِعُها كما تخادِعُ المرأة صبيَّها، فينسَلُّ لصلاة الليل إذا نامت دون أن تشعُرَ به، ثم يقوم فيصلي؛ كما جاء في ترجمة حسَّان بن أبي سِنَان؛ فيما حكته عنه امرأته[(٢)].

وكان أيوب السَّخْتِياني يقوم الليل كله، فيُخفِي ذلك، فإذا كان عند الصبح، رفَعَ صوته؛ كأنه قام تلك الساعة[(٣)].

وعن الحسن؛ قال: «إنْ كان الرجل لتكون له الساعةُ يخلو فيها فيصلِّي فيوصي أهله، فيقول: إنْ جاء أحد يطلبني، فقولوا: هو في حاجة له»[(٤)].

سابعًا: اجتهادُهُمْ في إخفاء الصيام:

عن ابن أبي عَدِيٍّ؛ قال: «صام داود ـ بن أبي هند ـ أربعين سنةً لا يَعْلَم به أهله، وكان خرَّازًا يحمل معه غداءَهُ مِن عندهم، فيتصدَّق به في الطريق، ويَرجِعُ عشيًّا، فيُفطِرُ معهم»[(٥)].

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/٥٧٨)، وصحَّحه، وأقرَّه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٣٢٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/١١٧).

(٣) انظر: «صفة الصفوة» (٣/٢٩٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٤٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٩٣).

و«أقام عمرو بن قيس المُلَائي عشرين سنة صائمًا ما يَعلَمُ به أهله، يأخُذُ غداءه، ويغدو إلى الحانوت، فيتصدَّق بغدائه، ويصوم وأهله لا يدرون»[١].

وقال ابن رجب: «ولما كان الصيام سِرًّا بين العبد وبين ربه، اجتهَدَ المخلِصون في إخفائه بكلِّ طريق؛ حتى لا يطَّلع عليه أحد...

كم يستُرُ الصادقون أحوالهم ورِيحُ الصِّدْق تَنِمُّ عليهم؛ ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلّا ألبسه الله رداءها علانيةً»[٢].

ثامنًا: ذِكْرُ إشفاقهم على أنفُسِهم، مع شدَّة حذرهم في هذا الباب:

ولهذا كان هشام الدَّسْتَوائي يقول: «والله، ما أستطيع أن أقول: إني ذهبتُ يومًا قطُّ أطلُبُ الحديثَ أريدُ وجه الله ﷻ»[٣].

وكان أحد العلماء[٤] قد ألَّف كتبًا كثيرةً، ولم يُخرجْ واحدًا منها في حياته، فقال لبعض أصحابه: إذا حضَرَتْني الوفاة، فضع يدك في يدي، فإنْ رأيتَني في النزع، وضغَطْتُ على يدِكَ، فلا تُخرِجْ هذه الكتب ـ لأنه لقي ما يكره ـ وإنْ بسَطْتُ يدي، فأخرِجْها؛ يقول: فوضَعْتُ يدي في يده، فلما كان في النزع، بسَطَ يده، فأخرَجْتُ كتبه جميعًا؛ أراد أن ينظُرَ هل قُبِلَ ذلك منه أو لا؟[٥].

وكان عبد الرحمن بن مَهْدي يجلس يوم الجُمُعة إلى سَارِيَة، ويتحدَّث للناس ويفقِّههم ويعلِّمهم، قال: فإذا كثر الناس، فَرِحْتُ، وإذا قلُّوا،

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/١٢٤).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ٨٥)

(٣) «تاريخ الإسلام» (٩/٦٥٥).

(٤) وهو: أبو الحسن الماوردي.

(٥) انظر: «تاريخ الإسلام» (٣٠/٢٥٤).

حَزِنتُ، فسألتُ بشر بن منصور[١]، فقال: «هذا مجلسُ سُوءٍ؛ فلا تَعُدْ إليه، قال: فما عُدتُّ إليه»[٢].

وهذا عَوْن بن عبد الله يقول: «إذا أعطيتَ المسكين شيئًا، فقال: بارَكَ الله فيك، فقل أنت: بارَكَ الله فيك؛ حتى تخلُصَ لك صدقتك»[٣].

تاسعًا: كَرَاهِيَتُهُمْ للتشبُّع بما لم يُعْطَوْا:

قال ابن القاسم للإمام مالك: ليس بعد أهل المدينة أعلَمُ بالبيوع مِن أهل مصر، فقال مالك: «مِن أين عَلِمُوها؟»، قال: منك، قال مالك: «ما أَعْلَمُها أنا؛ فكيف يَعْلَمُونها؟!»[٤].

عاشرًا: كراهيتهم للشُّهْرة:

وأخبارهم في ذلك مستفيضة؛ فقد كانوا يَكرَهُونَها أشد الكراهية، حتى إنَّ إبراهيم بن أَدْهَم قال: «ما صدَقَ الله عبدٌ أحبَّ الشهرة»[٥].

وقال بِشر بن الحارث: «لا أعلم رجلًا أحَبَّ أن يُعرَفَ إلّا ذهَبَ دِينُهُ وافتضَحَ»[٦].

ولما قَدِمَ عبد الله بن المبارَك المِصِّيصةَ، سأل عن محمد بن يوسف الأصبَهاني، فلم يعرفه أحد، فلما لقيه، قال: «مِن فضلك لا تُعرَف»[٧]؛ رأى أن ذلك مَنْقَبة، وهو أنه مغمور لا يَعرِفه أهل البلد.

---

(١) هو: بشر بن منصور السَّليمي أبو محمد البصري.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٢/٩).
(٣) المصدر السابق (٢٥٣/٤).
(٤) «ترتيب المدارك» (١٨٥/١)، و«الموافقات» (٣٣٠/٥).
(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٨٠).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٧٢).
(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٢٦/٨).

ويقول الإمام أحمد: «أُرِيدُ أن أكون بشِعْبٍ في بعض تلك الشعاب بمكَّة حتى لا أُعرَف؛ قد بُلِيتُ بالشهرة، إني لأتمنَّى الموت صباحًا ومساءً»(١).

ويقول مَعْمَر: «كان في قميص أيُّوب ـ السختياني ـ بعضُ التذييل، فقيل له، فقال: «الشهرة اليوم في التشمير»(٢).

وكان سُحْنون يقول: «كان بعض مَن مضى يريدُ أن يتكلَّم بالكلمة، ولو تكلَّم فيها، لانتفَعَ بها خَلْقٌ كثير، فيَحبِسُها، ولا يتكلَّم بها؛ مخافة المباهاة»(٣).

وليس معنى ذلك ـ كما سبق ـ أن نترُكَ الدعوة إلى الله ﷻ، والجهادَ في سبيله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس العلم، بحجَّة أننا نُؤثِرُ الخمول، ولا نريد الشهرة؛ فلقد كان السلف ﷺ ـ مع ما تقدَّم من أحوالهم ـ يُجاهِدون في سبيل الله، ويعلِّمون الناس العلم، ويَجلِسون في مجالسهم للوعظ والإرشاد، ففتَحَ الله بهم البلاد، ونشَرَ بهم دِينَهُ في الأرض، وهدى بهم الخلق بصِدْقِهم وإخلاصهم الدين لله؛ لذا لا يجوز لأحد أن يقعُدَ في بيته، ويترُكَ الدعوة إلى الله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس العلم، ويقول: كانوا يَستتِرُونَ بأعمالهم، ولا يحبُّون الظهور في الناس، ولا العلوَّ في الأرض؛ فهذا قولُ مَن لم يَعرِفْ حالهم.

❊ ❊ ❊

(١) «تاريخ الإسلام» (٨٢/١٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٦٦/١٢).

اليَقِينُ

تَوْطِئَة

إن العبد مفتقِر إلى يقينٍ راسخٍ يثبِّت به إيمانه حينما تَعصِف الشبهات المزلزلة، كما أن المؤمن بحاجةٍ إلى يقينٍ يحمله على البَذْل، والتضحية، والعمل، وإيثار ما عند الله تعالى على هذه الدنيا الفانية، وهكذا إذا لاح الطَّمَع، وتطلَّعت النفوس إلى مطلوباتها التي تهواها وتشتهيها؛ فإن اليقين يكون كابحًا لها عن الشهوات بإذن الله.

❊ ❊ ❊

مَعنَى اليَقِينِ وَحَقِيقَتهُ

اليقين في اللغة: العِلْم، وإزاحة الشك، فاليقين نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل؛ تقول: عَلِمْتُهُ يقينًا(١).

وأما اليقين في معناه الشرعي: فهو سكونُ الفهم، مع ثبات الحُكْم(٢)؛ بحيث لا يحصُلُ لصاحبه تردُّدٌ وتشكُّكٌ ورِيبة وقلق في داخله، وإنما يكون مطمئنًا إلى ما يعتقده.

وهذا اليقين ينتظِمُه أمران:

أحدهما: عِلْمُ القلب.

والثاني: عَمَلُ القلب(٣).

فالعبد - مثلًا - يَعلَمُ علمًا جازمًا أن الله ربُّ كلِّ شيء ومليكه، وأنه لا خالق غيره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله تعالى، والتوكُّل عليه، وقد لا يصحبه العمل بذلك؛ لغفلة القلب عن هذا العلم التامِّ الذي يوجب الاستحضار الدائم لمعاني العبوديَّة؛ فصاحب هذه الغَفْلة يستسلِمُ للخواطر إذا غفَلَ عن الحقائق التي عَلِمَها، فتجد تلك الخواطرُ طريقَها إلى قلبه واعتقاده، وإلى ما يَدِينُ لله ﷻ به.

---

(١) انظر «مقاييس اللغة» (١٥٧/٦)، و«لسان العرب» (٤٥٤/١٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/٥٧٠ - ٥٧١)، و«مفردات القرآن» للراغب (ص٥٥٢)، (ي ق ن).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢٩/٣).

فإذا أيقن العبد - مثلًا - بما يكون من أمور الآخرة؛ مِن البعث، والحساب، وتطايُرِ الصحف، والعَرْضِ على الله، والمرور على الصراط، وحُسْنِ الجزاءِ أو سُوءِ العقاب -: صار قلبه بمنزلة المشاهِدِ لها كأنه يعايِنُها.

وهذه حقيقة اليقين التي وصَفَ الله تعالى بها أهل الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

قال بعضهم: «اليقين: مشاهَدَةُ الإيمان بالغيب»[1]؛ فكما أن العَيْنَ تشاهِدُ الحقائق الماثلة أمامها في عالم الشهادة؛ فإن اليقين هو مشاهَدَةُ الغيب بالقلب، فإذا وصَلَ القلبُ إلى هذه المرتبة، وصَلَ إلى أعلى المنازل، ونال أسمى الدرجات.

* * *

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٢٧٩/٢٤).

أَهَمِّيَّةُ اليَقِينِ وَمَنزِلَتُه

اليقينُ من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، وبه تفاضَلَ العارفون، وفيه تنافَسَ المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وقد خَصَّ الله سبحانه أهله بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخصَّ أهلَ اليقين بالهدى والفلاح مِن بين العالمين؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وأخبر عن أهل النار: أنَّهم لم يكونوا من أهل اليقين؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

فاليقين رُوحُ أعمال القلوب، وهو حقيقة الصِّدِّيقِيَّة، وهو قُطْب هذا الشأن الذي عليه مداره(١).

وقد جاء عن بعض السلف: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»(٢).

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٩٧).

(٢) ذكره البخاري معلَّقًا (١/١٠)، عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفًا، وصحَّحه ابن حجر في «الفتح».

وهذا صحيح؛ فإن العبد قد يصبر، ولكنَّ قلبه يتحرَّك بالخواطر والإرادات، وتَرِدُ عليه أنواع الواردات، فهو يَمُوجُ بصاحبه، إلّا أنَّ صاحبه يتحمَّل ويصبر، ويثبِّتُ نفسه مع مُقَاسَاته لألم المُصيبة.

وأمَّا صاحب اليقين، فإنه في مرتبة فوق ذلك، فهو يَعُدُّ البلاء نعمة أصلًا، ويَفرَحُ بالبلاء إن وقَعَ كما يفرح غيره بالعافية، ويَركَنُ إلى الله ﷻ، ويطمئِنُّ قلبه؛ فكان اليقين بهذا الإيمانَ كلَّه، وهو فوق الصبر.

قال ابن القيِّم: «اليقين والمحبَّة هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قِوَامُه، وهما يَمُدَّانِ سائر الأعمال القلبيَّة والبدنيَّة، وعنهما تصدُرُ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوَّتهما قوَّتها»[(١)].

وقال الحسن: «باليقين طُلِبَتِ الجنَّة، وباليقين هُرِبَ من النار، وباليقين أُدِّيَتِ الفرائض، وباليقين صُبِرَ على الحق»[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٤٧٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، (ص ٢٨٢).

اليَقِينُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

قد ذكر الله تعالى اليقين في كتابه العزيز في مواضع متعدِّدة:

فتارَةً: يذكره صفة لأهل الإيمان؛ كقوله: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وتارَةً: يذكُرُ أن أصحابه هم المنتفِعون بالقرآن؛ كما في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وتارَةً: يذكره حكمةً ربانيَّةً، ومرتبةً عليَّةً يبلُغُها من يصطفي من عباده؛ فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وتارَةً: يذكُرُ تصريفه للأمور، وتفصيله للآيات؛ لغاية اليقين بالغيبيَّات؛ كما في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وتارَةً: يذكره ثاني اثنَيْنِ تُنالُ بهما الإمامة في الدين؛ كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

يقول ابن تيميَّة: «الصبر واليقين، بهما تُنالُ الإمامة في الدِّين»(١).

وتارَةً: يَذُمُّ من لا يقين عنده؛ كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وجاء عن النبي ﷺ عدة أحاديث صحيحة، يبيِّن فيها فضل اليقين ومنزلته وشرفه؛ كقوله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ؛ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥٨/٣).

وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ»(١)، وسمع النبي ﷺ بِلَالًا ينادي بالصلاة، فلمَّا سكَتَ، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ مِثْلَ هَذَا يَقِينًا، دَخَلَ الجَنَّةَ»(٢)؛ فدَلَّ ذلك على أن اليقين سببٌ لدخول الجنة.

والأحاديث في هذا كثيرة، وتتبُّعها أمر يطول، وحَسْبُكَ مِن القلادة ما أحاط بالعُنُق.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٣١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي (٦٧٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٤٦).

مَرَاتِبُ اليَقِين(١)

لما كان العلم على مَرَاتِبَ ودَرَجات، وكان اليقين درجةً من درجاته، شابهه في هذه الصفة، فكان على ثلاث مراتب: أدناها: مرتبة «عِلْم اليقين»، وتليها: مرتبة «عَيْن اليقين»، وأعلاها: مرتبة «حَقّ اليقين»، وقد ذكر الله ﷻ مرتبتَيْنِ من مراتبه في قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧]، وذكر المرتبة الثالثة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

فعلم اليقين: هو التصديق الكامل الجازم، الذي لا تردُّد فيه؛ بحيث لا يَعرِضُ له شكٌّ، ولا شُبْهة، ولا ريبٌ؛ بحالٍ من الأحوال، فيكون علم اليقين بالنسبة للقلب، كالمرئي بالعين بالنسبة للبصر؛ وذلك كعلمنا بالجنة، بوجودها ونعيمها؛ كما أخبرنا الله ﷻ، فنَعلَمُ أنها دار المتقين، وأنها مَقَرُّ المؤمنين؛ فهذه مرتبة علم اليقين.

ثم إذا كان اليوم الآخر، ورأينا الجَنَّةَ بأعيننا، فإن هذه المرتبة هي مرتبة عَيْنِ اليقين، والفرق بين هذه المرتبة والتي قبلها هو كالفرق بين العلم والمشاهَدة.

وقد جاء عن ابن عبَّاس ﵄، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ؛ إِنَّ الله ﷻ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي العِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الأَلْوَاحَ، فَانْكَسَرَتْ»(٢).

---

(١) انظر: «التبيان، في أقسام القرآن» (ص٢٨٤ ـ ٢٨٦)، و«مفتاح دار السعادة» (١/٤٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/٢١٥، ٢٧١)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الموارد» (١٧٥١).

وهذه المرتبة ـ مرتبة عين اليقين ـ: هي التي سألها إبراهيم ﷺ ربَّه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ فإبراهيم ﷺ كان كامل الإيمان، راسخ اليقين، لا تردُّد عنده ولا اشتباه ولا ريب، ولكنه أراد أن يَنتقِل من مرتبة من مراتب الكمال؛ وهي مرتبة علم اليقين، إلى مرتبة أعلى منها؛ وهي مرتبة عَيْن اليقين؛ فيرى ذلك بأُمِّ عينه، وقد سمى النبي ﷺ المسافة التي بين علم اليقين وعين اليقين: «شَكًّا»، فقال ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»(١).

وأما المرتبة الثالثة، فهي مرتبة حَقِّ اليقين؛ وهي مباشَرةُ الشيء بالإحساس فعلًا، فإذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، كانوا بذلك قد بلغوا هذه المرتبة، وهكذا حينما يُخبِرُكَ مخبِرٌ بأن في هذا الوادي ماءً، فإن كان ثِقَةً، حصَلَ بخبره علم اليقين، فإذا شاهدتَّ الماء، كان ذلك عين اليقين، فإذا بلَغْتَ الماء، واغترَفْتَ منه، وشربت، أو اغتسَلْتَ، فإن ذلك يكون حق اليقين(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢، ٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ. وانظر لتوجيه هذه الجملة «مدارج السالكين» (٢/٤٠٣)، و«التبيان، في أقسام القرآن» (ص ٢٨٦)

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٤٥ ـ ٦٤٧).

مَرَاتِبُ النّاسِ فِي اليَقِين[(١)]

وإذا كان اليقين يتفاوَتُ في نفسه، فإنَّ هذا أيضًا يقتضي أن أهله يتفاوتون فيه:

فمنهم: مَن يكتمل يقينه، ويصير المعلوم بالنسبة إلى قلبه كالمُشاهَد الذي يشاهده بعينه سواءً بسواء.

ومنهم: مَن يصل إلى منزلة اليقين، ولكنه لا يبلُغُ هذه المرتبة.

ومِن ثَمَّ فإن الناس يتفاوتون بسبب ذلك في علمهم وجِدِّهم، وهمَّتهم ونشاطهم، وسعيهم للدار الآخرة، والعمل في مرضاة الله تبارك وتعالى؛ فعِلْمُ اليقين على مراتب:

تارَةً: يعلم العبد الحقيقة علمًا جازمًا لثقته بالمخبِر.

وتارَةً: يعلم صدقه، ويتيقَّنه، وتقوم الدلائل في قلبه عليه حتى يصير ذلك كالمُشاهَد لديه؛ وهذه مرتبة أعلى.

ومِن أهل العلم: مَن يقول: إن عَيْنَ اليقين أيضًا نوعان:

النوع الأول: يحصُلُ لقلب المؤمن في الحياة الدنيا؛ وهذا إذا ارتقى إيمان العبد، ورسَخَ اليقين في قلبه واستقرَّ، وصار كأن حقائق الآخرة ماثلة بين عينَيْه؛ كأنه يشاهد عرش الرحمن، تَحُفُّ به الملائكة، وكأنه يرى الجنة والنار.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/٢٧٠)، و«الفوائد» (ص٥).

والنوع الثاني: في الآخرة: وذلك بمشاهَدَتِها بالعَيْنِ الباصِرة.

وكثير ممن يَنتسِبُ إلى الإسلام، ويصدِّق الرسول ﷺ بما جاء به، لا يَصِلُ به ذلك إلى درجة اليقين الكامل في القلب، وإنما يكون ذلك معلومًا له في الجملة، مع تعرُّضه ـ لعدم رسوخه ـ للشبهات والشكوك؛ فهم يؤمنون بالرسول ﷺ إيمانًا مجمَلًا؛ فهذا الإيمان يكفيهم وينجِّيهم عند الله ﷻ، ولكنه لا يصل بهم إلى الدرجة الكاملة من اليقين[1].

* * *

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٤٥ ـ ٦٤٧).

اخْتِبَارُ اليَقِين

إن جَرَيان الأقدار على قلوب المؤمنين، ومواقف القلوب حين تَعَرُّضِها لها، لمن دواعي التمحيص التي تتبيَّن بها أحوالها، فيُعرَفُ بها المذبذبون والمستيقِنون؛ فمن تلك المواقف:

الموقف الأول: موقف التوبة:

فالعبد الذي قد كَمُلَ اليقين في قلبه، لا يتردَّد إذا وقع منه تقصير أو ذنب في المبادرة إلى التوبة، والرجوع إلى الله ﷻ، والإنابة إليه؛ لأنه يَعلَمُ أنه سيأتي عليه يوم يحاسَبُ فيه على القليل والكثير، والدقيق والجليل، وسيؤاخذ بجُرْمه؛ فلا تردُّد عنده في التوبة.

وأمَّا مَن ضَعُفَ يقينه، فإنه يحتاج إلى تحريك القلب بالوعظ والتذكير؛ ليَرِقَّ وتزول عنه تلك الغشاوة والغفلة؛ فيلين للتوبة، وربما احتاج صاحبه إلى نَوْعٍ مداراة وطولِ صُحْبة، فقد تؤثِّر فيه الذكرى، فيَعِدُ بالتوبة، ثم يتراجع لأنسه بالعهد الأول، وخوفه من فَقْدِ الأصحاب أو الوظيفة أو المركز، ثم يبقى متردِّدًا متذبذبًا يقدِّمُ رِجْلًا، ويؤخِّرُ أخرى، وما ذلك إلَّا لضعف يقينه.

فهذه حقيقةٌ يحتاج الإنسان أن يتأمَّلها مع نفسه، ومع غيره.

هذا الموقف الأوَّل الذي يُختبَرَ فيه اليقين.

الموقف الثاني: موقف المصيبة:

فكثير من الناس يُحسِنُ الكلام عن الصبر والثبات والإيمان، وعظيم الجزاء في ذلك، ولكنه إذا وقَعَتْ به المصيبة، اضطرَبَ قلبه، وجَزِعَ، ولم يثبُتْ، ولم يَصبِرْ، وإذا به متسخِّطٌ على ربه تبارك وتعالى، مُعرِضٌ عن الرضا بقضائه، معترِضٌ على أقداره، متناسيًا قول الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

أمَّا من كان متحقِّقًا باليقين، فإنه عند المصيبة رابِطُ الجأش، ثابت، صابر، حابس لسانَهُ عن التسخُّط، وجوارحَهُ عن فعل ما لا يليق؛ مِن شق جَيْبٍ، أو لطم خدٍّ، أو نحو ذلك مما يفعله مَن لا يقين عنده.

الموقف الثالث: حال الحاجة:

إذا احتاج العبد وافتقَرَ إلى المخلوقين في أمور دنياه:

فإنْ كان قلبه يَلتفِتُ ويتطلَّع إليهم، ويتعلَّق بهم لينال ما عندهم، فإنَّ قلبه لم يتحقَّق باليقين بَعْدُ.

وأما إذا كان قلبه متوجِّهًا إلى الله وحده لا شريك له، لا يلتفِتُ إلى أحد من المخلوقين، ولا يتعلَّق بهم، فإن هذا هو اليقين الكامل.

الموقف الرابع: حال الغنى:

فمِن الناس مَن لا يشكُرُ إذا أغناه الله ﷻ، فيطغى ويكفُرُ، وينسى أن الله تعالى هو الذي أعطاه وأولاه، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منَعَ، وأن الكون ملكه بما فيه؛ فينسى هذا، ويقول: إنما أُوتِيتُهُ على علم عندي، إنما حصَّلته بجِدِّي واجتهادي وجهدي، وتحصيلي وذكائي وعلمي بوجوه المكاسب، وربما قال: حصَّلْتُهُ ووَرِثْتُهُ كابرًا عن كابر، إلى غير ذلك مما يكون فيه نسيان المُنعِم، والغَفْلة عن مقام استشعار إنعامه وإفضاله على العبد؛ فيكون بذلك كافرًا بنعمة ربِّه ﷻ.

* * *

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ اليَقِين

أعظم ذلك: أن نعلم أن التوفيق والمواهب بيد الله ﷻ؛ فما على العبد إلَّا أن يلجأ إليه، وأن يصدُقَ في الإقبال عليه، فيسأل ربه قائمًا وقاعدًا أن يرزقه الإيمان الكامل، واليقين الجازم الراسخ الذي لا يتزعزع، مع مَدِّ الأسباب الموصِّلة إلى هذه المرتبة؛ ومن هذه الأسباب:

١ ـ العلم:

فهو أول دَرَجات اليقين، كما قيل: «العلم يَستعمِلُك، واليقين يَحمِلُك»(١).

وهذا العلم الذي يحتاج إليه العبد لِيَصِلَ إلى مرتبة اليقين، يشمل أنواعًا؛ وهي العلمُ بالله، والعلمُ بالنفسِ، والعلم بالخلق:

أمَّا العِلْمُ بالله ﷻ: فيشمَلُ العلمَ بأنه المألوهُ المعبودُ وحده لا شريك له، وأنه لا يستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سواه؛ فلا يلتفِتُ قلبه إلى أحد من الخلق، ولا يتعلَّق بهم.

ويشمل العلمُ بالله أيضًا: العلمَ بربوبيَّته ﷻ للكائنات، وأنه مدبِّر هذا الكون ومصرِّفه، وأن الخلق عبيده، يربِّيهم ويتصرَّفُ فيهم كيف شاء؛ إذا علم العبد ذلك، اطمأنَّ إلى رزقه، واطمأنَّ إلى أجله، واطمأنَّ إلى أقداره،

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٤٧٨).

وإلى عطائه ومنعه؛ فلا يَعترِض على الله، وإنما يرضى؛ فإذا أصابته نعماء شكر، وإذا أصابته ضرَّاء صبر، مؤمِنٌ بربه، موقِنٌ بوعده ووعيده.

ويشمل العلمُ بالله أيضًا: العلمَ بأسمائه وصفاته؛ فإذا عرَفَ العبد ربه معرفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته، فإن قلبه ينشرح بذلك، ويطمئِنُّ إلى ربه المتصف بصفات الكمال، ويُحسِنُ الإقبال عليه بتمام الافتقار والحاجة إليه؛ فيجد من ربه الإغناء والعطاء، والدفع والمنع، ويجد كل مطلوب له.

فيَعلَمُ أن الله ﷻ هو العظيم؛ فلا يعظُمُ أحد في عينه عظمةً لا تصلُحُ إلا لله، ويعلم أن الله هو الرقيب؛ فلا تمتد عينه ولا يده إلى حرام، وهكذا في سائر الأسماء والصفات؛ فعندها لا يصدُرُ منه شيء ينافي هذا الإيمان وهذا اليقين الذي وقَرَ في قلبه بمعرفته بأوصاف الله ﷻ الكاملة.

وأما العلم بالنَّفْس والعلم بالخَلْق: فيعلم قدر نفسه وضعفه وعجزه؛ فلا يَركَنُ إلى نفسه، ولا إلى أحد من المخلوقين؛ لعلمه أنهم مربوبون، وأن الله ﷻ يصرِّفُهم ويدبِّرُهم، وأنه بيده ملكوت كل شيء؛ ومِن ثَمَّ فلا يمتد طمعه إلى أحد غير الله ﷻ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «إذا أردتَّ اليقين، فكن أفقرَ الخلق إلى الله».

قال شَقِيق بن إبراهيم البَلْخي: «مَن أراد أن يَعرِفَ معرفَتَهُ بالله، فلينظُرْ إلى ما وعده الله ووعده الناسُ؛ بأيهما قلبُهُ أوثق؟!»[1].

٢ ـ دفع الواردات والخواطر وغير ذلك من الأمور المنافية لليقين:

ومِن ثَمَّ كان جهاد الشيطان على مرتبتَيْن:

المرتبة الأولى: جهاده فيما يُلقِيهِ مِن الشبهات والوساوس، والخواطر المزعزِعة لليقين؛ وهذا لا يَسلَمُ منه العبد إلَّا إذا دفَعه، وجاهد شيطانه بدفع

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٦٤).

هذه الخواطر والوساوس والشُّبَه؛ فلا يقرأ في كتب الشُّبَه، ولا يجادِلُ أهلها، ولا يسمع منهم، ولا يجعَلُ قلبه عُرْضةً لكلِّ آسرٍ وكاسرٍ، وقاطع طريق، بل يَرْبَأ بنفسه عن طَرْقِ منتَدَيات شبكة الإنترنت ومواقع تواصُلِها الاجتماعي التي تُلقِي بشِبَاك الشُّبَه على العقول مِن قِبَل أهل الضلالة؛ فلا يجعل قلبه عُرْضةً لسهام هؤلاء؛ فيصيبه منها ما لا يسلم منه أبدًا.

المرتبة الثانية: جهاده فيما يُلقِيهِ من الشهوات؛ فإنه إذا جاهد الشيطانَ في باب الشهوات، أورَثَهُ ذلك صبرًا؛ كما قال ابن القيِّم(١)؛ ولهذا كانت الإمامة في الدين تُنَالُ بالصبر واليقين؛ فالصبر يدفَعُ الشهواتِ والإرادات الفاسدة، واليقين يدفَعُ الشكوكَ والشبهات.

٣ ـ العزم الجازم على العمل بمرضاة الله ﷻ:

فيُقدِمُ العبد على ذلك من غير نظرٍ في الحسابات(٢)؛ بخلاف مَن يُحجِمُ عن عمل الصالحات مِن توبة وصَدَقة وصوم لأجلِ أنْ حسَبَ الأرباح والخسائر؛ فإنه تنقضي أيامه، ولم يتقرَّب إلى الله ﷻ كثيرًا؛ فالعبد بحاجة إلى الإقدام والجزم؛ وصدق العزيمة على الخير.

٤ ـ مفارقة الشهوات والحظوظ النفسانية:

فإذا كان العبد منغمِسًا في شهواته، متَّبِعًا لنَزَواته، فأنَّى له باليقين؟!

يقول ابن القيِّم: «أصل التقوى مباينة النَّهي، وهو مباينة النَّفْس؛ فعلى قدر مفارقتهم النفس وصَلُوا إلى اليقين»(٣).

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/١٠).

(٢) وهذا فيما كان فيه مصلَحة؛ بخلاف ما إذا تعارَضَتِ المصالح والمفاسد، أو تزاحَمَتِ المصالح أو المفاسد.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٣٩٩).

٥ ـ التفكُّر في الأدلَّة التي تُوصِلُ إلى اليقين:

فكلما توارَدَتِ البراهين المسموعة، والمعقولة، والمشاهَدة، على قلب العبد، كان ذلك زيادةً في يقينه وإيمانه؛ وهذا شيءٌ مشاهَد؛ فكثير من الأشياء التي في حياتنا والتي نعايشها، وكثير من الأمور التي شاهدناها، والتي لم نشاهدها: تيقَّناها، مع أن الله ﷻ قد أخرَجَنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا؛ فكيف حصَّلنا اليقين فيها؟

حصَّلنا هذا اليقين: إمَّا بالمشاهَدة بعد أن كان ذلك معلومًا، أو بالمشاهَدة ابتداءً، أو بتوارُد الأدلَّة؛ فنعلم أن هذا الأمر حق لا يقبل الجدل، وأنه شيء ثابت لا يقبل التشكيك، مع أنه قد يكون في نفسِه باطلًا، وقد يكون لا حقيقة له.

❊ ❊ ❊

ثَمَراتُ اليَقِين

متى غُرِسَتْ شجرة اليقين في القلب، آتت أُكُلَها كلَّ حِين بإذن ربها؛ فمِن ثمار اليقين:

١ ـ أنه إذا خالَطَ قلبَ الإنسان، أفاض على قلبه نورًا وإشراقًا:

ونفى عنه كِيرَ الشكوك والرِّيْب والشبهات التي تُقلِقُه؛ فيكون القلب مستريحًا مطمئنًّا، ويرتفع عنه السَّخَط والهم والغم الذي يجلبه الشك والريب؛ فيمتلئ قلبه محبَّةً لله، وخوفًا منه، ورضًا به، وشكرًا له، وتوكُّلًا عليه، وإنابةً إليه؛ فهو جِذْرُ جميع المقامات، والحامل عليها؛ كما قال ابن القيِّم[1]؛ ـ وهو يصف أثر اليقين على القلب، وما يُفِيضُه على الجوارح، بعد أن رآه رأي عَيْن في شيخه ابن تيميَّة ـ: «وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدَّس الله رُوحَه يقول: إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لا يدخُلُ جنة الآخرة؛ وقال لي مرَّة: ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبُسْتاني في صدري؛ أين رُحْتُ، فهي معي لا تُفارِقُني؛ إنَّ حبسي خَلْوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سِيَاحة.

وقال لي مرَّةً: المحبوسُ: مَن حُبِسَ قلبُهُ عن ربه تعالى، والمأسورُ: مَن أَسَرَهُ هواه.

وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحدًا أطيَبَ عيشًا منه قطُّ، مع ما كان فيه مِن ضيق

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٩٨).

العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدُّها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو - مع ذلك - مِن أطيب الناس عيشًا، وأشرَحِهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأَسَرِّهم نَفْسًا؛ تلوح نَضْرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتَدَّ بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه؛ فما هو إلّا أن نراه ونَسمَعَ كلامه؛ فيذهب ذلك كلُّه، ويَنقلِبَ انشراحًا، وقوةً، ويقينًا، وطمأنينةً؛ فسبحان مَن أشهَدَ عباده جَنَّته قبل لقائه، وفتَحَ لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم مِن رَوْحِها، ونسيمها، وطِيبها ما استفرَغَ قواهم لطَلَبِها والمسابقة إليها»(١).

٢ - أنه سبَبٌ في الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة(٢):

الفلاحُ: تحصيلُ المطلوب، والنجاةُ من المرهوب؛ ولهذا قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وفي ذلك يقول ابن القيِّم: «لا يتم صلاح العبد في الدارَيْنِ إلَّا باليقين والعافية؛ فاليقين يَدفَع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه»(٣).

٣ - أنه يُورِثُ القلب الزهد في الدنيا وقِصَر الأمل:

فلا تتعلَّق نفسه بها، وإنما يكون زاهدًا فيها؛ لأنه يَعلَم أنها ليست موطِنًا له، وإنما هي دار ابتلاء، وأنه فيها كالمسافر يحتاج إلى مثل زاد الراكب، ثم بعد ذلك يجتاز ويَعبُرُ إلى دار المقام؛ قال بلال بن سعد: «عبادَ الرحمن، اعلموا أنكم تَعمَلون في أيام قصار لأيَّامٍ طوال، في دار زوال

---

(١) «الوابل الصيِّب» (ص ١٠٩ - ١١٠).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٩٧).

(٣) «زاد المعاد» (٤/١٩٧).

لدار مقام، ودار حُزْن ونصب لدار نعيم وخُلْد، ومَن لم يَعمَلْ على اليقين، فلا يَتَعَنَّ»[(١)].

ولهذا فإنه لا ينشغِلُ بالدنيا ويتكالَبُ عليها إلَّا مَن كانت الغفلة غالبة على قلبه، وكان اليقين مترحِّلًا عنه؛ قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»[(٢)].

٤ ـ أنَّه يُثمِرُ الانتفاع بالآيات والبراهين[(٣)]:

قال الله ﷻ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

فالآيات إنما تؤثِّر وتحرِّك نفوس أصحاب اليقين، أما أهل الغفلة، فإنهم لا ينتفِعون بها؛ ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

٥ ـ أنَّه يولِّد الصبر:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «لا يمكن العبدَ أن يَصبِرَ إنْ لم يكن له ما يطمئنُّ له، ويتنعَّم به، ويغتذي به؛ وهو اليقين»[(٤)].

كما قال الله ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]؛ فأمره أن يصبر ولا يتشبَّه بالذين لا يقين عندهم في عدَم الصبر؛ فإنهم لعدَم يقينهم، عُدِمَ صبرهم»[(٥)].

والعبد يجب عليه أن يروِّض نفسه على الحد الأدنى وهو الصبر؛ لأنه ليس دون الصبر إلَّا الجَزَعُ والسَّخَط؛ فيذهب الأجر، ولا يُستَرَدُّ المفقود؛

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين».

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢١)؛ واللفظ له، ومسلم (٤٢٦)؛ من حديث أنس ﷺ.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٩٧).

(٤) «الاستقامة» (٢/٢٦١).

(٥) «التبيان، في أقسام القرآن» (ص ١٣٧ ـ ١٣٨)؛ بتصرف يسير.

فإنَّ ما ذهب لا يرجع، وما فات لا يعود، فليس للعبد إلّا الصبر؛ ليُؤجَرَ على هذه المصيبة. وأما إذا تسخَّط، فإنه يأثم، ويفوته الأجر، ثم يسلو سُلُوَّ البهائم من غير احتساب.

٦ ـ الرضا بقضاء الله تعالى:

ف: «اليقينُ: أفضل مواهب الربِّ لعبده، ولا تثبُتُ قدَمُ الرضا إلّا على درجة اليقين؛ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هو الذي إذا أصابته مصيبةٌ، رضي وعرَفَ أنها من الله»[١]؛ فلهذا لم يحصُلْ له هداية القلب والرضا والتسليم إلّا باليقين»[٢].

وكان عطاء الخُرَاساني لا يقوم من مجلسه حتى يقول: «اللهُمَّ، هَبْ لنا يقينًا بك حتى تهوِّنَ علينا مصيبات الدنيا، وحتى نَعلَم أنه لا يصيبنا إلّا ما كُتِبَ لنا، ولا يأتينا من هذا الرزق إلّا ما قَسَمْتَ لنا به»[٣].

فالواجب على العبد أن يوقن؛ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن رزقه يطلُبُهُ، كما يطلبه أجله؛ فعليه أن يتقي ربَّه، ويُجمِل في الطلب.

٧ ـ تحوُّلُ البلاء إلى نِعْمة، والمِحْنة إلى مِنْحة؛ في ميزان المُوقِن[٤]:

فعن وهب بن منبِّه؛ قال: «لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يَعُدَّ

---

(١) علَّقه البخاري في «صحيحه»، كتاب التفسير، سورة التغابن (٣/٣٥٧)، عن علقمة، عن عبد الله.
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/٤٧٨).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٢٠).
(٤) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٤٧٨).

البلاء نعمة، ويَعُدَّ الرخاء مصيبة؛ وذلك أن صاحب البلاء ينتظِرُ الرخاء، وصاحب الرخاء ينتظِرُ البلاء»[١].

٨ ـ التوكُّل على الله ﷻ:

ولهذا قرَنَ الله بينه وبين الهدى، فقال: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]؛ وقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]؛ والحقُّ هنا هو اليقين؛ كما قال ابن القيِّم[٢].

«فمَن حقَّق اليقين، وَثِقَ بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطَعَ عن التعلُّق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا، ومنعه ذلك مِن طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومَن كان كذلك، كان زاهدًا في الدنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس وإنْ لم يكن له شيء من الدنيا»[٣].

٩ ـ أنه يَحمِلُ صاحبه على مباشَرة الأهوال، وركوب الأخطار:

وهو يأمر بالإقدام دائمًا، فإنْ لم يقارنه العلم، فربما حمل على المعاطب[٤].

قال الجُنَيْد: «قد مشى رجال باليقين على الماء»[٥].

ولمَّا أراد سعد بن أبي وقَّاص ﷺ أن يعبُرَ دجلة إلى المدائن، وقطَعَ الفُرْسُ عليه الجسر، وحازوا السفن، نظر سعد في جيشه، فلما اطمأنَّ إلى حالهم، اقتحَمَ الماء، فخاض الناس معه، وعبَرُوا النهر، فما غَرِقَ منهم أحد، ولا ذهب لهم متاع، فعامت بهم الخيل وسعد يقول: «حسبنا الله

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٩٣).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣٩٨/٢).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٥٤٥).
(٤) انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٤٠٠/٥).
(٥) «مدارج السالكين» (٣٩٩/٢).

ونعم الوكيل، والله لَيَنْصُرَنَّ الله وليَّه، ولَيُظْهِرَنَّ الله دِينه، ولَيَهْزِمَنَّ الله عَدُوَّهُ؛ إنْ لم يكنْ في الجيشِ بَغْيٌ أو ذنوبٌ تغلِبُ الحسنات»(١).

ولو أن العبد أقدَمَ عليها على غير بصيرة وصِحَّةِ توكُّل وحُسْن نظر وصلاح حال، لهلك لأوَّل وَهْلة، ولو أن عبدًا قَلَّ يقينه وإيمانه، وكثرت ذنوبه، فأراد أن يُغِيرَ على عدوِّه، فاقتحَمَ الماء، فإن مآله إلى الغرق والموت والهلاك؛ ولكنَّ سعدًا رضي الله عنه حاز هذا اليقين بالعلم، فأمر بالنظر في أحوال الجيش، فلمَّا وجَدَهم على حالٍ مِن التقى، وخاف أن يفوت المسلمين تحصيلُ تلك الغنائم الهائلة العظيمة، ولم يَجِدْ شيئًا يَركَبُهُ إليهم إلّا الماء ـ: ركبه، وخاض البحر إليهم، فسلَّمه الله عز وجل.

وهذا مقام لا يفعله إلّا مَن اكتمَلَ يقينه، وكان هذا اليقين مزمومًا بالعلم.

١٠ ـ أنَّ الصبر لِقَاح اليقين، فإذا اجتَمَعا، أورَثا الإمامة في الدين(٢):

كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

١١ ـ أن اليقين يَحمِلُ صاحبه على الجِدِّ في طاعة الله عز وجل:

يقول الحسن: «ما أيقَنَ عبدٌ بالجنة والنار حَقَّ يقينهما إلّا خشَعَ، ووَجِلَ، وذَلَّ، واستقام، واقتصر؛ حتى يأتيه الموت»(٣).

وانظر إلى الفرق بين من يتصدَّق وهو مُوقِن بموعود الله، وبين من يتردَّد في إخراج صدقته: أيُخرِجُها على كره أم يُبقِيها حرصًا؟، وإذا أُرِيدَ على الصدقة، فكَّر وتردَّد، ثم أدبر، بخلاف صاحب اليقين؛ فإنه يُنفِق من كرائم أمواله، ويَصُبُّ صبًّا، ويحثو حثوًا في سبيل الله، وما جعلهما على هذَيْنِ

---

(١) «البداية والنهاية» (١٠/١٠ ـ ١١).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٥٤، ٣٩٧)، و«الفوائد» (ص ٢٨٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٦).

الحالَيْنِ المتضادَّيْنِ إلّا تفاوتهما في الإيقان، فكان البذل سيما الإيمان، وفي حديث الصادق المصدوق ﷺ: «والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»(١).

ويقول الحسن البصري: «ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه أشبَهَ من شك لا يقين فيه؛ مِن أَمْرِنا هذا!»(٢).

والمعنى: أننا نُوقِنُ بالموت، وبالجزاء والحساب، ولا نعمل لذلك، ولا نستعِدُّ له، نُوقِنُ بالنار، وقلَّ أن نرى حَذِرًا خائفًا منها.

١٢ ـ ثباتُ صاحبه على الحَقِّ الذي اتبعه وعرَفَه:

فأهل اليقين هم أكثر الناس ثباتًا على الحق؛ ولهذا لما سأل هِرَقْلُ أبا سفيان عن أصحاب محمد ﷺ: «أيرتدُّ أحدٌ سَخْطةً لِدِينِهِ بعد أن يدخُلَ فيه؟»، قال: لا، قال: «وكذلك الإيمانُ حِينَ تُخالِطُ بَشَاشَتُهُ القلوب»(٣).

١٣ ـ الثبات أمام الأعداء حتى النَّصْرِ أو الشهادة:

وأخبارُ أهل اليقين في هذه الأمة أمام عدوِّهم كثيرة جِدًّا(٤)، وهكذا أهل اليقين من قبلُ، وهكذا ثبَّت الله نبيَّه وكليمه موسى وأخاه هارون(عليهما السلام) أمام فرعون، باليقينِ ورسوخ الإيمان.

ولما انحصَرَ بقومه بين البحر وفِرْعَوْنَ وجنوده، قال قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

وهذا هو ثبات اليقين؛ فإنهما لما قالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، قال الله ﷻ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]؛

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣)؛ من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٤١).
(٣) أخرجه البخاري (٧)؛ واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).
(٤) ستأتي الأمثلة في ذلك عند الحديث عن أخبار أهل اليقين في المبحث التالي.

فهذه المعيَّةُ مِن الله كانت أصلَ يقينه، لما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

١٤ ـ أن صاحبه لا يَعرِفُ اليأس مهما طال ليلُ الظالمين:

فإنَّ بَعْدَ الليل انفلاقُ الفجر ولا محالة؛ فالليل مهما طالت ساعاته، ومهما اشتدَّت ظُلْمَته، فإنه يزول وينفلِقُ عن بياض الصبح؛ فأهل اليقين لا يعرفون اليأس، ومهما حَلَّ بالأمة من مصائب ومحن ونكبات، وتسلُّط الأعداء، فإن أهل اليقين تَختلِف مواقفهم عن غيرهم من الناس؛ فمَن ضَعُفَ يقينه، رضي بالأمر الواقع، ودعا إلى التسليم، والانخذال للعدو.

وأما أهل اليقين: فيَصبِرون، ويَثبُتون، ويفعلون ما في وُسْعِهم وطاقتهم، والله ﷻ لا يكلِّف نفسًا إلّا وسعها، ثم بعد ذلك إذا أَقْدَرَهم الله ﷻ، ومكَّنهم من رقاب عدوِّهم، حكَمُوا فيهم بحكم الله؛ فلسان حال الواحد منهم ـ وقد أخذ العدوُّ بلده ـ يقول:

يَا دَارُ مَجْدُكِ لَنْ يَضِيعَ فَأَمِّلِي ... خَيْرًا وَلَا تَسْتَرْسِلِي بِبُكَاءِ
فَالحَاقِدُونَ سَيُغْلَبُونَ وَإِنْ هُمُ ... حَشَدُوا جُيُوشَ البَغْيِ وَالإِفْنَاءِ
أَمْ أَلَّبُوا قَوْمًا عَلَى قَوْمٍ وَلَمْ ... يَدَعُوا سَبِيلَ المَيْنِ وَالإِلْهَاءِ
فَلْتَصْبِرِي الصَّبْرَ الجَمِيلَ فَإِنَّهُ ... تَاجُ اليَقِينِ وَحِلْيَةُ العُظَمَاءِ[1]

وهؤلاء هم الذين يغيِّرُ الله على أيديهم وإنْ طال الزمان.

١٥ ـ أن أعمال أهله الصالحة تكون راجحة في الموازين عند الله ﷻ:

فصلاة صاحب اليقين ليست كصلاة غيره، وليس صيامه كصيامه، ولا صدقته كصدقته.

وبالجملة: فاليقين يُورِثُ صاحبه أمورًا جليلةً عظيمةً؛ فهو يزيد العبد

---

(١) هذه الأبيات للأستاذ: مروان كجك، نشرتها مجلة البيان [عدد: (٩٤) جمادى الآخرة ١٤١٦هـ].

قربًا من الله ﷻ، وحُبًّا، ورضًا بما قدَّره وقضاه، ويزيد صاحبه استكانة وخضوعًا لربِّه وخالقه سبحانه، ويُكسِبُهُ رفعةً، وعزَّةً، ويُبعِده عن مواطن الذلِّ والضَّعَة. كما أنه يَحمِلُ صاحبه دائمًا على الإخلاص والصدق، وتحرِّي ذلك في كل أعماله.

وهو أيضًا يَضبِطُ علاقة العبد بربِّه؛ فيُلزِمُه المراقبة، وفِعْلَ ما يليق، وترك ما لا يليق في تعامله مع ربه؛ لأنه يعلم أن ذلك يُوصِله إلى دار الأمان، ولا سبيل إلى الوصول إلّا بسلوك هذه الطريق.

❊ ❊ ❊

الأمور التي تنافي اليقين

مِن أعظَمِ الأمور التي تنافي اليقين وتصادِمُهُ: تطلُّعُ القلب إلى غير الله ﷻ، وتعلُّقُهُ به، والتفاته إليه؛ ولهذا قال بعض المتقدِّمين: «حرامٌ على قلب أن يَشَمَّ رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله ﷻ، وحرامٌ على قلب أن يدخُلَهُ النُّور، وفيه شيء مما يكره الله ﷻ»(١).

قال المناوي: «سبب ضعف اليقين: ميل القلب إلى المخلوق، وبقدر بُعده عن مولاه يضعف يقينه»(٢).

وهكذا الشكوكُ والرِّيَبُ والأمور التي تجلب ذلك؛ كسماع الشُّبَه، وكلام المخذِّلين، والمثبِّطين لعزائم المؤمنين، فيوهِّنُونهم، ويحثُّونهم على القعود عن التزام صراط الله ﷻ المستقيم؛ فهؤلاء إذا أصغى العبد إليهم، أوهَنُوا دينه، وأضعفوا يقينه، فيُورِثُهُ ذلك قلقًا وتردُّدًا، وهو مما يخالف اليقين؛ لأن اليقين طمأنينة وثبات واستقرار.

قال ابن القيِّم: «الشك مُبْتَدأُ الرَّيْب، كما أن العلم مُبْتَدأُ اليقين»(٣).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الخطيب في «المنتخب من الزهد» (٩).

(٢) «فيض القدير» (٥/٤١٤)، بتصرف يسير.

(٣) «بدائع الفوائد» (٤/١٤٨٩).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ اليَقِين

سبق أن ذكَرْتُ جملة منها في مضامين ما سلف، ونذكُرُ ههنا نماذج أخرى:

١ ـ هذه أمُّ حارثةٍ لما قُتِلَ ابنها مع رسول الله ﷺ، جاءت إلى النبي ﷺ، فقالتْ: يا رسول الله، قد عَرَفْتَ مَنزِلةَ حارثةَ منِّي، فإنْ يكنْ في الجنَّةِ، أَصبِرْ وأَحتسِبْ، وإنْ تَكُ الأخرى، ترى ما أَصنَعُ، فقال: «وَيْحَكِ! أَوَهَبِلْتِ؟! أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»[1].

٢ ـ وعن عامر بن عبد القَيْس؛ قال: «لو كُشِفَ الغطاء، ما ازدَدتُّ يقينًا»[2]؛ أي: أنه بلَغَ في اليقين غايته؛ فلو رأى الجنَّة والنار، ما ازداد يقينًا.

٣ ـ ويقول الآخر: «رأيت الجنَّة والنار حقيقةً»، قيل له: وكيف؟ قال: «رأيتُهما بعَيْنَيْ رسول الله ﷺ»[3].

وهذا راجع ليقينه التام بما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ فصار عنده بمنزِلةِ المرئيِّ المشاهَدِ الذي لا شك فيه.

٤ ـ وهذا الإمام البخاري لما ابتُلِيَ، وأُوذِيَ إيذاء شديدًا في مسألة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٥٠)؛ من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٠٣).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٤٠٠).

اللفظ، كان يردِّد قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠][(١)].

٥ ـ ومن القادة المسلمين ممن تحلَّى باليقين: القائد المجاهد الزاهد، أبو عبد الله مَرْدَنِيش، قَاتَل الكفَّار من الرُّومَان، واستطاع أن يُحرِزَ غنائم عظيمةً، وكان مع طائفة من أصحابه لا يزيدون عن ثلاثمائة، فأحاط به من الرُّومَان أكثر من ألف فارس، فلما نظر إليهم، قال لأصحابه: ما تَرَوْنَ؟ قالوا: نترُكُ الغنيمة، وننطلِقُ، فينشغِلُوا بها عنا، فقال: ولكنَّ القائل يقول: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ ألم يقل القائل ذلك؟! فقال بعضهم: هذا قاله الله ﷻ! فقال: إذا كان الله قال ذلك، فكيف تقعُدُونَ عن لقائهم؟! فثَبَتُوا أمامهم، وقاتلوهم حتى هزَمُوهم، وفرُّوا مِن مواجَهَتهم[(٢)].

* * *

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/٤٦١ ـ ٤٦٢).

(٢) المصدر السابق (٢٠/٢٣٢ ـ ٢٣٣).

التَّفكُّر

تَوْطِئَة

لقد أمَرَ الله تعالى كثيرًا في كتابه العزيز بالتفكُّر، ومدَحَهُ وأثنى على أهله، كما ذمَّ ما يضادُّه؛ لما يُورِثُ التَّفَكُّرُ في القلب من أعمال جليلة، ورياضٍ من المعارف ظليلة، يَهدِيهِ بزمامه إليها تفكُّرُهُ في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا ودُنُوِّها وفنائها؛ فيقوده ذلك إلى الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما تفكَّر في قِصَر الأمل وقُرْب الأجل، أورثَهُ ذلك الجِدَّ والاجتهاد وبذلَ الوُسْع في اغتنام الأنفاس واللحظات، ومِن شأن هذا النوع من التفكُّر أن يُعلِيَ همَّته ويُحيِيَها بعد موتها وسفولها[1].

* * *

(١) انظر: «الاستقامة» (٢/١٥٩)، و«الفوائد» (ص١٩٨).

مَعْنَى التّفكُّر وَحَقِيقَتهُ

التفكُّر في اللغة: هو «تردُّد القلب في الشيء؛ يقال: (تفكَّر): إذا ردَّد قَلْبَهُ معتبِرًا»[١] والفِكْرُ هو التأمُّل، وإعمال الخاطر في الشيء.

وأما التفكُّر في الاصطلاح: فهو «تردُّد القلب بالنظر والتدبُّر في معاني الأشياء لإدراك المطلوب علمًا أو ظنًّا»[٢].

* * *

(١) «مقاييس اللغة» (٤/٤٤٦)، (ف ك ر).

(٢) انظر: «فيض القدير» (٤/٣٦٧)، و«روح المعاني» (٩/١٢٧).

الفَرقُ بَيْنَ التّفكرُّ وَالتّذكرُّ

حقيقة التذكُّر: حضور صورة المذكور العلميَّة في القلب؛ والذكر يقابِلُهُ الغَفْلة والنِّسْيان، ويفترِقُ التفكُّر عن التذكُّر من وجهَيْن:

الأول: أن الذِّكْرَ يتعلَّق بذات الله ﷻ، وأمَّا التفكُّر، فيكون في دلائل عظمته، وفي مخلوقاته؛ فالله ﷻ هو الحق، ولا يُمكِنُ لأحد أن يتفكَّر في ذات الله تعالى؛ لأن إدراك ذلك ممتنِعٌ عقلًا؛ فالعقول لا تحيط بخالقِها ﷻ، فهو أعظم من أن يُحَاطَ به، وإنما نتفكَّر في جوانب عظمته ودلائل قُدْرته، ونتفكَّر في آياته المشاهَدة والمتلوَّة، ونعتبِرُ بذلك، والله ﷻ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ وذلك أن التفكير والتقدير إنما يكونان في الأمثال المضروبة، والمقاييس المعقولة، والأمور التي تُدرِكُها العقول، وتَعرِف كُنهَها، فيتفكَّر فيها الإنسان بحسَبِ ما يراه ويسمعه ويُدرِكه عقله.

الثاني: التذكُّر ثَمَرةُ التفكُّر، فهو نتيجته؛ فالتذكُّرُ أعلى من التفكُّر؛ لأن التفكُّر وسيلة له ودليل إليه، ولهذا يقال له: (تَذَكُّر)، على زنةِ (تَفَعُّلٍ)؛ لأنه يحصُلُ بعد مهلة وتدرُّج؛ كما تقول: التبصُّر، والتعلُّم، والتفهُّم.

قال ابن القيِّم: «ولهذا كانت آيات الله المتلوَّة والمشهودة ذِكْرَى؛ كما قال ﷻ في المتلوَّة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤]، وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، وأمَّا الآيات المشهودة، فقال عنها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى

ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

فالتذكُّر إذَنْ: هو مقصود التفكُّر وثمرته، فإذا تذكَّر، عاد بتذكُّره على تفكُّره، فاستخرَجَ ما لم يكن حاصلًا عنده... فهو دائمًا سائر بين العلم والإرادة»(١).

❊ ❊ ❊

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/٦٧ ـ ٦٨)؛ بتصرف.

أَهَمِّيَّةُ التَّفكُّرِ وَفَضْلُهُ

إن التفكُّر هو أثمَن ما تُنفَقُ فيه الأنفاس، وتُبذَلُ فيه الأوقات، وتُشغَلُ به العقول؛ سواءٌ أكان ذلك في التفكُّر بآيات الله ﷻ وعجائب صُنْعِه، والانتقالِ منها إلى تعلُّق القلب والهِمَّة به دون شيء من مخلوقاته[١]، أم كان ذلك بالنظر في أحوال النفس ـ كما سيأتي ـ أو في غير ذلك من الأمور النافعة التي ينبغي للعبد أن يتبصَّر بها، وأن يتفكَّر فيها.

يقول ابن عُيَيْنة: «الفِكْرةُ نُورٌ تُدخِلُهُ قلبك»[٢].

ويقول عامر بن عبد القَيْس: «سمعتُ غير واحد، ولا اثنَيْن، ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إنَّ ضياءَ الإيمان ـ أو نورَ الإيمان ـ التفكُّرُ»[٣].

وقد رجَّحه بعضهم على عبادة البَدَن؛ كما صح عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ أنه قال: «تفكُّرُ ساعةٍ خَيْرٌ مِن قيامِ لَيْلَةٍ»[٤].

ويقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّرٍ خيرٌ من قيام ليلة

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٦٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٠٦).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا؛ كما في «الدر المنثور» (٤/١٨٢).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (ص١٣٩)، وهنَّاد (٩٤٣)؛ كلاهما في «الزهد».

والقلب ساه»[١]؛ وهذا صحيح؛ لأن الإنسان ليس له مِن صلاته إلّا ما عقَلَ منها؛ كما قال سفيان الثوري: «يُكتَبُ للرجل مِن صلاتِهِ ما عقَلَ منها»[٢].

وهذه الآثار بيَّن وَجْهَها ابن القيِّم بقوله: «وهذا لأن الفكرة عمَلُ القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح؛ فكان عمله أشرَفَ من عمل الجوارح»[٣].

وهذا كله باعتبار الجنس دون الأفراد؛ فجنس عمل القلب أفضل من جنس عمل الجوارح.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٨، ١١٤٧)، وهو صحيح عنه بطرقه.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٦١)؛ بسند صحيح.
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٠).

التفكرُ في الكِتابِ والسُّنَّة

ورَدَتْ آيات وأحاديث كثيرة في التفكُّر:

تارَةً: بالأمر به، وتارَةً: بالتنبيه على فضله، والثناء على أهله، وتارَةً: بتوعُّد من نأى بجَنْبه عنه، فانقلَبَ معرِضًا لا يلوي على عظات أو عِبَر؛ فالرب تعالى يدعو عبادَهُ في القرآن إلى معرفتِهِ من طريقَيْن:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكُّر في آياته المتلوة وتدبُّرها.

فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول: كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]؛ وهو كثير في القرآن.

والثاني: كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]؛ وهو كثير أيضًا.

فأمَّا المفعولات: فإنها دالَّةٌ على الأفعال، والأفعالُ دالَّةٌ على الصفات؛ فمفعولاته سبحانه مِن أدلِّ شيء على صفاته، وصِدْق ما أخبَرَتْ به رسله عنه؛ فالمصنوعات شاهدة، تصدِّقُ الآيات المسموعات؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي:

أن القرآن حقٌّ، فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبيِّن لهم أن آياته المتلوَّة حقٌّ»(١).

وقد جاء عن ابن عبَّاس ﵄؛ أنه قال: «بِتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً، ثمَّ رَقَدَ، فلما كان ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ، قَعَدَ، فنظَرَ إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ فتوَضَّأَ واسْتَنَّ فصَلَّى إحدى عَشْرةَ رَكْعةً، ثُمَّ أَذَّنَ بلالٌ، فصلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثم خرَجَ فصلَّى الصُّبْحَ»(٢).

* * *

(١) «الفوائد» (١/٢٨ ـ ٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٧٦٣).

مجالاتُ التّفكُّر

وينتظِمُ ذلك سبع وَقَفاتٍ:

الأولى: في ذِكْرِ الأمور التي يجري فيها التفكُّر، ويتعلَّق بها لدى العقلاء.

وهي: إمَّا غايةٌ مطلوبةٌ مِن جَلْب نَفْع أو دَفْع ضرٍّ، أو وسيلةٌ موصِّلةٌ إلى تلك الغاية؛ وإنما يخرُجُ عن ذلك أهلُ الخيالات الفاسدة؛ كما سيأتي.

الثانية: التفكُّر له محلَّان؛ فهو إمَّا أن يكون في أمور الدنيا، وإمَّا أن يكون في أمور الآخرة[١].

فأرباب الدنيا: إنما تفكُّرهم فيما هم فيه مِن مطالب دنياهم، ووسائل تحقيقها، مع مراعاة المضارِّ ووسائلها وكيفيَّة تلافيها.

وأمَّا أهل الآخرة: فغايتُهم: رضا الله ومحبَّته وقُرْبه، وما يعقُبُ ذلك من دخول الجنَّة والتنعُّم بأطايب مَلَاذِّها.

فهذه قُصُودُهم، وتلك حاجاتُهم؛ فهم مشغولون بها وبأسبابها الموصِّلة إليها، كما أنهم مشغولون أيضًا بتلك المخاوف العظيمة، والمنازل الوبيلة الوخيمة، وذلك العذابِ الأليمِ الذي يعقُبُ سخَطَ الله ومقته، وأسباب وقوع ذلك بهم ووصوله إليهم، وكذا أسباب النجاة من مَعَرَّتِهِ وخِزْيِه، ووسائل الفرار من أليم ضَرَرِه، ولواحق أَثَرِه.

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٢).

الثالثة: ينبغي للعاقل أن يَصرِف همَّته في التفكُّر فيما يعنيه؛ فإذا فعَلَ ذلك، يكون قد دخل في أبواب التفكُّر المحمود الذي ينفعه وتحصُلُ به العواقب الطيِّبة الحميدة؛ سواءٌ كانت دنيوية، أو أُخْروية.

وأما إذا أشغل فِكْره وعَقْله بالتفكُّر في أمور تضرُّه، فإن ذلك يُؤذِنُ بخراب دنياه وآخِرَته؛ «ومن كان في خواطِرِه ومجالات فِكْره دنيئًا خسيسًا، لم يكن في سائر أمره إلَّا كذلك»(١).

الرابعة: التفكُّر إنما يكون في مخلوقات الله ﷻ، وليس في كُنْهِ ذاتِه، بل يكون في دلائل عظمته ووَحْدانيَّته وقُدْرته، والأمورِ التي يعرف العبد بها صفاتِ جلاله، ونعوتَ كماله.

يقول ابن عبَّاس ﷺ: «تفكَّرُوا في كُلِّ شيءٍ، ولا تفكَّرُوا في ذات الله»(٢).

الخامسة: أنفع التفكُّر:

التفكُّر يتفاوت؛ فمنه: ما هو ضار، ومنه: ما هو نافع، وكل منهما متفاوِتٌ أيضًا؛ فأنفَعُهُ: التفكُّر في تحصيل ما ينفعه ويرفعه في آخرته، ودَفْعِ ما يضرُّ بآخرته، أو ينقِصُ مرتبتَهُ فيها، مع النظر في أسباب كل منهما.

فهذا أجلُّ التفكُّر وأنفعه، ويليه: التفكُّر في مصالح الدنيا وسبل ذلك، والنظر فيما يضرُّ بدنياه، مع ملاحظة أسبابه ليتخلَّص منها.

وعلى هذا يدور فِكْرُ العقلاء.

أما الأوَّل؛ وهو ما ينفَعُ في الآخرة: «فرأسه: الفكر في أسماء الله وصفاته، وآلاء الله ونِعَمه، وأمرِه ونهيه، والتفكر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخِسَّتها وفنائها، فيثمِرُ له ذلك الرغبة في الآخرة،

---

(١) «الفوائد» (ص٢٥٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «العرش» (١٦)، وجَوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/٣٨٣).

والزهد في الدنيا، وبذل الوسع في اغتنام الوقت، وهذه الأفكار تُعلِي همته وتُحيِيها بعد موتها وسفولها، وتجعَلُهُ في وادٍ والناس في وادٍ»[(١)].

ويُمكِن حَصْرُ ذلك في خمسة أمور؛ وهي:

١ ـ التفكُّر في آيات الله المنزلة، وفَهْمها، وفهم مراد الله ﷻ منها:

«فلا شيءَ أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّرِ والتفكُّر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يُورِث المحبَّة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكُّل، وسائر الأحوال التي بها حياة القَلْب وكَمَالُه.

وكذلك يزجُرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو عَلِمَ الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغَلُوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرَأَهُ بتفكُّر حتى مر بآية وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه، كرَّرها ولو مائةَ مرَّة، ولو ليلةً؛ فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خير من قراءة خَتْمة بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدْعى إلى حصول الإيمان وذَوْق حلاوة القرآن؛ وهذه كانت عادة السلف؛ يردِّد أحدهم الآية إلى الصباح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قام بآية يردِّدُها حتى الصباح؛ وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(٢)].

فقراءةُ القرآن بالتفكُّر هي أصل صلاح القلب...

ولهذا أنزَلَ الله القرآنَ؛ ليُتَدَبَّرَ ويُتَفَكَّرَ فيه، ويُعْمَلَ به، لا لمجرَّد تلاوته مع الإعراض عنه»[(٣)].

---

(١) «الفوائد» (ص٢٨٧).

(٢) أخرجه النسائي (١٠١٠) من حديث أبي ذر ﷺ، وصحَّحه الألباني في «تخريج صفة الصلاة» (٢/ ٥٣٤).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٥٣ ـ ٥٥٥).

٢ ـ التفكُّر في آيات الله المشاهَدة، والاعتبارُ بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمتِهِ وإحسانِهِ وبِرِّهِ وجُودِه. وقد حثَّ الله ﷻ على ذلك، وذمَّ من غفَلَ عنه.

٣ ـ التفكُّر في آلائِهِ وإحسانِهِ وإنعامِهِ على خلقِهِ بأنواع النعم، وبسَعَةِ مغفرته ورحمته وحِلْمه:

فهذه ثلاثة أنواع مِن أنواع التفكُّر إذا حصَلَتْ للعبد، حصَلَ له معرفة المعبود سبحانه وتعالى؛ فأحبَّه وخافَهُ ورجاه؛ وإذا داوَمَ العبد على هذا التفكُّر مع الذكر، فإنَّ قلبه ينصبغُ في المعرفة والمحبَّة صبغةً تامَّةً، فتستولي الرغبة في الآخرة على قلب هذا العبد.

٤ ـ التفكُّر في عيوب النفس وآفاتها، وفي نقائص عمله وتقصيره فيه:

فهذا يحتاجه العبد لِيَدفَعَ عن نفسه العُجْبَ والغرور والاسترسال في الخطأ، والتمادي في الضياع والضلال، والمعصية والبدعة، وما إلى ذلك؛ فإذا تفكَّر العبد في عمله ونقصه وعجزه وضعفه، أنكرَ شموخه؛ فلا يحصُلُ له التعالي والكِبْر والعُجْب، وتنكسِرُ نفسه الأمَّارة بالسوء، فإذا انكسَرَتْ تلك النفس الأمَّارة بالسوء، قويت النفس المطمئنَّة، ونَشِطَتْ للعمل الصالح، وصار التدبير لها؛ فيحيا القلب، وينشغل العبد في الأمور الطيِّبة النافعة التي تقرِّبه إلى الله ﷻ.

٥ ـ التفكُّر في واجب الوقت ووظيفتِهِ، وجمعِ الهَمِّ عليه:

فالعارف ابن وقته، وفُرَصُ الخير قد لا تعود، والحياة دقائق وأنفاس تتردَّد، ثم لا ترجع إليه ثانيًا، فيحتاج العبد إلى أن يفكِّر في كل لحظة تمر به: ما هو الأجدى والأنفع في أن تنشغِلَ به؟ فإذا جاء موسم الحجِّ اتَّزَرَ وارتدى إحرامَهُ، وإذا دعا داعي الجهادِ لم تَرَ إلّا تلبيتَهُ وإقدامَهُ، وإذا دُعِيَ إلى الصدقةِ أرخى عن كِيسِهِ زِمَامَهُ، وهكذا؛ فهو في كل وقت يتبصَّر ويتفكَّر في الأمور التي هي أجدى وأنفع في هذا الوقت خاصَّة؛ لأن جميع

المصالح إنما تنشأ من الوقت ـ كما يقول ابن القيِّم ـ فمتى أضاع الوقت، لم يستدرِكْهُ أبدًا؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «نِعْمَتَان مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، والفَرَاغُ»[١].

فهذا ما يتعلَّق بأنفع الفِكْر، وهو الذي قصدنا إيضاحه أولًا.

وأما النوع الآخر من الفكر النافع: فهو التفكير فيما ينفعه في دنياه مما يسعى في تحصيله لنفعه، أو يَجتهِدُ في دفعه لضرره، وهذا دون الأول؛ كما لا يخفى.

الوقفة السادسة: تَفكَّرْ في كل ما حولك:

قال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرُجُ من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلّا رأيتُ لله عليَّ فيه نِعْمة، أو لي فيه عِبْرة»[٢].

فاجعَلْ هذا خُلُقًا لك، وعَوِّدْ نفسك على التفكُّر في كل ما حولك، والاعتبار والنظر، وإعمال العقل، ولا تَكُنْ من الغافلين؛ فإذا جلَسْتَ على الطعام، ففكِّر في وصوله إليك، فلربَّما وصل من وراء البحار ألوان الفواكه والثمار التي لا يَعرِفُها أهل تلك البلاد لِفَقْرِهم وعجزهم عن تحصيلها، ومع ذلك تُجْبَى إليك حتى تكون بين يديك!

ثم انظُرْ ما الذي يجب أن يكون لديك تُجَاهَ نعمة الله عليك؛ ألست ستُحاسَبُ عليها؟! وأن الذي أعطاكها وحَرَمَ الآخرين قادرٌ على أن يرفعها عنك، ويَجعَلَك تسمع بها ولا تراها؟! أليس في تعدُّدِها ما يوجب عليك أنواع العبوديَّات لله ﷻ؟!

يقول عبد الرزَّاق الصَّنْعاني: «قَدِمَ علينا الثوري صنعاء، فطَبَخْتُ له قِدْر

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التفكُّر».

سِكْبَاج[١]، فأكل، ثم أتيته بزبيب الطائف، فأكل، ثم قال: يا عبد الرزَّاق، اعلِفِ الحمار وكُدَّهُ، ثم قام يصلِّي حتى الصباح»[٢]؛ ليُقابِلَ هذه النعمة التي أنعمَ الله ﷻ بها عليه، وكان يقول: «إنَّ الحمارَ إذا زِيدَ في عَلَفِه، زِيدَ في عَمَلِه»[٣]، فكان إذا أكَلَ، جَدَّ في العبادة.

وهكذا فَكِّرْ في كل شيء:

فإذا رَكِبْتَ الطائرة، وارتفَعَتْ بك إلى أجواء السماء، ورأيتَ السُّحب كالجبال، فتذكَّر عظمة الله ﷻ ووَصْفَهُ لها بأنها كالجبال، ثم انظر إلى الأرض مِن تحتك لترى بديع صنع الله.

وإذا ذهَبْتَ إلى المقابر، ففَكِّرْ في أمنيَّات أهلها، وأن أحدهم يتمنَّى أنْ لو أُعِيدَ ليعمل صالحًا؛ فهذا أنت في نعمة وعافية وستر؛ فاعمَلْ ما تمنَّاه هؤلاء لو أُعِيدُوا.

وإذا نازعَتْكَ الشهوات، ودعتك النفس إلى معصية الله ﷻ، ففَكِّرْ في المفاسد المعجَّلة لهذه المعصية، وما تَجُرُّهُ عليك من الآلام والأوجاع والعلل؛ أيًّا كانت هذه المعصية.

وفَكِّرْ أيضًا فيما تجرُّه عليك في الآخرة، واعلم أن الله مُطَّلِعٌ عليك؛ فلا تجعل ربَّك سبحانه أهون الناظرين إليك، ولا تكن من الذين يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم.

وفَكِّرْ في الدنيا وسُرْعة زوالها وانقضائها، واضمحلال لذَّاتها وشهواتها، وتذَكَّرْ ما عند الله ﷻ من العِوَضِ والنعيم المقيم الدائم؛ إذْ كيف

---

(١) كلمة مُعَرَّبة عن (سركة باجه) وهو اللحم المطبوخ بالخَل. ينظر: «تاج العروس» (سكبج) (٦/٤١).
(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/١٥٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/٨٦)، وإسناده صحيح إلى سفيان.

تُؤْثِرُ شيئًا زائلًا سريعًا عاجلًا يفنى على شيء أبدي ثابت لا يزول ولا يحول؟!

وهذا مِن أوضح صور الغَبْن الداخلة تحت قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]؛ فكل إنسان عنده رأس ماله، وهو عُمْره؛ فهذا جَدَّ واجتَهَد، وصرَفَ رأس ماله، في الأمور التي تُبعِدُه عن الله ﷻ وتُورِثه النار؛ بذَلَ الأموال والجهود والأفكار في تحصيل منزل في نار جهنَّم، والآخَرُ بذَلَ نفسه وماله في تحصيل منزل في الجنَّة، ثم بعد ذلك يَقدَمُ هذا وهذا على الله ﷻ.

ومع ذلك: أهل الجنَّة يتوارثون منازل أهل النار في الجنَّة، وأهل النار يتوارثون منازل أهل الجنَّة في النار؛ نعوذ بالله مِن الخِذْلان، وذلك من التغابن!

الوقفة السابعة: التفكُّر الضارُّ والمذموم[1]:

وهو التفكُّر فيما لا يعنيه، ويدخُلُ في ذلك: اشتغال الفكر بغير الأمور النافعة التي ينبغي أن يجري فيها التفكُّر من الغايات المطلوبة، والغايات المرهوبة، ووسائلهما، دنيويَّةً وأخرويَّة.

ومنه أيضًا: التفكُّر في الأمور التي لم نُكَلَّفْ بالبحث عنها والتفكُّر فيها؛ كالتفكُّر في ذات الله ﷻ، وكُنْهِ صفاته؛ فهذه أمور لا يمكن الوصول إليها، ولا يجوز للإنسان أن يفكِّر فيها.

وليس المراد بذلك الخواطِرَ التي تخطُرُ للإنسان مما يوسوس الشيطان به ويَقذِفه في قلبه مِن غير كَسْب منه، فهذا لا يؤاخَذُ به، ولا يُلام عليه؛ إذا سنَحَ فلم يسترسِلْ معه بل دافَعَهُ واستعاذ بالله منه، فقد صحَّ عن أبي هريرة ﷺ؛ أنه قال: جاء ناسٌ مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ، فسألوه: إنا نَجِدُ

---

(١) انظر: «الفوائد» (ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

في أنفُسِنا ما يَتَعَاظَمُ أحَدُنا أن يَتَكَلَّمَ به، قال: «وَقَدْ وَجدتُّمُوهُ؟!»، قالوا: نعم، قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»(١).

وصح عنه أيضًا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ»(٢).

«أي: عن الاسترسال معه في ذلك»(٣). فالمأمور به في «دفع هذا الوسواس؛ ليس هو الاستعاذة فقطْ، بل أَمَرَ بالإيمان، وأمر بالاستعاذة، وأمر بالانتهاء، ولا طريق إلى نَيْل المطلوب من النجاة والسعادة إلّا بما أَمَرَ به، لا طريق غير ذلك»(٤).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١٤/١٣٤).

(٣) «فتح الباري» (٣٩٢/٦).

(٤) كما حرره شيخ الإسلام في «درء تعارض العقل والنقل» (٣٠٩/٣). وفيه تفاصيل مهمة، انظرها (٣/ ٣٠٩ ـ ٣١٨).

مُعوِّقاتُ التّفكُّر

من الأمور التي تَعُوقُ هذا المطلب:

١ ـ انشغال الجوارح:

ببقاء الإنسان مشغولًا طِيلَة الوقت؛ فهو منذ أن يُصبِحَ إلى أن يُمسِيَ وهو في عمله، ثم إذا رجَعَ إلى بيته وقد أمسى مُرهَقًا مجهودًا، احتاج إلى الترفُّه والتنزُّه، فصاحَبَ رفقتَهُ إلى تلك الأماكن التي يرتادها أمثاله، ثم يعود وقد غلَبَهُ النوم فينام، وهكذا حاله كل يوم، لا وقت لديه يُحاسِبُ فيه نفسه، أو يتفكَّر في أمره، فإذا عاش عاش غارمًا، وإذا مات مات نادمًا.

٢ ـ كثرة مخالَطة الناس:

فلا يكاد يتفرَّغ لنفسه، ولا يخلو بها، وإنما هو في خِلْطة دائمة؛ فمثل هذا لا يحصُلُ له وقت للتفكير، فيفوت عليه الكثير، وإنما ينبغي أن يأخذ من الخِلْطة بقَدْر؛ فهي كالملح للطعام إذا زاد أفسَدَه.

٣ ـ انصراف هِمَّة العبد إلى النظر في ظواهر الأمور، والاغترار بها:

فهو معرض عمَّا ينبغي عليه النظر فيه، والتفكُّرُ به من مواطن التعقُّل ومواقع العِبَر؛ فإذا رأى ما ظاهرُهُ الحُسْن، بهَرَهُ مَنظَره ولو ساء مَخبَره؛ كمن يغتر بالغَرْب من أجل حضارتهم الماديَّة، فيغرُّه ما يرى من زُخْرُف الحياة الدنيا الفتان.

ومثله الذي يشتغِلُ عند قراءة القرآن بالأمور اللفظيَّة فقط، فتكون هِمَّتُهُ منصبَّةً إلى ما حُجِبَ به كثير من الناس عن حقائق القرآن؛ إمَّا بالوسوسة في

مَخَارِج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها، والنطقِ بالمدِّ الطويل والقصير والمتوسِّط، وغير ذلك؛ فإنَّ هذا حائل للقلوب، قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه[١].

وليس المقصود بذلك أن التجويد مذموم، وأنه ينبغي الزهد فيه، لكن المقصود ألَّا تُصرَفَ جميع الهمَّة لذلك، ويُعرِضَ عما هو بصدده من تدبُّر القرآن وفَهْمِ معانيه.

٤ ـ امتلاء القلب بالأمور الفاسدة، والأخلاق الرديئة:

فيُحرَمُ الإنسان نعمة التفكُّر؛ كما قال الحسن البصري، في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ قال: «أَمْنَعُهم التفكُّر فيها»[٢].

وقال قتادة: «سأمنعهم فَهْمَ كتابي»[٣].

٥ ـ كثرة الأكل:

وقد قيل: «البِطْنة تُذهِبُ الفِطْنة»[٤]، وفي الحديث: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ»[٥]؛ «فإذا ملأ بطنه، انتكَسَتْ بصيرته، وتشوَّشت فكرته؛ وغلَبَ عليه الكسل والنُّعَاس؛ فيمنعه عن وظائف العبادات، وقَوِيَتْ قوى البدن، فينبعث غَضَبه وشَهْوته، فيُوقِعُه ذلك في المحارم»[٦].

* * *

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٠).

(٢) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٩).

(٣) أورده القرطبي في «تفسيره» (٩/ ٣٣١).

(٤) ينظر: «المقاصد الحسنة» (٢٩٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، من حديث المِقْدَام بن معدي كرب ﷺ، وصحَّحه الترمذي.

(٦) «فيض القدير» (٤/ ٢٤٢).

الطَّرِيقُ إِلَى تَحْقِيقِ التَّفكُّرُ

هناك أربعة أمور تُعِين النفس على التفكُّر، وتروِّضُها عليه، حتى يصير سَجِيَّةً من سجاياها، وخُلُقًا مِن أخلاقها:

١ ـ الخَلْوة:

وذلك بأن يخلو الإنسان بنفسه في بعض الأوقات، ويفكِّر في حاله الذي هو عليه، وفى عمله الذي قدَّمه، وفى سَيْرِه إلى الله ﷻ، ويتعلَّم أن يتريَّث إذا أراد فعل شيء، فيجلس، ويتفكَّر، ويقلِّب الرَّأي.

وقد قال الحسن البصري: «طولُ الوَحْدة أَتَمُّ للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنَّة»[١].

٢ ـ التعوُّد على التفكُّر:

وهو: مزاوَلَتُهُ في كل أمر ذي بال بمقدار يمنع من الجهالة في المسائل العلميَّة، ومن التقليد المذموم في المسائل الاجتهاديَّة ـ لمن كان أَهْلًا للنَّظَر ـ، ومن عشوائية التصديق أو التكذيب في المسائل الخبريَّة؛ حتى لا يكون الواحد مِنَّا إِمَّعَةً؛ إنْ أحسن الناس أحسن، وإنْ أساؤوا أساء.

فعَوِّدْ نفسك على التفكُّر في كل شيء مما حولك؛ كما قال أبو سليمان

(١) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/٥٣٩).

الداراني: «عَوِّدُوا أَعْيُنَكُمُ البكاء، وقلوبَكُمُ التَّفَكُّر»[١] والأمر كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ»[٢].

فالذي يعوِّد نَفْسَهُ التفكُّر، يصير ذلك سجيَّة له، والذي يحيا غافلًا بلا فكر ولا نظر، لا يبالي الله ﷻ به في أيِّ وادٍ هلك.

٣ ـ مزاولة بعض الأمور التي تُعِينُهُ على الفكرة:

مثال ذلك: أن الشافعي: كان يَحمِل عصًا إذا مشى، فقيل له: ما لك بُدٌّ من إمساك العصا ولست بضعيف؟ فقال: «لأذكُرَ أني مسافر»[٣].

وهكذا: زيارة المَقْبَرة؛ فإنها تذكِّرك الآخرة؛ وهذا مما يُعِين على التفكُّر.

وأيضًا: النظر في التواريخ وأخبار الأمم والأجيال التي انصَرَمَتْ، وما مرَّ عليها مِن بؤس وسعادة، وحروب طاحنة، وفتن وملاحم؛ تفكَّرْ في ذلك كله؛ واعتبر بأسباب النجاة، فاسلكها، وموارد الزلل وموجبات الهلكة؛ فاجتنبها.

٤ ـ جَمْع الهَمّ على ما هو بصَدَده من العمل للآخرة، وعدَم تشتيت القَلْب بالصوارِف والعَوارِض المُشْغِلة:

«فإذا كانت القلوب كثيرة الالتفات، سريعة التقلُّب والحَرَكات، فلا بد للعبد مِن جَمْع هِمَّته على بعض الجهات، فإذا قَطَعَ العبدُ شُغْلَ جوارحه عن الدنيا في وقت فِكْرته وتقيُّده، ومنَعَ قلبَهُ مِن التشتُّت في ميادين الأمور الدنيويَّة، اجتمَعَ همُّه، وحضر عقله، فإذا حضر له ذلك، ثم تفكَّر بالتوكُّل على الرحمن لا على عقله، فتَحَتْ له الفِكرةُ بابَ الفهم لكلام ربه ومعرفته،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٧٤).

(٢) علَّقه البخاري في «صحيحه»، في كتاب العلم: باب العلم قبل القول والعمل (١/٤١).

(٣) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/١٧٠).

ومـواقـع وَعْـده ووعـيـده: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧]»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «فيض القدير» (٢/٤٧٥)؛ مع شيء من الاختصار والتصرُّف.

ثَمَرَاتُ التّفكُّر

للتفكر ثَمَرات كثيرة ومتنوِّعة، ومن هذه الثمرات:

١ ـ أن التفكُّر مفتاح كل خير:

إذا حَسُنَ جَوَلان الفكر في آيات الله المتلوَّة، وآياته المشهودة، انفتح على العبد من أبواب معرفة الله ﷻ والأمور الجالبة للسعادة في الآخرة شيءٌ لا يُقَادَرُ قَدْره، وكذلك في أموره الدنيويَّة، فإنه بالتفكُّر يرسخ العلم، وتذهب مَعَرَّةُ الجهل، وتزول الغفلة، وتُسْتَجْلَبُ أمورٌ وأحوال لم تكن حاصلة من قبل؛ ولهذا قال الحسن البصري: «إنَّ أهل العقل لم يزالوا يَعُودُونَ بالذِّكر على الفِكْر، وبالفِكْر على الذِّكْر، حتى استيقظت قلوبهم، فنطَقَتْ بالحكمة»[1].

و«رأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوامُ التفكُّر، والتدبُّرُ في آيات الله؛.. فيتمكَّن حينئذ الإيمان من قلبه، فيستقيم له سَيْرُه، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يُبَارِي الريح: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]...»[2].

٢ ـ أنه يُورِث تعظيمَ المعبود؛ ومِن ثَمَّ الكفَّ عما لا يليق:

يقول بِشر بن الحارث: «لو تفكَّر الناس في عَظَمة الله، لما

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٩).

(٢) «الرسالة التبوكية» (ص٧٠) بتصرف.

عصَوُا الله»[١]؛ فإنَّ العبد إذا علم أن الله ينظُرُ إليه ويراقبه، لم يجترئ على معصية؛ وذلك أن مَعرِفة الله نوعان:

الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترَكَ فيها الناس: البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

الثاني: معرِفةٌ تُوجِبُ الحياء منه، والمحبَّة له، وتعلُّق القَلْب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه؛ فيأنَسُ به، ويَفِرُّ من الخلق إليه»[٢]. ولهذه المعرفة بابان واسعان: بابُ التفكُّر والتأمُّل في آيات القرآن كلِّها، والفهم الخاصّ عن الله ورسوله. والباب الثاني: التفكُّرُ في آياته المشهودة، وتأَمُّلُ حكمتِهِ فيها وقدرتِهِ ولطفِه، وإحسانِهِ وعَدْلِهِ وقيامِهِ بالقسط على خلقه، وذلك فَضْلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[٣].

٣ ـ أنه يُورِثُ الحِكْمة وحياة القلب:

كما قال بعضهم: «الفِكْرُ في الدنيا: حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الوَلَاية، والفِكْرةُ في الآخرة: تُورِث الحِكْمة، وتحيي القلوب»[٤].

ويقول الشافعي: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر»[٥].

فمَن طال صمته، عَظُمَ عقله ورَجَح؛ ولذا يُستدَلُّ على رجاحة العقل بطول الصمت، أمَّا الثَّرْثَرة وكثرة الكلام، فدليل على خفَّة العقل.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٣٧).

(٢) انظر: «الفوائد» (ص٢٤٨ ـ ٢٤٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٤٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٧٨).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٤/٤٢٥).

ويقول وهب: «ما طالت فكرةُ امرِئٍ قطُّ إلّا فهم، وما فهم امرؤٌ قطُّ إلّا علم، وما علم امرؤٌ قطُّ إلّا عمل»[١].

٤ ـ أنَّه يُورِثه الاعتبار:

يقول سفيان بن عيينة: «الفكرة نُورٌ تُدخِلُه قلبَك»[٢]، وكان دائمًا يتمثَّل بهذا البيت[٣]:

إِذَا الـمَـرْءُ كَـانَـتْ لَـهُ فِـكْـرَةٌ ... فَـفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ عِـبْـرَة

وكان يقول: «التفكُّر مِفْتاح الرحمة؛ ألا ترى أنه يتفكَّر فيتوب؟!»[٤].

٥ ـ البصر النافذ في الأمور الدنيويَّة والأخرويَّة:

فالذي يفكِّر يعرف الأمور معرفة صحيحة؛ بخلاف الذي يأتي الشيءَ كيفما اتفق، ويقع على الأمر كيفما حصَل؛ فإنَّ الذي يفكِّر يُوجِبُ له تفكُّره انكشافَ حقائق الأمور، وتميُّزَ مراتبها أمام عَيْنه في الخير والشر، ويَعرِفُ المفضول من الفاضل، والقبيح من الأقبح، ويَعرِف الأسباب الموصِّلة إليها، وما يقاوِم تلك الأسباب، وما يدفع مُوجَبَها، ويميِّز بين ما ينبغي السعي في تحصيله، وما ينبغي السعي في دفع أسبابه، ويفرِّق بين الوهم والخيال، والأمور المُمكِنة والفرضيَّة المستحيلة، وينتهِزُ الفُرَصَ في أوقاتها، ويشتغِلُ بما ينفعُهُ دائمًا، فتحصُلُ له سعادته وفلاحه[٥].

وإليك مثالًا يتجلَّى فيه أثر التفكُّر على العبد في دَلَالتِهِ على أفضل الأمور وأحسَنِها، وأعظَمِها نفعًا:

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٠٦/٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٥٤٠/١).

فعن ربيعة بن كَعْب رضي الله عنه؛ أنه قال: كنتُ أخدُمُ رسولَ الله ﷺ، وأقومُ له في حوائجِهِ نَهَارِي أجْمَعَ؛ حتى يصلِّيَ رسولُ الله ﷺ العشاءَ الآخِرةَ، فأجلِسُ ببابِهِ إذا دخَلَ بيته؛ أقول: لعلَّها أن تحدُثَ لرسولِ الله ﷺ حاجة، فما أزال أَسْمَعُهُ يقول رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ الله، سُبْحَانَ الله، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ»، حتى أَمَلَّ فأَرْجِع، أو تَغْلِبَني عيني فأرْقُد، قال: فقال لي يومًا ـ لِمَا يَرَى مِن خِفَّتِي له، وخِدْمَتِي إيَّاه ـ: «سَلْنِي يَا رَبِيعَةُ أُعْطِكَ»، قال: فقلتُ: أنظُرُ في أمري يا رسولَ الله، ثم أُعلِمُكَ ذلك، قال: ففكَّرْتُ في نفسي، فعَرَفْتُ أنَّ الدنيا منقطِعةٌ زائِلة، وأنَّ لي فيها رِزْقًا سيكفيني ويأتيني، قال: فقلتُ: أسألُ رسولَ الله ﷺ لِآخِرَتي؛ فإنَّه مِن الله ﷻ بالمَنْزِلِ الذي هو به، قال: فجِئْتُ، فقال: «مَا فَعَلْتَ يَا رَبِيعَةُ؟!»، قال: فقلتُ: نَعَمْ يا رسولَ الله، أسأَلُكَ أن تَشْفَعَ لي إلى ربِّك، فيُعْتِقَني من النار، قال: فقال: «مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا يَا رَبِيعَةُ؟»، قال: فقلتُ: لا والله الذي بعثَكَ بالحقِّ، ما أمَرَني به أحدٌ، ولكنَّك لما قلتَ: سَلْني أُعطِكَ، وكنتَ من الله بالمَنْزِلِ الذي أنت به، نَظَرْتُ في أمري، وعَرَفْتُ أنَّ الدنيا منقطِعةٌ وزائلة، وأنَّ لي فيها رزقًا سيأتيني، فقلتُ: أسأل رسولَ الله ﷺ لآخِرَتي، قال: فصَمَتَ رسولُ الله ﷺ طويلًا، ثم قال لي: «إِنِّي فَاعِلٌ؛ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[1].

فانظر ما أصاب مِن الخير بفِكْرَتِهِ رضي الله عنه.

٦ ـ العمل للآخرة:

كما قيل: «لو طالَعَتْ قلوبُ المتقين بفِكْرِها إلى ما قُدِّرَ في حُجُبِ الغَيْبِ مِن خير الآخرة، لم يَصْفُ لهم في الدنيا عيش، ولم تَقَرَّ لهم فيها عين»[2]؛ أي: فهم خُلِقُوا للآخرة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥٩/٤)، وصحَّحه أبو عَوَانة (١٩٧/٢، ١٩٨، ٣٢٩)؛ وأصله في مسلم (٤٨٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٥٣٩/١).

وقد أحسَنَ مَن قال(١):

تَفكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا فَأَبْصَرْتُ رُشْدَهَا   وَذَلَّلْتُ بِالتَّقْوَى مِنَ اللهِ خَدَّهَا
أَسَأْتُ بِهَا ظَنًّا فَأَخْلَفْتُ وَعْدَهَا   وَأَصْبَحْتُ مَوْلَاهَا وَقَدْ كُنْتُ عَبْدَهَا

٧ ـ أن التفكُّر يُورِث العبد القناعة والزهد في الدنيا:

فعن أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ»(٢).

قال ابن بطّال: «لا يكون المرء على حال خَسِيسة من الدنيا إلّا وُجِدَ مِن أهلها مَن هو أخسُّ حالًا منه، فإذا تفكَّر في ذلك، عَلِمَ أن نعمة الله وصَلَتْ إليه دون كثير ممن فضِّل عليه بذلك من غير أمرٍ أوجَبَه، فيُلزِمُ نفسه الشكر؛ فيعظُمُ اغتباطُهُ بذلك في مَعَادِه»(٣).

ودخل ابن السَّمَّاك يومًا على الرشيد، فدعا الرشيد بماء ليشربه، فأُتِيَ به، فلما رفعه ليشربه، قال له ابن السماك: على رِسْلِكَ يا أمير المؤمنين، لو مُنِعْتَ هذه الشَّرْبَةَ، بكم كنت تشتريها؟ قال: بِنِصْفِ مُلْكِي، قال: اشْرَبْ هَنَّاكَ الله، فلما شرب، قال: لو مُنِعْتَ خروجَها مِن بَدَنِكَ، بماذا كنتَ تشتريها؟ قال: بِنِصْفِ ملكي، قال ابن السماك: مُلْكٌ قيمته شربة ماء لجديرٌ أَلَّا تُنافِسَ فيه؛ فبكى الرشيد(٤).

٨ ـ التعرُّف على النفس وما لها وما عليها:

فإنَّ العاقل لا يزال يُعمِلُ عقله وفكره في كل ما أهمَّه من شأن الدنيا والآخرة؛ فإذا وقَعَ على عَوْرة ستَرَها، أو ثُلْمَة سَدَّها، أو عيب أصلحه، ولا

---

(١) «تاريخ بغداد» (٧٤/٢)؛ ونسبه لأبي حاتم الرازي.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٣/٩).

(٣) «شرح صحيح البخاري» (١٩٩/١٠)؛ بتصرُّف، ونسبه للطبري، ولم أجده فيما طُبع من كتبه.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٣٥٧/٨).

يزال هذا حاله ودأبه حتى يستقيم له أمره، ولا يكون ذلك إلّا للعاقل الرشيد الذي يجول بفِكْره، وينظُرُ بعقله، يعلم أنه ليس بمعصوم؛ فيتوقَّع الخلل في عمله؛ فيُعِدُّ له ما يحتاجه في ترميمِهِ وإصلاحه، ويظُنُّ بنفسه العجز والتقصير؛ فيُحسِنُ الاستعانةَ بربِّه.

وأمَّا من يكبُرُ ذلك عليه، فإنه يرفع نفسه عن تصوُّر النقص بها، ويُجِلُّ عمله عن حصول التقصير فيه.

وقد قال الحسن البصري: «الفِكْرُ مرآةٌ تُرِيكَ حسناتِك وسيئاتِك»[1].

٩ ـ أنه سبيلٌ قويٌّ لمدافعة الهوى:

قال ابن الجوزي: «اعلَمْ: أن مُطْلَقَ الهوى يدعو إلى اللذَّة الحاضرة مِن غير فِكْرٍ في عاقبة، ويَحُثُّ على نيل الشهوات عاجلًا وإنْ كانت سببًا للألم والأذى في العاجل ومنعِ لَذَّاتٍ في الآجل.

فأمَّا العاقل، فإنه ينهى نَفْسَهُ عن لذَّةٍ تُعقِبُ ألمًا، وشهوةٍ تُورِثُ ندمًا، وكفى بهذا القدرِ مدحًا للعقل وذمًّا للهوى... وبهذا القدر فُضِّلَ الآدمي على البهائم؛ أعني: مَلَكَة الإرادة؛ لأن البهائم واقفةٌ مع طِباعها، لا نظَرَ لها إلى عاقبة، ولا فِكْرَ في مآل، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع مِن الغذاء إذا حَضَر، وتَفعَلُ ما تحتاج إليه من الروث والبول أيَّ وقت اتفق، والآدمي يَمتنِع عن ذلك بقهر عقله لطبعه»[2].

وهذا يحتاج إلى عزم قوي في هِجْران ما يُؤذِي، والتدرُّج في ترك ما لا يُؤمَنُ أذاه؛ وهذا يفتقِرُ إلى صبر ومجاهدة يهوِّنهما على العبد تفكره فيما سبق ذكره من ثمرات التفكر وطرق تحقيقه.

وهناك أمور أخرى يُثمِرُها التفكُّر؛ فهو على كل حال يشرح الصدر،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٠٨ ـ ١٠٩).

(٢) «ذم الهوى» (ص ١٥)؛ باختصار وتصرُّف.

ويُورِث سكينة القلب، ويُورِث العبد الخوف والخشية، والمراقَبة لله ﷻ، وهو نعمة كبيرة؛ فمن الغَبْن أن يضيِّعها الإنسان، أو يجعلها في أمور مرذولة.

* * *

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ التّفكُّر

التفكُّر والاعتبار، خُلُقُ أهل الفَضْل والادِّكار، ودُونَكَ طَرَفًا من أخبارهم:

١ ـ يقول شَقِيق البَلْخي: «أخَذْتُ الخشوع من إسرائيل بن يونس؛ كنا جلوسًا حوله لا يَعرِفُ مَن عن يمينه ولا مَن عن شماله مِن تفكُّرِهِ بالآخرة»[١].

٢ ـ ويقول يوسف بن أسباط: «قال لي سفيان الثوري ـ وقد صلَّينا العشاء الآخرة ـ: نَاوِلْني المِطْهَرة، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خَدِّه، ونمت، فاستيقظتُ وقد طلع الفجر؛ فإذا المِطْهَرة بيمينه كما هي، فقلتُ: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناوَلْتَني المِطْهَرة أتفكَّر في الآخرة حتى الساعة»[٢].

٣ ـ وعن عون بن عبد الله؛ قال: «سألنا أمَّ الدرداء، قلنا: ما كان أفضَلَ عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكُّر والاعتبار»[٣].

٤ ـ وعن محمد بن واسع: «أن رجلًا من أهل البصرة رَكِبَ إلى أم ذر

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٣٧/٢٣ ـ ١٣٨)، ووقع فيه: «مِن تفكُّرِ الآخرة».

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٥٧/٩).

(٣) أخرجه ابن المبارك (٢٨٦)، والإمام أحمد (١٣٥)؛ كلاهما في «الزهد»، وإسناده صحيح.

بعد موت أبي ذر، يسألها عن عبادة أبي ذر... قالت: كان النهار أجمَعَ خاليًا يتفكَّر»[١].

٥ ـ وقالت أخت بشر بن الحارث: «دخل بِشْرٌ عليَّ ليلةً من الليالي، فوضَعَ إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارجها، وبقي كذلك يتفكَّر حتى أصبح، فلما أصبح، قلت له: في ماذا تفكَّرْتَ طول ليلتك؟ فقال: تفكَّرت في بِشْر النصراني، وبِشْر اليهودي، وبِشْر المجوسي، ونفسي واسمي بِشْر، فقلت: ما الذي سَبَقَ منك إليه حتى خَصَّك؟! فتفكَّرْتُ في تفضُّلِهِ عليَّ وحَمِدتُّهُ على أن جعلني من خاصَّته، وألبسني لباس أحبَّائه»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٦٤/١).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٣٨/١٤).

الخُشُوع

تَوْطِئَة

الخشوع مِن صفات الأنبياء والصالحين، ومِن مراتب الصِّدِّيقِينَ ومنازل المقرَّبِين، وهو حال القلب إذا تمكَّن خوف الله منه، فيُخبِتُ لربه، ويخضع لعظمته، ويَنكَسِرُ لهيبته، ويَذِلُّ لعِزَّته، ثم تظهر آثار هذا التمكُّن على الجوارح، فتنقاد لله رب العالمين.

فالله أسأل أن يَجعَلَنا له خاشعين؛ إنه سميع مجيب.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى الخُشُوعِ وَحَقِيقَتُهُ

الخشوعُ في اللغة: هو التواضُعُ والتَّطَامُن؛ ومن هنا قيل: «الخاشع: المُسْتَكِينُ والراكع»، و«المُتَضَرِّع»، وقيل غير ذلك مما يُقَارِبه[1].

وأما الخشوع في معناه الشرعي: فعبارات العلماء فيه مُتَقَارِبة أيضًا[2]:

فقيل: هو قيام القلب بين يَدَيِ الربِّ بالخضوعِ والذُّلّ.

والذي يتحصل من مجموع كلام العلماء في تعريف الخشوع؛ أنه: معنًى ينتظِمُ خضوع القلب وذُلَّهُ وانكساره وعبوديَّته، وسكونه وطمأنينته، مع التعظيم والمحبة والخشية لله تعالى، ويظهر أثره على الجوارح بسكونها، وخضوعها، مع التواضُع للخلق؛ ولين الجانب[3].

* * *

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/١٨٢)، (خ ش ع).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/٥٢١ ـ ٥٢٤).
(٣) المصدر السابق (١/٥٢٢).

أَهَمِّيَّةُ الخُشُوعِ وَمَنْزِلَتُه

الخشوع بلا شكٍّ في غاية الأهميَّة، وهو واجب من واجبات الإيمان؛ ومما يَدُلُّ على أهميَّته:

أولًا: أنه واجب من واجبات الصلاة؛ على قول طائفة من أهل العلم:

وممن اختار هذا القول: القرطبي صاحب «التفسير»(١)، وابن تيميَّة(٢)، وابن القيِّم(٣)، وغيرهم من السلف والخلف، مستدلين على ذلك بأدلَّة متعدِّدة، منها(٤):

١ ـ أن الله ﷻ قال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ «وهذا يقتضي ذمَّ غير الخاشعين؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فقد دلَّ كتاب الله ﷻ على مَن كَبُرَ عليه ما يُحِبُّهُ الله، وأنه مذموم بذلك في الدين مسخوط منه، والذم أو السخط لا يكون إلّا لترك واجب، أو فعل محرَّم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين، دَلَّ ذلك على وجوب الخشوع، فمِن المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله تعالى:

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/١٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٥٣ ـ ٥٥٧).

(٣) انظر: «الوابل الصيب» (ص ١٧ وما بعدها).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٥٣ وما بعدها).

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] لا بُدَّ أن يتضمَّن الخشوع في الصلاة؛ فإنه لو كان المراد الخشوع خارج الصلاة، لَفَسَدَ المعنى؛ إذْ لو قيل: إن الصلاة لكبيرةٌ إلّا على من خشَعَ خارجها، ولم يخشع فيها، كان يقتضي أنها لا تكبُرُ على من لم يخشع فيها، وتكبُرُ على من خشَعَ فيها، وقد انتفى مدلول الآية؛ فثبَتَ أن الخشوع واجب في الصلاة»[١].

٢ ـ أن النبي ﷺ توعَّد تَارِكِيهِ؛ كالذي يرفع بصَرَهُ إلى السماء؛ فعن أنس بن مالك ﷺ؛ قال: قال النبي ﷺ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ؟!»، فاشتدَّ قوله في ذلك حتى قال: «لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»[٢]؛ وكذلك حديث جابر بن سَمُرة ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ»[٣]؛ فدلَّ ذلك على وجوب الخشوع في الصلاة؛ وبهذا استدل أيضًا الحافظ العراقي[٤].

ثانيًا: أن العبادة التي يُصاحِبها الخشوع تفضُلُ العبادة التي لا خشوع فيها:

وشتَّان بين اثنَيْنِ أحدُهما يصلِّي وهو خاشع، والآخر يصلِّي وهو أبعد ما يكون من الخشوع.

يقول حسَّان بن عطيَّة: «إن الرَّجُلَيْنِ ليكونان في صلاة واحدة وإن بينهما في الفضل لكما بين السماء والأرض»[٥].

---

(١) المصدر السابق (٢٢/٥٥٣ ـ ٥٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٢٨).

(٤) انظر: «طرح التثريب» (٢/٣٧٢).

(٥) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٩٦).

ثالثًا: أن الخشوع أول ما يُفقَدُ من هذه الأمَّة:

فعن أبي الدرداء ﷺ؛ أن النبي ﷺ قالَ: «أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخُشُوعُ؛ حَتَّى لَا تَرَى فِيها خَاشِعًا»[١].

ورُوِيَ عن حذيفة ﷺ؛ أنه قال: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمْ: الْخُشُوعُ، وآخِرُ ما تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمْ: الصَّلَاةُ»[٢]. فأنبأهم بذلك لأهميته، ثم إن ذلك يستدعي توافر هممهم على طلبه، والعمل على التحقق به.

رابعًا: أن صلاة الظهر يُشرَع تأخيرها عن أول الوقت إلى حَدِّ الإبراد:

مع أن الصلاة في أول الوقت محبوبةٌ إلى الله ﷻ، وهو أفضل العمل؛ كما ثبتَ عن النبي ﷺ[٣]، ومع ذلك شرَعَ لنا النبي ﷺ الإبراد بالصلاة؛ وحِكْمةُ هذا التأخير: «أن الصلاة في شدَّة الحَرِّ تمنع صاحبها من الخشوع وحضور القلب والتأثُّر بها»[٤].

* * *

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٧٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٦٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨١/١٣)، والحاكم (٤٦٩/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٦)؛ من حديث أم فَرْوة ﷺ، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢/ ٣٠٥).

(٤) «الوابل الصيِّب» (ص ٢٧)؛ بتصرف يسير.

الخُشُوع فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

أولًا: الخشوع في القرآن الكريم:

تكرَّر ذكر الخشوع في كتاب الله ﷻ، وجاء في معان متعدِّدة، منها:

المعنى الأول: الذُّلُّ؛ قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]؛ أي: ذَلَّتْ.

المعنى الثاني: السكون في القلب والجوارح؛ قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في تفسيرها: «خائفون ساكنون»[(١)].

المعنى الثالث: الخَوْف:

قال الله ﷻ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ قال الحسَن: «هو الخوف الدائم في القلب»[(٢)].

المعنى الرابع: التواضع:

وقد فُسِّرَ بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وغيرها من الآيات في الخشوع.

وكذا قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ قال مجاهد: «الخشوع والتواضع»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/١٧).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٧٤).

والمعنى الخامس: اليُبْسُ والجمود؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]؛ يعني: هامدةً يابسةً لا نبات فيها[١].

ثانيًا: الخشوع في السُّنَّة:

١ ـ عن عثمان بن عفَّان ﷺ؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً؛ وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»[٢].

٢ ـ وعن علي بن أبي طالب ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ، لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي»[٣].

وهذا الحديث يدلُّ على أن الخشوع ينتظِمُ جوارح العبد جميعًا، وأنه من الأعمال القلبيَّة التي تظهر على الجوارح وتؤثِّر فيها، وأن الخشوع في كل جارحة بحَسَبِها؛ فخشوع السمع غير خشوع البصر، والمُخّ، والعَظْم، وهكذا.

* * *

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/٤٣٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨).
(٣) تقدم تخريجه.

مَرَاتِبُ النّاسِ فِي الخُشُوع

الخشوع: عمَلٌ من أعمال القلب التي تظهر على الوجه والجوارح، والناس يتفاوتون فيه على هذه المراتب؛ فالسابقون في هذا الباب: هم الأوَّلون، ثم يلي ذلك من هو مقتصِد، ثم يلي ذلك الظالم لنفسه، والظالم لنفسه متوعَّدٌ بالعقوبة.

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بربه: «مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»(١)؛ فدَلَّ على أن تحقيق الخشوع وتحصيله من الواجبات في الحد الذي لا يرخَّص للمكلَّف في تركه والتقصير فيه.

وهكذا تتفاوَتُ أحوال العباد في صلاتهم من جهة الخشوع، وقد جعَلَهم ابن القيِّم على خمس مراتب(٢):

الأولى: الظالم لنفسه المفرِّط، وهو الذي انتقَصَ من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها؛

الثانية: رجل يحافظ على المواقيت والأركان الظاهرة، ولكنه يضيِّع مجاهدة ما يَعرِضُ له من الوساوس والخواطر، فيسترسِلُ معها.

الثالثة: مَن حافَظَ على حدودها وأركانها، وجاهد نفسه بدفع

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)؛ من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

(٢) انظر: «الوابل الصيِّب» (ص ٤٩ ـ ٥١).

الوساوس؛ فهو مشغول بين صلاة وجهاد، يحاول أن يستحضِر ويجاهِد؛ فهو مأجور على مجاهدته، ومأجور على صلاته؛ ولكنه لم يَعْتَلِ سَنَامَ المراتب.

الرابعة: وهذه فوق الثالثة؛ وهو مَن قام إليها، فأكمَلَ حقوقها وأركانها، واستغرق قلبه شأن الصلاة وعبوديَّة ربه فيها؛ فلا تشغله الوساوس، ولا ينشغل بمجاهدة النفس، وإنما شُغْلُه في تكميل صلاته، وهمه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي.

الخامسة: وهي أعلى المراتب، وأرفع درجات الخاشعين في الصلاة؛ فهو مع تحقيق الشروط والواجبات والأركان، وحضور القلب، قد امتلأ قلبه محبَّةً لله، وإجلالًا له تعالى، يصلِّي وكأنه يَرَى ربه ﷻ؛ فتندفِعُ عنه تلك الوساوس والخطرات التي شغَلَتْ غيره، ولا تأتي إليه أصلًا؛ فهو مشغول بربه، قرير العين به.

فالأول: معاقَب، والثاني: محاسَب، والثالث: مكفَّرٌ عنه لمجاهَدته، والرابع: مُثَاب، والخامس: مقرَّبٌ إلى ربه في أعلى المنازل والدرجات.

❊ ❊ ❊

أَنْوَاعُ الخُشُوعِ

للخشوع نوعان:

الأول: خشوع الإيمان: وهو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوَقَار والمهابة والحياء، فينكسِرُ القلب كَسْرةً مُلتئِمةً من الوَجَلِ والحبّ والحياء، وشهود نعم الله وجناياته هو؛ فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح.

والثاني: خشوع النفاق: وهو خشوع الظاهر دون مواطَأة الباطن؛ فيبدو على الجوارح تصنُّعًا وتكلُّفًا والقلب غير خاشع[1].

ومتى تكلَّف الإنسان تعاطِيَ الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه منه، فإنَّ ذلك يكون من قَبِيلِ خشوع النفاق، إلّا إذا أراد العبد بفعل ذلك تحقيق خشوع الإيمان، على ألَّا يكون ذلك بحضرة الناس، وإنما يفعله خاليًا.

وقد قال بعض السلف: «استعيذوا بالله مِن خشوع النفاق»، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ فقال: «أن ترى الجَسَدَ خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[2].

وقد ذُكِرَ أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى رجلًا طأطأ رَقَبَتَهُ في الصلاة،

---

(١) انظر: «الروح» (٢/٦٩٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٤٢)، عن أبي الدرداء ﷺ.

فقال: «يا صاحب الرَّقَبة، ارفع رقَبَتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»[1].

وعن محمد بن عُبَيْد الطَّنَافسي؛ قال: «سمعتُ سفيانَ ـ يعني: الثوري ـ يقول: يا معشَرَ القرَّاء، ارفعوا رؤوسكم، لا تزيدوا التخشُّعَ على ما في القلب؛ فقد وضَحَ الطريق؛ فاتقوا الله، وأَجمِلوا في الطلب»[2].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٢١)، وروَى نحوه الدِّينَوري في «المجالسة» (١٦٩١، ٣١٩١).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٨٢).

الطَّرِيقُ إِلَى الخُشُوع

دونك بعضَ الوسائل الموصِّلة إلى الخشوع:

١ ـ استحضار نظر الله تعالى إليك:

في حَرَكاتك وسَكَناتك، في صلاتك وقراءتك، في قيامك وقعودك؛ فالخشوعُ لا يختصُّ بالصلاة، وإنما هو عبادة قلبيَّة يظهر أثرها على الجوارح في كل أحوال العبد؛ وإنما يفارِقُ الخشوع القلب إذا حصلت الغَفْلة عن استشعار نظر الله ﷻ ومراقبته.[١].

فعن عبد الرحمن بن حَفْص القُرَشي؛ قال: «كان علي بن حسين إذا توضَّأ، اصفرَّ، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك؟ فيقول: تدرون بين يَدَيْ مَن أريد أن أقوم؟!»[٢].

٢ ـ ترقُّبُ آفات النَّفْس والعمل بالنَّقْد، ورؤيةُ فضل كل ذي فضل:

فارجِعْ إلى نفسك، وانظُرْ إلى عيوبها؛ فإن ذلك يُورِثُك انكسارًا، وأما الخَلْق، فلا تنظر إلى عيوبهم، بل انظر إلى محاسنهم، فيُورِثُك ذلك شعورًا بأنك أقلُّ من هؤلاء جميعًا، وأنك المقصِّر المذنب، المحتاج إلى عفو ربك ومسامحته، وإلى التشمير للتقرُّب إليه وطاعته[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٢٢ ـ ٥٢٣)؛ بتصرف.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٦٧).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/٥٢٣).

٣ ـ معرِفة الربِّ ﷻ معرِفةً صحيحةً تُورِثُ التعظيم:

فكلما كان العبد أعرَفَ بالله، كان له أخوَفَ وأشدَّ تعظيمًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فإذا عرَفَ العبدُ ربَّه بصفات كماله ونعوت جلاله، وعرَفَ نفسه بضَعْفها وعَجْزها وفَقْرها، انكسَرَ وتواضَعَ وخشَعَ لله رب العالمين(١).

٤ ـ أن يصلِّيَ صلاة رجل يظنُّ أنه لن يعود إليها أبدًا:

فإن ذلك أدعى أن يفرِّغ لها قلبه، وأن يستحضِرَ فيها عظمة ربه.

وقد جاء عن أنس ﷺ مرفوعًا: «اذْكُرِ المَوْتَ فِي صَلَاتِكَ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ المَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنَّهُ يُصَلِّي صَلَاةً غَيْرَهَا...»، الحديث(٢).

٥ ـ أن تستشعِرَ وتستحضِرَ أنك على الصراط فوق جهنَّم:

وكأنك تشاهد الجنة والنار أمام عينَيْك، وكأنك قمتَ بين يدي الله ﷻ في موقف الحساب؛ وكان بعض السلف إذا سَمِعُوا الأذان، تغيَّرت ألوانهم، وفاضت عيونهم، كانوا يَرَوْنَ أنه يذكِّرهم بالنداء يوم العرض الأكبر(٣).

فهذا حاتم الأصم لما سُئِلَ عن صلاته، قال: «إذا حانت الصلاة، أسبَغْتُ الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعُدُ فيه حتى تجتمِعَ جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي؛ أظنُّها آخر صلاتي»(٤).

---

(١) انظر: «الخشوع في الصلاة» لابن رجب (٤٦ ـ ٤٧).

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (١٧٥٥)، وحسنه ابن حجر كما في «المقاصد الحسنة» (٢٧٥).

(٣) انظر: «الرقة والبكاء» (١٤٠ ـ ١٤٧).

(٤) «الإحياء» (١/١٥١).

ومن استشعَرَ هذه المعاني في الصلاة، لم يتغيَّر حاله في النافلة عنه في الفريضة، ولا في السِّرِّيَّة عنه في الجهريَّة، ولكن قد تتفاوت درجات الخشوع بحسب حاله في كل صلاة.

٦ ـ أن تفرِّغَ قلبك للصلاة، وأن تُؤثِرَها على ما سواها:

قال ابن كَثير: «والخشوع في الصلاة إنما يحصُلُ لمن فرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها؛ وحينئذ تكون راحة له وقرة عَيْن؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي جاء عن أنس ﷺ، عن رسول ﷺ؛ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ الطِّيبُ والنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[١]».

وقيل لعامر بن عبد القيس: أتحدِّثُ نَفْسَكَ بشيء في الصلاة؟ فقال: «أوَشَيْءٌ أحبُّ إليَّ من الصلاة أحدِّث به نفسي؟!»، قالوا: إنَّا لَنُحَدِّث أنفسنا في الصلاة! فقال: أبالجنة والحُور؟ قالوا: لا، بأهلينا وأموالِنا، فقال: «لَأَنْ تختلِفَ الأَسِنَّةُ فِيَّ أحبُّ إليَّ من أن يكون هذا مِنِّي في صَلَاتِي»[٢].

يقول الحسن: «إذا قُمْتَ إلى الصلاة، فقُمْ قانتًا كما أمرك الله، وإيَّاك والسهوَ والالتفات؛ أن ينظُرَ الله إليك وتنظُرَ إلى غيره، تسألُ الله الجنة وتعوذُ به من النار، وقلبك ساهٍ، ولا تدري ما تقول بلسانك؟!»[٣].

٧ ـ تدبُّر القُرْآن:

فإن تدبُّر القرآن يفتح مغاليق القلوب، ويُشغِل النفس بأخباره وقصصه ومَوَاعِظِه، وأوامره ونواهيه؛ فتدمع العين، ويَرِقُّ القلب ويخشع، ويتذلَّل

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/٤٦١). والحديث أخرجه النسائي (٣٩٣٩)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٩١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٩٢).

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٠).

العبد بين يَدَيْ ربه منكسِرًا خائفًا وَجِلًا، فإذا مَرَّتْ به آيات الرحمة، سأل ربه من فضله، وإذا مَرَّتْ آيات العذاب، استعاذ بالله من عذابه؛ فهو في صلاته بين خوف ورجاء؛ يذهب به الخوف كل مَذْهَب، حتى لَيُوشِكُ قلبه أن يتفطَّر، ثم يسكُنُ برجائه عند حسن ظنِّه بربه، وموفور الثقة به، وتمام التوكُّل عليه.

هنالك تنفتح مغاليق تلك القلوب، وتستهدي بهدى الله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ومعلوم أن التدبُّر لا يقع إلّا إذا عُرِفَ المعنى.

يقول ابن جرير الطبري: «عَجِبْتُ لمن يقرأ القرآن ولا يَعرِفُ معانيه؛ كيف يَلتَذُّ بقراءته؟!»(١).

فمعرفة معاني القرآن طريق للتدبُّر، والتدبُّرُ طريق للفهم والاتعاظ والاعتبار والخشوع؛ لذلك كان السلف ﷺ يقوم الواحد منهم بآيةٍ واحدة، يردِّدها إلى الفجر، مع الخشوع والبكاء(٢).

٨ ـ تَرْكُ التكلُّف في كل الشؤون:

فالأفضل للمرء أن يصلِّي في مكان لا يتكلَّف لأحدٍ فيه، ولِينشغِلَ بمن يناجيه؛ فهو أقرب إليه، مطَّلِع عليه؛ فلا يكن أهون الناظرين إليه.

ومما يدخل في هذا الباب وقد يُذهِبُ خشوع الإمام والمأمومين: تكلُّف بعض الأئمة في الدعاء على غير سجيَّته المعهودة فيه، فيكون ذلك مدعاة لِذَهَابِ الخشوع من قلبه.

---

(١) «معجم الأدباء» (٢٤٥٣/٦)؛ بتصرف.

(٢) انظر: «الزهد» لأحمد بن حنبل (١٨٢).

وكما قيل: «ليست النائحة المستأجَرة كالنائحة الثَّكْلَى».

فالتكلُّف يُفسِد الأعمال القلبية ببَهْرَجَته؛ فإنه لا يصلُحُ معها إلّا الإخلاص والصدق.

* * *

ثَمَرَاتُ الخُشُوع

للخشوع فوائد كثيرة، منها:

أولًا: طَرْد الشيطان، والقضاء على هواجس النَّفْس:

فالخَطَرات والوساوس التي تَعرِضُ للعبد من هواجس النَّفْس ووساوس الشيطان تشغل قلبه، والخشوع خضوع القلب بكليَّته؛ فصاحب القلب الخاشع لا يجد الشيطان طريقًا إليه؛ ولذلك قال بعض أهل العلم: «من خشَعَ قلبه، لم يقرُبْ منه الشيطان»[1].

ثانيًا: الرِّفْعة وعلوُّ المنزِلة:

فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ؛ قال: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله»[2].

قال النووي: «فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه في الدنيا، ويثبِّت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويُجِلُّ مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعُهُ فيها بتواضُعه في الدنيا. وقد يكون المراد الوجهَيْنِ معًا في الدنيا والآخرة»[3].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/١٤٢)؛ باختصار.

ثالثًا: حصول الفلاح:

قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]؛ فوصفهم بالفلاح المحقَّق، وجعَلَ أوَّل أوصافهم التي نالوا بها الفلاح: خشوعَهُمْ في صلاتهم. والفلاح: تحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

رابعًا: أنه يُورِثُ صاحبه محاسن الأخلاق:

قال ابن القيم: «أصلُ الأخلاقِ المحمودةِ كلِّها: الخشوعُ وعلوُّ الهمَّة، وأصل الأخلاق المذمومة كلِّها: الكِبْرُ، والمهانة والدناءة؛... فمَن عَلَتْ هِمَّتُه، وخشَعَتْ نَفْسُه، اتصف بكل خُلُقٍ جميل، ومَن دَنَتْ هِمَّتُه، وطغَتْ نَفْسُه، اتصف بكل خُلُقٍ رَذِيل»[١].

خامسًا: أنه يَرُدُّ العبدَ إلى حكم العبوديَّة:

والكِبْرُ يرفعه عن هذا المقام؛ ولذا كان الكِبْر لا يناسِبُ عبوديَّة القلب؛ فالكبرياء لله ﷻ؛ أمَّا المخلوق: فكماله في الخشوع والتواضُع والإخبات؛ ولذا أُمِرَ العبد بالسجود ـ «خضوعًا لعظمة ربه، وخشوعًا له، وتذلُّلًا بين يديه، وانكسارًا له؛... وهذا غاية خشوع الظاهر؛ وأجمع العبوديَّة لسائر الأعضاء، فيعفِّرُ وجهه في التراب؛ استكانةً وتواضعًا وخضوعًا وإلقاء باليدَيْن. وقال مسروق لسعيد بن جُبَيْر: «ما بَقِيَ شيءٌ يُرغَبُ فيه إلّا أن نعفِّرَ وجوهَنا في التراب له»[٢]، وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوَجْهِهِ قصدًا[٣]، بل إذا اتفق له ذلك، فعَلَهُ؛ ولذلك سجد في الماء والطين[٤]»[٥].

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٤٩).

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٠٣)؛ من حديث عائشة ﵂، وقد ضعَّفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢/ ٥٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٦٩)، ومسلم (١١٦٧)؛ من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

(٥) «كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص٣٦٣ ـ ٣٦٤).

سادسًا: ما يحصُلُ به مِن تفاضُلِ الأعمال وتفاوُتِها:

قال حسَّان بن عطيَّة: «إن الرجلَيْنِ ليكونان في صلاة واحدة، وإنَّ بينهما في الفضل لكما بين السماء والأرض»[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فإذا قيل إنَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١] يَعدِل ثوابُها ثواب ثلث القرآن؛ فلا بد من اعتبار التماثُل في سائر الصفات؛ وإلا فإذا اعتُبِرَ قراءة غيرها، مع التدبُّر والخشوع بقراءتها، مع الغفلة والجهل، لم يكن الأمر كذلك، بل قد يكون قول العبد: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»، مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضلَ مِن قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة، والناس متفاضِلون في فهم هذه السورة وما اشتمَلَتْ عليه؛ كما أنهم متفاضِلون في فهم سائر القرآن»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/١٤٠).

الأُمُورُ المُنَافِيَةِ لِلخُشُوع

للخشوع معوِّقات، ينبغي تجنُّبها؛ فمن ذلك:

أولًا: كثرة الحَرَكة:

فإنها تنافي السكينةَ والوَقَار، وخاصَّةً في الصلاة، وقلةُ الحركة تُنبِئُ عن تُؤَدَةٍ وخشوع، والله ﷻ يقول: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، والمراد به: أن يكون العبد ساكنًا مع طول القيام فيها، لا يَلتفِت، ولا يرفع بصره، ولا يتحرَّك، ولا ينشغل بشيء من جوارحه عما هو بصدده؛ لأن الخشوع يتضمَّن السكينة والتواضع جميعًا؛ ولهذا نُقِلَ عن سعيد بن المسيِّب: أنه رأى رجلًا يعبث بلِحْيته، فقال: «لو خشَعَ قلبُ هذا، لخشَعَتْ جوارحه»[1]؛ أي: لَسَكَنَتْ وخضَعَتْ.

ثانيًا: رفع البَصَر في الصلاة:

وهو منهيٌّ عنه؛ لأنه ينافي الخشوع المأمور به؛ فخشوع القلب يستلزِمُ خشوع البصر وذُلَّه، وذلك ينافي رفعه.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٨٨).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الخُشُوعِ

لما كان البكاء مِن خشية الله آيةَ الخشوعِ وأثرًا من آثاره، فإنا نذكُرُ بعض أخبارهم التي يُتعرَّفُ بها على أحوالهم، وهم قيام خاشعون بين يَدَيْ ربِّهم، تَسَّاقَطُ دموعهم في محاريبهم.

١ ـ فأولهم: سيِّدُهم وإمامُهم نبيُّهم ﷺ؛ فعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه؛ قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يصلِّي وفي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كأَزِيزِ الرَّحَى مِن البُكَاءِ»[1].

٢ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال لي النبي ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قلتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنزِلَ؟! قال: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فقرأتُ عليه سورةَ النساء حتى بلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «أَمْسِكْ»؛ فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[2].

٣ ـ وهذا أبو بكر رضي الله عنه، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: لما مَرِضَ النبيُّ ﷺ مرَضَهُ الذي مات فيه، أتاه بلالٌ يُؤْذِنُهُ بالصلاة، فقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ»، قلتُ: إنَّ أبا بكرٍ رجُلٌ أَسِيفٌ، إنْ يَقُمْ مَقَامَكَ يَبْكِي، فلا يَقْدِرُ على القراءة[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٤)؛ وصحَّحه ابن حجر في «الفتح» (٢/٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٠)؛ واللفظ له، ومسلم (٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٢)؛ واللفظ له، ومسلم (٤١٨).

٤ ـ وقال ابن مسعود ﷺ: «ما كان بين إسلامِنَا وبينَ أنْ عاتَبَنا الله بهذه الآيـة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، إلَّا أربعُ سِنِينَ»[١]؛ وأنت! كم مضى عليك وأنت تَسمَعُ القرآن، وتَشهَدُ مع الناس الصلاة، وقلبك لا يتحرَّك؟!

٥ ـ وكان ابن عمر ﷺ إذا تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، بكى حتى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ البكاءُ، ويقول: «بلى يا رَبِّ»[٢].

٦ ـ وعن هشام بن عُرْوة؛ قال: قال لي محمَّد بن المُنكدِر: «لو رأيتَ عبد الله بن الزبير قائمًا يصلِّي، لَقُلْتَ: شجرةٌ تصفِّقها الرياح، وحجارة المنجنيق تقع هاهنا وهاهنا ما يَلْتفِت»[٣].

٧ ـ وقال مجاهد: «كان عبد الله بن الزبير إذا قام في الصلاة كأنَّه عُودٌ»، وكان يقول: «ذلك من الخشوع»[٤]، وكان إذا سجد، وقَعَتِ العصافير على ظهره، تَصعَدُ وتَنزِلُ لا تراه إلّا جِذْمَ حائط[٥]. ولقد مرَّت آجُرَّةٌ من رَمْيِ المنجنيق بين لحيته وصدره، فوالله ما خشَعَ لها بصره، ولا قطَعَ لها قراءته، ولا ركَعَ دون ما كان يركع، وكان إذا دخل في الصلاة، خرَجَ من كل شيء إليها[٦].

٨ ـ قال محمد بن أبي حاتم الورَّاق: «دُعِيَ محمد بن إسماعيل ـ يعني: البخاري ـ إلى بستان بعض أصحابه، فلما حضَرَتْ صلاة الظهر، صلى

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٧٧)؛ وإسناده جيد.

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٤٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٣٣٥).

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٠٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/١٧٠)؛ واللفظ له.

(٦) انظر: «تاريخ دمشق» (٢٨/١٧٣).

بالقوم، ثم قام للتطوُّع، فأطال القيام، فلما فرَغ من صلاته، رفَعَ ذَيْلَ قميصه، فقال لبعض مَن مَعَهُ: انظروا هل ترون تحت قميصي شيئًا؟ فإذا زنبورٌ قد أَبَرَهُ في ستةَ عشَرَ، أو سبعةَ عشَرَ موضعًا، وتورَّم من ذلك جَسَده، وكان آثار الزنبور في جسده ظاهرة، فقال له بعض القوم: كيف لم تخرُجْ من الصلاة في أول ما أَبَرَكَ؟ فقال: كنتُ في سورة، فأحببتُ أن أتمَّها»(١).

٩ ـ وعن ابن عَوْن؛ قال: «كان إذا دخَلَ محمد بن سِيرِين السوق، لا يراه أحد إلّا كَبَّرَ الله لصلاحه وخشوعه»(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/١٢ ـ ١٣).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١١٧٦).

المُرَاقَبَة

تَوْطِئَة

المراقبة عمَلٌ من أعمال القلب، هو بِذْرُها وأُسُّها الذي تتفرَّع منه، وترتكِزُ عليه، متى أقامه العبد، صلَحَ قلبه واستقام، ومتى سيَّبه، تكالبت عليه الأسقام.

والحديث عن مراقَبة الله تعالى في عَصْرنا هذا مما تَمَسُّ الحاجة إليه؛ وذلك لِمَا فُتِحَ على الناس من وسائل الاتصالات الحديثة؛ الأمر الذي صيَّر الوصول إلى المعصية في غاية السهولة؛ فأصبَحَ المرء يتمكَّن عبر تلك الوسائل المتنوِّعة أن يَطُوفَ بين ألوان المنكَرات وهو في داخل حجرته، لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا الله تعالى، فإذا لم يكن له وازعٌ من تقوى الله ومراقبته، فإن الشيطان سيقوده إلى الهَلَكة ولا بُدَّ!

ومِن هنا: فإنه يتعيَّن على المربِّين إحياء هذا المعنى في النفوس؛ كي يكون حاجزًا بينها وبين مَسَاخِطِ الله تعالى.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى المُرَاقَبَة وَحَقِيقَتها

المُرَاقَبَة لغةً: مصدرٌ مأخوذٌ من مادَّة: (ر ق ب) التي تَدُلُّ على الانتصاب لمراعاة شيء، ومن ذلك الرَّقِيب؛ وهو الحافظ، ورَقَبَ الشيءَ يَرْقُبُهُ أيضًا: حَرَسَهُ.

ومن أسماء الله تعالى: الرَّقِيبُ، وهو الحافظُ الذي لا يغيب عنه شيء، وهو فَعِيلٌ بمعنى فاعل(١).

وأما المراقَبة في المعنى الشرعي: فهي: «دوامُ علمِ العبدِ وتيقُّنِهِ باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه؛... والمراقَبةُ هي ثمرة علمه بأن الله رقيب، وهي التعبُّدُ باسمه الرَّقِيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير. فمن عقَلَ هذه الأسماء، وتعبَّد بمُقْتَضاها، حصَلَتْ له المراقَبة»(٢).

وهذا المعنى جامع لما قيل في تعريف المراقَبة، وإليه تَرجِعُ عباراتُهم في بيان معناها.

وفي حديث جبريل عليه السلام؛ أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٣).

قال النوويُّ: «هذا من جوامع الكَلِمِ التي أُوتِيَها ﷺ؛ لأنَّا لو قدَّرنا أن

---

(١) انظر: «الصحاح في اللغة» (١/١٣٧)، (ر ق ب)، و«لسان العرب» (٥/٢٧٩)، (ر ق ب).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٦٥ - ٦٦)، باختصار وتصرف يسير.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أحدَنا قام في عبادة، وهو يعايِنُ ربَّه سبحانه وتعالى، لم يترُكْ شيئًا مما يَقدِرُ عليه؛ من الخضوع والخشوع وحُسْنِ السَّمْتِ واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها، إلّا أتى به؛ فقال ﷺ: اعبُدِ الله في جميع أحوالك، كعبادتك في حال العِيَان[1].

فإن التَّتْمِيم المذكور في حال العِيَان، إنما كان لعلم العبد باطِّلَاع الله سبحانه وتعالى عليه؛ فلا يُقدِمُ العبد على تقصيرٍ في هذه الحال للاطِّلاع عليه..»[2].

❊ ❊ ❊

(١) ليس هذا لفظ حديث النبي ﷺ إنما قاله النووي تفسيرًا؛ كما يظهر من السياق.

(٢) «شرح مسلم» (١/١٥٧ ـ ١٥٨)، باختصار.

مَنزِلَةُ المُرَاقَبَةِ مِنْ أَعمَالِ القُلُوب

قال ابن القيِّم: «فالمراقَبةُ أساس الأعمال القلبيَّة كلِّها، وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمةٍ واحدة، وهي قوله في الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[1]؛ فتأمَّل كلَّ مقام من مقامات الدِّين، وكل عمل من أعمال القلوب؛ كيف تجد هذا أصلَهُ ومَنْبَعَهُ؟!»[2].

وقد سُئِلَ محمد بن المبارَك: ما علامة المحبَّة لله؟ فقال: «المراقَبةُ للمحبوب، والتحرِّي لمرضاته»[3].

وقد قال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: «إذا جلَسْتَ للناس، فكُنْ واعظًا لقلبك ولنفسك، ولا يَغُرَّنَّكَ اجتماعُهم عليك؛ فإنهم يراقِبُونَ ظاهرك، والله تعالى يراقِبُ باطنك»[4].

وإذا غفَلَ العبد عن هذا المعنى، صار قلبه منجذِبًا إلى الناس؛ فيقع الخَلَلُ في كلامه وأفعاله وأحواله كلها، ويُرضِيهم ولو بسخط الله تعالى.

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «إعلام الموقعين» (٦/١١٢).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/٢٢٤).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/٦٦).

المُرَاقَبَة فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

بين دفَّتي الكتاب العزيز والسنة المطهَّرة نصوصٌ جمَّة تحث على المراقبة، وتَغرِسها في النفوس؛ تارَةً بالتلميح، وتارَةً بالتصريح:

فمن التلميح: تَضافُر الأدلَّة على أن الله ﷻ محيطٌ بكلِّ مخلوقاته، وأنه لطيفٌ خبير، وأنه بكل شيءٍ عليم، لا تَخفَى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وذلك من شأنه تنمية المراقَبة في قلوب العباد؛ لذا كثيرًا ما يختم بها الله تعالى آيات الأحكام والمواعظ في كتابه؛ كقوله تعالى عَقِبَ ترغيبه في النفقة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وكقوله عقب ذكر أحكام المدايَنة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن التصريح: ما صرَّح فيها ـ سبحانه ـ باطِّلاعِهِ على أحوال خلقه، وإحاطة علمه بما يصدُرُ عنهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقولِه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]؛ أي: بعلمه وإحاطته، وقولِه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقوله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ وهؤلاء الملائكة يكتبون كلَّ ما يتكلَّم به الناس مِن خَيرٍ أو شَرّ.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «إنه لَيُكتَبُ قوله: أَكَلْتُ، شَرِبْتُ، ذَهَبْتُ، جِئتُ،

رأيتُ»[١]. ومما جاء في السُّنَّة: حديث أبي هريرة ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ ﷻ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً ـ إلى أن قال ـ: قَالَتِ المَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً ـ وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ ـ فَقَالَ: ارْقُبُوهُ؛ فَإِنْ عَمِلَهَا، فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا، فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً؛ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»[٢].

والمعنى: أنه كان يراقِبُ الله ﷻ، فلمَّا لاحت له الشهوةُ والطمع، وكان قادرًا على مقارَفةِ ذلك، ترَكَهُ خوفًا من الله ﷻ؛ فكُتِبَتْ له حسنةً.

وفي حديث أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»[٣].

وإذا تأمَّلت هؤلاء السبعة، وَجَدتَّ أنَّ عامَّةَ أمرهم يرجع إلى مراقَبَةِ الله تبارك وتعالى.

وهذا غَيْضٌ من فَيْض، وقليلٌ من كثير، وفيما أورَدْنا كفايةٌ للدَّلالةِ على المراد، وهو تذكيره سبحانه لعباده بهذا الأصل؛ ليَحفَظُوا حدوده، ويتَّقوا مَحَارِمَهُ، ويفعلوا ما أمرهم به؛ ليبعثَ في نفوسهم الرقابة الذاتيَّة، التي تستحِثُّهم على التقوى، والخوف من الله، والقيام بأمره في كل مكان وزمان، في حضرةِ الخلقِ وفي غَيْبَتهم عن العِيَان.

❊ ❊ ❊

---

(١) أورده ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/٣٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٩)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

مَرَاتِبُ المُرَاقَبَة

قسَّم بعض أهل العلم المراقَبة إلى ثلاث مراتب؛ وذلك باعتبار الحامل عليها، والدافع إليها:

المرتبة الأولى: ما كان الحامل عليه الخوفَ من الله.

والمرتبة الثانية: ما كان الحامل عليه الحياءَ من الله تبارك وتعالى.

المرتبة الثالثة ما كان الحامل عليه المحبَّة.

فالخائفُ: مراقِبٌ لله ﷺ بالحَذَرِ وغَلَبة الفَزَع، والمستَحْيِي[1]: مراقِبٌ له بشدَّة انكسار وغَلَبة إخبات، والمُحِبُّ: مراقِبٌ له بشدَّة السرور وغَلَبةِ النَّشَاط وسَخَاءِ النَّفْس، فيُقبِلُ على العبادة بانشراح صدر[2].

وبذلك نعلم ما تتطلَّبُهُ المراقبة في جميع صورها ومراتبها من تمام الإخلاص لله تعالى في الفعل والتَّرْك، وتمامِ المتابَعة لرسوله ﷺ.

وقد قال بعض السلف: «ما مِن فَعْلَة، وإنْ صَغُرَتْ، إلَّا يُنشَرُ لها ديوانان: لِمَ؟ وكَيْفَ؟ أي: لِمَ فَعَلْتَ؟ وكيف فَعَلْتَ؟»[3].

وهكذا كان حال السلف:

---

(١) هكذا في «الحلية»؛ وهي اللغة العالية لغة أهل الحجاز.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (١٠/٩٣ ـ ٩٤).

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/٤٢).

يقول الحسن: «كان أحدهم إذا أراد أن يتصدَّقَ بصَدَقةٍ، تثبَّت؛ فإنْ كانت لله، أمضاها»[١].

وهذا لا يتحقَّق إلّا بالعلم المَتِين، والمعرِفة بالله ﷻ معرفةً تامَّة، والمعرِفة بالنَّفْس وأغوارِها وكثرةِ شرودِ النِّيَّةِ على الإنسان، والمعرفةِ بالشيطان ومكايده.

«ولا يخلو العبد أن يكون إمَّا في طاعة، أو معصية، أو مباح:

فمراقَبته في الطاعة: بالإخلاص، والكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات.

وإنْ كان في معصية: فمراقَبتُهُ بالتوبةِ والنَّدَمِ والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكُّر.

وإنْ كان في مباح: فمراقَبتُهُ بمراعاة الأدب، ثم بمعرِفة حق النعمة من الشُّكْرِ والحمد...

ففي الساعة التي يكون فيها مشغولَ الجوارح، بالطعام والشراب: فإنه لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو مِن أفضل الأعمال، وهو الذِّكْرُ والفِكْر؛ فإنَّ الطَّعَامَ الذي يتناوله مثلًا فيه من العجائب ما لو تفكَّر فيه وفَطِنَ له، كان ذلك أفضَلَ من كثير من أعمال الجوارح، ثُمَّ إن العبد ليس يخلو في جملة أحواله عن بليَّة لا بُدَّ له من الصبر عليها، ونِعْمة لا بدَّ له من الشُّكْرِ عليها؛ وكلُّ ذلك من المراقَبة»[٢].

* * *

(١) «لباب التأويل في معاني التنزيل»، للخازن (٢٠١/١)

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤٠٢/٤ ـ ٤٠٣)؛ بتصرف.

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ المُرَاقَبَة

نيل هذه المراقبة يَتَأَتَّى بأمور:

أولًا: أن يستحضِرَ العبد معاني الأسماء الحسنى التي تُؤثِّرُ في هذا المقام، وأن يتعبَّد لربِّه تبارك وتعالى بمُقْتَضَى هذه الأسماء:

الرَّقِيب، والشهيد، والحفيظ، والعليم، والخبير، واللطيف، والسميع، والبصير، والمُهيمن:

فالرقيب في أسماء الله ﷻ: بمعنى الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يغفُلُ[1]؛ فهو مُطَّلِعٌ على جميع الخلق، لا يعزُبُ عنه قليل ولا كثير من ذلك؛ يَرَى أحوالهم، ويُحصِي أعمالهم، فهو مُطَّلِع على الضمائر والسرائر، يَعلَم ويرى، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وأنشد الإمام الشافعي، والإمام أحمد رحمهما الله[2]:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى[3] عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقال رجل لوُهَيْب بن الوَرْد: عِظْنِي؛ قال: «اتَّقِ أن يكون الله أهوَنَ الناظِرِينَ إليك»[4].

(١) انظر: «الصحاح» (١/١٣٧)، (ر ق ب)، و«لسان العرب» (٥/٢٧٩)، (ر ق ب).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/٢٢٠)،.

(٣) أي: عن الخَلْق، أو الناس.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٤٢).

أمَّا الشَّهِيدُ: فهو المطَّلِعُ على جميع الأشياء، شاهد لا يغيب عنه شيء في الوجود مشاهد لخلقه، يشهد لعباده وعليهم بما عملوه. والفرق بين الرقيب والشهيد: أن الرقيب: فيه معنى الحفظ، ويقال لمن راعى الشيء حتى لم يغفل عنه، ولاحظه ملاحظة لازمة دائمة، فالله حفيظ يحصي على العباد أعمالهم.

وأما الشهيد ففيه معنى الشهادة، فهو يشهد على كل شيء، وفيه معنى الحضور، فهو حاضر لا يغيب، مع علوه واستوائه على عرشه.

وبهذا يتبين أن كل واحد من هذين الاسمين الكريمين يزيد في المعنى على الآخر.

وهكذا لو تأمل العبد في سائر هذه الأسماء ومعانيها، لأورث ذلك قلبه دوام المراقبة، والخوف من الله، واستشعار قربه ومعيته، وتمام إحاطته وعلمه التام الذي لا يعزب عنه شيء.

ثانيًا: تحقيقُ مرتبة الإحسان؛ وهذا مرتبِطٌ كلَّ الارتباط بما قبله مِن معرِفة الرب جل جلاله معرِفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته. وقد تقدم الكلام عليها.

ثالثًا: ذِكْر الله تبارك وتعالى، «فإنه يُورِثُ العبد المراقَبة، حتى يدخُلَ في باب الإحسان، فيعبُدَ الله كأنَّه يَرَاهُ، ولا سبيلَ للغافل عن الذِّكْرِ إلى مقام الإحسان؛ كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت»[1]؛ فلا يكون العبد بحالٍ مِن الغافِلِين.

رابعًا: محاسَبةُ النَّفْس، وملاحَظةُ الخواطر على كل حال؛ فالعَبْدُ بحاجة إلى محاسَبةِ نفسه، وملاحَظةِ خطراتِهِ في سِرِّهِ وعَلَانِيَتِه.

قال خالد بن مَعْدَان: «ما مِن عبدٍ إلّا وله أربع أعين؛ عينان في وجهه،

(١) «الوابل الصيِّب» (ص ٩٥، ٢٢١)؛ بتصرف.

يُبصِرُ بهما أمورَ الدنيا، وعينانِ في قلبه، يُبصِرُ بهما أمورَ الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا، فتح عينَيْهِ اللَّتَيْنِ في قلبه؛ فيُبصِر بهما ما وُعِدَ بالغيب»(١).

فإذا كان العبدُ مستحضِرًا لرؤية الله ﷻ، فإنه لا يُقدِمُ على معصيةٍ ولو كانت من صغائر الذنوب؛ فإنَّ مِن آداب المؤمِنِ أن يراقِبَ نفسَهُ وحِسَّه، ويتيقَّظَ لأنفاسه؛ كما قال بعض السلف لرجلٍ: «راقِبِ الله تعالى»، فسأله عن تفسيره، فقال: «كُنْ أَبَدًا كَأَنَّكَ تَرَى الله»(٢).

ولله دَرُّ إمام السنة أحمد بن حنبل وهو يُنشِد(٣):

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ
لَهَوْنَا عَنِ الأَيَّامِ حَتَّى تَتَابَعَتْ ... ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبُ
فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ مَا مَضَى ... وَيَأْذَنُ فِي تَوْبَاتِنَا فَنَتُوبُ

وما أحوج العبد أن يكون له فقهٌ ونَظَرٌ مع هذه النفس؛ بحيث يُلاحِظها في حَرَكاتها وسَكَناتها.

«ويُعِينُهُ على هذه المراقَبة والمحاسَبة: معرفتُهُ أنَّ رِبْحَ هذه التجارة سُكْنَى الفردوس، والنظَرُ إلى وجه الرب سبحانه، وخسارَتُها دخول النار والحجاب عن الربِّ تعالى.

فإذا تيقَّن هذا، هان عليه الحساب اليوم، فحَقٌّ على الحازم المؤمِنِ بالله واليوم الآخر: ألَّا يغفُلَ عن محاسَبة نفسه، والتضييق عليها في حَرَكاتها وسَكَناتها، وخَطَراتها وخَطَواتها؛ فكلُّ نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يَجلِبُ هلاكه، خسران

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٢١٢).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٩٧).

(٣) تقدَّم.

عظيم، لا يسمح بمثله إلَّا أجهَلُ الناس، وأحمَقُهم، وأقلُّهم عَقْلًا، وإنما يَظهَرُ له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]»[(١)].

وكل ذلك إنما يُمكِنُ بصبر ساعة واحدة، وهي الساعة الراهِنة، فيكونُ ابنَ وَقْته؛ كأنه في آخِر أنفاسه، ولعلَّه في آخر أنفاسه وهو لا يدري، وعليه ألَّا يَطُولَ أملُهُ خمسين سَنَةً، فيطول عليه العزم على المراقَبة فيها.

* * *

(١) «إغاثة اللهفان» (١/١٦٠ ـ ١٦١)، باختصار، وتصرف يسير.

ثَمَرَاتُ المُرَاقَبَة

أولًا: التأدُّبُ مع الله تبارك وتعالى:

فإذا كان العبد مراقِبًا لله، فإنه يتأدَّب معه في كل حَرَكاته وسَكَناته؛ لأنه يُدرِك أن الله يَرَاهُ ويسمعه ويراقبه، وهذا الأدب «ثلاثة أنواع:

الأول: صيانة معاملَته أن يَشُوبها بنقيصة.

والثاني: صيانة قلبه أن يَلتفِتَ إلى غيره.

والثالث: صيانة إرادته أن تتعلَّق بما يمقُتُه عليه»[(١)].

وقد أجمع العُبَّادُ والعارفون على أن مراقَبة الله تعالى في الخواطر سببٌ لحفظها في حَرَكات الظواهر؛ «فمَن راقَبَ الله في سِرِّه، حَفِظَهُ الله في حَرَكاتِهِ في سِرِّهِ وعلانيَتِهِ»[(٢)].

وانظُرْ إلى حال كثير منا مع الصيام؛ فإنه يراقِبُ الله ﷻ مراقَبةً لو جعلها في كل أحواله وأعماله، فإنه يكون بذلك محفوظًا بإذن الله تعالى، ويكون له سلطانٌ عظيم على هذه النَّفْس؛ حتى يصير ذلك عادةً وسجيَّة له، فتجد الواحد منَّا عند فِطْرِهِ يرقُبُ الأذان أو غروب الشمس، فلا يأكل هذه التمرة، ولا يشرب شَرْبة ماء حتى تغرب الشمس، ولكنه بعد أن يُفطِرَ ربما ينظر إلى

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٧٦) بتصرف.

(٢) المصدر السابق (١/٣٣٠).

الحرام، ويسمع الحرام، بل ربَّما أفطر على الحرام، وهذا تناقُضٌ يجب على العبد أن يعالِجَهُ، وأن يراجِعَ نفسه، وأن يراقِبَ ربَّه سبحانه وتعالى في جميع أحواله، فإذا وُجِدَتْ هذه المراقَبة، انتظَمَتْ أحوال العبد، وكانت تربيتُهُ كاملة، وهذه حقيقة التربية.

إنَّ وازع الدِّين والمراقبة لربِّ العالمين، يفعل في النفوس ما لا يفعله وازع القوَّة والسلطان، فإذا أَلِفَ العبدُ مراقَبة ربِّه، واستحضر شهودَهُ واطِّلَاعَهُ عليه؛ فإنَّ المجتمَع يأمَنُ بوائِقَه، ويستريحُ كثيرًا من شروره.

أمَّا إذا كان الاعتمادُ على وازع القوَّة، وحارس القانون، فإن القوَّة قد تضعُفُ، والحارس قد يغفُلُ، والقانون قد يؤوَّل، وقد يُتَحَايَلُ عليه للتخلُّص من سلطانه؛ ولذلك تكثُرُ الجرائم والمفاسد إذا قلَّت التربية الدينيَّة في المجتمع.

«فمراقَبةُ الحقِّ تعالى هي المُوجِبةُ لكلِّ صلاح وخير، عاجل وآجل؛ فمراقَبةُ الحقِّ سبحانه وتعالى تُوجِبُ إصلاحَ النَّفْس، واللُّطْفَ بالخَلْق»(١).

ثانيًا: دخولُ الجَنَّة:

فإذا صَلُحَتْ أعمال العباد الظاهرة والباطنة، وصَلُحَتْ قلوبُهم وأعمالهم، واستقامت ألسنتهم، فإن مآلهم إلى جَنَّةٍ عَرْضُها السموات والأرض؛ قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۞ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١، ٣٥]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥١١)؛ بتصرف.

وقد سُئِلَ بعض المتقدِّمين: بِمَ ينالُ العبد الجنَّة؟ فقال: «بخمسٍ: استقامةٍ ليس فيها رَوَغان، واجتهادٍ ليس معه سَهْو، ومراقَبةِ الله تعالى في السرِّ والعَلَانِيَة، وانتظارِ الموت بالتأهُّب له، ومحاسَبةِ نَفْسِك قبل أن تحاسَبَ»[(١)].

والواقع: أن هذه جميعًا تَرجِعُ إلى المراقَبة؛ لأن الاستقامة التي ليس معها رَوَغَان إنما تكون بمراقَبة الله ﷻ، وهكذا الاجتهاد الذي ليس معه سَهْو؛ فإنَّ الغَفْلة إنما تقع في قلب العبد، ويحصُلُ التفريط في عمله بسبب ضَعْفِ مراقبته، وهكذا.

ثالثًا: الوصول إلى القُرْب من المعبود ﷻ:

فإن المعاصي والغَفَلات تُبعِدنا عنه، فكلَّما كان العبد أكثر استحضارًا لنظر الله ﷻ إليه، كان أكثرَ قُرْبًا، وذلك حال يَصِلُ إليه العبد بعد ألوان من الترويض والمجاهَدات التي يجاهد فيها نَفْسه، وقد قال الجُنَيْد: «اعلم أنه ﷻ يقرُبُ مِن قلوب عباده على حسَبِ ما يرى من قُرْبِ قلوب عباده منه؛ فانظر ماذا يقرُبُ من قلبك؟!»[(٢)].

رابعًا: السعادة والانشراح وقُرَّة العين:

وذلك لأن الإنسان إذا كان مستحضِرًا لنظر المعبود سبحانه وتعالى، فإن ذلك يُثمِرُ عنده استعدادًا لملاقاته، وحفظًا لجوارحِهِ وقلبِهِ من سائر ما يدنِّسه، وإذا فعل ذلك، حصل للقلب أنواع النعيم والسرور والبهجة والانشراح، فهذه «جنَّة الدنيا التي مَن لم يدخُلْها لا يدخُلُ جَنَّةَ الآخرة»[(٣)].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٩٧ ـ ٣٩٨).

(٢) «اللمع في التصوُّف» للطوسي (ص ٨٥).

(٣) ينظر: «الوابل الصيِّب» (ص ١٠٩).

خامسًا: تعظيم الجزاء على العمل:

ولذلك قال الله ﷻ في الحديث القُدْسي: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»[(١)]، فهذا الصائِمُ لا يمنعه من الفطر إلّا مراقَبة الله ﷻ، وتلك المراقَبة هي التي دَلَّتْ على عِظَمِ هذا العمل، وأثمَرَتْ هذا الجزاء الموفور، والصومُ مِن الصبر؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

سادسًا: السكينة والحياء، والمحبَّة والخشوع، والخوف والرجاء، والاستعانة والتوكُّل:

وما إلى ذلك مِن كل عمل طيِّب من أعمال القلوب والجوارح:

فالسكينة؛ «سببُها: استيلاءُ مراقَبةِ العبد لربِّه جل جلاله، حتى كأنَّه يَرَاهُ، وكلَّما اشتدَّت هذه المراقبة، أوجَبَتْ له من الحياء والسكينة والمحبَّة، والخضوع والخشوع، والخوف والرجاء: ما لا يحصُلُ بدونها؛ فالمراقَبةُ أساس الأعمال القلبية كلِّها، وعمودُها الذي قيامها به»[(٢)].

سابعًا: صحة الفِرَاسة:

وإنما تَقوَى فراسة العبد كلَّما قَوِيَتْ مراقبتُهُ وتقواه لله تعالى؛ وذلك أنه إذا صَحَّ سلوك العبد في سَيْرِهِ إلى ربِّه وصَفَا قلبه، فإنَّ نظر عين القلب لا يكادُ يخطئ، وعين القلب هي البصيرة التي يفرِّقُ بها بين الحق والباطل.

ثامنًا: إيثار ما أنزَلَ الله، وتعظيمُ ما عظَّم الله، وتصغيرُ ما صغَّره سبحانه وتعالى:

وهذا في كل شيءٍ من عرَضِ الحياة الدنيا وسائر الأعمال، والأشخاص

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) «إعلام الموقعين» (١١١/٦ ـ ١١٢).

والطوائف والأمم والأملاك وما إلى ذلك، وقد قال ذو النُّون: «ثلاثةٌ مِن أعمال المراقَبة: إيثارُ ما أنزَلَ الله، وتعظيمُ ما عظَّم الله، وتصغيرُ ما صغَّر الله»[١].

تاسعًا: حِفْظُ الأنفاس والأوقات:

فإذا عرَفَ الإنسان أن ربَّه ينظر إليه، ويكتب كل شيء يصدر عنه، فلن يضيِّع لحظةً بِعَبَث، وما أحسن ما قال الجُنَيْد: «مَن تحقَّق في المراقَبة، خاف على فَوَات لحظةٍ من ربِّه لا غَيْر»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٥٢٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٦٥).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ المُرَاقَبَة

١ ـ قال عُرْوة بن الزُّبَيْر: «خَطَبْتُ إلى عبد الله بن عُمَرَ ابنتَهُ ونحن في الطواف، فسكَتَ ولم يُجِبْنِي بكلمة، فقلتُ: لو رَضِيَ لأجابني، والله، لا أراجِعُهُ فيها بكلمةٍ أبدًا، فقُدِّرَ له أنْ صدَرَ إلى المدينة قَبْلِي، ثم قَدِمْتُ، فدخَلْتُ مسجد الرسول ﷺ، فسَلَّمْتُ عليه، وأَدَّيْتُ إليه من حقِّه ما هو أهله، فأتيتُهُ، ورحَّب بي، وقال: متى قَدِمْتَ؟ فقلت: هذا حين قدومي، فقال: أكُنْتَ ذكرتَ لي سَوْدةَ بنت عبد الله، ونحن في الطوافِ نَتَخَايَلُ الله ﷻ بين أَعْيُنِنا، وكنتَ قادرًا أن تَلْقانِي في غير ذلك الموطن؟ فقلتُ: كان أمرًا قُدِرَ، قال: فما رأيُكَ اليوم؟ قلتُ: أحرَصُ ما كُنْتُ عليه قطُّ، فدعا ابنَيْهِ سالمًا وعبد الله، فزوَّجني»(١).

فقد كانت مراقَبة الله ﷻ مستوليَةً على قلبه رضي الله عنه؛ فما عاد يَنطِقُ بشيء من أمر الدنيا.

٢ ـ وقال زيد بن أسلم: «مَرَّ ابن عمر براعي غَنَم، فقال: يا راعي الغنم، هل من جَزَرةٍ؟ قال الراعي: ليس هاهنا ربُّها، فقال ابن عمر: تقول: أكَلَها الذئب، فرفَعَ الراعي رأسه إلى السماء، ثم قال: فأين الله؟ فاشتَرَى ابنُ عمر الراعي، واشتَرَى الغنم؛ فأَعْتَقَهُ وأعطاه الغنم»(٢).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٣٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٣٠٦)، وصحَّح إسناده الألباني في «الصحيحة» (٧/٤٧٠).

٣ ـ ونَظَر عُبَادةُ بن الصامت ﷺ إلى الصُّنَابِحِيِّ ـ وهو من أئمَّة التابعين ـ فقال: «مَن سَرَّهُ أن ينظُرَ إلى رجل كأنَّما رُقِيَ به فوق سبع سموات، فعَمِلَ ما عمل على ما رأى؛ فلينظُرْ إلى هذا»[1]؛ يعني: أنَّ الصُّنَابِحِيَّ كان يراقِبُ الله ﷻ، وكان شديد الخوف والحياء منه سبحانه.

٤ ـ وذُكِرَ عند الإمام أحمد ـ لمَّا كان في مرض الموت ـ عن طاوُس؛ أنَّه كان يكره الأَنينَ؛ فلم يَئِنَّ حتَّى مات[2].

٥ ـ وقال ابن دَقِيق العِيدِ: «ما تكلَّمْتُ كلمةً، ولا فَعَلْتُ فعلًا إلَّا وأعدَدتُّ له جوابًا بين يَدَيِ الله»[3].

٦ ـ وقال البخاري: «ما اغتَبْتُ أحدًا قطُّ منذ علمتُ أن الغِيبَةَ تَضُرُّ أهلها»[4].

وكان يقول: «إني أرجو أن ألقى الله ولا يُحاسِبُني أني اغتبتُ أحدًا»[5].

ولذلك تجد في كلامه عن الرجالِ توقِّيًا زائدًا، وتحرِّيًا بليغًا.

وبالجملة: فالمراقَبةُ مِن أعظم منازل السائرين، وأجلُّ دَرَجَات السالكين؛ بها يَتِمُّ إيمان العبد، حيثُ لا يصل إلى مقام الإحسان إلَّا بها، وهو أكمَلُ مقامات العابدين.

* * *

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٥٧).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٥٣).

(٣) «طبقات الشافعية الكبرى» (٩/٢١٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٤٤١).

(٥) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/١٣).

الوَرَعُ

تَوْطِئَة

الورَعَ خَصْلةٌ من الخصال الكريمة، وشِيمَةٌ من شِيَمِ النفوس العظيمة؛ فهو موضوع جدير بالعناية والاهتمام؛ لِتَرَحُّلِهِ في هذا الزمان عن قلوب الكثيرين، مع حاجتنا إليه في تعامُلنا مع الله ﷻ، وفي تعامُلنا مع أنفسنا، وفى تعامُلنا مع الآخرين؛ سواءٌ كان ذلك في أمور العبادة، أم كان في أمور العادة.

لقد صار المتورِّع في هذا العصر عند كثير من الناس متشدِّدًا ومتكلِّفًا، ولربَّما نظروا إليه على أنه قد وَلَجَ أبوابًا من التنطُّعِ والغُلُوِّ في الدين ليس له أن يَلِجَ فيها، ولربما ظنَّ ذلك أيضًا بعض المنتسِبين إلى العلم، أو التديُّن؛ وما ذلك إلّا لِقِلَّةِ بَصَرِهم في هذا الباب، ولِقِلَّةِ نصيبهم من العمل بما جاء فيه.

ومِن هنا جاء الحديث عن هذا الموضوع هنا، فأسأل الله أن يكون ذلك باعثًا للوَرَعِ في نفوسنا؛ إنه سميع مجيب.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى الوَرَعِ وَحَقِيقَتُهُ

الوَرَعُ لغةً: هو الكَفُّ والانقباض، ويمكن أن يقال: إنه الكفُّ عما لا ينبغي؛ يقال: تورَّعَ فلانٌ عن كذا: إذا تحرَّجَ عنه[١].

وأما الوَرَعُ في معناه الشرعي: فهو: تركُ ما يُخشَى ضَرَرُهُ في الآخِرة، وهذا الذي يُخشَى ضرره في الآخرة قد يكون شيئًا محرَّمًا ظاهر التحريم، وقد يكونُ شيئًا مشتبِهًا، وقد يكون من باب التوسُّع في المباح الذي يَجُرُّ صاحبَهُ إلى الوقوع في المكروه أو الحرام.

فالورع: «هو تَرْكُ ما يَرِيبُكَ، ونَفْيُ ما يَعِيبُكَ، والأخذُ بالأوثَق، وحملُ النفس على الأحوط»[٢]. والأمور التي يدور عليها الورع الصحيح: أربعة:

أولًا: ترك المحرَّمات، وفعل الواجبات: فيجب على كل إنسان أن يَتَّقي ما حرَّم الله ﷻ، ويأتي بما أوجَبَ عليه.

ثانيًا: ترك المكروهات: وهذه المرتبة أعلى من مرتبة تَرْكِ المحرَّمات، مع فعل الواجبات فقطْ.

ثالثًا: فِعْلُ ما يُشَكُّ في وجوبه، وتَرْكُ ما يُشَكُّ في تحريمه.

رابعًا: وهو رأس هذا السُّلَّم؛ تَرْكُ فضول المُبَاحِ خشيةَ الوقوعَ في المكروه أو الحرام.

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٦/١٠٠)، (و ر ع).

(٢) «التوقيف على مهمَّات التعاريف» (ص٣٣٦)؛ بتصرف يسير.

الفَرْقُ بَيْنَ الوَرَعِ وَالزُّهْد

كثيرًا ما يَشتبِهُ ويَلتبِسُ الورع بالزُّهْد، مع أن بينهما فرقًا؛ وهو:

أن الزهد المشروع هو: ترْك الرَّغْبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة؛ فيُعرِضُ عنه الإنسان؛ لأنه لا ينفعه في الآخرة؛ والمقصودُ به: فضولُ المُباحِ الذي لا يستعانُ به على طاعة الله ﷻ.

وأما الوَرَعُ المشروع: فهو ترْك ما قد يَضُرُّ في الآخرة، وهو ترك المحرَّمات والشبهات، وكذا المباحات التي يُخشَى أن تَجُرَّ صاحبَها إلى المكروهات أو المحرَّمات(١).

وبهذا الاعتبار يمكن أن يقال كما قال بعض أهل العلم: بأنَّ الوَرَعَ هو أوَّل الزهد؛ كما أن القناعةَ هي أوَّل الرضا.

وعليه: فإن المرء قد يكون وَرِعًا، ولا يكون زاهدًا، وأما الزاهِد فلا بد أن يكون وَرِعًا؛ لأن الزُّهْدَ أبلَغُ من الوَرَع؛ فإن الزاهد يترك التوسُّع في المباحات، وما لا ينفع في الآخرة، فيكتفي بالقليل من الدنيا، ولا يتعلَّقُ بها، ولا يتوسَّعُ في حُطَامها؛ ولا شكَّ أن مَن كان بهذه المثابة، فإنه يكون قد ترك المكروهات والمشتبِهات، فضلًا عن المحرَّمات.

* * *

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢١)، و«الفوائد» (ص١٧١).

الوَرَعُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

عن النعمان بن بَشِير ﷺ؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(١).

فالنبيُّ ﷺ جعل القسمة ثلاثية:

أولًا: الحلال البيِّن الذي لا خفاءَ فيه.

وثانيًا: الحرام البيِّن الذي لا شُبْهةَ فيه.

وثالثًا: المشتَبِهُ الذي يخفى على كثيرٍ من الناس، فيتردَّدُون في حُكْمه.

ومما يؤكِّد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»(٢).

وقد سأل النَّوَّاسُ بن سَمْعَانَ الأنصاريُّ رسولَ الله ﷺ عن البِرِّ والإثم،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وصحَّحه؛ من حديث الحسن بن علي ﷺ.

فقال: «البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»(١)؛ أي: أنه أورثَ تردُّدًا وريبةً وانقباضًا.

فلو كان حلالًا صِرْفًا، فإنه لا يَحِيكُ في الصدر، ولا يَتَلَجْلَجُ فيه، ولا يكره الإنسان أن يُطَّلَعَ عليه، إنما يتردَّد في النَّفْس ما كان مشتبِهًا، فيكره الإنسانُ أن يَطَّلِعَ الناس عليه، ويخشى أن يكون من الحرام.

فهذان الحديثان يَجعَلان من فِطْرة الإنسان مقياسًا في معرِفة الخير والشر عند الاشتباه؛ ليتجنَّب مواطِنَ الخطر، ومواقِعَ حدود الله ﷻ؛

وهذا له علامتان:

الأولى: عدم الارتياح النفسي، والانقباضُ والتردُّد.

الثانية: كراهية اطلاع الناس، فيُخفِي ذلك، ويتحاشى أنظارهم، فلا يفعل ذلك حيث يَطَّلِعون عليه.

ومن يتأمَّل أحوال الناس اليوم يجد كثيرًا منهم يبحثون عن فتوى تبيح لهم ما تهواه نفوسهم، ثم يقفون عند ذلك تعلُّقًا بهذه الفتوى!

وهذا في الواقع لا يُبِيحُ محرَّمًا، ولا يحرِّمُ حَلَالًا؛ فإن الحلال ما أحلَّه الله، والحرامَ ما حرَّمه الله، والفتوى لا تغيِّرُ الحكم في نفس الأمر مهما أفتاك الناس؛ فإنَّ الحكم عند الله ثابت، لا تغيِّره فُتْيَا المُفْتِين.

فيجب على العبد أن يحتاط لدينه، وأن يَبحَثَ عند السؤال عن الأَعْلَم والأَوْرَع من المفتين، فالحكم لا يتغيَّر بالفتوى، ولا تَبرَأُ الذمَّة إلّا ببذل الوسع في التحرِّي عمن يستفتيه مِن حيثُ الوَرَعُ، فإذا بَذَلْتَ الوسع، وتحرَّيْتَ وسَأَلْتَ من تعتقِدُ فيه الديانة، مع توافُر العِلْمِ والمُكْنة من الفتيا بشروطها ـ: بَرِئَتْ ذِمَّتُك.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

مَا لَا مَدْخَلَ لِلوَرَعِ فِيه

لا مدخل للورع فيما لا مضرَّةَ فيه، أو كان فيه مضرَّةٌ قليلة مرجوحة، ويَقترِنُ بها منافع عظيمة، تُهدَرُ في جانبها تلك المضرَّة اليسيرةكما في لحومُ الأبقارِ فإنها لا تخلو من ضرَر؛ فإن النبي ﷺ يقول: «أَلْبَانُهَا شِفَاءٌ، وَسَمْنُهَا دَوَاءٌ، وَلُحُومُهَا دَاءٌ»[1]، ومع ذلك: فالنفع الذي فيها أعظم من هذا الضرر؛ لذلك صارت من الطيِّباتِ المباحِ أكلُها.

فالقاعدة النافعة في هذا الباب أن: «الواجبات والمستحَبَّات لا يصلُحُ فيها زهد ولا وَرَع، وأمَّا المحرَّمات والمكروهات، فيصلُحُ فيها الزهد والورع، وأمَّا المباحات، فيصلُحُ فيها الزهد دون الورَع»[2].

والمرادُ: أنه لا يُتورَّعُ في ترك واجب أو مستحب؛ كما لا ورَعَ في جنس المباح، وإنما فيه الزهد.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٢/٢٥)، (٧٩)، من حديث مُلَيكة وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٥٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٦١٩/١٠).

مَرَاتِبُ الوَرَع

قسَّم بعضهم الوَرَعَ إلى ثلاث مراتب[(١)]:

الأولى: الورَعُ الواجب؛ وهو اجتناب المحرَّم؛ وهذا يجبُ على جميع الناس.

الثانية: المندوب؛ وهو الوقوف عند المشتبِه؛ وهذا لأوسط الناس في العبوديَّة.

الثالثة: وهي درَجَةُ السابق إلى الخيراتِ التي قد بلَغَ بها أعلى الكَمَالاتِ؛ وهو الكف عن كثير من المباحَات التي يُخشَى أن تجرَّه إلى المحرَّمات، أو إلى المكروهات.

ومِن هذا النوع ما جاء عن قَزَعَة؛ قال: «رأيت على ابن عمر ثيابًا خَشِنة، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن، إني قد أتيتُكَ بثوب لَيِّنٍ مما يُصنَعُ بخراسان وتَقَرُّ عيناي أن أراه عليك؛ فإنَّ عليك ثيابًا خَشِنة، فقال: أَرِنِيهِ، فلمَسَهُ بيده، وقال: أحريرٌ هذا؟ قلت: لا؛ إنه من القُطْن، قال: إني أخاف أن أَلْبَسَهُ، أخاف أن أكون مختالًا فخورًا»[(٢)].

وهذا يعني: أن المَلَابِس والمَرَاكِب التي يَجِدُ الإنسان من نفسه إذا رَكِبَها أو لَبِسَها زَهْوًا وغرورًا وتعاليًا على الناس، فمُقتضَى الورع أن يتجنَّبه؛

---

(١) ينظر: «الذريعة، إلى مكارم الشريعة» (ص ٢٢٧).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٩٣).

لأن الغرور والزَّهْوَ والإعجاب بالنَّفْسِ أمر محرَّم، فالورَعُ تجنُّب ذلك، مع أن هذا الثوب اللَّيِّن والمَرْكَب الجيِّد مباحان.

ومن لطيف ما حدَّث به ابن القيِّم عن شيخ الإسلام؛ أنه قال له في شيء من المباح: «هذا ينافي المُراتِبَ العالية، وإنْ لم يكن تَرْكُهُ شرطًا في النجاة»[١].

فلله دَرُّ تلك الهمم العَلِيَّة! لا قناعة لها إلّا بالمراتب السَّنِيَّة؛ لم تقنع بترك الحرام حتى جَانَبَتْهُ وحِمَاهُ من المباح، ثم رَبَأَتْ بنفسها عن مباح يقعُدُ بها عن درجة أعلى؛ فهذا لمثلها تركه أولى.

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٦).

فِقهُ الوَرَع

ما أحوَجَ الورَعَ إلى فِقْه! فإنَّ الإنسان قد يتورَّع فيُورِثُهُ ذلك تكلُّفًا، بل قد يُوقِعه في أمور لا يحلُّ له أن يقع فيها، وهو في زعمه يريد التورُّع، فيكون ورَعُهُ فاسدًا؛ فإذا تقرَّر ذلك، فلْيُعْلَمْ أن فقه الورَعِ ينبني على أمور:

أولًا: التوسُّط والاعتدال:

والحقُّ وسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، والنبي ﷺ كان في غاية الاعتدال؛ وكانت حاله ﷺ في غاية التوسُّط؛ كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيِّم[1].

ثانيًا: مَعْرِفةُ خيرِ الخيرَيْن، وشرِّ الشرَّيْن:

قال شيخ الإسلام: «تمامُ الورَعِ: أن يَعلَمَ الإنسانُ خيرَ الخيرَيْن، وشرَّ الشرَّيْن، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ وإلَّا فمَن لم يوازِنْ ما في العمل والترك من المصلحة الشرعيَّة، والمفسدة الشرعيَّة، فقد يَدَعُ واجبات، ويفعل محرَّمات، ويرى ذلك مِن الوَرَع؛ كمن يَدَعُ الجهاد مع الأمراء الظَّلَمة، ويَرَى ذلك وَرَعًا، ويدَعُ الجُمُعةَ والجماعة خلف الأئمَّة الذين فيهم بِدْعةٌ أو فجور، ويَرَى ذلك من الورع، ويمتنِعُ عن قَبُولِ شهادة الصادق، وأخذِ عِلْمِ العالم؛ لما في

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص٥١٨).

صاحبه مِن بِدْعةٍ خَفِيَّة، ويرى ترك قَبُولِ سماع هذا الحق الذي يجبُ سماعه من الوَرَع»[١].

ومثَّل على ذلك أيضًا في موضع آخر بـ: «مَن يترُكُ أخذ الشُّبْهةِ وَرَعًا، مع حاجته إليها، ويأخذ بدَلَ ذلك محرَّمًا بيِّنًا تحريمه، أو يترك واجبًا تركُهُ أعظَمُ فسادًا من فِعْلِهِ مع الشبهة؛ كمَن يكونُ على أبيه، أو عليه ديونٌ، هو مطالَبٌ بها، وليس له وفاءٌ إلّا مِن مالٍ فيه شُبْهة، فيتورَّعُ عنها، ويَدَعُ ذِمَّتَهُ، أو ذِمَّةَ أبيه مرتهَنَة»[٢].

إِذَنْ: لا بد مِن النظر في المصالح والمفاسد، والموازَنة بينهما؛ فمتى رجَحَتْ كِفَّةُ المصلحة في الأمر، فعلناه، ومتى رجَحَتْ كِفَّةُ المفسدة، تركناه؛ وهذا هو الفقه في هذا الباب.

ثالثًا: مراعاة مراتب الناس:

وقد أشَرْتُ إلى هذا المعنى قريبًا؛ فيما تقدم من أقسام الورع، فمراتب الناس فيه على تلك الأقسام، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٥١٢).

(٢) «جامع الرسائل» (٢/١٤١).

الوَرَع الفَاسِدُ

وهو ما اشتبَهَ على كثير من الناس؛ لقلَّة العلم، وفساد التصوُّر، فإذا وقع الإخلال بالأسُسِ والمقوِّماتِ الثلاثة المتقدم ذكرها في الكلام على فقه الورَعِ؛ ترتب على ذلك الوقوع في الورع الفاسد بأنواعه المختلِفة؛

ودونك أربعةً منها:

الأوَّل: ما التبَسَ فيه الورَعُ بغيره مما يُذَمُّ:

حيث يُظهِرُ أنه متورِّعٌ ومتحرِّجٌ ومتحرِّزٌ من هذا الشيء، والواقع: أن هذا مِن قبيل الضعف أو غير ذلك مما يَرجِعُ إلى صفات النَّفْسِ وأحوالها؛ كمَن يقال له: هناك منكَرٌ في السُّوق، ويجب عليك أن تُنكِره؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يغيِّر هذا المنكر إلَّا مَنْ كان في مرتبتك أنت! فيقول: الأسواق فيها فِتْنة، ويَغرِزُ الشيطان فيها رايته، فلا أعرِّضُ نفسي لفتنة! فنقول: هذا ورَعٌ فاسد.

«فيشتبِهُ ترك الفساد لخشية الله تعالى بترك ما يُؤمَرُ به من الجهاد والنفقة جبنًا وبخلًا؛ وقد قال النبي ﷺ: «شَرُّ مَا فِي المَرْءِ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١١)، وصحَّحه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤٣٧/٢٨).

كذلك: قد يتركُ الإنسان العمل ظَنًّا أو إظهارًا أنه وَرعٌ؛ وإنما هو كِبْرٌ وإرادةٌ للعُلُوّ»(١).

وأوضح مِن ذلك كلِّه: ما أخبَرَ الله تعالى به في كتابه عن عُذْرِ بعض المنافقين في تخلُّفه عن غزوة تبوك: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

الثاني: التورُّعُ عن أمور فعلها النبيُّ ﷺ:

كالذي يتورَّع عن أكل الحَلْوَى، أو عن الزواج؛ معلِّلًا ذلك بأن الزواج مَشْغَلَةٌ، والأولاد فِتْنة.

فهذا من الاعتداء في الورَع(٢)؛ وهو أمر محرَّم؛ فلا يجوز أن يتحرَّج، أو يتورَّع، أو يتنزَّه عن أشياءَ فعَلَها أفضل الخلق وأتقاهم وأشدُّهم لله خشية؛ فعن عائشة ﵂؛ قالت: صنَعَ النبيُّ ﷺ شيئًا، فرَخَّصَ فيه، فتَنَزَّهَ عنه قومٌ، فبلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فخَطَبَ، فحَمِدَ الله، ثم قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيءِ أَصْنَعُهُ؟! فَوَالله، إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِالله، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»(٣).

الثالث: ما كان على سبيل المبالَغةِ والغلوّ، والتنطُّعِ والوسوسة:

«كمَن يتوسوَسُ في الوضوء متغاليًا فيه حتى يفوتَ الوقت، أو يردِّدُ تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة، أو يكاد تفوته الركعة، أو يتشدَّدُ في الورَعِ الغالي حتى لا يأكُلَ شيئًا من طعامِ عامَّةِ المسلمين؛ خشية دخول الشُّبُهات عليه.

فحقيقةُ التعظيم للأمر والنهي: ألَّا يُعارَضَا بترخُّصٍ جافٍ، ولا يُعَرَّضا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٩١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/٤٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠١)؛ ومسلم (٢٣٥٦)، ولفظه للبخاري.

لتشديدٍ غالٍ؛.. وما أمَرَ الله ﷻ بأمرٍ إلّا وللشيطان فيه نَزْغتانِ: إمَّا تقصيرٌ وتفريط، وإمَّا إفراطٌ وغلوٌّ؛ فلا يبالي بما ظَفِرَ مِن العبد من الخطيئتَيْنِ»[١].

وقد مثَّل الحافظ ابن حجر لِوَرَعِ الموسوِسِينَ، فقال: «كمَن يَمتنِعُ من أكْلِ الصيدِ خشيةَ أن يكون الصيدُ كان لإنسانٍ، ثم أَفْلَتَ منه، وكمَن يترُكُ شراء ما يحتاج إليه مِن مجهول لا يدري أَمَالُهُ حلال أم حرام»[٢].

ولا شك أن هذا من التنطُّع في الدِّينِ الذي يَهلِكُ به صاحبه.

وقد كان النبي ﷺ يعامِلُ اليهود، ومات ودِرْعُهُ مرهونةٌ عند يهودي[٣]، وهو يعلم أنهم لا يتحرَّجُونَ من الربا والكَسْبِ الحرام.

ومِن فقهِ الإمام البخاريِّ: أنه ذكَرَ في كتاب البيوع مِن «صحيحه»[٤]: بابًا ترجَمَ له بقوله: «بابُ: مَن لَمْ يَرَ الوَسَاوِسَ ونحوَها مِن الشُّبُهاتِ»، وأخرَجَ فيه حديثَ عبَّاد بن تَمِيم عن عمِّه في قطع الصلاة حالَ الشكِّ في انتقاض الطهارة، وحديثَ عائشة ﵂ في جوابِه ﷺ لِمَن سألوه عن اللحم الذي يأتيهم ولا يَعلَمُونَ أذُكِرَ اسمُ الله عليه أم لا؟

❊ ❊ ❊

(١) «الوابل الصيِّب» (٢٨ ـ ٣٠).
(٢) «فتح الباري» (٤/٣٤٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٦، ٤٤٦٧)؛ من حديث عائشة ﵂.
(٤) (٧/٢).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الوَرَعِ

الورَعُ كغيره من الأعمال والعبادات التي تحتاج إلى توطينِ النَّفْسِ وتهيئتها للتحلِّي بهذه الخَصْلة الحميدة؛ وذلك يحصُلُ بأمور، منها:

أولًا: أن تَجعَلَ بينك وبين الحرام سُتْرةً مِن الحلال:

كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إني لَأُحِبُّ أن أدَعَ بيني وبين الحرامِ سُتْرَةً من الحلال، ولا أخرِمها»[(١)].

وقال سفيان بن عُيَيْنة: «لا يصيبُ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يَجعَلَ بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، وحتَّى يدَعَ الإثمَ وما تشابَهَ»[(٢)].

وقد قال الحافظ ابن حجر: «إنَّ الحلال حيث يُخشَى أن يؤولَ فِعْلُهُ مطلَقًا إلى مكروهٍ أو محرَّمٍ، ينبغي اجتنابُهُ، كالإكثار مثلًا من الطيِّبات؛ فإنه يُحوِجُ إلى كثرةِ الاكتسابِ الموقِعِ في أخذِ ما لا يُستحَقُّ، أو يُفضِي إلى بَطَرِ النفس، وأقلُّ ما فيه: الاشتغالُ عن مواقفِ العبوديَّة؛ وهذا معلوم بالعادَة، مشاهَدٌ بالعِيَان»[(٣)].

---

(١) «الورع» للمَرْوَزي (١٧٨).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٤٣٩)؛ رواية المَرُّوذي.

(٣) «فتح الباري» (١/١٥٥).

ثانيًا: إذا رابَكَ شيءٌ، فدَعْه:

وهذا أمر في غاية السهولة؛ ولهذا قال حسَّان بن أبي سِنَان: «ما رأيتُ شيئًا أهوَنَ مِن الورَع؛ دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ»(١).

وهكذا قال سفيان الثوري: «ما رأيتُ أسهَلَ مِن الوَرَع؛ ما حاك في نفسِكَ، تَرَكْتَهُ»(٢).

وقال يوسف بن أسباط: «لي أربعونَ سَنَةً ما حاك في صدري شيءٌ إلّا تركتُهُ»(٣).

ثالثًا: محاسَبة النَّفْس:

فلا يتكلَّم إلّا ولسانه بين يدي عقلِه، لا تخرُجُ كلمةٌ مِن فيه إلّا وهو يَخطِمُها، ولا يَعمَلُ عملًا إلّا وهو ينظُرُ فيه؛ كيف هو؟ وماذا قصد به؟ ولا يترُكُ شيئًا كان يَعمَلُهُ إلّا وهو يسأل نفسه: لِمَ ترَكْتُهُ وقد كنتُ أعمله؟ ولِمَ عَمِلْتُهُ وقد بان لي تركه؟ وقد رُوِيَ عن أمير المؤمنين عُمَرَ ﷺ أنه قال: «حاسِبُوا أنفُسَكم قبل أن تحاسَبُوا، وزِنُوا أنفُسَكم قبل أن تُوزَنُوا؛ فإنَّه أَهْوَنُ عليكم في الحسابِ غدًا أنْ تُحاسِبُوا أنفُسَكم اليومَ»(٤).

قال بشر الحافي: «ينبغي للرجلِ أن ينظُرَ خُبْزَهُ مِن أين هو؟ ومسكَنَهُ الذي سَكَنَهُ أصله مِن أيْشٍ هو؟ ثم يتكلَّم»(٥).

رابعًا: إحياءُ الشعورِ بأهمِّيَّة الورع:

فربَّما كان الناس في غَفْلة عنه، وعن عظيم مكانته، وحَمِيدِ عاقبته، فإذا

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» تعليقًا (٢/٥).

(٢) «الرسالة القشيرية» (١/٢٣٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٤٤).

(٤) ذكره الترمذي في «جامعه» (٢٤٥٩)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠٦).

(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٧)؛ رواية المَرُّوذِي.

أُثِيرَ وبُحِثَ فيه، فاح أَرِيجُه؛ فأحسَّت به النفوس، ووُجِدَتِ الدواعي إلى تحقيقِه، والتضوُّعُ بأَرِيجِه.

وهذا الضَّحَّاك بن عثمان يقول: «أَدْرَكْتُ الناس وهم يتعلَّمون الوَرَع، وهم اليوم يتعلَّمون الكلامَ[(١)]»[(٢)].

خامسًا: تحقيق اليقين:

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ مِن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ»[(٣)].

فإذا أيقَنَ العبد أن رزقه قد كُتِبَ في اللَّوْحِ المحفوظ، وقدَّره الله له قبل أن يخلُقَ السموات والأرض؛ فلماذا يَجترِئُ العبدُ على المكاسب المحرَّمة، أو المشتَبِهة؟!

فإنَّ ما كتبه الله لك فسيأتي قطعًا لا محالة، فإنِ استعجَلْتَ، أَخَذْتَهُ بالحرام، وإنْ صبَرْتَ، جاءك عن طريق الحلال؛ فلماذا التهافُتُ على الدنيا؟!

سادسًا: تنمية الخَوْفِ مِن الله تعالى وخشيتِهِ وتعظيمِهِ في النفوس:

فمَن عرَفَ الله، وعرَفَ عظمَتَهُ وقَدْرَه، وقدَّره وعظَّمه وعظَّم حُرُماتِه، احتاط لِدِينِه، فترَكَ ما لا يليق، وجانَبَ ما فيه اشتباه، فضلًا عن المحرَّمات؛ وهذا أمر لا خفاء فيه.

---

(١) أي: ما يسمَّى بعلم الكلام، والجدال في الدين.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٧).

سابعًا: العمَلُ على تحقيق التقوى في النفوس:

فإنَّ التقوى إذا وُجِدَتِ، استقامت أحوالُ الإنسان، فلا يُرَى حيثُ نُهِيَ، ولا يُفقَدُ حيثُ أُمِرَ، وارتقى عالي الدرجات بالتورُّعِ عن المشتبِهات، وإذا ضَعُفَت التقوى، تساهَلَ العبد في اجتراح المنكَرات.

ولهذا يقول الحسن: «ما زالتِ التقوى بالمُتَّقِينَ، حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافةَ الحرام»[1].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا؛ كما في «الدر المنثور» (١٣٢/١).

عَلامَةُ أَهْلِ الوَرَع

إن صاحب الوَرَع يمكن أن يُعرَفَ بأمرٍ واحد، وهو قدرتُهُ على ترك ما فيه مجرَّد الشبهة، أو على فعلِ ما يُمكِنُ أن يكون لازِمًا لمثله.

يقول الخَطَّابي: «كلُّ ما شَكَكْتَ فيه، فالورَعُ اجتنابُه»[١].

فالوَرِعُونَ يكثُرُ حذَرُهم من الحرام، وتضعُفُ جُرْأَتُهم على الإقدام إلى ما قد يَجُرُّ إليه؛ وفي هذا يقول النبي ﷺ: «إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ...»، إلى أن قال ـ كما في بعض الروايات ـ: «فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ، كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ، أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللهِ؛ مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) «أعلام الحديث» (٢/٩٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)؛ من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه، وصحَّحه الترمذي، وابن خزيمة (٢٣٤٨).

ثَمَرَاتُ الوَرَعِ، وَآثَارُهُ السُّلوكِيَّة

للوَرَعِ ثَمَرات وآثار، فمِن ذلك:

أولًا: أنَّ القليل معه كثير:

فيكون العمل الصالح بالنسبة للمتورِّع ـ وإنْ قَلَّ ـ كثيرًا.

وقد قال يوسف بن أسباط: «يُجزِئُ قليلُ الوَرَعِ عن كثيرِ العمل، ويُجزِئُ قليلُ التواضُعِ عن كثيرِ الاجتهاد»[١].

وجاء عن الحسن البصري؛ قال: «مثقالُ ذَرَّةٍ مِن الوَرَعِ السالم خيرٌ مِن ألفِ مثقالٍ من الصومِ والصلاة»[٢].

فهذه الآثار وما شابهها؛ تدُلُّ على أن الورع سبيل إلى تكثير الأعمال، وتثقيل موازين الحَسَنات؛ لأنَّ كِفَّةَ السيِّئات تكون خاوية.

ثانيًا: أن صاحبه يحصِّلُ الأجور العظيمة عند الله ﷻ:

وقد قيل: «مَن لم ينظُرْ في الدقيق مِن الوَرَع، لم يَصِلْ إلى الجليل مِن العطاء»[٣].

فالله يعطي هؤلاءِ ويُثِيبُهم الثواب الجزيل؛ لأنهم تركُوا مشتَهَيَاتهم وما

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٨٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٤٣)؛ واللفظ له.

(٢) «الرسالة القشيريَّة» (١/٢٣٦).

(٣) «الرسالة القشيرية» (١/٢٣٤).

تطمح إليه نفوسُهم، تركوا ذلك لله ﷻ، فعوَّضهم الله تبارك وتعالى خيرًا، وجزاهم الجزاء الأوفى.

ثالثًا: أن ذلك أيسَرُ في حساب العبد:

فإذا تخفَّف العبد من الأمور المشتبِهة، والأمور المحرَّمة؛ فإنَّ ذلك يكون أيسَرَ في حسابه؛ لأنه إنما يكثُرُ الحساب ويطولُ بسببِ كثرةِ ما يقارِفُ العبد من الأمور التي لا ينبغي أن يقَعَ فيها.

يقول سفيان الثوري: «عليك بالزُّهْد، يبصِّرْكَ الله تعالى عَوْراتِ الدنيا، وعليك بالوَرَع، يخفِّفِ الله ﷻ حسابَكَ، ودَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ، وادفَعِ الشك باليقين، يَسْلَمْ لك دِينك»[١].

رابعًا: أنه يبلُغُ بصاحبِهِ المراتبَ العُلْيا في سُلَّمِ العُبُودِيَّة:

فيكون في أعلى مراتب العابِدِين؛ كما قال النَّضْرُ بن محمد: «نُسُكُ الرجلِ على قَدْرِ ورَعِه»[٢]؛ فالعبادة على قَدْرِ الوَرَع.

وعن معاوية بن قُرَّة؛ قال: دخَلْتُ على الحسن ـ البصري ـ وهو متكئ على سريره، فقلتُ: يا أبا سعيد، أيُّ الأعمال أحَبُّ إلى الله؟ قال: الصلاة في جَوْفِ الليل، والناس نيام، قلتُ: فأيُّ الصوم أفضَل؟ قال: في يومٍ صائف، قلتُ: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أنفَسُها عند أهلِها، وأغلاها ثمنًا، قلتُ: فما تقول في الورع؟ قال: «ذلك رأسُ الأمرِ كلِّه»[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٨٣).

(٢) المصدر السابق (٣٨).

(٣) المصدر السابق (٢٠).

خامسًا: الرِّفْعة وعلوُّ المَنزِلة:

يقول المَرُّوذِيُّ: سمعتُ أبا عبد الله ـ يعني: أحمد بن حَنْبَلٍ ـ وذكر ورَعَ ابن المبارَك، فقال: «إنما رفَعَهُ الله بمثلِ هذا»؛ يعني: بالورَع[1].

وقد قيل: «مَن دَقَّ في الدنيا ورَعُه، جَلَّ في القيامةِ خطَرُه»[2].

سادسًا: أنَّ مَن ترَكَ شيئًا للهِ، عوَّضه الله خيرًا منه:

فمَن تورَّع عن بعض ما لا يليق؛ رجاءَ ما عند الله، أو خوفًا منه ﷻ؛ فإنَّ الله تعالى يعوِّضُهُ ويفيضُ عليه من ألوان النِّعَم والأرزاق والبَرَكات ما لا يُقادَرُ قَدْرُه، وقد قال بعض أهل العلم: «لن يَعدَمَ المتورِّعُ عن الحرام فتوحًا من الحلال»[3].

فإبراهيمُ ﷺ لما ترَكَ الأهل والوطن والعشيرة، واعتزَلَ قومه، وهجَرَهم لله وفي الله، قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]؛ فعوَّضه الله ﷻ بالذُّرِّيَّةِ الطيِّبة الصالحة، التي لها لسانُ صِدْقٍ في العالمين[4].

سابعًا: أنَّ صاحبه يوفَّقُ للأعمال الصالحة:

لأنه كما قيل: «مَن أكَلَ الحرامَ، عصَتْ جوارِحُهُ؛ شاء أم أبى»[5].

فأكلُ الحرام يؤثِّرُ في سلوك العبد؛ فيحصُلُ له تمرُّدٌ على العبوديَّة، وخروجٌ عن طَوْرِه، واستشرافٌ لما لا يليق.

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) «مدارج السالكين» (٢٢/٢). والمراد بقوله: «خطره»: ارتفاع المكانة والمنزِلة والشرف.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٢٢٣/١).

(٤) انظر في هذا المعنى: «القواعد الحِسَان» للسعدي: (القاعدة التاسعة والستون: مَن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه) (ص١٣٦).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٩١/٢).

ومَن تورَّع عن الحرام، ضبَطَ جوارحَهُ وأعماله، ومَن كانت طُعْمَتُهُ حلالًا، أطاعَتْهُ جوارحُه، ووُفِّقَ للخيرات.

ثامنًا: أنه يكون حاجزًا وحائلًا دون الوقوع في الحرام:

فهو يَعصِمُ صاحبَه - بإذن الله ﷻ - من مُقارَفة الآثام والمعاصي، وهو أبعد ما يكون عن الفواحش والمُوبِقات، بخلاف مَن لا ورَعَ له؛ فإنه لا يزالُ يتنقَّلُ بين أنواع المخالَفاتِ مِن الصغائر، فما يَلبَثُ حتى يقَعَ في الكبائر.

تاسعًا: أنه يصون عِرْضَ صاحِبِه:

فإن مَن تنزَّه عن المحرَّمات والشبهات، كان عِرْضُهُ نقيًا، فيَسلَمُ من الأذى، ولا يكونُ لقائل فيه مقال، ولا يكون موضعَ رِيبَةٍ ولا تُهمة، مستبرِئًا لدِينِهِ وعِرْضِهِ؛ كما قال النبي ﷺ: «فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»[١].

عاشرًا: أنه يطهِّرُ دَنَسَ القلب:

«كما يطهِّر الماءُ دَنَس الثوب ونجاسته،... وقد جمع النبي ﷺ الورَعَ كله في كلمة واحدة، فقال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[٢]؛ فهذا يَعُمُّ الترك لما لا يعني من الكلام والنظر، والاستماع والبطش، والمشي والفِكْر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة؛ فهذه الكلمة كافية شافية في الوَرَع»[٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٨) مِن حديث أبي هريرة ﷺ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٨٨١).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢١).

حاديَ عشَرَ: أنه يُثمِرُ الزهد في الدنيا:

وذلك أن الورَعَ - كما تقدَّم عند الكلام على الفرق بينه وبين الزهد - أوَّلُ الزهد، ولا يكونُ المرء زاهدًا حتى يكون وَرِعًا[١].

وبالجملة: فالورَعُ له آثار كثيرة مما ذكَرْتُ ومما لم أذكُرْ؛ مِن راحة البال، وطمأنينةِ النَّفْس، واستراحة القلب، ونظافة المجتَمَع، فضلًا عن إجابة دعاء صاحِبِه.

* * *

(١) انظر: المصدر السابق (٢/٢٨).

مُفسِدَاتُ الوَرَع، وَالأُمُورُ الَّتِي تضَادُّه

وهذا أمرٌ ينبغي أن يَعرِفَه العبد؛ لأن الإنسان قد يَجتهِدُ في تحصيل بعض مَطَالِبه، فتَجتمِعُ له شروط تحصيله، ولكنه في نفس الوقت لا يَدفَعُ الموانع التي تمنع مِن تحقُّقه، فلا يحصُلُ مطلوبه، فلا بد في تحصيل الورع مِن مجاهدة النَّفْسِ، وتحقيق الأمور التي ذكَرْناها عند الكلام على الطريق إلى الوَرَعِ والأمور الموصِّلة إليه، هذا مع دفع الأضداد، والأمور التي لا تَجتمِعُ معه بحال من الأحوال، ورأسُ ذلك أمور؛ منها:

١ ـ حبُّ الدُّنْيا وشهواتِها:

فهو أمر يناقِضُ الورع؛ وذلك أن الإنسان إذا امتلأ قلبه من محبَّة الدنيا ومحبَّة شهواتها، فإنه يتهافَتُ عليها، ويُقبِلُ على تحصيلها وجمعها كيفما اتفَقَ، فكيف يحصُلُ له الورع وهو بهذه المثابة، وقلبُهُ بهذه الحال؟!

٢ ـ التأويلات الفاسِدَة:

فقد يريد الإنسان أحيانًا أن يتورَّع، ولكنْ إذا حضَرَ الطمع، تأوَّل لنفسه، وبحَثَ عن المخارج؛ فتبدَّت له التأويلات والمخارج والمحامل؛ سواءٌ تأوَّل لنفسه، أو تأوَّل له غيره، ومِثْلُ هذا مِن أين له الورَع؟!

٣ ـ الجُرْأة والإقدام على فعل المعاصي، وتَرْكِ الواجبات:

فإن ذلك يجتثُّ الوَرَعَ من القلب، فأيُّ ورَع يبقى عند مَن يجترئ على

ترك الواجب، وفعل المحرَّم؟! وهل يُمكِنُ لهذا أن يترُكَ الشُّبْهة، أو يفعل المستحَبَّ، وهو يترُكُ الواجب الصريح، ويفعل المحرَّم الواضح؟!

٤ ـ الغَفْلة:

ويُرادُ بها عدَمُ التفطُّن لهذه الأمور التي يُتورَّعُ فيها، وإنما هو اللهوُ في الدنيا، والاشتغالُ بأمر المَعَاش.

وتجدُرُ الإشارة هنا إلى أن سبب الكتابة في مثل هذه الأعمال القلبيَّة؛ إنما هو إيقاظُ الغافل، وتبصيرُ الجاهل ـ وإنْ ظنَّ بعض الناس أن ذلك فيه شيء من المبالَغة؛ لغَلَبةِ الغَفْلة عليهم ـ فإن المؤمِن إذا سمع مثل هذه الأمور، راجَعَ نَفسَهُ، ونظَرَ في تصرُّفاته وأعماله، ولو تُرِكَ مع نفسه مِن غيرِ تذكير، فإنَّ الغَفْلةَ قد تَغلِبُ عليه.

٥ ـ قِلَّةُ الحياء:

وذلك أن الحياء لا يأتي إلّا بخير: فيَحجِزُهُ حياؤه عن فعل ما لا يليق، بخلاف مَن لا حياء عنده؛ وفي ذلك يقول عمر بن الخطَّاب للأحنف بن قَيس رضي الله عنهما: «يا أحنفُ، مَن كَثُرَ ضحكُهُ، قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، ومَن مزَحَ، استُخِفَّ به، ومَن أكثَرَ مِن شيءٍ، عُرِفَ به، ومَن كَثُرَ كلامُهُ، كَثُرَ سَقَطُه، ومَن كَثُرَ سَقَطُه، قَلَّ حياؤُه، ومَن قَلَّ حياؤُه، قَلَّ ورَعُه، ومَن قَلَّ وَرَعُه، مات قلبه»[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢٦).

أَبْوَابُ الوَرَع

الوَرَعُ لا يقتصر على باب معيَّن من أبواب العبادات أو المعامَلات؛ كما لا يختص بالقضايا الفعليَّة أو التركيَّة، بل يشمل أمورًا كثيرة يَجمَعها قول النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[(١)].

ويدخل في ذلك أبوابٌ كثيرةٌ جِدًّا؛ كالورع في المنطق، وفي المأكل والمشرب، وفي المكاسب، وفي المخالَطة والمجالَسة، وفي الفُتْيا والأحكام، وفي الكلام في التفسير وغيره، وفي النَّظَر والسمع، وفي الشَّمِّ، وفي أمور متنوِّعة غير ما ذكَرْتُ.

وإليك تفصيلَ ذلك:

أولًا: الوَرَع في المنطق:

فلا يخفى أن الإنسان محاسَبٌ على ما يقوله: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[(٢)].

وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[(٣)]؛ وما ذاك إلَّا لأن أكثر ما يُؤْتَى الناسُ من ألسنتهم ومن شَهَواتِهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)؛ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصحَّحه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٤)؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

قال إبراهيم النَّخَعي: «هلَكَ الناس في خَلَّتَيْنِ: فضولِ الكلام، وفضولِ المال»(١).

وقال الحسن بن حَيٍّ: «فَتَّشْتُ عن الوَرَع، فلم أَجِدْهُ في شيءٍ أَقَلَّ منه في اللسان»(٢).

فهل يعي ذلك من اتخذوا الجَدَلَ والخصومات في الدين عملًا على مواقع الشَّبَكة، أو التواصل؛ مع قلة العلم، وضعف البصيرة، وغايةُ الكثير منهم: تسجيل مشارَكة، أو انتصار لمتبوع، أو تحيُّز لطائفة على سبيل العصبيَّة.

يقول إسحاق بن خَلَف: «الوَرَعُ في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفِضَّة، والزهدُ في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة؛ لأنه يبذلهما في طلب الرياسة»(٣).

وهذا أبو فَرْوَة يزيد بن محمد الرَّهَاوي، لَقِيَ أحمد بن حنبل في بغداد، فسأله الإمامُ عن رجل، فقال له: «ما فعَلَ الرجل الذي عندكم بحَرَّان ـ الجوهري ـ عنده علم؟»؛ يقول: فقلتُ له: ما أعرف بحَرَّانَ جوهريًا يُكْتَب عنه، فقال: «بلى؛ صاحبُ أبي مَعْبَد حفص بن غَيْلَان»، قلت: ما أعرفه، قال: «يغفر الله لك، له نَفْس»، فقلتُ: لعلك تريد البُومَة؟! قال: «إياه أعني»(٤).

فهذا الرجل كان يلقَّبُ بالبُومة، ولا يُعرَفُ إلّا بذلك، وكان يُمكِنُ للإمام أحمد أن يقول: البُومَة، ولكنه ترك ذلك تورُّعًا.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٠٣، ٦٧٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٢).

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٨٥٧).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٢٣/٥٣).

وجاءت ابنة للربيع بن خُثَيْم، فقالت: يا أَبَتَاه، أَذْهَبُ أَلْعَبُ؟ فلما أكثرَتْ عليه، قال له بعض جلسائه: لو أمرتها فذهبَتْ! قال: «لا يُكْتَبُ عليَّ اليومَ أني آمُرُها تلعب»(١).

أراد أن ينزِّهَ صحيفتَهُ مِن أن يُكتَبَ فيها مثل هذه اللفظة: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٨]؛ فكم في صحائفنا مِن العَبَث، والقيل والقال، والأمور التي لا تَرجِعُ علينا بطائل، ولا تعودُ علينا بنائل؟!

ثانيًا: الوَرَع في المأكل والمشرب:

عن أبي هريرة ﷺ؛ قال: أخذ الحسَنُ بن علي ﵄ تَمْرةً من تَمْرِ الصَّدَقة؛ فجعَلَها في فِيهِ، فقال النبي ﷺ: «كِخْ كِخْ»؛ ليَطْرَحَها، ثم قال: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟!»(٢).

وعن أنس ﵁؛ أن النبي ﷺ مَرَّ بتَمْرةٍ في الطريق، فقال: «لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ، لَأَكَلْتُهَا»(٣).

وعن عائشة ﵂؛ قالت: «كان لأبي بكر ﵁ غلامٌ يُخرِجُ له الخَرَاج، وكان أبو بكر يأكُلُ من خَرَاجِه، فجاء يومًا بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تَكَهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهليَّة، وما أُحْسِنُ الكِهَانةَ؛ إلَّا أني خَدَعْتُه، فلَقِيَني فأعطاني بذلك الذي أَكَلْتَ منه، فأدخَلَ أبو بكرٍ يدَهُ، فقاءَ كلَّ شيءٍ في بَطْنه»(٤).

وهذه امرأة من الصالحات أتاها نَعْيُ زوجها وهي تَعْجِن العجين،

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٧١).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٩١، ٣٠٧٢)؛ واللفظ له، ومسلم (١٠٦٩).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرجه البخاري (٣٨٤٢).

فرفَعَتْ يديها من العجين، وقالت: «هذا طعام قد صار لنا فيه شريك»[(١)]؛ تعني: أن هذا العجين صار إلى الميراث، فصار فيه شركاء؛ وهذا باب دقيق من الوَرَع.

ولما احتُضِرَ ابن المبارَك في السفر، قال: «أشتهي سَوِيقًا»، فلم يجدوه إلّا عند رجل كان يَعمَل لبعض الظَّلَمة، فقالوا له: إنه عند فلان، فقال: «دعوه»، فمات ولم يَشرَبْه[(٢)]! لم يقل: عليه إثمُه، وقد وصَلَ إليَّ بطريق مباح.

ثالثًا: الورع في المكاسب:

وكان عطاءُ سَلْمانَ الفارسيِّ ﷺ خمسةَ آلاف، وكان أميرًا على زُهَاءِ ثلاثين ألفًا من المسلمين، وكان يخطُب الناس في عَبَاءة، يفترش بعضها، ويلبس بعضها - وهو الأمير - فإذا خرج عطاؤه، أمضاه، ويأكُلُ من سَفِيفِ[(٣)] يَدَيْه[(٤)].

ويقول يونس بن عُبَيْد: «ما السارق عندي بأسوأَ سرقةً من التاجر يشتري المتاع إلى أَجَل، ثم يضربُ فيه إلى البُلْدان، لا يكتسِبُ دِرْهَمًا بعد الأجل إلّا كان حرامًا»[(٥)].

وذلك أن هذا التاجر اشتَرَى هذه البضاعة على أن يوفِّي ثمنها في مُدَّةِ شهرٍ مثلًا، ثم جعَلَ يسافر بها ويبيعها في البلدان، وزادت المُدَّة عن الشهر، فيرى أن كَسْبَهُ بعد الشهر حرام؛ لأنه لم يُوَفِّ صاحبه قيمته، وقد اشترط عليه شهرًا.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٥٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/٤١١)؛ بتصرف.

(٣) أي: يأكُلُ مِن عمل يديه؛ وهو نسيج الخوص.

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٥٠).

(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٩١)؛ رواية المَرُّوذِي.

ومثلُهُ مَن يأخذ من الناس أموالهم ليضارِبَ فيها، ثم بعد ذلك تنقضي مدة العَقْد، ولا تزال هذه الأموال بيده، والناس يُطالِبونه بأموالهم، وهو يتصرَّف فيها، فهو لا يكتسِبُ درهمًا واحدًا من هذا المال بعد تمام مُدَّة العقد، إلّا كان سُحْتًا حَرَامًا في حقِّه.

وهذا زكريَّا بن عَدِيّ؛ كلَّموا له إنسانًا، وكان شغلُهُ في ضَيْعة، وأجرى عليه ثلاثين درهمًا ـ وهو شيء يسير ـ وكَرِهَ أن يزيده فلا يذهب، فلما كان بعد شهر، قَدِمَ، فقالوا: ما حالك؟ فقال: «ليس أراني أعمَل بقَدْرِ ما آخذ»(١).

فماذا يقول الذي يتولَّى أعمالًا ووظائف، ثم بعد ذلك يضيِّع هذا العمل الذي رُبِطَ به، ويقصِّر فيه، ولا يأتي به على الوجه المطلوب؟!

وبلغ مِن ورَع عمر بن عبد العزيز: أنه كانت تُسْرَجُ له الشَّمْعة ما كان في حوائج المسلمين، فإذا فرَغَ من حاجتهم، أطفأها ثم أسرَجَ عليه سراجه(٢).

فهذا ورع نحتاج إليه؛ فقد يعمل الإنسان في جهة من الجهات، فيَستغِلُّ سيَّارة العمل لشؤونه الخاصَّة، وربَّما كان يَعمَلُ في مؤسَّسةٍ خيريَّة، ثم لا يتورَّع عن مثل ذلك.

والمقصودُ من إيراد ذلك كله: الاعتبارُ والاتعاظ، وتحريكُ دواعي الورَع في النفوس، مع مراعاة مراتب الناس في ذلك كله؛ وليس ذلك يعني محاكاة ما سبق لكل أحد، إضافةً إلى أن هذه المرويَّات عن غير المعصوم يُؤخَذُ منها ويُترَك، لكنَّ المؤمِن ينتفع بها، فيكون ذلك باعثًا له على محاسَبة النفس في هذا الباب.

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/٤٥٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٣٢٤).

رابعًا: الورَعُ في المخالَطةِ والمجالَسة:

ويرادُ به التورُّعُ في مجالَسة الناس ومخالَطتهم؛ فقد كان السلف ﷺ يتورَّعون في ذلك، ويتخيَّرون المَجَالِسَ، ويتنزَّهون عن المجالس التي تَشغَلُهم عن طاعة الله ﷻ، وتتغيَّر فيها قلوبُهم.

يقول يوسف بن أسباط لسفيان الثَّوْري: مَن أُجِيبُ ومَن لا أُجِيب؟ - أي: في الدعوة - قال: «لا تدخُلْ على رجل إذا دخَلْتَ عليه، أفسَدَ عليك قلبك»[(١)].

وهكذا إذا كانت تلك المجالس يحصُلُ فيها فتنةٌ للعبد بسبب ما يَرَى من الأُبَّهةِ والبَطَر، ومظاهرِ التَّرَف الكثيرة، التي لا يَتمالَك معها قلبُ العبد؛ فإذا عرَفَ من نفسِهِ أن ذلك يشغله، فإن الورع في حقه أن يتجنَّب ذلك؛ ولهذا كان السلف ﷺ يكرهون الدخول على أهل البَسْطة.

والواقعُ: أن الناس يَتفاوَتُونَ في ذلك تفاوتًا بيِّنًا، لا سِيَّما النساء؛ ولذلك كان الأفضل في حق كل امرئ، ذَكَرًا كان أم أنثى: ألّا يُخالِطَ إلّا من يقرِّبُه من الله، ويرغِّبُه فيما عنده، ويزهِّدُه في الدنيا، ولا يتغيَّر حاله بمجالَستهم ومزاوَرَتهم إلّا إلى الأحسن والأكمل، والمرء على دِينِ خليله.

خامسًا: الورع في الفُتْيا، والكلامِ على الأحكام، ومعاني القرآن:

وهو بابٌ واسع، وكلامُ السلف ﷺ فيه كثير، وهو أمر ينبغي للعبد أن يتفطَّن له، وأن يجعله نُصْبَ عينيه؛ لأن القائل فيه بلا علم متوعَّدٌ بالعقوبة، والله ﷻ حرَّم الفواحش ما ظهَرَ منها وما بطَن، والإثم والبغي بغير الحق، كما حرَّم الإشراك، والقول عليه بغير علم، وذكَرَ ذلك في سياق واحد: ﴿قُلْ

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٤٥٤)؛ رواية المَرُّوذِي.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهذا بابٌ واسع، وكلامُ السلف ﷺ فيه كثير، وأخبارهم فيه تدل على الاحتياط التامّ، والورَعَ في هذه الأبواب؛ ومن النماذجَ في ذلك:

١ ـ وَرَعُهم عند الكلام في التفسير ومعاني القرآن:

فعن ابن أبي مُلَيْكَة: «أن ابن عبَّاس ﷺ سُئِلَ عن آية لو سُئِلَ عنها بعضكم، لقال فيها، فأبى أن يقول»[(١)]؛ وهو تَرْجُمان القرآن.

وكان سعيد بن المسيِّب إذا سُئِلَ عن شيء من القرآن؟ قال: «أنا لا أقول في القرآن شيئًا»[(٢)]؛ وكان لا يقول إلّا في المعلوم مِن القرآن[(٣)].

وقال عُبَيْد الله بن عمر: «لقد أدركْتُ فقهاء المدينة، وإنهم لَيُعَظِّمُونَ القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيِّب، ونافع»[(٤)].

ولهذا قال مسروق بن الأَجْدَع: «اتقوا التفسير؛ فإنما هو الرواية عن الله»[(٥)].

٢ ـ وَرَعهم في الفُتْيا والأحكام:

يقول ابن مسعود ﷺ: «مَن عَلِمَ شيئًا، فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل: الله أعلم؛ فإنَّ مِن العِلْم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم؛ قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/٨٦)؛ وإسناده صحيح؛ كما قال ابن كَثير (١/١٢).
(٢) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٧٦ ـ ٣٧٧)؛ بإسناد صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير (١/٨٦)؛ وإسناده صحيح.
(٤) أخرجه ابن جرير (١/٨٥)؛ وإسناده صحيح.
(٥) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٧٧)؛ وإسناده صحيح.
(٦) أخرجه البخاري (٤٨٠٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: «لقد أدْرَكْتُ في هذا المسجِد عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحدٌ منهم يحدِّثُ حديثًا إلّا وَدَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا يُسأَلُ عن فتيا إلّا وَدَّ أن أخاه كفاه الفُتْيا»(١).

وقال ابن عُيَيْنة: سمعتُ أيوبَ السَّخْتِيانيَّ يقول: «أَجْسَرُ الناس على الفُتْيَا أقلُّهم علمًا باختلاف العلماء»(٢).

٣ ـ تحرُّجُهم عند الرواية والتحديث عن الرسول ﷺ:

وقد جاءت عنهم في ذلك أخبار كثيرة؛ فمن ذلك:

ما جاء عن عمرو بن مَيْمون؛ قال: «ما أخطأني ابنُ مسعودٍ عَشِيَّةَ خميسٍ إلّا أتيته فيه، قال: فما سمعتُهُ يقول لشيءٍ قطُّ: قال رسول الله ﷺ، فلما كان ذاتَ عشيَّة، قال: قال رسول الله ﷺ، قال: فنكَسَ، قال: فنظَرْتُ إليه، فهو قائمٌ محلَّلةٌ أزرارُ قميصه، قد اغرَوْرَقَتْ عيناه، وانتفَخَتْ أوداجُه، قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا من ذلك، أو شبيهًا»(٣).

سُئِل الشَّعْبي عن حديث، فحدَّث به، فقيل له: إنه يُرفَعُ إلى النبي ﷺ؟ فقال: «لا، على مَن دُونَ النبيِّ ﷺ أَحَبُّ إلينا، فإنْ كان فيه زيادة، أو نقصان، كان على مَن دون النبي ﷺ»(٤).

وهذا صالحُ الدَّهَّان يقول: «ما سمعتُ جابر بن زيد ؓ قطُّ يقول: قال رسول الله ﷺ؛ إعظامًا واتِّقَاءَ أنْ يَكذِبَ عليه»(٥).

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (٢١).
(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٢٥).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٣)، وصحَّحه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤٨/١).
(٤) أخرجه الدارمي (٢٧٤).
(٥) أخرجه الدارمي (٢٩١)؛ بسند جيد.

فهذه بعض النماذج فيما يتعلَّق بالوَرَعِ في العلم والفُتْيا، والتفسير والتحديث عن رسول الله ﷺ، وكلَّما قَوِيَ دِينُ العبد وازداد علمه، كان أقرَبَ إلى قولِ: لا أدرِي، فإذا قَلَّ العلم، قَلَّ بَصَرُ العبد، وظَنَّ أنه قد أحاط بكثيرٍ من العلم، فإذا ازداد بصَرُه، تعدَّدت لديه الاحتمالات عند تفسير الآية، أو عند الكلام في الأحكام؛ لأن ذلك يتَنازَعُهُ في نظره مجموعة مِن القواعد والأدلَّة التي يصعُبُ معها الترجيح، أو القطع بشيء، وغاية ما يقول فيما لم يَرِدْ فيه نص: الأقرَبُ في هذه المسألة كذا، وأظن الصواب كذا، وإذا قَلَّتْ بضاعته، قال: وعندي أنه كذا، والذي أراه كذا، والتحقيق الذي لا يجوز العدولُ عنه هو كذا وكذا! وهو صغير في العلم، ولم يحصِّلْ كثيرًا منه، ولربَّما دعا للمباهَلة في المسألة، وهو لم يَجمَعْ أطرافَها، ولم يُحِطْ بجوانِبِها!

وهذا أمر يقع كثيرًا لبعض طلبة العلم، ويقع كثيرًا أيضًا للعامَّة، والواجب على مَن يُفتِي: أنْ يتريَّثَ؛ لأنَّه موقِّعٌ عن الله ﷻ؛ ولذلك سمَّى ابن القيِّم كتابه المعروف المشهور بـ «إعلام الموقِّعين عن رب العالمين»، فهذا الذي يفتي الناس كأنَّه يقول: هذا حُكْمُ الله، وأنا أوقِّع عنه؛ ومَن يستطيع ذلك؟!

فأكثِرْ من قولك: لا أدري، تُلْقِ التَّبِعةَ عن كاهِلِك، وتكنْ في سلامة وعافية في دينك.

سادسًا: الوَرَع في النَّظَر:

والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالسمعُ والبصرُ مِيزَابانِ يَصُبَّانِ في القلب، فالمَشاهِدُ التي يراها الإنسان تؤثِّرُ في قلبه حتمًا لا محالةَ.

وقد كان السلف ﵃ يبالِغُونَ في الاحتراز في هذا الباب؛ فعن كَثِير بن هشام؛ قال: كان سُفْيانُ الثوريُّ قاعدًا بالبصرة، فقيل له: هذا مساوِرُ بنُ سَوَّارٍ يَمُرُّ - وكان على شرطة محمد بن سليمان - فوثَبَ - يعني: سفيان - فدخَلَ في داره، وقال: «أَكْرَهُ أن أرى من يعصي الله، ولا أستطيع أن أغيِّر عليه»[1].

وأما مَن أطلَقَ بصره في الأمور المحرَّمة الواضحة، فإنَّ هذا لا شك أنه قد اقتحَمَ بابًا من حدود الله ﷿، وأدخَلَ نفسه في تَبِعاتٍ يحاسِبُهُ الله عليها إن لم يَغفِرْ له.

فإذا كان السلف يتحرَّزُونَ من تلك الأمور اليسيرة في نَظَرنا، فكيف بالنَّظَر إلى الأمور المحرَّمة؟! كمَن يجلس خاليًا ينظر إلى الشاشة، ويَرَى فيها أمورًا تُفسِدُ عليه قلبه، وقد جعل الله ﷿ أهوَنَ الناظرين إليه؟!

هذا؛ والورَعُ في باب النَّظَرِ ينقسمُ إلى ورَعٍ واجِب، وورَعٍ مستحَبٍّ؛ كما لا يخفى.

سابعًا: الوَرَع في السَّمْع:

وذلك بأن يَحترِزَ في سمعه؛ فلا يسمع شيئًا يؤثِّر على قلبه؛ كسماع شيء من المحرَّمات؛ كالغِيبَة والنميمة والمَعازِف، أو مِن غيرها مما يُورِثُ غفلةً في القلب، فينأى بنفسه عن سماع الحرام.

فعن نافع؛ قال: «سمع ابن عمر مِزْمارًا، قال: فوضع إصبعَيْهِ على أذنيه، ونأى عن الطريق، وقال لي: يا نافعُ، هل تسمع شيئًا؟ قال: فقلتُ:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٧٤).

لا، قال: فرفَعَ إصبعيه من أذنيه، وقال: كنتُ مع النبي ﷺ، فسَمِعَ مثل هذا، فصنع مثل هذا»[(١)].

ثامنًا: الورع في الشَّمِّ:

الشَّمُّ: حاسَّةٌ من الحواس، يحاسَبُ عليها الإنسان، كما يحاسَبُ على كل نعمة أنعم الله بها عليه؛ هل أدَّى شكرها؟! جاء عن عبد الله بن راشد صاحب الطِّيبِ؛ قال: أتيتُ عمر بن عبد العزيز بالطِّيبِ الذي كان يُصنَعُ للخلفاء من بيت المال، فأمسَكَ على أنفه، وقال: «إنما يُنتَفَعُ بريحِهِ»[(٢)].

وجيء له مرةً بغنائم مِسْكٍ، فأخَذَ بأنفه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تأخذ بأنفك لهذا؟ قال: «إنما يُنتَفَعُ مِن هذا برِيحِهِ؛ فأكرَهُ أن أجِدَ رِيحَهُ دون المسلمين»[(٣)].

تاسعًا: ذكر نماذج متنوِّعة من أبوابٍ شتَّى في الورع:

أبوابُ الورع كثيرةٌ جِدًّا، وما ذكرته إنما هو نماذج، وأختِمُ بذكر نماذج أخرى متفرِّقة ومتنوِّعة من ورع السلف ﷺ في شتَّى الأمور:

فعن معاوية بن قُرَّة؛ قال: كان لأبي الدرداء ﷺ جمَلٌ يقالُ له: الدَّمُونُ، فكان إذا استعاره منه رجل، قال: «لا تَحْمِلْ عليه إلّا طاقتَهُ»، فلما كان عند الموت، قال: «يا دَمُونُ، لا تُخاصِمْني عند ربي؛ فإني لم أكُنْ أحمل عليك إلّا ما كنتَ تُطِيق»[(٤)].

فكيف بالذي يَظلِمُ الناس؟! وكيف بمَن يسترعيه الله ﷻ رعيةً مِن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢٤ ـ ٤٩٢٦)، وحكَمَ بنكارته، وضعَّفه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٢١١ ـ ٢١٦)، وصحَّحه ابن حبان (٦٩٣)، والألباني في تحريم آلات الطرب (ص ١١٦).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (١٤١)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٨٧).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٧٣).

الزوجات والأولاد، أو الموظَّفين أو الطلاب أو غيرهم، ثم بعد ذلك يَظلِمُهم؟!

وعن عُبادة بن قُرْط ﷺ؛ قال: «إنَّكم لَتعمَلُونَ اليوم أعمالًا هي أَدَقُّ في أَعْيُنِكُم مِن الشَّعْر، إنْ كنَّا لَنَعُدُّها على عهدِ النبيِّ ﷺ من المُوبِقات»[١].

فكيف لو رأى كثيرًا من أعمالنا اليوم؟!

وقيل لأبي قتادة: فكيف لو أدرَكَ زماننا هذا؟ فقال أبو قَتَادة: «لكان لذلك أَقْوَلَ»[٢]؛ أي: مِن باب أولى.

ولا غرابة في ذلك؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

فالأمر شديد، والله ﷻ لا يَضِلُّ ولا ينسى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقول: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، ولم يُنْسَ شيءٌ مِن ذلك على تطاوُل الأزمان، وكثرة الأعمال مِن الذنوب والمعاصي، مع كثرة الخلائق جِيلًا بعد جِيل؛ فكل ذلك مضبوط عند الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ومَن تتبَّع أخبار القوم في هذه الأبواب، رأى أمورًا عجيبة من ذلك، حتى إنَّ بعضهم وزَنَ الذَّرَّ!

وعن عمر بن الخطَّاب ﷺ؛ عنه أنه كان فرَضَ للمهاجرين الأوَّلين أربعة آلاف في أربعة[٣]، وفرَضَ لابن عمر ثلاثة آلاف وخَمْسَمِائة، فقيل له:

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٧٥١، ٢٠٧٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٧٥٢) بهذه التَّتِمَّة.

(٣) أي: في أربعة آلاف، وقيل: في أربعة أعوام، وقيل: في أربعة فصول، وقيل: إنما ذُكِرَتْ لبيان أن لكل مهاجر أربعةَ آلاف. انظر: «عمدة القاري، شرح صحيح البخاري» (١٧/٥٤).

هو مِن المهاجِرِينَ، فلِمَ نَقَصْتَهُ مِن أربعةِ آلاف؟ فقال: إنما هاجَرَ به أَبَوَاهُ[١].

وهذا رجل من العلماء ـ وهو تاج الدين المَرَّاكُشي ـ ترك التدريس في مدرسةٍ يقال لها: «المسروريَّة»، لَمَّا نظر في شرط الواقف، وهو أن يكون المتصدِّرُ للتعليم في المدرسة الوقفيَّة عالمًا بالخلاف، فقال: «أنا لا أعلَمُ الخلاف»[٢].

فهل فكَّر المرء في هذا حينما يسابِقُ وينافِسُ على مسجد يَؤُمُّ فيه، ولربما فعَلَ كل مستطاع من أجل أن يحصِّلَ هذا المسجد، فيأتي بالشفاعات والوسطاء، وبكل ما يستطيع من جهد؛ مِن أجل راتب، أو وجاهة؛ وهو مع ذلك ليس بأهل للإمامة أو الخطابة؟!

وهكذا مَن يتولَّى التدريس، وهو لا يُحسِنُ.

والتوفيق للفضائل من الله.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٣٩١٢).

(٢) انظر: «الدرر الكامنة» (٣/٣٠٠).

التَّوَكُّل

تَوْطِئَة

إنَّ العبدَ إذا عرَفَ ربَّه معرفةً صحيحة بأسمائه وصفاته، وأنه سبحانه وحده هو الذي يملك النفع والضر، والعطاء والمنع، والكفاية والنصر؛ فإن ذلك يُورِثُ في نفسه ثقة عظيمة بالله ﷻ؛ فيَرْكَنُ إليه، ويفوِّضُ أمره إليه، ويعلِّقُ قلبه به وحده دون سواه.

وبهذا يجتمِعُ شَعَثُ القلب، وتسكُنُ النَّفْس، ويطمئنُّ الإنسان، ويستريح من ألوان المعاناة التي تحصُلُ لغير المتوكِّلين على الله ﷻ.

ومن هنا جاء الحديث عن التوكُّل؛ فأسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه؛ إنه سميع مجيب[١].

❊ ❊ ❊

(١) تنبيه: بعد أن جمَعْنا مادَّة ثريَّة في هذا الموضوع من جميع المصادر التي أمكَنَ الوقوف عليها، وقَفْتُ على كتاب «التوكُّل» للدكتور عبد الله الدّميجي حفظه الله. فوجدتُه قد أورد عامَّة ما وَقَفْتُ عليه في هذا الموضوع، ورتَّبه ترتيبًا حسنًا. وقد استفدتُ من ترتيبه وتنويعه وتقسيماته.

مَعْنَى التَّوَكُّلِ وَحَقِيقَتُهُ

التوكُّل في اللغة: بمعنى الاعتماد والتفويض، ووكَّل فلان فلانًا: إذا استكفاه، واعتمَدَ عليه، وفوَّض الأمر إليه، ووَثِقَ به.

والتوكُّل: إظهارُ العَجْز، والاعتمادُ على الغير، والاسمُ من ذلك: التُّكْلان[1].

والتوكيل: أن تَعتمِدَ على غيرك، وتَجعَلَهُ نائبًا عنك.

والتوكُّل في الشرع: تنوَّعت عبارات أهل العلم فيه وكَثُرَتْ؛ وذلك لأنه حالٌ من أحوال القَلْبِ يصعُبُ ضبطها وحصرها وتحديدها بحدٍّ دقيق يبيِّن ما يدخُلُ فيها وما يخرُجُ عنها؛ ولذلك تنوَّعت تفسيراتُهم وتعبيراتهم عن معناه، ومن أجمع ما رأيتُ في تفسيرِه:

ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي؛ يقول: «وحقيقةُ التوكُّل على الله: أن يَعلَمَ العبدُ: أن الأمر كلَّه لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافعُ الضارُّ، المُعطِي المانع، وأنه لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله، فبعد هذا العلمِ: يعتمِدُ بقلبه على ربِّه في جلبِ مصالحِ دينه ودنياه، وفي دفعِ المضارِّ، ويَثِقُ غايةَ الوثوق بربِّه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذلٌ جُهْدَهُ في فعل الأسباب النافعة؛ فمتى استدام العبد هذا العلم، وهذا الاعتماد

---

(١) انظر: مادَّة (و ك ل)، من: «تهذيب اللغة» (١٠/٣٧١)، و«تاج العروس» (٣١/٩٦).

والثقة، فهو المتوكِّلُ على الله حقيقة، ولْيُبْشِرْ بكفاية الله له، ووعده للمتوكِّلين»[١].

فـ«التوكُّلُ يجمع أصلَيْن: عِلْمُ القلبِ وعملُهُ: أما عِلْمُهُ: فيقينه بكفاية وكيله، وكمالِ قيامِهِ بما وكَلَهُ إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمَلُهُ: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه، وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرُّفه له فوق رضاه بتصرُّفه هو لنفسه. فبهذَيْنِ الأصلَيْنِ يتحقَّق التوكُّل؛ وهما جِمَاعُهُ»[٢].

ونحن نعلم: أن رسول الله ﷺ أعظم الناس توكُّلًا على الله ﷻ، فإذا ذكَرْتَ المتوكِّلين وحالهم، فإن أوَّل ما تَتَّجِهُ الأنظار إليه هو حال رسول الله ﷺ، ومِن أسمائه المتوكِّلُ[٣]؛ وذلك لكمال توكُّله، وإنما قيل له ذلك؛ «لقناعتِهِ باليسير، والصبرِ على ما كان يَكْرَه»[٤].

وكان من دعائه ﷺ - كما في حديث ابن عبَّاس ﵄ -: «اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) «القول السديد، شرح كتاب التوحيد» (ص ١٢٠).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/٥٦٠).

(٣) كما في حديث عبد الله بن عمرو ﵄ في صفة النبي ﷺ في التوراة: «سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ»؛ أخرجه البخاري (٢١٢٥).

(٤) «فتح الباري» (٨/٤٦٠).

(٥) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

الفُرُوقَاتُ فِي بَابِ التَّوَكّل

وإنما ذُكِرَ ذلك؛ لما قد يقع من الالتباس والاشتباه بين التوكُّلِ الحقيقيِّ وبعضِ الأمور الأخرى.

أولًا: الفرق بين التوكُّل والإضاعة:

فقد يَلتبِس علينا التوكُّلُ والتفويضُ إلى الله ﷻ بالإضاعة؛ فيكونُ العبد مضيِّعًا لحظِّه؛ ظنًّا منه أن ذلك من التفويض والتوكُّل، وإنما هو من الإضاعة والإهمال؛ كما سيتضح فيما سيأتي بعده.

ثانيًا: الفرق بين التوكُّل والرَّاحة:

فقد يَلتبِس التوكُّل بالراحة، والواقع: أن المتوكِّل مجتهد، مُجِدٌّ في تحصيل الأسباب والقيام بما أمره الله ﷻ به؛ فالمتوكِّل ممتثِلٌ لقول النبي ﷺ: «فَاتَّقُوا الله، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[1]، لا يَتهافَتُ على الدنيا، ولكنه يبذُلُ السبب، فيعمل لآخرته كأنه سيموت غدًا، ويعمل لدنياه كأنه سيعيش أبدًا.

وأمَّا مَن التبَسَ عليه التوكُّل بالرَّاحة، فإنه يخلُدُ إلى الأرض، ويترُكُ الجِدَّ والعمل في سعي الآخرة والدنيا، ثم بعد ذلك ينتظِرُ ما يحصُلُ به المطلوب!

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٧).

ثالثًا: الفرق بين الركون إلى الأسباب وتعطيلها:

فلربَّما اشتبَهَ خلع الأسباب بتعطيلها في باب التوكُّل، وخلعُ الأسباب: أن تُخلَعَ من القلب، فلا يُعتمَدَ عليها، ولا يُركَنَ إليها؛ وهذا حقيقة التوحيد؛ فالركونُ إلى الأسباب: شِرْك، لكنَّ ترك الأسباب: نقصٌ في العقل؛ فلا يترُكُ العمل والأسباب بدعوى أنَّه محقِّق للتوكُّل(١).

رابعًا: الفرق بين التوكُّل والعجز:

فالتوكُّلُ: عمَلُ القلبِ وعبوديَّته؛ اعتمادًا على الله، وثقةً به، والتجاءً إليه، وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه للعبد؛ لعلمِهِ بكفايته سبحانه، وحسنِ تدبيرِهِ لعبده: إذا فوَّض إليه أمره، مع قيامِهِ بالأسباب المأمور بها، واجتهادِهِ في تحصيلها.

وقد كان النبي ﷺ أعظم المتوكِّلين، وقد ظاهَرَ بين دِرْعَيْنِ في يوم أُحُد(٢)، ولَبِسَ ﷺ المِغْفَرَ على رأسه، ودخل مكة وعلى رأسه المِغْفَر(٣)، واختفى في الغار ثلاثة أيَّام لمَّا خاف المشركين(٤)؛ حيث كانوا في طَلَبِهِ؛ فكان متوكِّلًا في السبب، لا متوكِّلًا على السبب.

«وأمَّا العاجز، فهو معطِّل؛ إمَّا أن يعطِّل السبب عجزًا منه، ويزعُمَ أن ذلك توكُّل، وإمَّا أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه، معتمِدًا عليه، غافلًا عن المسبِّب، معرِضًا عنه»(٥).

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠) وصحح إسناده الألباني في «صحيح أبي داود» (٧/٣٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧)؛ من حديث أنس ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٠٥)؛ من حديث عائشة ﷺ.

(٥) «الروح» لابن القيم (٢/٧٤٧)؛ بتصرُّف.

خامسًا: الفرق بين الطمأنينةِ والسكونِ إلى الله ﷻ، والسكونِ والطمأنينة إلى المعلومِ من الأقوات والأرزاقِ والأشخاصِ وغير ذلك[١].

فربَّما ادَّعى العبد: أنه متوكِّل على الله ﷻ، وأنه يَثِقُ بما عنده، وأنه راضٍ بما قسَمَ الله له، وأن ذلك هو بَرْدُ اليقين، ولكنه في الحقيقة مطمئِنٌّ إلى مؤسَّسته أو دُكَّانه، ولو أنه قُطِعَ عنه ذلك بكَسَادٍ في كسبه، أو آفةٍ في رزقه، لَجَزِعَ أشدَّ الجَزَع.

سادسًا: الفرقُ بين التوكُّل والعَزْمِ على التوكُّل:

فقد يَلتبِس على الإنسان التوكُّل على الله والرِّضا عنه بكلِّ ما يفعله به؛ سواءٌ كان ذلك مما يحبه العبد أو يكرهه، مع العزمِ على ذلك أو حديثِ النفس به؛ فقد يقول الإنسان: أنا متوكِّلٌ وراضٍ بما يَقسِمُ الله ﷻ لي، ولو وقَعَ له ما يَكرَهُ، لَتَغَيَّرَتْ حاله، فيكون ذلك من قَبِيل حديث النَّفْس، وليس له حقيقة في الواقع[٢]؛ فكثيرٌ من الناس قد يَعرِفُ التوكُّل بتفاصيلِه ومعانيه دراسةً وفهمًا وعلمًا، ولكنَّ الحقيقة والامتثال والتطبيق شيءٌ آخر.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٤).

(٢) انظر: المصدر السابق.

مَنزِلَةُ التَّوكُّل

يمكن بيان هذا الأمر من جهات متعدِّدة، تظهر مِن خلالها قيمةُ التوكُّلِ وشِدَّةُ الحاجة إليه.

فأوَّل ذلك: هو ما يقترِن به التوكُّل ويرتبِطُ به من الأمورِ العِظَام؛ كالإسلامِ والإيمانِ والإحسان، والهدايةِ والتقوى لله جل جلاله، وما إلى ذلك من الأمور المهمَّة.

أما وجه اتصالِهِ بالإيمان: فذلك أنَّ التوكُّل شرط له، ولازمٌ من لوازمِه؛ فهذا موسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]؛ فـ «شرَطَ في إيمانهم أن يكونوا متوكِّلين، والمعلَّق على الشرط يُعْدَمُ عند عدمِه؛ وهذا يدلُّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكُّل؛ فمَن لا توكُّل له لا إيمان له»(١).

ولا يَخفَى أن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تقتضِي الإخلاص والتوكُّل.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]؛ أي: على الله وحدَهُ دون ما سواه.

وقد جاءت عبارات كثيرة عن السلف تَدُلُّ على هذا المعنى:

ومِنْ ذلك: ما قاله ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَيْر، وغيرهما: «التوكُّل على الله جِمَاعُ الإيمان»(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٢٩).

(٢) أخرجه عن ابن عباس: البيهقي في «الشعب» (١٢٦٣)، وعن سعيد: أحمد في «الزهد» (ص ١٩).

وبهذا نعلم: أنَّ التوكُّل على الله ﷻ من أعلى المقامات، ومن أهمِّ المهمَّات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطَحِبًا له في كل شؤونه وحالاته.

وأمَّا ارتباط التوكُّل بالإسلام: فكما جاء أيضًا من قول موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ * فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥]؛ فجعَلَ دليل صحة الإسلام التوكُّل(١).

والآيات والنصوص الدالَّة على هذا المعنى كثيرة لا تخفى.

وأما عَلَاقَتُهُ بالإحسان: فيمكن أن يُؤخَذَ ذلك من قول الله تبارك وتعالى في صفة أهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قال الشيخ سُلَيْمان بن عبد الله: «في الآية: وصفُ المؤمنين حقًّا بثلاثِ مقاماتٍ مِن مقامات الإحسان، وهي: الخَوْف، وزيادة الإيمان، والتوكُّل على الله وحده...»(٢).

فهذه الصفات التي ذكَرَها لا تكون لكلِّ أهل الإيمان، وإنما تكون للمخصوصين منهم مِن أهل الإحسان.

وأما اقتران التوكُّل مع الهداية: فقد جاء ذلك في مثل قول الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فعَجِبوا مِن تركِهِم التوكُّل على الله وقد هداهم، وأقرُّوا أن ذلك لا يكون أبدًا.

وهذا دليل على أن الهداية والتوكُّل متلازمان.

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٥٥٧/٢).

(٢) «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (ص٤٣٠).

وأما اقتران التوكُّل مع التقوى[١]: فكما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]؛ أي: كافيه، فجزاءُ التوكُّل هو الكفاية؛ وهذا هو مقصودُ العبدِ مِن توكُّله على الله تبارك وتعالى.

وأما اقترانُ التوكُّل مع الدعاء: فقد جاء ذلك في دعاء إبراهيم ﷺ والذين آمنوا معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥]؛ فلا بدَّ للعبد أن يفوِّض أمره إلى الله (سبحانه) قبل أن يتوجَّه إليه بالدعاء؛ وذلك لأنه يَعلَمُ أن الله ﷻ يملك أَزِمَّةَ الأمور، وأنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن سُؤْلَهُ ومطلوبه وحاجته إنما هي بيده؛ فينبغي أن يتوكَّل عليه، وأن يَثِقَ بما عنده، وأن يَركَنَ إليه، وأن يفوِّضَ كلَّ أموره إليه.

وجاء ذلك أيضًا في دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[٢].

وهذا الذي ذكره النبيُّ ﷺ مناسِبٌ غاية المناسبة لهذا المذكور بعده.

وأما اقترانُ التوكُّل مع الصَّبْر: فقد جاء ذلك في عدَّة آيات، ووجهُ ذلك ظاهر؛ وذلك أن الإنسان لا يمكِنُ أن يتصبَّر إلَّا إذا كان يَركَنُ إلى الله ﷻ، ويَثِقُ به، ويفوِّض أموره إليه؛ فلا يستطاع تحقيق الصبر إلَّا بتحقيق التوكُّل على الله تعالى، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٥٥٧ ـ ٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٠)؛ واللفظ له، ومسلم (٧٦٩)؛ من حديث ابن عباس ﷺ.

وأما اقتران التوكُّل مع العبادة: فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ المراد بالاستعانة هنا التوكُّل، وهي طلَبُ العون من الله، وإسنادُ الأمر إليه، وتفويضُ الحاجات إلى مَن يَملِكها، ويملك النفع والضرّ.

وجاء ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فقرَنَ بين التوكُّل والتبتُّل؛ وهو العبادة أو الانقطاع للعبادة.

والعبادةُ هي غايةُ العبادِ التي خُلِقُوا مِن أجلِها.

والاستعانةُ والتوكُّلُ هما وسيلتهم إلى ذلك.

وقال شيخ الإسلام: «تأمَّلْتُ أنفعَ الدعاء، فإذا هو سؤال العَوْنِ على مرضاته، ثم رأيتُهُ في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»(١).

وهو الدعاء الذي علَّمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبَل رضي الله عنه؛ فقال: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فقال: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(٢).

ثانيًا: مما يدل على أهمية التوكُّل: أن الله أمر به نبيه ﷺ، كما أمر به الأنبياء قبله؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وكذا في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَلَا

---

(١) «المستدرَك على مجموع الفتاوى» (١/١٧٥)، و«مدارج السالكين» (١/٧٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)؛ من حديث معاذ رضي الله عنه، وصحَّحه ابن خزيمة (٧٥١).

نُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

فـ «التوكُّل على الله واجبٌ مِن أعظمِ الواجبات،..وقد أمر الله بالتوكُّل في غيرِ آيةٍ أعظَمَ مما أمر بالوضوء والغُسْل من الجَنَابة، ونهى عن التوكُّل على غير الله»(١).

ثالثًا: أن الله جعَلَ التوكُّل شعارًا لعباده المؤمنين، وأثنى عليهم به؛ فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]؛ قال قتادة: «هذا نعتُ أهل الإيمان؛ فأثبتَ نَعْتَهم، ووصَفَهم؛ فأثبتَ وَصْفَهم»(٢).

رابعًا: أن العبد مضطرٌّ إلى التوكُّل، لا يستغني عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ في أحوالِهِ وأمورِهِ كلها؛ وذلك أن العبد فقيرٌ، ضعيفٌ، محتاجٌ، مسكينٌ، والله ﷻ هو الغنيُّ الغِنَى الكاملَ المطلَقَ.

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣٨٧/١٣).

التَّوكُّلُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

مضى كثير من النصوص مِن كتاب الله ﷻ التي تتحدَّث عن التوكُّل مِن حيثُ الأمرُ به، أو أنه مِن شعار الصالحين، وكذلك ما ذكَرَ الله ﷻ عن توكُّل الأنبياء والمرسَلِين عليهم الصلاة والسلام.

وأما في السُّنَّة: فقد أخرج الإمام مسلم في «صحيحه»؛ أن النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا»[1]؛ فالنبي ﷺ «أمره بالحرصِ على ما ينفعه، والاستعانة بالله، ونهاه عن العَجْزِ الذي هو الاتِّكالُ على القَدَر»[2]، ثم أمَرَهُ بعد ذلك بالرضا.

وقد جاء في حديث السبعين ألفًا الذين يدخُلُونَ الجَنَّةَ بغير حساب: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[3].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ قال: «حَسْبُنَا الله ونعمَ الوكيل؛ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقِيَ في النار، وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/٢٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨)؛ من حديث عِمْران بن حُصَيْن رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

وعن عُمَرَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»(١).

وعن أنس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِاسْمِ الله، تَوَكَّلْتُ عَلَى الله، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله؛ قال: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ؟!»(٢).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وصحَّحه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٢٦) وحسَّنه، وصحَّحه الألباني في «صحيح الموارد» (٢٠١٥).

دَرَجَاتُ التَّوَكُّل

الأولى: مَعرِفة الربِّ وصفاته؛ فالتوكُّلُ لا يتمُّ ولا يحصُلُ للإنسان إلّا بمعرِفة الله ﷻ معرفةً صحيحةً بذاته وأسمائه وصفاته، فإذا اكتمَلَتْ له هذه المعرِفة، عرَفَ أن له ربًّا قادرًا، قويًّا، عزيزًا، رازقًا، يُعطِي ويمنع، يَخفِضُ ويرفع، يُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، بيده الخير، وأن الأمور إنما تصدُرُ عن مشيئته وإرادته سبحانه وتعالى؛ فكلَّما كان العبد بربه أعرَفَ وأعلَمَ، كان متأهِّلًا للتوكُّل أكثَرَ من غيره.

والثانية: إثبات الأسباب ورعايتها، والأخذ بها؛ فإنها لا تُطرَح بالكليَّة.

«والثالثة: رسوخ القلب في مَقَام التوحيد؛ فإنه لا يستقيم توكُّلُ العبد حتى يَصِحَّ له توحيده، بل حقيقةُ التوكُّل توحيدُ القلب، فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكُّلُهُ معلولٌ مدخول»[١].

والرابعة: أن يعتمِدَ القلبُ على الله ﷻ، ويَطْمَئِنَّ إليه، ويسكُنَ إليه، ويثق بتدبيره سبحانه وتعالى، فيكون ـ كما قال بعضهم ـ كالطِّفْلِ الذي لا يَعرِف إلّا ثَدْيَ أُمِّه، ولا يسكُنُ إلّا إليه، ولا يطمئنُّ إلّا إليه.

فـ «التوكُّلُ: معنًى يَلتئِمُ من أصلَيْن: مِن الثقة والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»[٢].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠).

(٢) المصدر السابق (١/٧٥).

والخامسة: حُسْنُ الظنِّ بالله ﷻ؛ فحُسْنُ الظَّنِّ به يدعو إلى التوكُّل عليه، وعلى قدر حُسْنِ ظن العبد بربِّه ورجائه له؛ يكون توكُّله عليه.

وإذا ساءت الظنون بالله ﷻ، ضَعُفَ التوكُّل؛ ولهذا ذمَّ الله ﷻ الظانِّينَ بالله ظنَّ السَّوْءِ.

ونحن في هذه الأيَّام في أمسِّ الحاجة إلى حسن الظنِّ بالله، وإلى تكثيره في القلوب، وتعظيمه، وشرح القلوب وتوسيعها ببَعْثِ الأمل، وتعريفِها بصفات الله ﷻ التي تَدُلُّ على اقتداره، وعلى حِلْمِهِ وإمهالِهِ للظالمين، والناسُ في حاجة إلى أن يذكَّرُوا بسنن الله ﷻ في التغيير ما يحتاجون إليه في مثل هذه الأيام؛ وإلا فإن الكثيرين قد يحصُلُ لهم من الانهزام الداخلي، والتشكُّك بوعد الله ﷻ ما يُفضِي بهم إلى أمورٍ عظيمةٍ من جهة الاعتقاد.

والسادسة: أن يستسلِمَ القلبُ لربِّه، وأن تَنجذِبَ دَوَاعِيهِ كلها إليه[1]؛ فلا يلتفت هنا أو هناك.

والسابعة: أن يفوِّضَ أمرَهُ إلى ربِّه تبارك وتعالى؛ لأنه يعلم أن الله عليم؛ يَعلَمُ الأمور كلَّها، وهو حكيم؛ يضع الأمور في مواضعها، ويُوقِعُها في مواقعها، فإذا حصَلَ اليقين بذلك، مع وثوقٍ بقوة الله ﷻ وقدرته، فإنَّه يستسلِمُ، ويفوِّضُ أمرَهُ إلى الله ﷻ.

والثامنة: الرضا؛ «وهي ثمرة التوكُّل، ومَن فسَّر التوكل بها، فإنما فسَّره بأجلِّ ثمراتِه، وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكَّل حَقَّ التوكل، رَضِيَ بما يفعله وكيله»[2].

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٢٢)؛ بتصرُّف.

(٢) المصدر السابق.

فالرضا والتوكُّل يَكتنِفان المقدور؛ فالتوكُّل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه[١].

ومِن دعائه ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»[٢]؛ فهذا سؤال لتحقيق الرضا بعد وقوع المقدور.

فهذه دَرَجاتٌ ثمانٍ، إذا اجتمَعَتْ للإنسان، كَمُلَ له التوكُّل، وإذا نقَصَ شيءٌ منها أو اختَلَّ، اختَلَّ توكُّله[٣]. و«على قدر إيمان العبد يكون توكُّله»[٤].

و«أعظمُ أنواع التوكُّل: التوكُّلُ في الهداية، وتجريدِ التوحيد، ومتابعةِ الرسول ﷺ، وجهادِ أهل الباطل؛ فهذا توكُّل الرُّسُل، وخاصَّة أتباعَهم»[٥].

«والناس بعد ذلك في التوكُّلِ على حَسَبِ هِمَمهم ومقاصدهم؛ فمِن متوكِّلٍ على الله في حصول المُلْك، ومِن متوكِّلٍ في حصول رغيف، ومَن صدَقَ توكُّلُهُ على الله في حصول شيء، ناله، فإنْ كان محبوبًا لله مرضيًا، كانت له فيه العاقبة المحمودة،.. وإنْ كان مباحًا، حصلت له مصلحةُ التوكُّل دون مصلحة ما توكَّل فيه، إنْ لم يَستعِنْ به على طاعته»[٦].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٢٢٩)، من حديث عمَّار ﷺ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٥ ـ ١٢٨).

(٤) «بدائع الفوائد» (٢/٧٦٧).

(٥) «الفوائد» لابن القيِّم (١٢٥)؛ بتصرُّف يسير.

(٦) «مدارج السالكين» (٢/١١٤)؛ بتصرُّف يسير.

أَنْوَاعُ التَّوَكُّل

التوكُّل يَنقسِمُ من حيثُ المتوكَّل عليه إلى قسمَيْن:

أولًا: التوكُّل على الله؛ وهو ينقسِمُ بحَسَبِ موضوعِه إلى أربعة أقسام:

الأول: توكُّل العبد في إقامة نفسه، وإصلاح قلبه وعمله، وتقويم سلوكه، وما إلى ذلك، دون أن يحاوِل التأثير في الآخَرين.

الثاني: توكُّل على الله تعالى في استقامة النفس، كما تقدَّم، بالإضافة إلى التوكُّل عليه تعالى في إقامةِ دِينِ الله في الأرض، ودفعِ الفساد، وقمعِ البِدَع، وجهاد الكفار والمنافقين، والاهتمام بمصالح المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتأثير في الآخرين حتى يُعبَدَ الله وحده.

وهذا توكُّلُ الأنبياء، وتوكُّل ورَثَتِهم مِن بعدهم مِن العلماء، وما انتشَرَ دين الله ﷻ إلّا بهذه الدعوة.

والثالث: وهو أن يتوكَّل على الله ﷻ في تحصيل حظوظ النَّفْس الدنيويَّة، ودفع المكروهات؛ كمَن يتوكَّل في حصول رِزْق أو عافية، أو زوجة أو وَلَد؛ فهذا يُؤجَر على هذا التوكُّل؛ لأنه عبادة، وعلى تفويض الأمر إلى الله ﷻ، وأما تلك الأمور: فإنه لا يُؤجَرُ عليها إلّا إذا قصَدَ بها الاستعانة على طاعة الله تبارك وتعالى.

فهذا دون الذي قبله، مع أنه مطلوب؛ إذْ لا بدَّ من أن يتوكَّل الإنسان على الله ﷻ في أمورِهِ كلِّها، لكن لا يكون توكُّله مختصًّا بهذه الأشياء، مقتصِرًا عليها دون غيرها.

ومَن حقَّق التوكُّل في النوع الأوَّل والثاني؛ وهو التوكُّل في إصلاح النَّفْسِ وإصلاحِ المجتمَع، كفاه الله ﷻ النوعَ الثالث؛ وهو ما يتعلَّق بحاجاتِهِ ومطالبِهِ الشخصيَّة[1]؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[2].

ثانيًا: التوكُّل على غير الله تعالى[3]:

وهذا النوع يَنقسِمُ إلى قسمَيْن:

القسم الأول: التوكُّل الشِّرْكيُّ الذي يكون شركًا بالله ﷻ؛ وهو أيضًا على نوعَيْن:

١ ـ التوكُّل على المخلوق فيما لا يَقدِرُ عليه إلّا الله تبارك وتعالى؛ كأولئك الذين يتوكَّلون على الأموات والطواغيت فيما لا يَقدِرون عليه؛ إما أصلًا، وإما حالًا؛ فيتوكَّلُ عليه في إنزال المطر، أو رفع الضرّ، ونحو ذلك، أو يتوكَّل عليه فيما يستطيعه في مَجَارِي العادات، لكنه ليس بحضرته، ولا يَسمَعُه، ولا يتمكَّن من إيصال حاجته إليه؛ كالذي يكون في وسط البحر، فيتوكَّل على الولي الفلاني في إنقاذه؛ فهذا يكون من قَبِيل الإشراك بالله تبارك وتعالى شركًا أكبر؛ ومن ذلك: طلَبُ هؤلاء المشرِكِينَ من هذه المعبودات أن تَنصُرَهم، أو تَشفَع لهم في الآخرة، ونحو هذا.

وهذا الذي يسمِّيه بعض العلماء بتوكُّل السِّرِّ، نظير: خوف السِّرِّ؛ وذلك أن يَعتقِد في هذا المتوكَّل عليه خاصِّيَّةً وقدرةً خفيَّةً يمكنه بها أن يُوصِل إليه المطلوب، وأن يدفع عنه المكروه والمرهوب، فيكون له نوعُ اعتقاد في هذا الإنسان، وهذا الاعتقاد يَحمِله على التوكُّل عليه.

---

(١) انظر: «الفوائد» (ص١٢١ ـ ١٢٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٢٨ ـ ٤٢٩).

٢ ـ التوكُّل على المخلوق في الأمور التي يَقدِرُ عليها المتوكِّلُ عليه عادةً.

وهذا شرك أصغر ـ عند بعض أهل العلم ـ؛ وذلك كالتوكُّل في الأسباب العاديَّة الظاهرة فيما يَظُنُّ أن ذلك الإنسان يقدر عليه؛ كمن يتوكَّلُ على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرِّزْق أو دفع الأذى، وكمن يعلِّقُ قلبه برئيسه في العمل، أو بوظيفته، أو بالطبيب، ونحو ذلك، فيَعتمِدُ عليه اعتماد افتقار؛ فهذا شرك خفي.

لكنْ لو أنَّه التفَتَ إليه باعتباره سببًا، وأنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي قدَّر ذلك على يَدَيْهِ، فهذا لا بأس به؛ إذا كان لهذا السبب المنظور إليه ارتباطٌ صحيح في مثل هذا المعنى الذي التفَتَ إليه فيه.

فإنَّ مِن الكذب على القَدَر: أن يَعتقِد في شيءٍ ـ كالدواء مثلًا ـ أنه ينفع، لكنه في مَجَارِي العادات والتجارِب ليس كذلك، كأن يعتقِدَ في نوع من الأعشاب أنه إذا أكَلَه، أفاده في علاج المرض الفلاني؛ فهو لا يَظُنُّ أن فيه خاصيَّةً سِرِّية، وقدرةً خفيَّةً، ولكن يَعتقِد أنه بتركيبه وبطبيعته يفيد في هذا المعنى، فإنْ لم يكن كذلك، فهو كَذِبٌ على القدر، وقُلْ مثل ذلك فيمن يَعتقِد أنه إذا اغتسَلَ بماءٍ مِن عَيْنٍ معيَّنةٍ: أنه يبرأ من الرُّومَاتِيزم.

وهذا الاعتقاد في الحقيقة ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يَعتقِد في هذا الشيء خاصيَّة خفيَّة سِرِّيَّة؛ فهذا شرك.

النوع الثاني: أن يَعتقِد أن هذه العَيْنَ مثلًا يوجد فيها مياه مَعدِنيَّة، أو مادة معيَّنة تفيد في العلاج من بعض الأمراض.

ولكنَّ الطبَّ يُثبِتُ خلاف ذلك؛ إما أنه لا يُوجَد فيها هذه المادَّة، أو أن هذه المادَّة لا تعلُّق لها بعلاج هذا المرض؛ فيكون ذلك من قبيل الكذب على القَدَر؛ وهو لا يجوز.

النوع الثالث: أن يكون ذلك صحيحًا في مَجَارِي العادات؛ فهذا لا إشكال فيه إذا تسبَّب به، وكان توكُّله على الله وحده.

ومما يتعلَّقُ بهذا النوع الشركي في التوكُّل: شركُ الألفاظ؛ كأن يقول لآخر: أنا متوكِّلٌ عليك يا فلان، فهذا لا يجوز، فإنْ كان في أمرٍ لا يَقدِرُ عليه إلّا الله ﷻ، فهو شرك أكبر، وإنْ كان في أمرٍ يَقدِرُ عليه هذا المخلوق؛ كأن يقول: أنا متوكِّلٌ عليك لتقضي لي الحاجة الفلانيَّة، أو تشتري لي الجهاز الفلاني، وهو يَقدِرُ على ذلك؛ فإن هذا يكون من قبيل شرك الألفاظ عند بعض أهل العلم.

ويختلِفُ التوكُّلُ في ذلك عن الاستعانة والاستغاثة؛ فيجوز أن يستغيث الإنسان ويستعين بمخلوق يَقدِرُ ويَملِك ذلك الغَوْثَ والعونَ بعد الله، والله ﷻ يقول: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]؛ فاستغاثه في أمرٍ يَقدِرُ عليه؛ وهذا يجوز.

أما التوكُّل، فلا يجوز أن يُصرَفَ قليلُهُ ولا كثيرُهُ إلا لله ﷻ، فهو مختصٌّ به، فإذا قال العبد للعبد: أنا متوكِّلٌ عليك، أو قال: أنا متوكِّلٌ على الله وعليك؛ فهذا مِن شِرْكِ الألفاظ، وإنْ كان يَقدِرُ عليه.

وكذا لا يجوز أن يقول: أنا متوكِّلٌ على الله وفلان، وهو على نحو ما ورَدَ عن النبي ﷺ مِن النهي عن قول: ما شاء الله وشِئْت[1].

كما أنه لا يجوز أن يقال: أنا متوكِّلٌ على الله ثُمَّ عليك، كما يجوز في المشيئة؛ لأن التوكُّلَ كلَّه عبادة.

القسم الثاني: الوَكَالة الجائزة:

وذلك أن يقول لصاحبه مثلًا: وكَّلتُكَ في عمل كذا، أو بَيْعِ كذا، أو

---

(١) ورد ذلك في عدَّة أحاديث؛ من ذلك: حديث حُذَيْفة رضي الله عنه؛ أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وصحَّحه ابن حجر في «المطالب العالية» (١٣/٤٢٤).

شراءِ كذا، ونحو ذلك، فمثل هذا مِن توكيله، وليس من التوكُّل عليه، وهي بمعنى: التفويض والحِفْظ؛ تقول: وَكَّلْتُ فلانًا: إذا استحفَظْتَهُ، ووَكَلْتُ الأمر إليه: إذا فَوَّضْتَهُ إليه.

وهي في الشرع: «إقامةُ الشخصِ غيرَهُ مُقَامَ نَفْسِهِ مطلَقًا أو مقيَّدًا»[1].

والوَكَالةُ بهذا المعنى: جائزةٌ بالكتاب والسُّنَّة والإجماع؛ ومحل بحثها وأدلتها في كتب الفقه والأحكام[2].

* * *

(١) «فتح الباري» (٤/٥٥٩).

(٢) ينظر: «نيل الأوطار» (٥/٥٣١)، و«الموسوعة الفقهية» (٤٥/٧).

التّوكّل وفِعلُ الأَسْبَاب

إن الحديث عن الأسباب في موضوع التوكُّل يُعَدُّ مِن أهمِّ ما يتعلَّق بهذا الباب، وفيه من المسائل والتفاصيل الكثيرة ما يتطلَّب شيئًا من البسط[1].

إذْ إن الحديث عن هذا الموضوع ينتظِمُ أمورًا متعدِّدةً، أهمها:

مواقف الناس من الأسباب:

ويُمكِن أن نُجمِل ذلك بأربعة مواقف:

الأول: موقف مَن يلتفِتُ إلى الأسباب التفاتًا كُلِّيًا، ويعتمِدُ عليها بقلبه وجوارحه من غير نَظَر إلى مسبِّبها؛ وهو الله تبارك وتعالى.

وهذا الذي عناه العلماء بأنه شركٌ في التوحيد؛ لأن الأسباب في نَظَر هذ الصنف هي المسبِّبة بذاتها، وهي المُوجِدةُ بنفسها، وهي الضارَّةُ والنافعة استقلالًا؛ فأعرَضُوا عن التوكُّل؛ وهذا حال الملاحدة والكُفَّار الذين لا يتوكَّلون على الله ﷻ ولا يَعرِفونه، وإنَّما يَعتقِدون أنَّهم مِن خلال الصناعات وقُوَّةِ السلاح والتكنولوجيا وخِبْراتهم في علوم الدنيا؛ أنهم يستطيعون تحقيق ما أرادوه؛ فهؤلاء قد اغترُّوا بأنفسهم، وتَعَدَّوْا طَوْرَهم.

الثاني: موقف مَن أهمَلُوا الأخذ بالأسباب بالكُلِّيَّة؛ فأعرضوا عنها من الناحية العملية، وهؤلاء عكس الطائفة الأولى تمامًا؛ فهؤلاء قالوا: إن الله

---

(١) وهي مبسوطة في الأصل بأوسع مما هنا.

هو الذي يَملِكُ النفع والضر، وبيده مقاليد الأمور، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يَكُنْ، وقد كتَبَ الله مقادير الأشياء؛ فلا نَلتفِتُ إلى الأسباب، وإنَّما نكتفي بالتوكُّل على الله تبارك وتعالى.

وهؤلاء أحسَنُ حالًا ممَّن قبلهم[(١)]، لكنهم مُخطِئُون مقصِّرون فيما أمر الله ﷻ به، وقد جرَّهم هذا المفهوم إلى ترك الاحتراز وعدَمِ الاحتياط، واعتبروه منافيًا للتوكُّل، وهذا هو مفهومُ غالبِ الصوفيَّة للتوكُّل.

وهو مفهومٌ سَلْبيٌّ منحرفٌ للتوكُّل، أدَّى بهم إلى انحرافاتٍ خطيرةٍ جِدًّا؛ فتركوا التكسُّب، وعِمَارة الأرض، والأخذ بأسباب القوَّة، ومجاهدة الأعداء؛ ورأوا أن ذلك ينافي التوكُّل، فصاروا في غاية الخِذْلان.

وقد أخرج البخاري وغيره؛ مِن حديث ابن عبَّاس ﵄؛ قال: «كان أهلُ اليَمَنِ يَحُجُّون، ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قَدِمُوا مَكَّةَ، سألوا الناس، فأنزَلَ الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»[(٢)].

وهذا القول ـ أعني: الإعراضَ عن الأسباب بالكليَّة ـ هو الذي حكَمَ عليه العلماء: بأنه قَدْحٌ في الشرع.

الثالث: موقفُ مَن ينفي تأثير الأسباب بالكُلِّيَّة.

وهذا القول هو الذي وصَفَهُ العلماء بأنه نقصٌ في العقل، وهو قول القَدَريَّةِ الجبريَّة، أتباعِ جَهْم بن صَفوان في الجَبْر، وقد تابَعَهُ في ذلك بعض الأشاعرة.

«فعندهم: أن الله لم يخلُقْ شيئًا بسبب، ولا جعَلَ في الأسباب قوَى وطبائعَ تؤثِّر؛ فليس في النار قوَّةُ الإحراق، ولا في السُّمِّ قوةُ الإهلاك، ولا

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٢/٣٣١ ـ ٣٣٢)، و«الروح» (٢/٧٤٧ ـ ٧٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٢٣).

في الماء والخبز قوةُ الرِّيِّ والتغذِّي به،.. بل الله سبحانه يُحدِثُ هذه الآثار عند ملاقاة هذه الأجسام، لا بها؛ فليس الشِّبَعُ بالأكل، ولا الرِّيُّ بالشرب،... ولا الطاعات والتوحيد سببًا لدخول الجنة والنجاة من النار، ولا الشرك والكفر والمعاصي سببًا لدخول النار، بل يدخُلُ هؤلاء الجَنَّةَ بمحض مشيئته، من غير سببٍ ولا حِكْمةٍ أصلًا، ويدخُلُ هؤلاء النار بمحض مشيئته، من غير سببٍ ولا حِكْمةٍ... وطَرْدُ هذا المذهب: مُفسِد للدنيا والدين، بل ولسائر أديان الرسل؛... وهذا الأصل الفاسد مخالِف للكتاب والسُّنَّة وإجماع السلف وأئمَّة الدين، بل ومخالِف لصريح العقل والحس والمشاهَدة»[(١)].

الرابع: **موقف أهل الحَقِّ**، أهلِ السنة والجماعة، الذين قالوا: على الإنسان أن يَعمَل بجوارحه، وأن يقوم بالأسباب، وأن يَجتهِد، وأن يعلِّق قلبَهُ بمسبِّب الأسباب[(٢)]، ويعلم: أنه لا يحصُلُ له شيءٌ إلَّا بمشيئته وإرادته؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فيتوكَّلُ عليه حق التوكُّل، ويَعتقِد أن الله قد جعَلَ هذه أسبابًا يحصُلُ بها المطلوب؛ سواءٌ كان ذلك في أمور الدنيا، أو في أمور الآخرة. «فلا يصح التوكُّل - شرعًا وعقلًا - إلَّا عليه سبحانه وحده»[(٣)].

❊ ❊ ❊

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٤٩٥ - ٤٩٧).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٢/٣٣١).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/٥٠٠).

الأدلة على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل

والأدلَّة على هذا كثيرة جِدًّا من الكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وقال ﷺ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأما مِن السُّنَّة: فعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ؛ قال: «وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»[١].

قال الحَلِيمي: «فلو كان انتظارُ الرزق بالصبر والصمت أفضلَ مِن طلبه بما أَذِنَ الله تعالى فيه، لَمَا حرَمَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ أفضل الوجهَيْن، وعرَّضه لأرذلهما»[٢].

وعن المِقْدام بن مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[٣].

قال ابن حجر: «وفي الحديث: أنَّ التكسُّبَ لا يَقدَحُ في التوكُّل»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره البيهقي في «الشعب» (٣/١٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

(٤) «فتح الباري» (٤/٣٥٨).

وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه مرفوعًا: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»(١).

قال البيهقي: «ليس في هذا الحديث دَلَالةٌ على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدُلُّ على طلب الرزق؛ لأن الطير إذا غَدَتْ فإنَّما تَغدُو لطلب الرزق»(٢).

وعن عمر رضي الله عنه؛ قال: «كان رسولُ الله ﷺ يُنفِقُ على أهلِهِ نَفَقةَ سَنَتِهِم مِن هذا المال، ثم يأخُذُ ما بَقِيَ فيَجعَلُهُ مَجعَلَ مال الله»(٣).

قال النووي: «وفي هذا الحديث: جوازُ ادِّخارِ قُوتِ سَنَة، وجوازُ الادِّخار للعيال، وأنَّ هذا لا يَقدَح في التوكُّل»(٤).

فهذا هَدْيُهُ ﷺ، وهو أكمل الهدي، وحال أصحابه هو مَحَكُّ الأحوال وميزانها، وبه يُعلَمُ صحيحها من سقيمها؛ فإن هِمَمَهم في التوكُّل كانت أعلى مِن همم مَن بعدهم؛ كما تقدَّم.

قال أبو عثمان الحِيْرِيّ: «اليقين لا يَمنَع المُوقِنينَ من طلب الحظِّ الوافي من الدنيا، وإنما يدُلُّ على ترك الفضول؛ رضًا بالقليل، وزهدًا في الكثير، اتِّباعًا لرسول رب العالمين ﷺ ولأصحابه؛ فإنهم أئمَّة المتوكِّلين والزاهدين... ومَن زعَمَ أن اليقين يمنع طلَبَ القوت والكفاف، فقد جَهِلَ اليقين، وخالف سنن السلف الصالحين»(٥).

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «شعب الإيمان» (٣/١٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٣٣)؛ واللفظ له، ومسلم (١٧٥٧).

(٤) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/٧٠).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/٤٥٨/١٢١٩).

هَدْيُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي التَّوَكُّلِ وَفِعْلِ الأَسْبَاب

يقول علي بن الفُضَيْل: سمعتُ أبي يقول لابن المبارَك: «إنك تأمُرُنا بالزهد والتقلُّل والبُلْغة، ونراك تأتي بالبضائع مِن بلاد خُرَاسان إلى البلد الحَرَام؛ كيف ذا وأنت تأمُرُنا بخلاف ذا؟ فقال ابن المبارَك: يا أبا عليٍّ، إنما أفعل ذا لِأَصُونَ وجهي، وأُكرِمَ بها عِرْضي، وأستعينَ بها على طاعة ربِّي؛ لا أرى لله حقًّا إلّا سارَعْتُ إليه حتى أقوم به، فقال له الفُضَيْل: يا ابن المبارَك، ما أحسَنَ ذا، إنْ تَمَّ ذا!»[1].

وكان ابن المبارَك يَتَّجِرُ لِيُنفِق على كثير من العلماء الذين قد شغَلَهم حفظُ حديث رسول الله ﷺ وجمعه وكتابته عن العمل والتجارة[2].

وعن عبد الله بن محمَّد الباهلي؛ قال: جاء رجل إلى الثوري، فقال: يا أبا عبد الله، تُمسِكُ هذه الدنانير؟! فقال: «اسكُتْ؛ لولا هذه الدنانير، لَتَمَنْدَلَ بنا هؤلاءِ الملوك!»[3].

وسأل رجلٌ الحسَنَ، فقال: يا أبا سعيد، أفتَحُ مصحفي فأقرأه حتى أُمْسِي، قال الحسن: «اقرأه بالغداة، واقرأه بالعشي، وكُنْ سائرَ نهارِكَ في صَنْعَتك وما يُصلِحك»[4]؛ فأرشَدَهُ إلى الاكتساب والعمل.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٩).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/١١٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٨١).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٠١).

وكان الإمام أحمد يأمر بالسُّوقِ، ويقول: «ما أحسَنَ الاستغناء عن الناس!»[(١)].

وسُئِلَ عن قوم لا يعملون، ويقولون: نحن متوكِّلون؟ فقال: «هؤلاء مُبتدِعة»[(٢)].

وكان يقول: «ينبغي للناس كلِّهم أن يتوكَّلوا على الله، ولكنْ يَعُودُونَ على أنفسهم بالكسب... يعني: مَن قال بخلاف هذا، فهو إنسانٌ أحمق»[(٣)].

ويقول ابن المبارَك: «لا يقع من الفضل شيء، ولا الجهاد في سبيل الله، مثلُ السعيِ على العِيَال»[(٤)].

فهذا الذي تدلُّ عليه النصوص، وحال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحال السلف الصالح، وهو أن الأخذ بالأسباب لا يُنافِي التوكُّل، بل الإنسان يبذُلُ الأسباب في جلب المنافع ودفع المَضَارّ، والتوكُّلُ من جملة الأسباب؛ فنحن مأمورون بالأخذ بهذه الأسباب، و«لا تقوم عبوديَّةُ الأسباب إلّا على ساق التوكُّل، ولا يقوم ساق التوكُّل إلّا على قدَمِ العبوديَّة»[(٥)].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الخلّال في «الحث على التجارة» (٤).

(٢) أخرجه الخلال في «الحث على التجارة» (١١١).

(٣) ذكره عبد الله في «مسائل والده» (ص٤٤٨).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٠).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠).

مَا يُطْلَبُ مَعْرِفَتُهُ فِي الأَسْبَابِ

١ ـ ألَّا يَجعَلَ منها سببًا إلّا ما ثبَتَ أنه سببٌ شرعًا أو قَدَرًا:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «لا يجوز أن يَعتقِد أن الشيء سببٌ إلّا بعِلْم؛ فمَن أثبَتَ شيئًا سببًا بلا علم، أو يُخالِف الشرع، كان مبطِلًا؛ مثلُ مَن يظُنُّ أنَّ النذر سبب في دفع البلاء، وحصول النَّعْماء»[١].

٢ ـ ألَّا يعتمِدَ العبد عليها، بل يَعتمِد على مسبِّبها ومقدِّرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحِرْصِهِ على النافع منها؛ وذلك لأن «السبب المعيَّن لا يستقِلُّ بالمطلوب، بل لا بد معه من أسبابٍ أُخَرَ؛ ومع هذا فلها موانع؛ فإنْ لم يكمِّل الله الأسباب، ويَدفَعِ الموانع، لم يحصُلِ المقصود»[٢].

٣ ـ أن يَعلَمَ أنَّ الأسباب مهما قَوِيَتْ وعَظُمَتْ، فإنها مرتبِطةٌ بقضاء الله وقَدَره، لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرَّف فيها كيف شاء؛ فإن شاء، أبقى سببيَّتها جاريةً على مقتضى حِكْمته؛ ليقوم بها العباد، ويَعرِفوا بذلك تمام حِكْمته؛ حيث ربَطَ المسبَّبات بأسبابها، والمعلولات بعِلَلِها، وإنْ شاء، غيَّرها كيف شاء؛ لئلا يَعتمِد عليها العباد، وليَعلَمُوا كمال قدرته، وأن التصرُّف المطلَق والإرادة المطلَقة لله وحده.

٤ ـ «أنَّ الأعمال الدينيَّة لا يجوز أن يُتَّخَذَ منها شيءٌ سببًا إلّا أن تكون

(١) «مجموع الفتاوى» (١/١٣٧).

(٢) المصدر السابق.

مشروعة؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف؛ فلا يجوز للإنسان أن يُشرِك بالله، فيدعو غيره، وإنْ ظن أن ذلك سببٌ في حصول بعض أغراضه.

فإنَّ الشياطينَ قد تُعِين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرَكَ، وقد يحصُلُ بالكفر والفسوق والعصيان بعضُ أغراض الإنسان؛ فلا يَحِلُّ له ذلك؛ إذِ المَفسَدةُ الحاصلة بذلك أعظَمُ من المصلحة الحاصلة به؛ إذِ الرسولُ ﷺ بُعِثَ بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ فما أمَرَ الله به، فمصلحته راجحة، وما نهى عنه، فمفسدته راجحة»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوى» (١/١٣٧ ـ ١٣٨)؛ باختصار.

بَعْضُ مَظَاهِرِ ضَعْفِ التَّوَكُّل

(قَوَادِحُ التَّوَكُّل)

لا شكَّ أن أعظم مظاهر ضعف التوكُّل على الله تعالى ـ وهو الجامع لكل المظاهر الجزئيَّة ـ: التفاتُ القلب إلى الأسباب، وتعلُّقُهُ بغير الله، وتَختلِف دَرَجات هذا الضعف باختلافِ أنواع الأسباب، واختلافِ دَرَجات تعلُّق القلب بها، والتفاتِهِ إليها.

والأسباب على ثلاث درجات[١]:

«الأولى: المقطوعُ بها؛ كالأسباب التي ارتبَطَتِ المسبَّبات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطًا مطَّرِدًا لا يتخلَّف؛ كما أن الطعام إذا كان موضوعًا بين يديك وأنت جائع محتاج، ولكنك لست تَمُدُّ اليد إليه، وتقول: أنا متوكِّل، وشرطُ التوكُّل ترك السعي، ومَدُّ اليد إليه سعيٌ وحَرَكة؛ فهذا جنونٌ مَحْضٌ، وليس من التوكُّل في شيء»[٢].

الثانية: الأسباب التي ليست متيقَّنة، وإنما هي ظَنِّيَّةٌ؛ كالرُّقَى والاكتواء.

فهذه لا شك أن الاعتماد عليها، والتفات القلب إليها بذاتها ـ إذا ثَبَتَتْ سببيَّتها ـ سواءٌ كانت أسبابًا شرعيَّة دلَّت عليها النصوص، أو قدريَّةً دلَّت عليها التَّجْرِبة ـ: لا شك أنه مُضعِفٌ للتوكُّل، مُنقِصٌ لكماله.

الثالثة: الأسباب الموهومة؛ فهي ليست من الأسباب الشرعيَّة، ولا من

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٢) المصدر السابق (٤/٢٦٥).

الأسباب القدريَّة، وإنما هي من الوَهْم والتخرُّص؛ كالتطيُّر مثلًا، وتعليقِ الحُرُوزِ والتَّمائمِ وغيرها؛ فلا شك أنَّ الالتفات إليها واستعمالها محرَّم، وهي منافية لتحقيق التوكُّل وكمال التوحيد.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»[1].

والمقصودُ بالحديثِ هنا: الدَّرَجة الثانية والثالثة، وقد جمَعَها النبيُّ ﷺ في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ قال: قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ...»، الحديث، وفيه: «فنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُون، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[2].

وظاهرُ الحديث: يدلُّ على أن هذه الأمور المذكورة تَقدَحُ في كمال التوكُّل؛ ولذلك ذيَّل الحديث بقوله: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، وهي تَحتمِلُ أحد معنيَيْن:

الأول: أن تكون الجملةُ مفسِّرةً لما تقدَّم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطِّيَرة.

الثاني: أن تكون من العامِّ بعد الخاصّ؛ لأن كل واحدة منها صفة خاصَّة من التوكُّل، وهو أعمُّ من ذلك.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٧٢).

(٢) تقدم تخريجه.

هَلِ الرُّقْيَةُ تُنَافِي التّوَكّل؟ أَوْ تَقْدَحُ فِيه؟

للعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

الأول: كراهيةُ الرُّقْيةِ والكَيِّ مِن بين سائر الأَدْوِيَة؛ وعمدةُ أصحاب هذا القول: حديث ابن عبَّاس في وصف السبعين ألفًا[1].

قال ابن حجر: «فتمسَّك بهذا الحديث: مَن كَرِهَ الرُّقَى والكَيَّ مِن بين سائر الأدوية، وزعم أنهما قادِحان في التوكُّل دون غيرهما»[2].

الثاني: أنها لا تنافي التوكُّل، ولا تَقدَح في كماله؛ مستدلِّينَ بفعلِ النبيِّ ﷺ وقولِهِ وتقريرِه.

وأجابوا عن استدلال الطائفة الأُولى بعدَّة أجوبة:

منها: «أنه محمول على مَن جانب اعتقاد الطبائعيِّين؛ في أن الأدوية تَنفَع بطبعها؛ كما كان أهل الجاهليَّة يَعتقِدون ذلك.

ومنها: أن المراد بالحديث: الذين يَجتنِبونَ فعلَ ذلك في الصِّحَّة؛ خشيةَ وقوع الداء، وأمَّا مَن يستعمِلُ الدواء بعد وقوع الداء به، فلا.

ومنها: أن المراد بتَرْك الرُّقَى والكَيِّ: الاعتمادُ على الله في دفع الداء، والرضا بقَدَره، لا القدحُ في جواز ذلك؛ فمقام الرضا والتسليم أعلى مِن تعاطي الأسباب»[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «فتح الباري» (١٠/٢٢٢).

(٣) المصدر السابق (١٠/٢٢٢ ـ ٢٢٣)؛ باختصار وتصرُّف.

الثالث: التفريق بين فعل الرقية - سواءٌ بنفسه أو بغيره - وبين طَلَبِها:
وممن قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّة[(١)].

واحتجُّوا لذلك: بأن لفظ الحديث ورَدَ في معظَم الروايات بلفظ: «يَسْتَرْقُونَ» مِن الاستفعال، وهو طلَبُ الفعل.

أمَّا ما ورد في رواية مسلم: «لَا يَرْقُونَ»[(٢)]، فـ «هو غلَطٌ من بعض الرواة؛ فإنَّ رُقْيَاهم لغيرِهم ولأنفسِهم حَسَنةٌ، وكان النبي ﷺ يَرْقِي نفسه وغيره، ولم يكن يسترقي؛ فإنَّ رقيته نفسَهُ وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره؛ وهذا مأمور به»[(٣)].

و«لأنَّ الرَّاقِيَ مُحسِنٌ لأخيه، وقد قال النبي ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ، فَلْيَنْفَعْهُ»[(٤)].

والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقِيَ سائلٌ مُستَعْطٍ، مُلتفِتٌ إلى غير الله بقلبه، والراقِيَ: مُحسِنٌ نافعٌ»[(٥)].

وسببُ عدمِ طلبِ هؤلاء المتوكِّلين الرُّقْيةَ مِن غيرهم:

١ - قوَّة اعتمادهم وتوكُّلهم على الله ﷻ.

٢ - عزَّة نفوسِهم عن التذلُّل لغير الله.

٣ - لِمَا في ذلك من التعلُّق بغير الله.

ولا شك أن هذا من كمال تحقيق توكُّلهم على الله ﷻ؛ وهذا مما يَدُلُّ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/١٨٢).
(٢) برقم: (٢٢٠).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١/١٨٢) بتصرف يسير.
(٤) أخرجه مسلم (٢١٩٩)؛ من حديث جابر ﷺ.
(٥) من كلام ابن تيميَّة، نقله عنه ابن القيِّم في «مفتاح دار السعادة» (٣/٢٧٩)؛ بتصرُّف يسير.

على الفرق بين فعل الرُّقْية وطَلَبِها، فيكون الطلب قادحًا دون الفعل؛ وهذا هو الذي يدُلُّ عليه ظاهر الحديث؛ وهو الراجح؛ إن شاء الله تعالى.

الاكتواء:

والاكتواء معروف، وهو جائز في أصله، وليس بمحرَّم؛ كما يدلُّ على ذلك حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»(١).

وكذا حديث أنس رضي الله عنه؛ يقول: «كُوِيتُ مِن ذاتِ الجَنْبِ، ورسولُ الله ﷺ حَيٌّ»(٢).

فهذه الأحاديثُ الصحيحة تدلُّ على جواز الكَيِّ، وقد ورد عنه ﷺ ما يدُلُّ على عدم محبَّته الكَيَّ، وقد تقدَّم آنفًا قوله: «وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»، وفي لفظ: «وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ»(٣).

ولا تعارُضَ بينها ـ بحمد الله تعالى ـ فإنَّ فعله يَدُلُّ على جوازه، وعدم محبَّته له لا يدل على المنع منه، وأمَّا الثناء على تاركه، فيدُلُّ على أن تركه أولى وأفضل، وأما النَّهْيُ عنه، فعلى سبيل الاختيار والكَراهة، أو عن النوع الذي لا يُحتَاجُ إليه، بل يُفعَلُ خوفًا من حدوث الداء»(٤).

قال ابن قُتَيْبة: «الكَيُّ جِنْسان: أحدهما: كيُّ الصحيحِ لئلَّا يَعتَلَّ؛ فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكَّلْ مَنِ اكتوى؛ لأنه ظَنَّ أن اكتواءه يَدفَعُ عنه قدَرَ الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٨٠)؛ من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٤) «زاد المعاد» (٤/٦٠).

والثاني: كيُّ الجرحِ إذا نَغِلَ، والعضوِ إذا قُطِعَ؛ ففي هذا الشفاء.

وأما إذا كان الكيُّ للتداوي الذي يجوز أن يَنجَعَ، ويجوز ألَّا يَنجَعَ، فإنه إلى الكراهة أقرب»[١].

* * *

(١) «تأويل مختلف الحديث» (ص٤٦٢ ـ ٤٦٤)؛ باختصار وتصرُّف. وانظر: «زاد المعاد» (٤/٦٠).

حُكْمُ التَّدَاوِي، وَهَلْ يُنَافِي التَّوَكُّل؟

لما كانت الرقى والكَيُّ من جملة التداوي، ناسَبَ الحديثُ هنا عن التداوي، وهو أعم منهما؛ كما أنه من جملة الأسباب التي لها اتصال لا يخفى بباب التوكُّل.

والأصل في التداوي الجوازُ؛ فإنَّ مِن هديِهِ ﷺ فعلَ التداوي في نفسه، والأمرَ به لمن أصابه مرضٌ مِن أهلِهِ وأصحابه[١].

ومما يدلُّ على ذلك:

١ ـ حديث أبي هُرَيْرة ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: «مَا أَنْزَلَ الله دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»[٢].

٢ ـ حديث جابر بن عبد الله ﷺ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ الله ﷻ»[٣].

قال ابن القيِّم: «وفي قوله ﷺ: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ»، تقويةٌ لنفس المريض والطبيب، وحَثٌّ على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه»[٤].

٣ ـ عن أسامة بن شَرِيك ﷺ؛ قال: قالت الأعراب: يا رسول الله،

(١) انظر: «زاد المعاد» (٤/٩).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).
(٤) «زاد المعاد» (٤/٢٠).

أَلَا نَتَدَاوَى؟ فقال: «نَعَمْ، يَا عِبَادَ الله، تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ الله لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا»، قالوا: يا رسولَ الله، وما هو؟ قال: «الهَرَمُ»[(١)].

«فقد تضمَّنت هذه الأحاديثُ إثباتَ الأسباب والمسبَّبات، وإبطالَ قولِ مَن أنكَرَها... وفي الأحاديث الصحيحة: الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكُّل، والرَدّ على مَن أنكر التداوي، وقال: إنْ كان الشفاءُ قد قُدِّرَ، فالتداوي لا يفيد، وإنْ لم يكن قد قُدِّرَ فكذلك»[(٢)].

حكم التداوي بشيء محرَّم:

لا يجوز التداوي بمحرَّم؛ ويدلُّ عليه ما جاء عن ابن مسعود ﵁؛ قال: «إنَّ الله لم يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ»[(٣)].

وبالجملة: فالتداوي من الأسباب التي أَمَرَ الله تعالى باتِّخاذها، مِن غير اعتمادٍ عليها ـ كما تقدَّم ـ ويختلِفُ حُكْمُهُ باختلاف الحال؛ كما فصَّل ذلك العلامة ابن عُثَيْمِين؛ حيث قال: «ما عُلِمَ أو غلَبَ على الظنِّ نفعُهُ مع احتمال الهلاك بعدمه، فهو واجب.

وما غلَبَ على الظنِّ نفعُهُ، ولكنْ ليس هناك هلاك محقَّق بتركه، فهو أفضل.

وما تساوى فيه الأمران، فتركه أفضل»[(٤)].

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٨)؛ وصحَّحه.

(٢) «زاد المعاد» (١٣/٤) بتصرف يسير.

(٣) أخرجه أحمد في «كتاب الأشربة» (١٣٠)، وابن أبي شيبة (٣٨١/٧، ٤٨٨)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين؛ كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح».

(٤) «الشرح الممتع» (٢٣٤/٥)؛ بتصرُّف يسير.

الطريق إلى تحقيق التوكّل

يمكننا تحقيق التوكُّل بأمور:

أولًا: تفريغ القلب من الالتفات إلى غير الله ﷻ؛ فإن هذا القلبَ يُشبِهُ الوعاء، وهو بحسب ما مُلِئَ به؛ فينبغي للعبد أن يفرِّغَ قلبه مما لا يحبُّه الله ﷻ، ويَملَأَهُ بما يحبُّه الله، فيفرِّغ قلبه مِن عبادة غير الله، والتعلق بسواه، ويملأه بعبادة الله وحده، والتعلق به دون سواه، وأن يُخرِج خوف المخلوقين من قلبه، ويملأه بالخوف من الله.

وهذا يقودنا إلى الأمر الثاني مما يتحقَّق به التوكُّل، ويكون سبيلًا إليه[1].

ثانيًا: تحقيق التوحيد؛ «فإنه لا يستقيم توكُّلُ العبد بحالٍ من الأحوال حتى يصلُحَ له توحيده، بل إن حقيقة التوكُّل هي توحيدُ القلب؛ فما دامت به علائق الشرك، فتوكُّلُهُ معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكُّل»[2].

ثالثًا: الثقة بالله ﷻ، وحُسْنُ الظنِّ به؛ ومِن ثَمَّ التفويضُ له؛ فالإنسان الذي لا يثق بكفاية الله ﷻ كيف يتوَكَّل عليه؟! والإنسان الذي يُسِيء الظن بربه تبارك وتعالى كيف يتوكَّل عليه؟! وكيف يفوِّضُ أمره إليه؟!

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٨٤ ـ ١٨٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠)؛ بتصرف.

ويستحيل أن يَتِمَّ توكُّل العبد على الله ﷻ، ويحصُلَ له مطلوبه في هذا الباب، إلَّا بتحقيق أمرَيْن:

الأول: حُسْنُ الظَّنِّ بالله ﷻ؛ فعلى قدر حُسْنِ ظنِّ العبد بربِّه سبحانه وتعالى يكون توكُّله عليه، وأما مَن ساءَتْ ظنونه بربِّه، فإنه لا يمكن أن يفوِّض أمره إليه(١).

والثاني: التفويض لله، وهو إلقاء الأمور كلِّها إلى الله تعالى، مع فعل الأسباب؛ وهذا هو رُوحُ التوكُّل وحقيقتُه.

فيكون قلبُهُ مستسلِمًا لله ﷻ، كحال الصبيِّ الصغير مع أبيه، فهو يَثِقُ به وبوَلَايته وحُسْنِ تدبيره؛ فيرى أن تدبير والده خيرٌ له من تدبيره هو، وأن ذلك أصلَحُ وأرفَقُ به؛ فلا يجد له أصلح من تفويضه أمورَهُ كلَّها إلى أبيه، وراحته من حملِ كُلَفِها وثِقَلِ حَمْلِها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم مَن فوَّض إليه، وقدرتِهِ وشَفَقته(٢).

رابعًا: الإيمان الراسخ بالقضاء والقدر؛ فإن ذلك يُثمِرُ التوكُّل لا محالة(٣).

عن ابن عبَّاس ﷺ؛ قال: كنتُ خَلْفَ رسولِ الله ﷺ يومًا، فقال: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ؛ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(٤).

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/١٢١).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/٢٨).

(٤) تقدم تخريجه.

فما هو مقدَّرٌ حاصلٌ لا محالةَ، والإنسانُ قد كُتِبَ رِزْقُهُ وأجلُهُ وعمله، وشَقِيٌّ أم سعيد، وهو في بطن أُمِّه.

وكذلك قدَّر الله ﷻ مقادير الخلق قبل أن يخلُقَ السموات والأرض بخمسين ألفَ سَنَة، وكان عرشُهُ على الماء.

أفلا يعقل ذلك أولئك الذين تروح نفوسُهم وتجيء كالرِّيشَة في مَهَبِّ الريح؛ خوفًا وقلقًا على أرزاقهم، أو على صِحَّة أبدانهم؛ فإذا أصاب الواحدَ منهم حاجةٌ وفَقْر، أو أصابه مرَض، اجتمَعَتْ عليه هموم الدنيا، وأظلَمَتِ الدنيا في وجهه، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ.

فعن أبي الدرداء ﷺ، عن النبي ﷺ؛ قال: «إنَّ الرِّزْقَ يَطْلُبُ الْعَبْدَ، كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ»(١).

قال البيهقي مفسِّرًا له: «والمراد بهذا ـ والله تعالى أعلم ـ: أن ما قُدِّرَ له من الرِّزْقِ يأتيه؛ فلْيَثِقْ به، ولا يجاوزِ الحَدَّ في طلبه»(٢).

خامسًا: تدبُّر القرآن؛ فالقرآن فيه من المواعظ والتذكير، وما أعلَمَ الله ﷻ به العبادَ مِن معاني أسمائه وصفاته، وقوَّته وقدرته، ما يربِّي في قلوبهم المحبَّة والمهابة، والإجلال والتعظيم.

يقول عامر بن عبد قيس: «ثلاثُ آياتٍ في كتاب الله ﷻ، اكتفَيْتُ بهنَّ عن جميع الخلائق:

أولهن: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

والآية الثانية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٢٣٨)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٢).

(٢) «شعب الإيمان» (٣/١٣٠).

والـثـالـثـة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]»(١).

سادسًا: الدعاء؛ فكل مطلوب يطلُبُه الإنسان من حاجاته الدنيويَّة والأخرويَّة، يجب عليه فيه أن يلجأ إلى الله ﷻ وَحْدَهُ.

ومِن ذلك: الاستخارة؛ فهي: «توكُّلٌ على الله، وتفويضٌ إليه، واستقسامٌ بقدرتِهِ وعلمِهِ وحُسْنِ اختيارِهِ لعبده، وهي من لوازم الرضا به ربًّا، الذي لا يذوق طعم الإيمان مَن لم يكن كذلك، وإنْ رَضِيَ بالمقدور بعدها، فذلك عَلَامة سعادته»(٢).

وكان طَلْق بن حَبِيب يقول في دعائه: «أسألُكَ خوف العَالِمينَ بك، وعِلْمَ الخائفين لك، وتوكُّلَ المؤمنين بك، ويقينَ المتوكِّلين عليك، وإنابةَ المُخبِتين إليك، وإخباتَ المنيبِين إليك، وصبرَ الشاكرين لك، وشكرَ الصابرين لك، وإلحاقًا بالأحياء المرزوقين عندك»(٣).

* * *

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٦٥).
(٢) «زاد المعاد» (٢/٤٠٦).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٤).

ثَمَرَاتُ التَّوَكُّل

والحديثُ عن ثمرات التوكُّل يحرِّك النفوس، ويَدفَعُها إلى التمسُّك بهذا الخُلُقِ الإيماني العظيم؛ وذلك أن معرِفة ثمرةِ العمل حافزٌ على فعله، والتحقُّق به؛ فمن ثمرات التوكُّل:

أولًا: أنه يَبعَثُ العبدَ على التزام حدود الله تعالى، ومجانَبة الحرام:

ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ؛ فَلَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، وَاتَّقُوا الله أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[١].

فقوله ﷺ: «اتَّقُوا الله»؛ أي: اطلبوا الرِّزْقَ من حِلِّه، ودعوا الحَرَام، وأجمِلُوا في الطلب، ولا تتهافَتُوا على الدنيا، ولا تتكالَبُوا عليها، ولا تَذهَبْ أنفسُكم عليها حَسَرات.

فكلُّ عبدٍ مرزوقٌ لا محالة، وكل مرزوق له رزقه الذي قدَّره الله له وكَتَبه؛ فعلى كل مسلم أن يَتَّقِيَ الله في سعيه وكسبه.

ثانيًا: طمأنينة النَّفْس، وارتياح القلب، وطرد الهَمّ:

قال ابن القيِّم: «لا أشرَحَ للصَّدْر، ولا أوسَعَ له - بعد الإيمان - مِن ثقته بالله، ورجائه له، وحُسْنِ ظنِّه به»[٢].

فإذا توكَّل العبد على ربِّه حقَّ التوكُّل، كفاه همَّه، وأراحه مما أهمَّه،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مدارج السالكين» (١/٤٧١).

وأنزَلَ عليه سكينته؛ فاطمأنَّ إلى حُكْمِهِ الدينيِّ الشرعي، واطمأنَّ إلى حُكْمِهِ الكَوْنيِّ القَدَري. «فإنه إذا اطمَأنَّ إلى حُكْمه الديني، علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره وناصر أهله، وكافيهم ووليُّهم، وإذا اطمَأنَّ إلى حُكْمه الكوني، علم أنه لن يُصِيبه إلّا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فلا وجه للجَزَعِ والقَلَقِ إلّا ضعف اليقين والإيمان؛ فإن المحذور والمَخُوف إنْ لم يقدَّرْ، فلا سبيل إلى وقوعه، وإن قُدِّرَ، فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أُبرِمَ تقديره»[(١)].

ثالثًا: ما يحصُلُ من كفاية الله ﷻ للمتوكِّل عليه في أموره كلِّها:

والله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيه.

قال الربيع بن خُثَيْم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]؛ قال: «مِنْ كُلِّ شيءٍ ضاق على الناس»[(٢)].

فتأمَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، و«انظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكِّل، ولم يجعله لغيره؛ وهو يَدُلُّ على أن التوكُّل أقوى السُّبُل عند الله، وأحبُّها إليه»[(٣)].

وفي حديث أبي سعيد ﷺ، عن النبي ﷺ؛ قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، اسْتَمَعَ الْإِذْنَ: مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»؛ فكأنَّ ذلك ثَقُلَ على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: «قُولُوا: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى الله تَوَكَّلْنَا»[(٤)]؛ فلا ملجأ للعبدِ من مخاوفه، وما أهمَّه من أمر دنياه وآخرته إلّا الله ﷻ، فهو حَسْبُهُ ونعمَ الوكيل، وكافيه وناصره إنْ هو توكَّل عليه، وأحسَنَ الظن به.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥١٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/٣٧).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/١٢٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٠٧٩).

رابعًا: «أن التوكُّل من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضارّ:

فإن الله هو حَسْبُه؛ أي: كافيه، ومَن كان الله كافيَهُ ووافيَهُ، فلا مَطْمَع فيه لعدوِّه، ولا يضرُّه إلّا أذًى لا بدَّ منه؛ كالحَرِّ والبرد، والجوع والعطش؛ كما قال الله ﷻ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، وأمَّا أن يضرَّه بما يبلُغُ منه مراده، فلا يكون أبدًا»(١).

والواقع خير شاهد على ذلك؛ فقد جاء في الصحيح؛ من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ»(٢).

فماذا كانت النتيجة؟

أمَّا إبراهيم عليه السلام، فقال الله ﷻ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

وأمَّا محمَّدٌ ﷺ وأصحابه، فقال الله عنهم: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]؛ أي: عزيزٌ لا يَذِلُّ مَنِ استجار به، ولا يضيعُ مَن لاذ بجَنَابه.

خامسًا: أنه يُورِثُ محبَّةَ الله ﷻ للعبد:

فالله تبارك وتعالى قد وعَدَ المتوكِّلين عليه بالمحبَّة، ووعدُهُ واقعٌ لا محالةَ؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وسنفرد الكلام على منزلة المحبة قريبًا بإذن الله.

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/٧٦٦ ـ ٧٦٧)؛ بتصرُّف.

(٢) تقدم تخريجه.

سادسًا: أنه يُورِث قوَّة القلب وشجاعته وثباته:

فيكون صاحبه رابط الجأش قويًا، يقوم بأمر الله ﷻ، لا يخاف في ذلك لَوْمة لائم؛ فالتوكُّل على الله تبارك وتعالى مِن أقوى الأسباب التي يحصُلُ بها ثباتُ القلب.

ولذلك وقَفَ الأنبياءُ ﷺ مَوقِفَ القوَّة، وثبَتُوا ثبات الجبال الراسخات أمام أعدائهم، مع قِلَّةِ الأتباع والأنصار؛ لأنهم اتَّكَلُوا على ركن شديد، لا يُخذَلُ مَن لاذ به، ولا يُهزَمُ مَن كان ناصِرَه:

وقد «سمَّى الله ﷻ نبيَّه ﷺ بالمتوكِّل»(١).

«فالقوَّة مضمونة للمتوكِّل، والكفايةُ والحَسْبُ والدفعُ عنه، وإنما ينقُصُ عليه من ذلك بقدر ما ينقُصُ من التقوى والتوكُّل؛ وإلا فمع تحقُّقه بهما لا بد أن يَجعَلَ الله له مخرجًا مِن كل ما ضاق على الناس، ويكونَ الله حَسْبَهُ وكافِيَه»(٢).

سابعًا: أنه يُورِثُ الصَّبْرَ والتحمُّل:

والله تبارك وتعالى قد قرَنَ بين الصَّبْر والتوكُّل في غير ما آية، وما ذاك إلّا لأن الصبر والتوكُّل مِلَاكُ الأمور كلها.

والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

ثامنًا: أنه يُورِث النَّصْر والتمكين:

ولهذا قرَنَ الله ﷻ بين النصر والتوكُّل؛ فقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٥)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) «زاد المعاد» (٢/٣٣١ ـ ٣٣٢).

تاسعًا: أن التوكُّل يقوِّي العزيمة والثبات على الأمر:

ولذلك أمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ إذا عزَمَ أن يتوكَّل على الله؛ فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكمالُ العبد بالعزيمة والثبات.

والله ﷻ يقول مخاطِبًا نبيَّه ﷺ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

قال ابن القيِّم: «ولو توكَّل العبدُ على الله حقَّ توكُّله في إزالة جَبَلٍ مِن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأَزَالَهُ»(١).

عاشرًا: أنه يَقِيكَ بإذن الله ﷻ تسلُّطَ الشيطان:

قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠]، وفي المراد بالسلطان هنا قولان:

القول الأول: أنه التسلُّطُ؛ فليس له عليهم سلطانٌ بحال؛ أوليس له قدرةٌ على أن يَحمِلَهم على ذنب لا يُغْفَر؛ رُوِيَ ذلك عن سفيان الثوري(٢).

القول الثاني: أنه الحُجَّة؛ فالمعنى: لا حُجَّةَ له على ما يدعوهم إليه مِن المعاصي(٣).

وعن أنس ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِاسْمِ الله، تَوَكَّلْتُ عَلَى الله، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله؛ قال: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ»(٤).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٨١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/٣٥٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٤/٣٥٧).

(٤) تقدم تخريجه.

حاديَ عشَرَ: أن التوكُّلَ من أعظم أسباب دَفْع السِّحْر والحسَد والعَيْن:

وهذا يعقوبُ عليه الصلاة والسلام؛ قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقد ذكَرَ كثير من المفسِّرين: أن ذلك بسبب المَخَافةِ عليهم من العَيْن(١)، ثم ذيَّل ذلك بتوكُّله على الله تبارك وتعالى؛ لأنه الكافي من كُلِّ حاسدٍ وعائنٍ؛ فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أن كثيرًا من المرضى يُشْفَوْنَ بلا تَداوٍ، ولا سيما أهلُ الوَبَرِ والقُرَى، بدعوةٍ مستجابة، أو قوَّةٍ للقلب وحسن التوكُّل(٢).

والأطبَّاء اليوم يقرِّرون أن نَفْس المريض وقوَّة قلبه من أعظم الأسباب في دفع المرض عنه، فإذا كان العبد ملتجِئًا إلى الله، واثقًا به، فإنَّ ذلك يقاوِمُ المرَضَ أعظَمَ مقاوَمة.

ثانيَ عشَرَ: أن التوكُّلَ من أسباب تحصيل الرِّزْق:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجٗا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وفي حديث عمر ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»(٣).

قال ابن رجب: «هذا الحديثُ أصلٌ في التوكُّل، وإنَّه من أعظم الأسباب التي يُستجلَبُ بها الرزق»(٤).

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/١٦٥ ـ ١٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/٢١٦٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/٥٦٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص ٨١١ ـ ٨١٢).

ثالثَ عشَرَ: أن التوكُّلَ يطرُدُ عن قلب العبد داءَ الكِبْر والعُجْب:

فهذه أمراض وآفات تقع في قلب الإنسان، وإنما يُدفَعُ ذلك بالتوكُّل، وتحقيقِ العبودية لله تبارك وتعالى.

رابعَ عشَرَ: أنَّ التوكُّل يطرُدُ عن قلب العبد التطيُّرَ والأمراض القلبيَّة:

كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ـ ثلاثًا ـ وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»(١).

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ قال: «إنْ مَضَيْتَ فمتوكِّل، وإنْ نكَصْتَ فمتطيِّر»(٢).

خامسَ عشَرَ: أنه يُورِث الرضا بالقضاء؛ وهذا من أعظم ثَمَرات التوكُّل:

ومَن فسَّر التوكُّل به، فإنَّما فسَّره بأجلِّ ثمراته، وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكَّل حق التوكُّل، رَضِيَ بما يفعله وكيله.

قال ابن رجب: «اعلَمْ: أن ثمرة التوكُّل: الرضا بالقضاء؛ فمَن وكَلَ أمورَهُ إلى الله، ورَضِيَ بما يقضيه له ويختاره، فقد حقَّق التوكُّلَ عليه»(٣).

سادسَ عشَرَ: أن التوكُّل سببٌ لدخول الجنة مِن غير حساب ولا عذاب:

كما تقدَّم في حديث السبعين ألفًا الذين يدخُلون الجنة بغير حساب؛ فوصفهم النبيُّ ﷺ بأنهم لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يتطيَّرون، ولا يَكْتَوُونَ، وعلى ربِّهم يتوكَّلون(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)؛ واللفظ له، والترمذي (١٦١٤)، وصحَّحه الترمذي.

(٢) أخرجه معمر في جامعه الملحق بمصنف عبد الرزاق (١٠/٤٠٤)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٨٢٢).

(٤) تقدم تخريجه.

سابعَ عشَرَ: أنه يُورِثُ صاحبه الغِنَى عن الخلق:

وهذه خَلَّةٌ شريفة، ومنِ افتقر إلى الناس ذَلّ، وذهَبَ ماء وجهه، واستثقله الناس، ومَن استغنى عنهم، واكتفى بالله، عَزَّ.

قال سليمان الخَوَّاص: «الغنيُّ حقَّ الغنى: مَن أسكَنَ قَلْبَهُ إلى الله مِن غناه يقينًا، ومِن معرفتِهِ توكُّلًا، ومِن عطائِهِ وقسمتِهِ رِضًا، فكذلك الغنيُّ حق الغنى، وإن أمسى طاويًا، وأصبح مُعْوِزًا»[١].

يَجُولُ الغِنَى وَالْعِزُّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... لِيَسْتَوْطِنَا قَلْبَ امْرِئٍ إِنْ تَوَكَّلَا
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ كَانَ مَوْلَاهُ حَسْبَهُ ... وَكَانَ لَهُ فِيمَا يُحَاوِلُ مَعْقِلَا
إِذَا رَضِيَتْ نَفْسِي بِمَقْدُورِ حَظِّهَا ... تَعَالَتْ وَكَانَتْ أَفْضَلَ النَّاسِ مَنْزِلَا[٢]

فإن استطعت ألَّا تحتاج إلى أحد من المخلوقين، فافعل، ولن تستطيع ذلك إلّا بالتوكُّل على الله ﷻ.

وفي الجملة: فالتوكُّلُ سبيلٌ لنَيْلِ كلِّ خيرٍ في العاجِل والآجِل.

وهو «مَنزِلٌ مِن منازل الدِّين، ومقامٌ من مقامات المُوقِنين، بل هو مِن معالي درجات المقرَّبين... وأَعظِمْ بمقامٍ موسوم بمحبَّةِ الله تعالى صاحبَه، ومضمونٍ كفايةُ الله تعالى مُلابِسَه؛ فمَنِ الله تعالى حَسْبُهُ وكافِيه، ومُحِبُّهُ ومُراعِيه، فقد فاز الفوزَ العظيم؛ فإنَّ المحبوب لا يُعذَّب، ولا يُبعَد، ولا يُحجَب»[٣].

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٨).
(٢) «حلية الأولياء» (٦/٣٠٥ ـ ٣٠٦).
(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/٢٤٣).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ التَّوَكُّل

وأول المتوكِّلين، وأعظمهم قَدْرًا فيه وفي كل فضيلة، وخيرهم: أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، كما سبق، وقد كان لأصحاب النبيِّ ﷺ الحَظُّ الأَوْفَر منه وجاء مِن بعدهم مَنِ اقتدى بهم، فسلَكُوا سبيلهم، وانتهجوا نهجهم.

١ ـ يقول أبو وائل: «خرَجْنا في ليلةٍ مَخُوفَة، فمررنا بأَجَمةٍ فيها رجل نائم، وقيَّد فرسه، فهي ترعى عند رأسه، فأيقظناه، فقلنا له: تنام في هذا المكان؟ قال: فرفَعَ رأسه، فقال: إني أستحيي مِن ذي العرش أن يَعلَمَ أني أخاف شيئًا دونه»(١).

٢ ـ وقال الحكم بن عمر: «شهدتُّ عمر ـ يعني: ابن عبد العزيز ـ يقول لِحَرَسه: إنَّ بي عنكم غِنًى، كفى بالقدَرِ حاجزًا، وبالأجَلِ حارسًا، ولا أطرَحُكم مِن مراتبكم، ليجري لكم سنةً بعدي، مَن أقام منكم، فله عَشَرة دنانير، ومَن شاء، فلْيَلْحَقْ بأهله»(٢).

٣ ـ وأصاب محمد بن كعب القُرَظي مالًا، فقيل له: ادَّخِرْ لولَدِك مِن بعدك، قال: «لا، ولكنْ أَدَّخِرُ لِنَفْسِي عند ربي، وأَدَّخِرُ رَبِّي لولدي»(٣).

وأخبارُهم في هذا الباب كثيرة موفورة.

---

(١) أخرجه هناد في «الزهد» (٥٣٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١٨/٤٥ ـ ٢١٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٤٣٦).

المَحَبّة

تَوْطِئَة

إن الحديث عن محبة الله تعالى حديث ذو شجون؛ وذلك أن القلوب مجبولة على محبة مَن أحسن إليها، والله تبارك وتعالى هو المُنعِم المتفضل على عباده أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، في الدنيا والآخرة.

فربُّنا جلّ وعلا هو الذي تفضل علينا بالعِلْم والهداية، ثم أعاننا على العمل، ثم فتح لنا باب الشّكر، ثم فتح لنا باب التوبة؛ لنستدرك التقصير، ونرجع عن الإساءة، ثم ساق إلينا ما يُمَحِّصنا به، ويُخَلِّص نفوسنا من الشوائب، وما يكون رِفْعة في الدرجات، وحطًّا للسيئات.

وأما الأمور الدنيوية: فإن كل ما بأيدينا من النعم؛ من المآكل، والمشارب، واللباس، والزينة، والمساكن، والمراكب، وغير ذلك؛ فهو من الله وحده: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٥٣].

فنحن بحاجة إلى التَّفَقُّه في هذا الباب؛ لنتعرف الطريق إلى محبة الله سبحانه وتعالى فنسلكها؛ لتحصل لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى المَحَبّة وَحَقِيقَتها

المحبة في اللغة:

أصل مادة المحبة: (الحاء، والباء مكررة) تدور على معانٍ، منها:

الصفاء والبياض، واللزوم والثبات، واللُّبّ، الذي هو: أصل الشيء ومادته وقوامه.

والحفظ والإمساك، والقَلَق والاضطراب.

ولا ريب أن هذه المعاني تتضمن جملة من أوصاف المحبة ومقتضياتها[(١)].

المحبة في الاصطلاح:

وأما المحبة في المعنى العرفي؛ فهي من الألفاظ التي يصعب حدّها وتعريفها، فهي قضية يُدْرِكُها كل أحد، وإنَّما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها، فتنوّعت عباراتهم وكثرت، ودارت تعريفاتهم وحدودهم على هذا.

والحاصل: أن حقيقة المحبة: مَيْل القلب إلى المحبوب، وذلك يقتضي إيثاره، وتقديمه على كل شيء، وذلك يزيد وينقص، كما سيأتي.

❊ ❊ ❊

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٠) بتصرف.

مَحَبَّةُ اللهِ

وأمَّا محبّة الله تبارك وتعالى فهي لا تخرج عن ذلك؛ فهي مَيْل القلب إليه، وذلك يقتضي إيثار محابّ الله تبارك وتعالى على محابِّ النَّفْس، وتقديم طاعة الله ﷻ على طاعة غيره؛ من النَّفْس والهوى والشيطان، وطاعةِ المخلوقين.

❊ ❊ ❊

مَنزِلةُ المحَبّة

محبة العبد لربه وخالقه ﷻ تمثّل أحد شِقَّي العبادة؛ لأن «اسم العبادة يتناول غاية الحب مع غاية الذُّل، وهذا هو حقيقة الدِّين الذي يدين الناس به لربِّ العالمين، فهذا الدين أو هذه العبادة لا بُدَّ فيها من حُبّ، ولا بد فيها من خضوع، بخلاف طاعتهم للملوك؛ فإنها قد تكون خضوعًا ظاهرًا فقط»(١).

قال ابن خَفِيف: «دخل البصري على أبي عباس بن سُرَيْج، فقال له ابن سريج: أين تعرف في نص الكتاب أن محبة الله فَرْض؟ فقال: لا أدري، ولكن يقول القاضي، فقال له: قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤]، والوعيد لا يكون إلّا على ترك فرض»(٢).

وبهذا نعرف أن محبة الله ﷻ من أعظم الفروض، والواجبات، ومن أجَلِّ قواعد الدِّين وأكبر أصوله، بل هي أصل لكل عمل مِنْ أعْمَال الدين والإيمان.

«وحقيقة الإسلام: هي الاستسلام لله ﷻ بالذُّلِّ والحُبّ والطاعة، فَمَنْ لَا محبَّةَ له لا إسلام له البَتَّة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلّا الله، فإن

(١) «جامع المسائل» (المجموعة الرابعة/ص٤٠).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٠٢).

الإله هو الذي يألهه العباد؛ حُبًّا، وذلًّا، وخوفًا، ورجاءً، وتعظيمًا، وطاعة له، فهو بمعنى مألوه، وهو الذي تألهه القلوب؛ أي: تحبُّه وتذل له.

وأصل التأله: التعبد، والتعبد أعلى مراتب الحُبّ، فالمحبة حقيقة العبودية، وهل تُمْكِن الإنابة بدون المحبة، والرضا، والحمد، والشكر، والخوف، والرجاء؟! وهل الصبر في الحقيقة إلّا صبر المُحِبِّين؟! فإنه إنَّما يُتَوكَّل على المحبوب في حصول محابِّه ومراضيه.

وكذلك الزهد ـ في الحقيقة ـ هو زهد المُحبِّين؛ فإنهم يزهدون فيما سوى محبوبهم لمحبَّته.

وكذلك الحياء ـ في الحقيقة ـ إنما هو حياء المحبِّين؛ فإنه يتولَّدُ من بين الحُبّ والتَّعْظيم، وأمَّا ما لا يكون عن محبة فهو خوف مَحْض...

وليس في الوجود ما يستحقّ أن يُحَبّ لذاته من كل وجه إلّا الله جَلَّ جَلَالُه، فإن المخلوقين إنما نحبهم من أجل ما يتحَلَّوْن به من الأوصاف؛ إما الأوصاف الظاهرة، وإما الأوصاف الباطنة من الكمالات القاصرة أو الكمالات المتعدّية، وكلّ ما يحبّه أهل الإيمان فإنَّ ذلك تابعٌ لمحبَّةِ الله ﷻ، فهم يحبون النبي ﷺ تبعًا لمحبَّة الله، ويحبّون المؤمنين، ويحبون الطاعات، كلُّ ذلك تبعًا لهذه المحبَّة الجليلة العظيمة، والله يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: «مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»(١).

فالمحبة «هي المنزلة التي فيها تَنَافَس المتنافسون، وإليها شَخَص العاملون، وإلى عِلْمِهَا شَمَّر السابقون، وعليها تفانَى المُحِبون، وبرَوْح نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرَّة العيون،

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٠) من حديث أبي أمامة ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٦٥).

وهي الحياة التي مَنْ حُرِمَهَا فهو من جملة الأموات، والنور الذي مَنْ فَقَدَهُ فهو في بِحَارِ الظلمات، والشِّفاء الذي مَنْ عَدِمَه حَلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذَّة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان، والأعمال، والمقامات، والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحْمِل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلّا بشق الأنْفس بالغيها، وتُوصِلُهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوِّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأَقْوَم الذي يبلِّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحِكْمته البالغة أن المرء مع من أحبّ، فيا لها من نعمة على المُحِبِّين سابغة!! تالله لقد سبق القوم السُّعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدَّموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (٣/٦ ـ ٧).

المحبة في الكتاب والسنة

أولًا: المحبة في القرآن:

تكرر ذكر المحبة في كتاب الله، وجاء على صور متعددة، فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وإخباره عن محبة عباده المؤمنين له سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وغيرها من الآيات.

ثانيًا: المحبة في السنة:

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ الله لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي الله ﷻ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ بِأَنَّ الله قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»[١].

وعنه أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»[٢].

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا»، قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[٣].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وحصْرها يَطُول.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩، ٦٠٤٠) واللفظ له، مسلم (٢٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٨٨، ٦١٦٧، ٦١٧١، ٧١٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).

المحبة وحدها لا تكفي

إن الذين يُدَنْدِنُونَ حول المحبَّةِ فحَسْب دون أن يكون لهم رصيد من العمل الصالح، وتقويم النفوس وتهذيبها على طاعة الله ﷻ؛ قوم قد ضلّوا الطريق.

يقول محمد بن المبارك الصوري: «مَنْ أُعْطِيَ من المحبَّةِ شَيْئًا فلم يُعْط من الخشية مِثْله فهو مخدوع»(١).

ولهذا قالوا: «مَنْ عَبد الله بالحب وَحْده فهو زنديق، ومَنْ عَبَدَ الله بالخَوْفِ وَحْده فهو حَرُورِيّ - أي: مِنَ الخَوَارِج -، ومَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وحْدَهُ فهو مرجئ، ومَنْ عَبَدَهُ بالحُبِّ والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد؛ وذلك لأن الحُبَّ المجرد تنبسط النفوس فيه، حتى تتوسَّعَ في أهوائها إذا لم يَزعها وازِعُ الخَشْيَةِ لله؛ ولذلك قالت اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ الآية [المائدة: ١٨]، ادَّعَوْا هذه المحبة، مع أنَّهم أسوأ ما يكونون في حال العمل والسلوك إلى الله تبارك وتعالى.

وهكذا يُشَاهَد في أولئك المتصوّفة الذين يَدَّعُونَ المَحَبَّة دون تصحيح العمل من مخالفة أُمُورِ الشَّرِيعة ما لا يُوجَد في أهل الخوف والخشية؛ ولهذا قرَن الله بين الحبِّ وبَيْنَ الخوف في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٢ - ٣٤]،

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢٤/٥٥).

وكان المشايخ المصنِّفون في السُّنة يذكرون في عقائدهم مُجَانَبَة مَنْ يُكثر دعوى المحبَّة، والخوض فيها من غير خشية لِمَا في ذلك من الفساد»[(١)].

كما أن هذه المحبة الرفيعة «تقتضي تقديم المحبوب سبحانه وتعالى على النَّفْس والمال والولد، وتقتضي كمال الذل، والخضوع، والتعظيم، والإجلال، والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان»[(٢)].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/٨١ ـ ٨٢) بتصرف.

(٢) «روضة المحبين» (ص٢٩٥ ـ ٢٩٦) بتصرف.

المُفَاضَلَةُ بَيْنَ الخَوْفِ والمحَبَّةِ وَالرَّجَاء

«القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سَلِم الرأس والجناحان فالطائر جَيِّد الطيران، ومتى قُطِع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»[١].

و«الخوف يتعلَّق بالأفعال، والمَحَبَّةُ تتَعَلَّقُ بالذات والصفات؛ ولهذا تتَضَاعَف محبَّة المؤمنين لِرَبِّهِم إذا دخلوا دار النَّعِيم، ولا يلحقهم فيها خوف؛ ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (١/٥١٧).

(٢) المصدر السابق (١/٥١٤).

دَرَجَاتُ المَحَبَّة

إذا نظرنا إلى المحبة باعتبار منازل العابدين فإنه يمكن تقسيمها إلى درجتين: واجبة، ومستحبة؛ **فالواجبة للمقتصدين**، بمعنى: أن الإنسان إذا قصَّر فيها فهو ظالم لنفسه؛ لأنه لا بد أن يكون الله ورسوله أحَبَّ إِلَيْهِ مما سواهما؛ بحيث لا يُحِبّ شيئًا يبغضه الله ﷻ، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وذلك يقتضي محبَّة جَمِيع ما أوجبه الله تعالى، وبُغْض مَا حَرَّم الله تعالى، فإذا قصَّر الإنسان عن هذه المرتبة، فأحَبَّ أعداء الله ﷻ، وأحَبَّ المجرمين الظالمين، وأحبّ الظلم والعدوان وألوان الفجور والكفر والمعاصي؛ فإنَّه يصبح بذلك من جملة الظالمين لأنفسهم في هذا الباب.

وأمَّا الدَّرَجة الثانية: فهي محبَّة السابقين؛ وذلك بأن يُحِبّ ما أحَبَّ الله ﷻ من النوافل والفضائل محبَّة تامة، فالمقتصدون يحبّون جميع ما يحبّه الله سبحانه من الواجبات، ويُبْغِضون جميع ما يبغضه الله تعالى من المحرَّمات، وأما السابقون فيحبّون جميع الواجبات والمستحبات، ويبغضون جميع المحرَّمات والمكروهات، ويتباعدون من ذلك.

❊ ❊ ❊

مَرَاتِبُ المَحَبّة

من المعلوم أن المحبة تقوى وتضعف في قَلْبِ الإنْسَانِ، كَمَا أن الناس يتفاوتون فيها غاية التفاوت، وهذه أمور لا تخفى، فهذه المحبة كلَّما قَوِيَتْ واشْتَدَّتْ صَارَ لها اسم يخصّها في كلام العرب ولغتهم.

ومن هنا كانت على مراتب:

الأولى: العلاقة، وهي: تعلُّق القلب بالمحبوب.

والثانية: الإرادة، وهي مَيْلُ القلب إليه.

والثالثة: الصّبَابة، وهي انصباب القلب إلى المَحْبُوبِ؛ بِحَيْثُ لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

والرابعة: الغرام، وهو الحُبُّ اللازم للقلب، ومنه الغريم؛ لملازمته.

والخامسة: المودَّة، والودّ هو: صَفْوُ المَحَبَّةِ وخَالِصُهَا ولُبُّهَا.

والسادسة: الشّغف، وهو: وصول المَحَبَّة إلى شغاف القلب.

والسابعة: العشق، وهو الحُبّ المُفْرط الذي يُخَاف على صاحبه منه، وهذا لا يصلح لله ﷻ.

والثامنة: التتيُّم، وهو بمعنى التعبُّد، تقول: قلبٌ مُتَيَّم؛ يعني: قلب مُعَبَّد للمحبوب.

والتاسعة: التَّعبّد صراحة، وتجد بعض المحبِّين يذكر هذا، ويصرّح أنه قد صار عبدًا لهذا المحبوب.

والعاشرة: الخُلَّة، وهي المحبَّة التي تخلَّلت رُوْح المُحب وقلبه، وقيل غير ذلك(١).

فالمحَبَّةُ تَقْوَى وتضعف ويتفاوت الناس فيها تفاوتًا ظاهرًا بيِّنًا، فيَقْوَى الحُبّ في حين، ويضعف في حين آخر، بَلْ قَدْ يتبدّل أقوى الحبّ بأقوى البغض والعكس.

وقد تقوى حتى تبلغ أعلى مراتبها؛ وهي قرّة العين.

«وقرَّة العَيْن فوق المحبة، فإنَّهُ لَيْسَ كل محبوب تقرّ به العين، وإنما تقَرّ العين بأعلى المحبوبات»(٢).

فإذا وُجِد معها الخضوع كانت عبادة، «فالعابد مُحِبّ خَاضِع، بخلاف مَنْ يُحِبّ مَنْ لَا يخْضَع له، بل يحبّه ليتوسّل به إلى محبوبٍ آخر، وبخلاف مَنْ يخضع لمن لا يحبّه»(٣).

وأصل العبادة محبَّة الله ﷻ، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحبّ كله لله، فلا يُحَب معه سواه حُبًّا لا يصلح إلا لله، وإنما يُحَب لأجله وفيه.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٢٥ ـ ٨٥)، و«مدارج السالكين» (٣/٢٧ ـ ٣٠).
(٢) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٣٦).
(٣) «جامع الرسائل» (٢/٢٧٥).

أَنوَاع المَحَبّة

يمكن أن نقسم المحبَّة ـ من جهة تعلّق الحمد والذَّمّ بها ـ إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ المحبة المحمودة.

٢ ـ المحبة المذمومة.

٣ ـ المحبة الطبيعية، التي لا يتعلق بها الحمد ولا الذمّ لِذاتِها، وإن كان قد يعرض لها بعض ما يلابسها، فتنتقل إلى المحمود أو إلى المذموم من قسمي المحَبَّةِ.

ويمكن أن نقسمها تفصيلًا إلى قسمين:

القسم الأول: المحبة الخاصة:

«وهي التي لا تصلح إلا لله تبارك وتعالى، ومَتَى أَحَبَّ بها غيره كان مشركًا به شركًا لا يُغْفَر، وهذه المحبَّة الخاصة هي محبة العبودية التي تستلزم الذلّ للمحبوب، والخضوع له، والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، ولا يجوز تعلقها بغير الله أصلًا، وهي التي سوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]»[١].

ويدخل تحت هذه المحبة الخاصَّة أربعة أنواع:

---

(١) «طريق الهجرتين» (٦٤٢/٢) بتصرف.

الأول: محبَّة الله ﷻ، وهي أَصْلُ الإيمان والتَّوْحِيدِ.

والثاني: محبَّةُ مَا يُحِبُّهُ الله ﷻ من الأعمال، والأوقات، والأمكنة، والذوات، والأقوال، والنيات، فهي تابعة لمحبَّةِ الله ﷻ ومكمّلة لها.

والثالث: محَبَّة في الله، وهي مَحَبَّة الأنبياء والرسل وأتباعهم، وهي تابعة لِمَحَبَّةِ الله أيضًا ومكمِّلة لها.

والرابع: المحبة مع الله، وهي الشركية، كمَحَبَّةِ المشركين لأوثانهم، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وبِهَذَا نَعْلَمُ أن توحيد المحبة ألَّا يتعدد محبوبك في المحبة الخاصة، بل ينبغي أن يكون المُحِبّ متوجِّهًا لله وحده، فلا يبقى في قلبه شيء يمكن أن يُصْرَف لغيره إلّا أن يكون تابعًا ومُكَمّلًا لمحبّة الله ﷻ، فهذا الحُبّ إذا كان بهذه المثابة صار غاية صلاح العبد ونعيمه وقُرَّة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلَّا بِأَنْ يَكُونَ الله ورسوله أَحَبَّ إليه مما سواهما، وأن تكون محبَّته لغير الله تابعة لمحبته الله تعالى.

وهذه المحَبَّة تقتضي تقديم المحبوب على النَّفْس والمال والولد، وتقتضي ذلًّا ظاهرًا وباطنًا وإخباتًا، وهذا أمْرٌ لا يصلح إلا لله ﷻ، وإلا كان العبد مشركًا بربِّه؛ لأن أصل الإشراك العملي بالله؛ هو الإشراك في المحَبَّة، والمحَبَّةُ مع الله تنافي محبَّةَ الله قَطْعًا، وذلك بأن تكون منازعة لمحبّة الله ﷻ ومضادّة لها، ولا تكون تابعة لها[١].

ولهذا قال ابن القيم: «في القلب شَعَث لا يَلُمّه إلّا الإقبال على الله، وفيه وَحْشة لا يزيلها إلّا الأُنْس به في خَلْوته، وفيه حزن لا يذْهبه إلّا السرور بمعرفته، وصِدْق معاملته، وفيه قلق لا يُسْكنه إلّا الاجتماع عليه، والفرار

(١) انظر: «جامع الرسائل» (٢/٢٥٥)، و«روضة المحبين» (ص٢٩٥ ـ ٢٩٦).

منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد، لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدّها إلّا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصِدْق الإخلاص له، ولو أُعْطِي الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة منه أبدًا» اهـ[(١)].

القسم الثاني: المحبة المشتركة:

وهي على أربعة أنواع:

الأول: «المحبة الطبيعية التي تكون تابعة لما يُلائِم العبد وما يوافقه من المطعومات، والمشروبات، والنكاح، واللباس، والمعاشرة، والمخالطة، وهذه إن أعانت على محبَّةِ الله وطاعته، وكانت مباحة دخلت في باب العبادات. وإن صدَّتْ عن ذلك، وتوسّل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيَّات، وإلا بقيت من أقسام المباحات»[(٢)].

وقد كان ﷺ يحب الحلواء والعسل[(٣)].

ولما سئل: مَنْ أحَبّ الناس إليك؟ قال: «عائِشَة»[(٤)].

الثاني: محبة الرَّحْمَةِ والإشفاق، كمحبة الوالد لولده. وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أُنْس، وأُلْفة، ومخالطة، ومشاكلة في الطبع؛ كمحبة المُشْتَرِكِين في صناعة، أو عِلْم، أو تجارة، أو سفر، أو مهنة، وهذه أيضًا لا تستلزم التعظيم، وقد يدخل تحت هذا النوع: محبة العِشْق؛ لأن سببه

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٦٤).

(٢) «القول السديد» لابن سعدي (ص٢٠٤ ـ ٢٠٥) بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة ﵂.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص ﵁.

المُشَاكلة والمناسبة بين المُحِب والمحبُوب، وهي محبَّة مذمومة وضارة، وقد تدخل في النوع المختص بالله تعالى(١)، فتكون مزاحمة لها.

الرابع: محبَّة إجلال وتعظيم لا عبادة؛ كمحبة الولد لوالده، ومحبة التلميذ لشيخه وأستاذه، ومحبة الإمام العادل، وذلك لا حَرَج فيه ما لم يُزاحِم محبّة الله ﷻ.

وأشرف هذه الأنواع التي ذكرناها هي المحبة الخاصة التي تكون لله وما يتبعها من محبَّة له ومحبة فيه.

وأسْوَأ هذه الأنواع هي المحبَّة المزاحمة؛ وهي التي تُصْرَف لغير الله، ولا تَصْلُح إلا لله ﷻ، وهي المحَبَّة الشركية، وتبقى المحبة الطبيعية في مرتبة بين هذا وهذا، لا تُحْمَد ولا تُذَمّ مِنْ حيْثُ هِيَ، وإنَّما يكون حُكْمها بحسب ما اتَّصلت به(٢)، والله أعلم.

* * *

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٦٤١).

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/٤٥).

علامات محبة الرب للعبد

تُعْرَف محبَّة الرب لعبده بعلامات، منها:

١ ـ حبّ العَبْد لطاعة ربه:

قال ابن أبي الحواري: «علامة حبّ الله حب طاعة الله ـ وقيل: حب ذكر الله ـ فإذا أَحَبَّ الله العبدَ أحبَّه، ولا يستطيع العبد أن يُحِب الله حتى يكون الابتداء من الله بالحبِّ لَهُ، وذلك حين عَرَفَ منه الاجتهاد في مرضاته»(١).

٢ ـ انزعاج القلب من التفريط:

فإذا فاته وِرْده من القرآن حَزِن، وإذا شَغَله مُهِم من أمر الدنيا تَحَسَّرَ على ما فاته من الذِّكر والعبادة، وإذا ذكر تقصيره في أمر الله ندم.

يقول حماد بن مسلم: «إذا أَحَبَّ الله عَبْدًا أكثر همَّه فيما فَرَّط، وإذا أبغض عبدًا أكثر همَّه فيما قسمه له»(٢).

٣ ـ تحقيق الأوصاف التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٩٥).

الطَّرِيقُ إِلَى تَحْقِيقِ مَحَبَّةِ الرَّبِّ لِلعَبْدِ

إنَّ حُبَّ الله لعبد من عباده أمر عظيم، وفضل غامر جزيل، لا يعرف قدره إلَّا مَنْ عَرَفَ الله مَعْرِفَة صحيحة بأسمائه وصفاته، ونحن إذا أردنا أن نصل إلى شيء من ذلك فيجب علينا أن نتقرَّبَ إلى الله أولًا بالفرائض، وثانيًا: بالنوافل؛ لأن الله قد بَيَّنَ لنا الطريق كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنَّ الله قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

ومن كان بهذه المثابة عند ربه فما أسعده! وما أطيب عيشه!

ومن الأمور النافعة في هذا المجال: أن نتأمل القرآن، وما جاء في السنة النبوية، فقد بَيَّنَ الله لنا الأعمال التي يحبها أو يحب أهلها، وتلك التي يُبْغِضها، أو يبغض أهلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤]، وغيرها من الآيات الكثيرة والأحاديث الصحيحة.

وكذلك أضداد هذه الأمور، وهي التي ذكر الله أنه يبغضها، أو يبغض أهلها، فإنه ينبغي أن نُجَانبها؛ لئلَّا يبغضنا الله ﷻ، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وهذا يشمل الفساد بكل صُوَرِهِ وأشْكَالِهِ؛ فساد الأخلاق، وفساد العقائد، والفساد المالي، والفساد في البدع ومُحدثات الأمور، وما إلى ذلك.

وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي حذرت مما يبغضه الله ولا يحبه.

* * *

عَلامَاتُ مَحَبَّةِ العَبْدِ لِرَبِّهِ عَزّ وَجَلّ

لما كانت محبة الله تعالى فرضًا إيمانيًا، ومرتبة دينية شريفة؛ كان ذلك مدعاة لأن يدعيها كل أحد، ومن هنا لَزِم بيان العلامات الدالة على تحقيق هذه المحبة، فمن ذلك:

أولًا: أن هذا المُحب لا بدّ أن يكون مطيعًا لربه، ومتَّبعًا لنبيِّه ﷺ.

وذلك برهان اشترطه الله ﷻ، وطالَبَ بِهِ أولَئِكَ الذين يَدَّعُونَ محبته، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإذا كان العبد مُؤثرًا لمحابّ الله ﷻ، ومتَّبِعًا للرسول ﷺ، وإن خالف ذلك هوَى نفسه، وشقّ عليها؛ كان ذلك من براهين صِدْق المحَبَّة.

والطريق إلى الجَنَّة فيه ألوان المشقَّات والصعوبات، والشريعة قد رُكِّبت تركيبًا خاصًا على خلاف وِزَان داعية الهَوَى في النفوس.

والمقصود: أنَّ العبد إذا آثَرَ مَا عند الله تبارك وتعالى، وقدَّم أمْره على محبوبات النفوس، وجاهد هذه النفس حتى قَوِيَ سلطان المحبَّة، فإنها بهذا تكون راسخة، مُخْرِجَة لألوان الثمرات الطيّبة، وبهذا يكون مُبَرهنًا على صدق محبته.

وعن الحسن البصري قال: «إن أقوامًا كانوا على عهد رسول الله ﷺ يزعمون أنهم يحبون الله، فأراد الله أن يجعل لقولهم تصديقًا من عمل،

فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، كان اتِّبَاع محمد ﷺ تصديقًا لِقَوْلِهم»[١].

ثانيًا: أن يُقبل على طاعة الله غير متثاقل، بل يُسَرّ عند أدائه لها.

فهذه هي حال المحبّين الصادقين، فهم يقومون بخدمة المحبوب، ويكون ذلك من أَسَرّ الأشياء إلى نفوسهم، ومِنْ أَلَذّ الأمور إلى قلوبهم، ولا يرون ذلك مشَقَّة ولا تكليفًا[٢].

ثالثًا: أن يكون العَبْد حافظًا لحدود الله ﷻ.

فليس بصادق مَنِ ادَّعَى حُبَّه ولم يحفظ حَدَّهُ:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ شَنِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[٣]

كما قيل[٤]:

شُغِفُوا بِحُبِّ الله طُولَ حَيَاتِهِمْ ... فَتَجَنَّبُوا لِوِدَادِهِ آثَامَا

رابعًا: أن تحبّ ما يُحِبّه الله، وتبغض ما يبغضه.

فإنَّ «مَنِ ادَّعَى مَحَبَّةَ محْبُوب، ثم سَخِط ما يحبه، وأحبَّ ما يُسْخِطه فقد شهد على نفسه بكذبه، وتمَقَّتَ إلى محبوبه»[٥].

خامسًا: الأُنْس بالله ﷻ.

فإنَّ هذا من علامات المحَبَّةِ، وهُوَ أنْ يحصل له «كمال الأُنْسِ بِمُنَاجَاةِ المحبوب، وكمال التَّنَعّم بالخَلْوة، وكمال الاستيحاش من كل ما يُنَغِّص

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/٣٢٣).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/١٦٥).

(٣) «شعب الإيمان» (٤٩٠ ـ ٤٩٢)، و«تاريخ دمشق» (١٣/٣٧٩).

(٤) البيت ليحيى الرازي. «شعب الإيمان» (٤٨٦).

(٥) «زاد المعاد» (٤/١٧٨).

عليه الخَلْوة، ومتى غلب الحُبّ والأُنْس صارت الخَلْوة والمُناجاة قَرَّةَ عَيْن تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحُبّ والأُنْس قلبه»(١).

سادسًا: أن المحبة الصادقة تزيد بالعطاء، ولا تنقص بالمنع.

وقد سُئِلَ الفضيل بن عياض، قيل له: يا أبا علي، مَتَى يبلغ الرجل غايته من حُبِّ الله تَعَالَى؟ فقال له الفضيل: «إذا كان عطاؤه ومنعُهُ إِيَّاكَ عندك سواء فقد بَلَغْتَ الغاية مِنْ حُبِّهِ»(٢).

سابعًا: أنه لا يَثْنِيه لَوْم ولا عَذل عن سلوك مرضاة محبوبه.

ثامنًا: كثرة ذكره سبحانه وتعالى.

وقال مالك بن دينار: «علامة حبّ الله دوام ذكره؛ لأنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئًا أكثر ذكره»(٣).

فهم «إن نطقوا فبذكره، وإن تَحَرَّكُوا فبأمره، وإن فرحوا فَلِقُرْبِهِ، وإن ترحوا فلعتبه؛ وقيل:

وَاللّه مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ إِلَّا وحُبُّكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي
وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أُحَدِّثُهُمْ إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَّاسِي»(٤)

وهناك أمور أخرى تدل على صِدْق هذه المحبة؛ كمحبة لقاء الله تبارك وتعالى، وأن يغار لله فيغضب لمحارمه إذا انتهكها المنْتَهِكُون، ولحُقُوقِه إذا تَهَاوَن بها المُتَهَاوِنون، وأن يُحِبّ كلامه، وأن يَتَأَسّف على ما فاته مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وذِكْره، وأن يتقالّ ما يبذله في سبيل الله وفي طلب مرضاته، فهو لا ينظر إلى عمله إلّا بعين الازدراء.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٤٤٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١١٣) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٢).

(٣) «شعب الإيمان» (٤٩٩).

(٤) «المدهش» لابن الجوزي (ص٢٢٣ ـ ٢٢٤)؛ بتصرف.

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ المَحَبَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

أولًا: طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله الكريم ﷺ:

وقد عَرَفْنا أن المحبَّة هي حقيقة العبودية، وإنما يتحقق ذلك باتباع أمره، واجتناب نهيه؛ «ولهذا جعل الله تعالى اتباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادَّعَاها، فجعل ذلك شرطًا لهذه المحَبَّة، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، فلا يتحقق إلَّا به»[1].

ثانيًا: تفريغ القلب من الاشتغال بغيره:

لأن هذا القلب وعاء، فإذا مُلِئَ بالِاشْتِغَالِ بغيره، وانصرف إليه لم يبق به محلّ للاشتغال بالله ﷻ، والإقبال عليه، ومحبَّته.

ثالثًا: مجاهدة النَّفْس؛ بإيثار محابِّه على محابِّك عند غلبة الهوى:

وعلامة هذا الإيثار شيئان:

الأول: فِعْل ما يُحِبّه الله، ولو كانت نَفْسك تكْرَهه.

والثاني: ترك ما يكرهه، ولو كانت نَفْسك تحبّه.

رابعًا: التذلّل له، وإظهار المَسْكَنة والانكسار بين يديه سبحانه:

وذلك «أنَّ المُحِبَّ ذَلِيل بالذَّاتِ، وعلى قَدْرِ محبَّتِهِ يَكُونُ ذُلّه؛ فَالمَحبة قد أُسِّست على الذِّلة للمحبوب»[2]، فـ «لا ينال رضا المحبوب، وقُرْبه،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٩٩) بتصرف.

(٢) المصدر السابق (١/٢٠٧) بتصرف يسير.

والابتهاج والفرح بالدُّنُو منه، والزّلْفَى لديه؛ إلّا على جِسْر مِن الذِّلّة والمَسْكَنة، وعلى هذا قام أَمْرُ المَحبَّةِ، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلّا بِذَلِكَ»[١].

خامسًا: الحبّ في الله والبغض في الله:

والله يقول - كما في الحديث القدسي الصحيح -: «حقَّت مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ»[٢].

وقد سُئِلَ بَعْضُهم: «بماذا ينال العبد المحَبَّةَ؟ قال: بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه»[٣].

سادسًا: دوام ذِكْرِهِ بالْقَلْبِ واللسان، والجَوَارِحِ والحال:

«فالمحَبَّة تتشعب شُعَبها من دوام ذِكْر إحسان الله ﷻ، فَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ على الدوام، وتذَّكر إحسانه إليه تَنَسَّم ريح المحبة عن قربه»[٤]، وهكذا قراءة القرآن، والنظر في المصحف، والتدبر لمعاني كتاب الله، «فالذِّكْر بجميع أنواعه هو باب المحَبَّةِ وشَارِعها الأعظم، وصراطها الأقْوَم»[٥]، ونَصِيب العبد مِنَ المَحَبَّة على قدر نصيبه من الذِّكر.

سابعًا: مطالعة آلائه، وبِرِّه، وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة:

العَبْد إذا تأمل أن المُنْعِم بالذات هو الله، وأنه لا مانح ولا مانع سواه، وأن ما عداه وسائط؛ اقتضى ذلك أن يتوجه بكُلِّيَّته نحوه.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/١٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٢٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وصححه في «صحيح الجامع» (٤٣٢١).

(٣) أخرجه السلمي في «طبقاته» (ص٣٥١).

(٤) «شعب الإيمان» (٤٦٤) بتصرف.

(٥) «الوابل الصيب» (٩٤ - ٩٥) بتصرف.

والعبد إذا تَأَمَّلَ القُلُوبَ وجدها مجبولة على محبّة مَنْ أَحْسَن إليها، وإذا تأمَّل في نَفْسه وجد كل فضل ونعمة من إحسان الله إليه، فجِبلَّته وفِطْرَته تقتضي محبّة الله، وتقديمها على محبة كل مَنْ سواه.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي...» الحديث[1].

وفي حديث آخر: «إِنَّ الله رَحِيمٌ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ ثُمَّ لَا يَضَعَ فِيهِمَا خَيْرًا»[2].

فتَأَمَّل كَثْرة إفضاله وإنعامه على عبده، وقد قصَّ الله علينا في القرآن شَيْئًا كَثِيرًا من ذلك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢].

فالله ﷻ قد أَخْبَرَنَا عن نِعَم كَثِيرة ظاهرة وباطنة يفيضها علينا، فإِذَا تَأَمَّلها العبد كان ذلك من دواعي محبَّتِهِ لربه، وإِقْبَالِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ.

«يا مختار الكون وما يعرف قَدْر نَفْسه، أما أسجد الملائكة بالأمس لك، وجعلهم اليوم في خدمتك، لمَّا تكبَّر عليكم إبليس، وقد عَبَدَ ربه سنين؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٩٧/١) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه في «صحيح الجامع» (١٧٦٨).

طَرَدَه، أفتُصَافِيه على خِلافه، وهو القائل قبل وجود أبيك للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾»[١].

يا أخي! اعرف قَدْر لُطْفِهِ بِكَ، وحفظهِ لَكَ، إنما نهاك عن المعاصي صيانة لك.

«اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عنه، وشُكْرك لمن تعنيك نِعَمُه، وطاعتك لمن لا ترجو خيرًا إلّا منه... وارفع إليه يد الذُّل في طلب حوائج القلب تأتي وما تشعر»[٢].

ثامنًا: أن يعرفه، وأن يُطَالِعَ القَلْبُ أسماءَهُ وصِفَاته، ويَتَقَلَّب فِي رِيَاضِ هذه المعرفة؛ فـ«المعرفة تُثْمِرُ المَحَبَّة»[٣]:

فمعرفة الأسماء والصفات، ودوام مطالعتها، وتقلّب الفكر في معانيها وآثارها هي العِرْفَان والعِلْم الإيماني، «وكُل اسم وصفة من صفاته تستدعي محَبَّة خاصة»[٤]، وكُلَّمَا زَادَت مَعْرِفَة العبد بالأسماء والصفات، و«أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها؛ ازدادت محبَّتُهُ للموصوف بها»[٥].

تاسعًا: مجالسة المحبين الصَّادِقِين، والتقاط أطايب كلامهم.

عاشرًا: المباعدة عن كل سبب يَحُول بين القلب وبين الله ﷻ:

وقد قيل لذي النون: متى يأنس العبد بربِّه؟ قال: «إذا خافه أَنِسَ بِه، أما علمتم أنه مَنْ وَاصَلَ الذنوب نُحِّيَ عَنْ باب المحبوب؟!»[٦].

---

(١) «المدهش» (ص٢١٠).

(٢) المصدر السابق (ص٤٩٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢٨).

(٤) «طريق الهجرتين» (٢/٦٩١) بتصرف.

(٥) «مدارج السالكين» (١/٢٩٧).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣٨٦).

قد يُقَال: بأن المحبة لا يد للإنسان فيها؛ لأنه لا يملك قلبه، فكيف يُطَالَب بما لا يملك؟

والجواب: أن يُقَال بأن خطاب الشارع إذا تَوَجَّه إلى المُكَلَّف في أمر لا يدخل تحته قدرته؛ فإنه يتوجه إما إلى سببه، أو إلى أثره.

وفي هذا الموضع فإن الخطاب يَتَوجَّه إلى السبب؛ فإذا نظر العبد في مُوجِبَات المحبة والأسباب الجالبة لها؛ امتلأ قلبه بمحبة الله جَلَّ جلاله ولا بد.

وقد قال عمر ﷺ للنبي ﷺ: إنك لأحب إلي من كل شيء إلّا من نفسي. قال النبي ﷺ: «لَا والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». قال: الآن، والله لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»[1]. فقد ازدادت محبة عمر للنبي ﷺ، وأقرَّه النبي ﷺ على أن الحب قد يَتَغَيَّر.

وربما تسمع عن شخص كلامًا وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب؛ فتعود محبتك إياه[2].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) عن عبد الله بن هشام ﷺ.

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/١٨٠ ـ ١٨١).

ثَمَرَاتُ المحَبّة وَآثَارُهَا السُّلُوكِيَّة

أوَّلًا: أنها تبلِّغنا الدرجات العلى عند الله تبارك وتعالى:

كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «مَا أَعْدَدْتَ لهَا؟» فقال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أُحِبّ الله ورسوله، قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»(١).

وقد عرفنا أنه لا بد من العمل والاتّباع مع ذلك، فلا تكفي دعوى المحبَّة.

ثانيًا: أنها تَقُودُ إِلَى طَاعَةِ الله عز وجل:

وذلك أن القلب يكون مأسورًا لمن أحبّ، فلا يجد بُدًّا من طاعته والانقياد إليه؛ لأن «المحبة التامة هي مَيْلُ القلب بكلِّيَّتِهِ إلى المحبوب، فيكون ذلك حاملًا على الطاعة والتعظيم، وكلَّما كَان الميل أَقْوَى كَانَتْ الطاعة أتمّ، والتعظيم أَوْفَر»(٢).

وقد تقدَّمَ أنَّ المحَبَّةَ الصحيحة هي التي تكون مع الخوف والرجاء، وأن العبد ينبغي أن يكون جامعًا بين المحبَّة والخوف والتعظيم والرَّجاء مع العمل الصالح.

والخلاصة: أنه «إذا غُرِسَتْ شَجَرَةُ المَحَبَّةِ في القَلْبِ، وسُقِيَتْ بِمَاء

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٨٦) بتصرف.

المَعْرِفَة والإخلاص، وصُدِّقَتْ بِمُتَابَعَةِ الحَبِيب؛ أثْمَرَتْ أنْوَاع العبادات، وآتَتْ أكُلَهَا كل حين بإذن ربها»(١).

ثالثًا: أنَّ ذَلِكَ يُسَهِّل عليه الأُمور الشاقَّة:

فـ «المحبة كلما تمكَّنَتْ في القلب، ورسخت فيه كان أذى المحبّ في رضا محبوبِه مستحلًى غير مسخوط، والمحبّون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم(٢):

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتِنِي بِمَسَاءَةٍ   لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه؟!»(٣).

وإذا حقَّقَ العبد ذلك، فإنه بهذا الاعتبار يرضى بأقدار الله ﷻ؛ حُلْوها ومرّها، «فإن المحب يتسلَّى بمحبوبه عن كلّ مصيبة يُصَاب بها دونه؛ لأنه يرى محبوبه عِوَضًا عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عِوَضًا منه»(٤).

لقد بلغت بالقوم المحبة إلى استحلاء البلاء؛ لعلمهم أنه مراد الحبيب.

فهذا سويد بن مَثْعَبَة، ضَنِي على فراشه فكان يقول: «والله، ما أحب أن الله نقصني منه قلامة ظُفْر»(٥).

وقد قال عامر بن عبد الله: «أحبَبْت الله ﷻ حبًّا سهَّل عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني في كل قضية، فما أبالي مع حبي إيَّاهُ ما أصبحتُ عليه وما أمسيتُ»(٦).

---

(١) المصدر السابق (٣/٩) بتصرف.

(٢) وهو ابن الدُّمَينة. «محاضرات الأدباء» (٢/١٣٤).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/٩٢١) بتصرُّف.

(٤) «طريق الهجرتين» (ص٤٩٥) باختصار وتصرف يسير.

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/٢٨٠).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٧١).

رابعًا: أنها تورث الشَّوْق إلى لِقَاءِ الله ﷻ:

والفَرَحُ بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوَّة المحبة وضعفها.

خامسًا: أنها صلاح ما بينه وبين الخلق:

كما قال بعضهم: «ما أقْبَلَ عَبْدٌ بقلبه إلى الله ﷻ إلّا أقْبَلَ الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم»(١).

سادسًا: أنها تُورِث نعيم القلب وسرور النفس:

فـ «كلَّمَا كانت المَحَبَّة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى»(٢).

وكان يحيى بن معاذ يقول: «هذا سروري بك خائفًا، فكيف سروري بك آمنًا؟! هذا سروري بك في المجالس، فكيف سروري بك في تلك المجالس؟! هذا سروري بك في دار الفناء، فكيف يكون سروري بك في دار البقاء؟!»(٣).

سابعًا: تحقيق الحب في الله والبغض في الله:

فيوالي أولياء الله، ويعادي أعداءه، فإن أصل الموالاة المحبَّة، كما أن أصل المعاداة البُغْض، والمحب مِنْ حُبِّه لحبيبه يحب كلّ مَنْ يحبّه، ويواليهم، وينصرهم، كما يبغض أعداءه، ويتبرأ منهم(٤).

فلا يجتمع في قلب العبد محبَّة الله ﷻ ومحبة أعدائه من الكفار.

* * *

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٣٢).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٩٣١/٢ ـ ٩٣٢).

(٣) «صفة الصفوة» (٩٧/٤).

(٤) انظر: «جامع الرسائل» (٣٨٤/٢).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ المَحَبَّة

١ ـ قال الفضيل بن عياض في مرضه الذي مات فيه: «ارْحَمْنِي بحبي إياك، فليس شيء أحَبَّ إِلَيَّ منك»[١].

وكان يقول: «كفَى بالله مُحبًّا، وبالقرآن مُؤنسًا، وبالموت واعظًا، وكفَى بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلًا»[٢].

٢ ـ ويقول آخر: «إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إنْ كَان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيِّب»[٣].

وقد قَدَّمْنَا بعض عبارات السلف ﷺ التي تدل على حالهم في هذه المرْتَبة.

وبالجملة فلا بد من التربية الإيمانية للقلب، فهي التي تحمله على حُسْنِ التوجه لبارئه وخالقه سبحانه، وهي التي تصحّح له هذه المعاملة.

هذا آخر ما أردنا إيراده من الكلام على هذا الباب الشريف، والله أسأل أن يجعلنا من المحبين له؛ إنه قريب مجيب.

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٠٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٤٩).

(٣) «الوابل الصيب» (ص١١١)، و«إغاثة اللهفان» (١/١٤٧) و(٢/٩٣٢).

الرَّجَاءُ

تَوْطِئَة

الرجاء: عبادة قلبية جليلة، تَبْعَث على العمل والجِدّ والبَذْل، مع حُسْن الظن بالرب تبارك وتعالى، إلّا أنها لا تَتِمّ إلّا مع ما يُقَابِلها من الخوف والخشية من الله ﷻ؛ ليكون العبد على حال من القَصْد والاعتدال في سَيْرِه إلى ربه ومولاه، دون أن يَغْلِب عليه الرجاء فيَطُول أَمَلُه، ويَسُوء عَمَلُه، أو يَطْغَى عليه الخوف فيَقْنَط وييأس من رَوْح الله.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى الرَّجَاء وَحَقِيقَتُهُ

الرجاء في اللغة: مأخوذ من مادة (رَجَوَ) التي تدل على الأمَل، الذي هو نقيض اليأس. ويأتي الرجاء أيضًا بمعنى الطَّمَع؛ كما في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨] أي: يَطْمَعون فيها.

ويأتي الرَّجاء بمعنى الخوف أحيانًا، كما فُسِّر به قوله تبارك وتعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: ١٣]. أي: لا تخافون الله ﷻ، وهذا بمعنى تَوَقُّع العذاب(١).

وأما الرجاء في معناه الشرعي: فيمكن أن يقال: هو تَأَمُّل الخير وقُرْب وقوعه(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «لسان العرب» (٢٠/٢٣).

(٢) ينظر: «التعريفات» للجرجاني (ص ١١٤).

الفَرقُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالتَّمَنِّي

قال الزركشي: «الفرق بينه ـ يعني: الترجي ـ وبين التمني: أن الترجي لا يكون إلّا في المُمْكِنات، والتمني يدخل المستحيلات»(١).

وكذلك أيضًا إن لم يكن له أسباب معْلُومة الوجود، ولا معلومة الانْتِفَاء، فإنَّهُ أقرب إلى التمنِّي منه إلى الرجاء؛ وذلك أن التمني قد يكون للأمر المحال، أو الذي يبعد وقوعه، بخلاف الرجاء، قال الشاعر(٢):

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ

والشباب لا يمكن أن يرجع ثانية، فإذا تطلَّعَتِ النفس، ورَجَت حدوث ما هو بعيد المَنَال، فإن ذلك يكون من قبيل التمنِّي، وأما إذا تطلَّعَت النَّفْس إلى أمر يمكن حصوله مع بَذْلِ أسْبَابِهِ، فإن ذلك هو الرَّجَاء.

«وأما الأماني فإنها رؤوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء، وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قَلْب تَزَاحَمَت عليه وساوس النَّفْس فأظْلَم مِنْ دُخانِهَا، فهو يَسْتَعْمِل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منَّتْهُ حُسْن العاقِبَةِ والنَّجَاةِ، وأحالَتْهُ على العفْوِ والمغفرة والفضل»(٣).

ومعلوم أن أداة التمني: (ليت)، وأن أداة الرجاء: (لعل)، فهي تدل على إمْكَانِ الحصول، وأما (ليت) فإنَّها في الأمر الذي يكون بعيد المنال.

---

(١) «البرهان» (٢/٣٢٣).

(٢) هو أبو العتاهية. «محاضرات الأدباء» (٢/٣٥٧).

(٣) «الروح» (٢/٧٣٠).

بَيَانُ الرَّجَاءِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُطْلَبُ مِنَ العَبْدِ تَحْصِيلُهُ

قال الحافظ ابن حجر: «المقصود من الرجاء أنَّ مَنْ وقع منه تقصير فليُحْسِن ظَنَّهُ بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا مَنْ وَقَع منه طاعة يرجو قبولها، وأما منِ انْهَمَكَ على المعصية راجيًا عدم المؤاخَذَةِ بِغَيْرِ ندم ولا إقلاع؛ فهذا في غرور»[(١)].

وقد قال بعض أهل العلم: «من علامة الصَّلَاح أن تطيع، وتخاف ألا تُقْبَل، ومن علامة الشقاء أن تَعصي، وترجو أن تنجو»[(٢)].

ومعلوم أن من رجا شيئًا فإن هذا الرجاء يستلزم ثلاثة أمور:

الأول: محبة ما يَرْجُوه.

والثاني: الخوف مِنْ فَوَاتِهِ.

والثالث: السَّعْي في تحْصِيلِهِ بحسب الإمكان.

أما الرجاء الذي لا يُقَارِنُهُ شيء من هذا، فإن ذلك من الغرور، وهو من باب الأماني، والرجاء شيء، والأماني شيء آخر.

وبهذا نعلم أن كل راج خائِف، ومن سار على الطريق إذا خَافَ أَسْرَع السَّيْرَ مخَافَةَ الفَوَات، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ

---

(١) «الفتح» (١١/٣٠٧).

(٢) «الفتح» (١١/٣٠٧). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٤٦) بنحوه.

المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ»[(١)]، وبهذا أقبلت القلوب على الله ﷻ بألوان العبوديات رجاء أن تُحَصِّلَ دَارَ كَرَامَتِهِ.

وبهذا نعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العَمَلُ، كَمَا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وقد سألت عائشة ﵂ رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قالت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ ألا تُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ»[(٢)].

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ أَصْحَابِ النبي ﷺ وجدهم في غاية الجد في العمل الصالح، والتشمير، والسعي في مرضاة الله ﷻ، فأين ذلك من حال كثير منا، وقد جمعنا بين التفريط والأمن، وتَرَحَّلَ الخوف من قلوب الأكثرين، مما أدى إلى تَهَافُتِهم على فِعْلِ المعصية، حتى طغى ذلك على القلوب، وران عليها، فما عادت تنتفع بالمواعظ، وما يدخلها في كثير من الأحيان شيء من التذكير، إلّا ما شاء الله، وقد قال الحسن البصري تعليقًا على قوله تبارك وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا»[(٣)].

يَا آمِنًا مِن قبيحِ الفِعْلِ مِنهُ أَهَلْ ... أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمْلِكُهُ؟

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة ﵁، وحسنه، وصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٩٥٤، ٢٦٦٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/٦٨).

جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أَمنًا وَاتِّبَاعَ هَوًى ... هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي المَرْءِ تُهْلِكُه
وَالمُحْسِنُونَ عَلَى دربِ المَخَاوِفِ قَدْ ... سَارُوا وَذَلِكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ
فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ البَذْرِ مِنْ سَفَهٍ ... فَكَيْفَ عِندَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ؟
هَذَا وَأَعْجَبُ شَيْءٍ مِنْك زُهْدُكَ فِي ... دَارِ الْبَقَاءِ بِعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ
مَنِ السَّفِيهُ إِذًا بِاللهِ أَنْتَ أَمِ الْـ ... ـمَغْبُونُ فِي الْبَيْعِ غبْنًا سَوْفَ يُدْرِكُهُ[1]

وقال أبو سليمان الداراني: «من حَسُن ظنّه بالله ﷻ، ثم لا يخاف الله فهو مخدوع»[2].

وكان بعضهم يقول في بيان سِمة وعلامة الرجاء الصحيح: «علامة صحة الرجاء حُسْنُ الطاعة»[3].

* * *

(١) انظر: «الجواب الكافي» (٢١٩ ـ ٢٢٠).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٣٨).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/٣٦).

بَعضُ المَفَاهِيمِ الخَاطِئَةِ لِلرَّجَاءِ

الرجاء: عبادة قلبية صحيحة مطلوبة، لا بد أن تتحقق في قلب العبد، وإلا كان قانطًا كما سيأتي. ولكن هذا الرجاء فَهِمَه أقوام على غير وجهه الصحيح، فضلوا، وتاهوا، وانحرفوا في أودية الهَلَكَة.

قال ابن القيم: «وأَخْرَجَت الفَسَقَةُ والذين يتبعون الشهوات الفسوق والعصيان في قَالَب الرَّجَاء، وحُسْن الظن بالله تعالى، وعدم إساءة الظن بِعَفْوِهِ، وقالوا: تجنُّب المعاصي والشهوات إزراء بعفو الله تعالى، وإساءة للظن به، ونسبة له إلى خلاف الجود والكرم والعفو»[١].

فهؤلاء مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مَنْ عَطَّلَ الطَّعَامَ والشراب، وتوكَّل في حصول الشِّبَع والرِّيّ. وهكذا الرجاء، فمَنْ تَرَكَ طاعة الله ﷻ، والعمل بما أُمِر به، واقترف ما يغضبه ويسخطه عليه، وقال: أتكل على الرجاء، وعلى رحمة الله ﷻ؛ فهذا مغبون مغرور، قد غَرَّتْهُ الأماني الفارغة، فالمعاصي والذنوب من أعظم الأمور التي تضُرّ العبد ضررًا مُحَقَّقًا في عاجله وآجله، ولكن العبد إذا غَلَبَهُ هَوَاه فإنه يَتَّكِلُ على عفو الله ومغفرته تارة، وربما انشغل بالتسويف بالاستغفار والتوبة تارة أخرى، فيُرَدِّد ذلك في نَفْسه، أو على لسانه دون أن يكون لذلك رصيد من واقعه، وكثير من الناس يظن أنه مهما فعل من

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/٧٦٧).

الذنوب والمعاصي، ثم قال: أستغفر الله؛ زال الذنب، وراح هذا بهذا!![١].

فهذا «إذا عُوتِبَ على الخطايا والانهماك فيها سَرَدَ لك ما يحفظه من سَعَةِ رَحْمَةِ الله ومغفرته ونصوص الرجاء.

ومن هؤلاء: من يتعلَّق بمسألة الجَبْر في باب القدر، وأن العبد لا فعل له ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

ومن هؤلاء: مَنْ يَغْتَرّ بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرَّد التصديق»[٢].

وربَّما اتَّكَل بعضهم على ما يزعمه من محبة رسول الله ﷺ، أو ما يزعمه من قرابته.

ومنهم: من يغتر بأسلافه، وأن لهم عند الله مكانة وصلاحًا، فلا يَدَعُونه حتى يُخَلِّصوه من عذاب الله ﷻ.

ومن هؤلاء: من يَغْتَرّ بأن رحمة الله ﷻ واسعة، وأن الله تبارك وتعالى غَنِيٌّ عن الخلق جميعًا، وأنه لا حاجة له بِتَعْذِيب أحد؛ فإن عذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا تنقص من ملكه شيئًا، وما علموا أن الله ﷻ تتجلّى أسماؤه وصفاته حينما يأخذ هؤلاء بالعقوبة، ويرحم الصالحين من عِبَاده. وقد أعد الله ﷻ النار دارًا لكل مُتَمَرِّد على طاعته وشرعه، وأَمْرِهِ ونَهيه، ونَسُوا ما أوقعه الله ﷻ من ألوان النِّقَم في الأُمَم المكذِّبَة، قديمًا وحديثًا، فلا تمنع رحمته من هذه العقوبات التي لا زالت آثارها شاهدة على عِظَم جُرْمِهِمْ، وعلى عِظَم الأَخْذَة التي أُخِذُوا بها، وعلى عِظَمِ الرَّبِّ الذي انْتَقَم منهم.

---

(١) انظر: «الجواب الكافي» (ص٣٦).

(٢) «الجواب الكافي» (ص٣٨ ـ ٣٩) بتصرف.

وكاغترار بعضهم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، فيقول: غَرَّهُ كَرَمُه، ويقول بعضهم: إِنَّهُ لَقَّنَ المُغْتَرَّ حُجَّتَه. وهذا من أقبح الفهم وأسْمَجِهِ، وإنما الذي غَرَّهُ بذلك الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، والغَرور الشيطان، وهو كثير التغرير بابن آدم؛ يُزَيِّنُ له المعاصي، ويُنَفِّرُه من الطاعات؛ حتى يرى القبيح حسنًا والحَسَن قَبيحًا.

وبعضهم: يَغْتَرّ بصيام يوم عاشوراء؛ أنه يُكَفِّر ذنوب سنة ماضية، ويوم عرفة يُكَفِّر ذنوب سنة ماضية وسنة آتية، ولم يَدْرِ المُغْتَرّ أن صوم رمضان، والصَّلَوات الخمس أعْظَم وأجلّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تُكَفِّر ما بينها إذا اجتُنِبَتِ الكبائر، فكيف يُكَفِّر صوم يوم تطوع كبائرَ العَبْدِ وذنوبه العِظَام التي عَمِلَهَا وهو لا يزال مُصِرًّا عليها غير تائب منها؟! هذا مُحَال، على أنه لا يَمْتَنِع أن يكون صوم يوم عرفة وصوم عاشوراء مكفِّرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع.

ثُمَّ مِنْ أَيْنَ لك أن تعلم أن الله قَبِل ذلك منك، وأن الله ﷻ قد غفر لك؟ وإنما يحصل هذا الوعد وهذا الجزاء على هذه الأعمال إذا تحقَّقَت الشروط، وانتفتِ المَوَانِعُ، ورُبَّما كانت سوء طويَّة العبد مانعة من حصول المأمول وتحْقِيق القبول.

وقَدْ يَغْتَرّ بعضهم بقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»[1]، «يعني: ما كان في ظنه فأنا فاعله به، ولا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٩١)، (٤/١٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١٦). والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ، دون قوله: «فليظن بي ما شاء».

ريب أن حُسْن الظن إنما يكون مِنْ حُسْنِ العَمَلِ، فالمُحْسن حَسَن الظَّنِّ بِرَبِّهِ أن يجازِيَهُ على إحسانه، وأن يقبل توبته، وأما المسيء المُصِرّ على الكبائر والظلم، فإن وَحْشَة المعاصي تمنعه من حُسْن الظنِّ بِرَبِّه، وهذا موجود في الشاهد؛ فإن العبد الآبق الخارج عن طاعة سَيِّدِهِ لا يُحْسِن الظن به، ولا يُجَامِع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا.

كما قال الحسن البصري: «إن المؤمن أحسن الظنَّ بِرَبِّهِ فأحسن العمل، وإن المنافق أسَاءَ الظن فأساء العمل»(١).

وأما من هو شاردٌ عن ربه تبارك وتعالى، حَالّ مُرْتَحِل في مساخطه وما يبغضه، متعرِّض للفتنة، قد هَانَ حَقّه وأمره عليه فأضَاعَهُ، وهان نَهْيه عليه فارْتَكَبَهُ وأصَرَّ عليه»(٢)؛ فلا يمكن أن يجتمع هذا الرجاء وحُسْن الظن بِقَلْب مَنْ يفعل هذه الموبقات، مع عِلْمه أنه ملاقٍ رَبَّهُ، وأنه مُقْبل عليه، وأنه موقوف بين يديه، مسؤول عن كل ما عمل، ثم بعد ذلك يَدَّعِي أنه يحسن الظن بالله ﷻ!! أليس ذلك من خُدَع النفوس وغرور الأماني؟!.

والخلاصة: أنَّ حُسْنَ الظن بالله ﷻ يَقْتَضِي أن يُحْسِنَ الْعَبْدُ عَمَلَهُ، وأن يُصَحِّح سلوكه، وأن يستقيم على أمر ربه جَلَّ جَلَالُه، فهذا هو الذي يُحسن الظن بالله تبارك وتعالى؛ وإلا كان مُتَّبِعًا لهواه، فحُسْنُ الظن يكون مع انْعِقَادِ أسْبَابِ النجاة، وأما إذا انْعَقَدَتْ أسباب الهلاك فلا مَحَلَّ لحسن الظَّنِّ، بل العبد بحاجة إلى مزيد من الخوف من أجل أن يرعوي.

ولربما اغتر بعضهم بما يرى من إغداق الله ﷻ عليه من نعمه في هذه الدنيا؛ كما حكى الله تعالى عن الذي قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/١٤٤)، وإسناده صحيح.
(٢) «الجواب الكافي» (٤٤ ـ ٤٥).

ومعلوم أن الدنيا لا تُقَاسُ بِالآخِرَة، ولو كانت الدنيا تُسَاوي عِنْدَ الله جناح بعوضة ما سَقَى منها الكافر شَرْبَة ماء، فالدنيا يعطيها الله ﷻ لمن يُحِب ومن لا يُحِب، وأما الآخرة فلا يُعْطِيها إلّا لمن يُحِبّ.

عن الحسن قال: «مُكِر بالقوم ورب الكعبة، أُعْطُوا حاجتهم ثم أُخِذُوا»[1].

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٣).

المُلَازَمَةُ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ

الخوف والرجاء أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فكل من يرفع يديه ويسأل ربه، فهو جامع بين الخوف والرجاء؛ يُؤَمِّلُ أن يحقِّقَ رَبّهُ مسألته، وأن يحصل على مطلوبه، وهو خائف في الوقت نَفْسه من فَوَات هذا المطلوب، وهذه العبادات والوظائف التي يتقرب بها المُتَقَرِّبون إلى ربهم ﷻ إنما هي نوع سؤال يسألونه بها الجنة، ويعوذون بها من النار، فكل داع بلسانه أو بحاله وفعله فهو جامع بين الخوف والرجاء، راغب راهب لله تبارك وتعالى.

«والخشْيَة أبدًا متضمِّنة للرَّجَاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يَسْتَلْزِمُ الخوف، ولولا ذلك لكان أمْنًا؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مَدَحَهُم الله، وقد رُوِي عن أبي حيان التيمي أنه قال: «العلماء ثلاثة: عَالِمٌ بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله»(١). فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه»(٢).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٤٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/٢ ـ ٢١).

الرَّجَاءُ دَوَاءٌ يَضَعُهُ الحَكِيمُ فِي مَوْضِعِهِ

حين نتكَلَّم عن الصبر أو الرضا أو التوكّل، أو حينما نتحدث عن محبَّةِ الله ﷻ، أو غير ذلك من الأعمال القلبية؛ فقد نُسْهب في هذا الحديث، ونذكر من الآيات، والأحَادِيث، وأقاويل الصحابة، وما جاء عن سلف هذه الأُمَّة ما يُرَغِّبُ في هذه الأعمال، ويُعَمِّقُها في النفوس حتى ترتاض عليها، ويتعاظم ذلك في قلب العبد، فيكون مُتَوكِّلًا على الله ﷻ حقّ التوكل، ويُقْبِل بكُلِّيَّته على ربه حتى يَمْتَلِئَ القلب بمحبة الله ﷻ، فلا يبقى فيه محل للتعلق بِأَحَدٍ مِنَ المخلوقين، لكن حينما نتحدَّث عن الرجاء؛ فهل نحن بحاجة إلى أن نتحدث بنَفْس هذه الطريقة؟

الجواب: لا؛ لأن هذا الرجاء إذا تعاظم في النفوس بَعَثَ على طول الأمل وسعته، لا سيما ونحن في زمان قد غلبَ على عامة الناس فيه الرجاء، وصار كثير منهم يَرْتع في أودية المعصية غير مُبَال، وإذا ذُكِّرَ بالله ﷻ نَفَر؛ فهؤلاء بحاجة إلى مزيد من التخويف، وإلى تربية المهابة في نفوسهم؛ ولذلك لا يحسن أن تُطْرح نصوص الرجاء على الناس بتوسع.

وفي باب الرجاء جملة صالحة من أحاديث الرجاء، أعرضتُ عن ذكرها؛ لئلّا يغترّ بِهَا مَنْ لا فِقْه لَدَيْهِ، ولا معرفة صحيحة بالنصوص؛ فإنَّ الرجاء وأحاديث الرجاء إنما يُحدَّثُ بها أَحَدُ رجلين:

الأول: رجل أسرف على نَفْسه، حتى ظن أنه هالكٌ لا مَحَالَةَ، وأنه لا توبة له، فقنط من رحمة الله، وظنَّ أن الله لا يغفر له ذنبه، وأن ذنوبه أعظم

من أن تُغْفَر، فهذا يحتاج إلى مَنْ يُحَدِّثُه عن سَعَةِ رحمة الله؛ حتى يبعث الأمل في قلبه، فيُقْبِل على رَبِّهِ.

والآخر: رجل نَظَر في نصوص الوعيد والخوف، فغلب ذلك على حاله، فَأَضَرَّ بنفسه، فبالغ في العمل حتى أضر بِمَنْ معه ممَّن يَعُولهم؛ من أهل وولد، وتجاوز الحد الشرعي، كما يفعله بعض من تَرَهَّبَ، فهؤلاء بحاجة إلى بيان سعة رحمة الله ﷻ وعفوه.

والمقصود: أن عرض هذا الموضوع يحتاج إلى لَوْنٍ من الفقه، كما قال بعض أهل العلم: «يجب أن يكون واعظ الناس مُتلطّفًا، ناظرًا إلى مواضع العِلَل، معالجًا كل علّة بما يليق بها»[(١)].

فهذا الزمان ينبغي أن تُسْتَعمل فيه نصوص الرجاء بقدر محدود، على قدر الحاجة، ولكل حالة ما يناسبها من الوعظ والتذكير؛ إذ أكثر الناس اليوم بحاجة إلى مزيدٍ من التخويف بالله ﷻ، ومِنْ عَذَابِهِ ونقمته.

يقول علي ﷺ: «ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يُقَنِّط الناس من رحمة الله، ولا يُؤَمِّنهم من عذاب الله»[(٢)].

وعن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحل قال: «يا مُعَاذُ بن جَبَل!» قال: لبَّيْكَ يا رسول الله وسعديك، قال: «يا مُعَاذُ!» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثلاثًا، قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ» قال: يا رسول الله! أفَلا أُخبِر به الناس فَيَسْتَبْشِرُوا، قال: «إذًا يَتَّكِلوا»[(٣)].

قال ابن رجب: «قال العلماء: يُؤخَذ مِنْ مَنْع مُعَاذ من تبشير الناس لئلّا

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٠).

(٢) المصدر السابق (ص٣٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨) واللفظ له، ومسلم (٤٧).

يَتَّكِلُوا: أن أحاديث الرُّخَص لا تُشَاع في عُمُوم الناس؛ لئلا يقْصُر فهمهم عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يَزْدَد إلّا اجتهادًا في العمل وخشية الله ﷻ، فأمَّا مَنْ لمْ يَبْلُغْ مَنْزِلَتَهُ فلا يُؤْمَن أن يُقَصِّر اتِّكالًا على ظاهر هذا الخبر»(١).

ولذلك، فإنَّ عمر ﷺ ضرب أبا هريرة ﷺ لما خرج بنعل رسول الله ﷺ يُبَشِّر مَنْ لَقِيَهُ مِنْ وَرَاءِ الحائط ممن يَشْهَدُ أن لا إله إلّا الله مستيقنًا بها قلبه بالجنَّة، فضربه عمر حتى سقط على قفاه، وعلَّل ذلك عمر للنبي ﷺ قائلًا: إني أخشى أن يتَّكِلَ الناس عليها، فخلِّهِمْ يعملون. قال رسول الله ﷺ: «فخَلِّهِمْ»(٢).

* * *

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١١/٣٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المُؤمِنُ بَيْنَ الخَوْفِ والرَّجَاءِ

ما الأفضل والأكمل في حال المؤمن: أن يُغَلِّبَ الرجاء، أو الخوف، أو أن يستوي عنده الخوف والرجاء، أو أن ذلك يختلف من حالٍ إلى حال؟

للعلماء في هذا مذاهب متعددة: ومن أمثلها قول من قال من أهل العلم: أنه يَتَعَيَّنُ على العبد أن يسوّيَ بَيْنَ الخوف والرجاء، كما قال الإمام أحمد: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحدًا»[(١)]؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن جُزِي: «جَمَع الله الخوف والطمع؛ ليكون العبد خائفًا راجيًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]»[(٢)].

وقال سهل بن عبد الله: «الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا اسْتَوَيَا اسْتَقَامَتْ أحْوَالُهُ، وإن رَجَحَ أحدهما بطل الآخر»[(٣)]؛ ولهذا قال بكر بن عبد الله المزني: «ولو أن مناديًا ينادي من السماء: أنه لا يدخل الجنة منكم إلّا رجل واحد لكان ينبغي لكل إنسان أن يَلْتَمِسَ أن يكون هو ذلك الواحد؛ ولو أن مناديًا ينادي من السماء: أنه لا يدخل النَّار منكم إلّا رجلٌ واحد لكان ينبغي لكل إنسان أن يَفْرَق أن يكون هو ذلك الواحد»[(٤)].

---

(١) «مسائل الإمام أحمد» لابن هانئ (٢/١٧٨).

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢/٣٥).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/١٠٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٢٤).

فهذا جَمَع بين الخوف والرجاء على حد سواء.

ومنهم من فصَّل، فقال: يُغَلَّب الخوف في حال الصحة، ويُغَلَّب الرجاء عند اقتراب الموت، وفي حال الاحتضار. وهذا القول ذهب إليه جمعٌ كَثِيرٌ مِنْ أهل العلم[١]، وهو من أحسن هذه الأقوال.

يقول الفضيل بن عياض: «الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحًا، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف»[٢]؛ وذلك أن الإنسان في حال القوة والعافية والصحة بحاجة إلى شيء من التخويف، من أجل أن يَسْتَحِثّه ذلك على المزيد من الأعمال الصالحة، ومن أجل أن يَنْكَفّ عن كل ما لا يليق.

وأمّا إذا كانت الدنيا وراء ظهره، وقد يَئِسَ منها، وصار في حال يُوشِك فيها أن يُوافي عمله، وأن يلقى ربَّه تبارك وتعالى، فإنه عندئذ لا تتحرّك نَفْسه للمعصية، فينبغي في هذه الحال أن يَقْدُم على الله ﷻ قُدُوم العبد الذي قد حَسُن ظنُّه بالله تبارك وتعالى؛ لما جاء في حديث جابر بن عبد الله ﵁، عن النبي ﷺ أنه قال قبل موته بثلاثة أيّام: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله ﷻ»[٣].

ولكن قد يُشْكل على هذا القول حديث أنس ﵁، أن النبي ﷺ دَخَلَ على شاب وهو في الموت ـ يعني: النَّزْع ـ فقال: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قال: والله يا رسول الله! إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ الله مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[٤]، فهَذَا الرجل أخبر أنه قد جَمَع بين الخوف والرجاء وهو في

(١) وبه قال النووي في «رياض الصالحين» (ص٢١٧)، وابن جزي في «تفسيره» (٢/٣٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٩٨٣) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٥١).

حال النَّزْع، وقد أخبر النبيّ ﷺ عندئذ أنهما لا يجتمعان في قلب في هذا الموطن إلّا أعطاه الله ما يرجوه، وأمَّنَه ممَّا يَخاف.

فهذا الحديث يدعو إلى مزيد من النَّظَر والتأمّل في هذا القول الذي عليه كثير من أهل العلم من المحققين من السَّلَف والخلف رحمهم الله.

وقد جاء عن إبراهيم النخعي أنه قال: «كانوا يَسْتَحِبُّون أن يُلَقِّنُوا العبد محاسن عمله عند موته، لكي يُحسن ظنه بربه»[1].

وأخبارهم في ذلك كثيرة مستفيضة.

فينبغي على العبد أن يضع الرجاء في موضعه الذي وضعه الله(سبحانه وتعالى) فيه، فإذا هَمَّ بالمعصية خَوَّفَ نَفْسه من عذاب الله (تعالى)، فإِنْ غَلَبه هواه فواقَعَها خَوَّف نَفْسه بالله وبِعَذَابِهِ من أجل أن يتوب، فإذا تاب رَجَّى نَفْسه بقبول التوبة، ولا يَقْنَط ولا ييأس من رحمة الله تبارك وتعالى، وإذا نزعت نَفْسه إلى الإصرار على هذه المعصية عاتَبَ نَفْسه وذكَّرَهَا بأن الله ﷻ شديد العقاب، وأَنَّ غَضَبه لا يُقَاوَمُ، وأن عذابه لا صبر لأحد عليه؛ لِيَرْعَوِي، ويترك هذا الذنب، ولا يُصِرّ عليه، فإذا حصل في قلبه شيء من تَكَاثُر الذنوب فَتَعَاظَمها، فإنه يحتاج إلى الرجاء ليمتدّ أَمَلُه، فيكون ذلك حاملًا له على حُسْن العمل، وعلى التوبة إلى الله تبارك وتعالى؛ فالله غفور لمن أناب إليه وتاب.

هكذا ينبغي أن يكون حال العبد؛ فلا يَصِل إلى حال القنوط، ولا يزداد عنده الرجاء، فيكون قد أَمِن مَكْر الله جلَّ جلاله[2].

وفي هذا المقام ـ أعنى: كون العبد بين الخوف والرجاء، وأنه يُلَازِم كلّ واحد منهما ـ يُخْشَى عليه من آفتين اثنتين:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٢٩).

(٢) انظر: «الرعاية لحقوق الله» للحارث المحاسبي (ص٣٤٩ ـ ٣٥٥).

الأولى: استيلاء الخوف.

الثانية: استيلاء الرجاء.

والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْحِهِ له سببان:

الأول: أن يُسْرِفَ العبد على نَفْسه، ويُكْثِر من الذنوب والمعاصي، ويُصِر عليها، وعندئذ ينقطع طمعه من رحمة الله (سبحانه) لإقامته على أسباب الهَلَكَةِ، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخُلُقًا مُلَازِمًا، وهذا غاية ما يريده منه الشيطان.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بسبب ما جَنَتْ يداه من الجرائم، ويضعف عِلْمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، فيظنّ بجهله أن الله ﷻ لا يغفر له ولا يرحمه، ولو تاب وأناب، فتضعف إرادته عند ذلك، وييأس ويقنط من رحمه الله (تعالى)، ويَدَع الإنابة والتوبة.

وأمّا الأمن من مكر الله فله سببان أيضًا:

الأول: أن يكون العبد مُعْرِضًا عن دين الله تبارك وتعالى، غافلًا عن معرفة ربِّه ومليكه جل جلاله، وما له من الحقوق، متهاونًا بذلك؛ فلا يزال مُعْرِضًا غافلًا عن الواجبات، مُنْهَمِكًا في المحرَّمات، حتى يَضْمَحِل خوف الله من قلبه، ويتلاشى، ويموت هذا القلب، ولا يُوجَد فيه من الإيمان شيءٌ مؤثِّر ومحرّك إلى التوبة أو الأعمال الصالحة.

والثاني: أن يكون العبد من العُبّاد الجُهّال، فَيُعْجَب بشيء من أعماله الصالحة، فلا يزال به جهله حتى يغْتَرّ بعمله، فيترحّل الخوف من قلبه، ويرى أن له عند الله منزلةً ومقامًا عظيمًا؛ فعند ذلك يَتَّكِل على هذه الأعمال القليلة، ويُخْذَل في الحال التي يكون أحوج ما يكون فيها إلى ألطاف الله ﷻ ورحمته[١].

(١) انظر: «القول السديد» (ص٢١٤).

مَنزِلَةُ الرَّجَاءِ

عرفنا أن الرجاء حَادٍ يحدو بالعبد إلى رَبِّهِ تعالى، فـ «لولا رَوْح الرجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح، وهُدِمَتْ صَوَامِع وبِيَع وصلوات ومساجد يُذْكَر فيها اسم الله كثيرًا؛ بل لولا رَوح الرجاء لما تحرَّكَتِ الجوارح بالطاعة، ولولا رِيحُه الطيبة لما جَرَت سُفُن الأعمال في بحر الإرادات»[١].

وإذا كان العبد لا يرجو ثوابًا عند الله ﷻ، وحظًّا في الدار الآخرة؛ فلماذا يعمل؟ ولماذا يجتهد؟ ولماذا يقوم بوظائف العبودية؟ كما قال ابن القيم:

لَوْلَا التَّعَلُّقُ بِالرَّجَاءِ تَقَطَّعَتْ   نَفْسُ المُحِبِّ تَحَسُّرًا وَتَمَزُّقَا
لَوْلَا الرَّجَا يَحْدُو المَطِيَّ لَمَا سَرَتْ   بِحُمُولِهَا لِدِيَارِهِمْ تَرْجُو اللِّقَا[٢]

وقد قال بعض أهل العلم واصفًا الرجاء والخوف: «الرجاء والخوف جَنَاحان، بهما يطير المُقَرَّبون إلى كل مقام محمود، ومطيَّتان بهما يُقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود؛ فلا يقود إلى قُرْب الرحمن، ورَوْح الجِنان، مع كونه بعيد الأرجاء، ثقيل الأعباء، محفوفًا بمكاره القلوب، ومَشَاقّ الجوارح والأعضاء؛ إلّا أَزِمَّة الرجاء، ولا يصدّ عن نار الجحيم، والعذاب الأليم، مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذّات؛ إلّا سِيَاط التَّخويف، وسَطَوَات التَّعنيف»[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٢).

(٢) المصدر السابق (٢/٤٢) مع حذف ثلاثة أبيات بين البيتين.

(٣) «الإحياء» (٤/١٤٢).

وقد قال الله ﷻ عن أهل الإيمان: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فلا تتمّ للعبد العبودية إلّا بالخوف والرجاء.

❊ ❊ ❊

الرَّجَاءُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

تَقَدَّمَت الإشارةُ إلى أن نصوص الرجاء كثيرة جدًّا، ولسنا بصدد عرضها وتتبعها؛ لئلا يغْتَرَّ بها مُغْتَرّ فيَهْلِك، ولكن لا بأس بذكر طرف منها:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقد تكلم العلماء على أرْجَى آية في كتاب الله سبحانه[١]، فمنهم من قال ـ وهو المشهور ـ: إن أرجى آية في القرآن هي ما رجَّى الله ﷻ به الفاسقين العاصين الظالمين بقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد اختار ذلك جمع من الصحابة فمن بعدهم؛ كابن مسعود[٢]، وابن عمر[٣]، وعبد الله بن عمرو بن العاص[٤]، وغيرهم ﵃.

فهذه الآية أضاف الله ﷻ فيها العباد إلى نَفْسه فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾، وهم أهل الظلم والمعاصي والإسراف، وفي هذا بشارة لهم.

ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط فقال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ

---

(١) راجع «تفسير البغوي» (٢/٢٣٣، ٨/٤٥٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/٢٢٧ ـ ٢٢٨).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/٢٩٦).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/٢٢٧ ـ ٢٢٨).

ٱللَّهِۚ﴾، فغير المسرفين على أنفسهم بالذنوب والمعاصي أن يَشْمَلَهم هذا التَّلَطُّف في الخطاب من باب أولى.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن أرجى آية هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨][١].

وقال بعضهم: هي قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢][٢].

ولكن لا بد من ملاحظة أن ذلك مَقْرُونٌ بالتوبة.

وأما ما جاء في السنة من أحاديث الرجاء فكثير؛ كقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[٣].

وفي الحديث الآخر: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فقال تَبَارَكَ وتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عادَ فأَذْنَبَ، فَقَالَ: أيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فقَالَ تبارَكَ وتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثمَّ عادَ فأَذْنَبَ، فقال: أيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذنْبِي، فقالَ تَبارَكَ وتعالى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فعَلِمَ أن لَهُ رَبًّا يغْفِرُ الذَّنْبَ، ويأْخُذُ بالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[٤].

---

(١) حُكِي عن علي ﷺ. انظر: «تفسير البغوي» (٢/٢٣٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (٦٣)، عن أبي عثمان النهدي.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.

وكقوله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قدم علَى النبي ﷺ سَبْي، فإذا امرأة من السَّبْي قد تَحْلُب ثَدْيَهَا تسْقِي، إذا وجدَت صَبِيًّا في السَّبْي أخذَتْهُ فألْصَقَتْهُ ببَطْنِهَا وأرْضَعَتْه، فقال لنا النبي ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قلنا: لا، وهِيَ تقْدِر على أَلَّا تطْرَحَهُ، فقال: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[٢]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وهذا القدر القليل الذي ذكرناه يبعث على الإقبال على الله ﷻ، فينفَرِج الأمل أمام العبد بسَعَة رحمة الله تعالى، فيتوب ويُحْسِن العمل مهما كانت ذنوبه السابقة، فينبغي على العبد أَلَّا يحمله الذنب ـ وإن تكرَّر ـ على اليأس والقُنوط؛ بل عليه أن يتوب، وهو بندمه وتوبته وإقباله على الله ﷻ ليس بمنافق؛ فالمؤمن هو مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وساءَتْهُ معْصِيَتُهُ. وكم غر الشيطان بهذه الخُدعة من أقوام، فتركوا صراط الله المستقيم، نعوذ بالله مِنَ الخذلان.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٤).

عَلِّق رَجَاءَك بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

تقدّم أن الرجاء يتعلَّق بالخير؛ فالراجي يطلب حصول المنافع والأمور الخيِّرَة المحبوبة، وهو أيضًا في نَفْس الوقت يخاف من الشر.

ومعلوم أن الذي يأتي بالحسنات والسيئات إنما هو الله وحده لا شريك له، فهو يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، فكل خير ونعمة تنال العبد، فإنما هي مِنَ الله جل جلاله، وكل شَرٍّ ومصيبة تندفع أو تنْكَشِفُ عنه، فإن الذي يمنعها هو الله، فهو وَحْدَهُ القادر على كَشْفِ الضرِّ والبؤس، فهي وإن جَرَتْ بعض أسباب كشفها على يَدِ بعض المخلوقين، أو جَرَتْ بعض أسباب تحصيل المنافع على يد بعض المخلوقين، فإن الله ﷻ خالِقُ الأسباب كلها، ولا حول ولا قوة إلّا به، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وإذا كان الأمر بهذه المثابة؛ فينبغي للإنسان أن يطلب ذلك من الله وحْدَهُ، فيكون رجاؤه مُعَلَّقًا بالله، وخوفه من الله دون ما سواه؛ لأن المخلوق لا حول له ولا طَوْلَ ولا قُوّةَ، فالله هو مُسَبِّب الأسباب، وهو خالق كل شيء، ونواصي العِبَادِ تحت قَبْضَته وتَصَرّفه، وأزِمَّة الأمور إليه؛ فينبغي أن نُقْبِل عليه خوفًا ورجاءً.

وقد قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى

أن ينفعوك بشيء لم يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيء قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، ولَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ»(١).

فلا حاجة لأن يُذِل العبد نَفْسه للخَلْق؛ فهم عبيد ضعفاء، ولا يملكون لأنفسهم حولًا ولا طَوْلًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فالاعتماد على المخلوقين، وتعليق القلب بهم؛ هو أحد أسباب الحرمان، بل هو أحد أسباب نزول المكْرُوه بهذا الخَائِفِ، «فإنه على قَدْرِ خَوْفِكَ من غير الله يُسَلَّطُ عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان»(٢). ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]؟! أي: زادوهم خوفًا.

فعلى قدر نَقْص الرجاء من الله يكون رجاء المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف من الله يكون الخوف من المخلوق، ومَنْ عَمِلَ لِغَيْرِ الله رجاء أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وكما قيل: «اسْتَغْنِ عَمَّن شِئْت تَكُن نَظِيرَه، وَأَحْسِن إلى مَن شِئْت تَكُن أَميره، واحْتَج إلى مَن شِئْت تَكُن أَسيره»(٣).

وذكر الحافظ ابن كثير قول المتنبي في مدح بعض الملوك الذين كانوا يُستمنح منهم العطاء:

يا من ألوذ به فيما أُؤمّله ... ومن أعوذ به مما أُحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابِرُه

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) «الفوائد» (ص٧٢).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١/٣٩).

ثم عقّبها ابن كثير بقوله: «وقد بلغني عن شيخنا العلّامة أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله أنه كان يُنكر على المتنبي هذه المبالغة، ويقول: إنما يصلح هذا لجَناب الله عز وجل.

وأخبرني العلّامة شمس الدين ابن القيم رحمه الله أنه سمع الشيخ يقول: رُبّما قلت هذين البيتين في السجود»[1].

* * *

(١) «البداية والنهاية» (١٥/٢٧٨).

دَرَجَاتُ الرَّجَاءِ

الرجاء ليس على مرتبة ودرجة واحدة، بل هو على درجات، يزيد وينقص كغيره من الأعمال القلبية.

فالإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، يزيد وينقص، وهكذا الخوف والتوكّل والمحبَّة والشكر والحَمْدُ إلى غير ذلك، وكذلك الرجاء، وعليه فيمكن أن نجعله ثلاث درجات:

الأولى: أن يعظُم في ظاهره حتى يصيرَ من قبيل الأمن مِنْ مَكْرِ الله ﷻ، فهذا أمرٌ مُحَرَّم، وهو أحطّ هذه الدَّرَجات.

الثانية: رجاء من فَرَّط، ويرجو أن يغفر الله له، لكن من غير توبة، مع خَوْفٍ من الله ﷻ، فلم يصل إلى حَدِّ الأمن من مكر الله.

الثالثة: هي الدرجة العليا، وهي أن يرجو رحمة الله ومغفرته، مع التسبب، والعمل الصالح، والإقبال على الله ﷻ بِكُلّيته، فإن صدر منه تقصير استغفر، وتاب، وسارَعَ بالإنابة إلى ربه ومليكه[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «التسهيل» لابن جُزَي (٢/٣٥).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الرَّجَاءِ

الحديث عن تنمية الرجاء في النفوس مُرْتَبط بأمر قد سَبَقَ التَّنْبِيه عليه، وهو أن الرجاء إنما يُخَاطَب به مَنْ كَانَ الخوف غالبًا عليه حتى أَضَرَّ به، أو بمن معه من أهل وولد، أو أن يكون قد قارف ما قارف من الرَّزايا والبلايا والذنوب حتى بلغ به الأمر إلى حد اليأس من رحمة الله ﷻ، فمثل هذا يُخَاطَب بهذه النصوص.

ومن جهة أخرى، فإن بعض فروعه ربما يحتاجه الواحد منَّا لنفسه أو لغيره في مواطن ليست بالقليلة، فالمريض، أو مَنْ خَسِرَ في تجارته، أو من أصيب بمصيبة، أحيانًا قد يحصل له من اليأس ما يَتَمَنَّى معه الموت، كما يقول أحدهم[(١)]:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فالإنسان قد يبلغ أحيانًا إلى حد اليأس والقنوط، فتُظْلِم الدنيا في عينيه؛ نظرًا لفشل في دراسته، أو في وظيفته، أو لمرض نزل به، أو لغير ذلك من الإيلام الذي لا ينفك عنه أحد، فيحتاج إلى فتح باب الأمل والترجية، وأن هذا الذي وقع له ليس هو نهاية المطاف، بل يمكن أن يُسْتَدْرَك، وأن يُحَصِّل بتوفيق الله من فضل ربه أضعاف أضعَاف ما فاته.

---

(١) «ديوان المتنبي» (ص ٧٤١)، مع «العرف الطيب».

ونحن حينما نَهْدِف إلى تنمية الرجاء في الأحوال التي نحتاج فيها إلى ذلك، فإننا نعمد إلى جملة أمور لا بد من ملاحظتها، وهي:

أولًا: ملاحظة إفضال الله على عباده، وذلك من جهات عدة، منها:

- ذكر سوابق فضل الله على عباده؛ من عافية، وهِدَايَة، وصلاح حال، وأرْزَاق من الأموال، وإنجازات كثيرة، ولكن أيام العافية تُنْسَى سريعًا، وإنما يتذكر الإنسان أيام البلاء والمصائب: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

- كما يجب النَّظَر في تفضُّل الله بمنته وكرمه على عبده بدون سؤال منه أو استحقاق؛ فإن الله تعالى يعطينا، ويُغْدِق علينا من فُيُوض النِّعم الظاهرة والباطنة، دون أن نكون مُستحقين لذلك.

- كما ينبغي ملاحظة حال أهل الرجاء، وما تم لهم من فضل، بحُسْن ظنهم بربهم وحُسْن أعمالهم.

ثانيًا: تذكر سعة رحمة الله، وأنها سبقت غضبه، وأنه الرحمن الرحيم، الكريم الرؤوف بعباده: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

فقُوَّة الرجاء على حسب قوة معرفة العبد بربه، وبأسمائه وصفاته، وأنَّ رَحْمَتَهُ غلبت غضبه.

ثالثًا: أن نُنَمِّي محبَّةَ الله ﷻ في القلوب:

«فعلى قَدْرِ تمَكّنِ محبَّةِ الله ﷻ من القلب يتنامَى خوفه من الله وتعظيمه ورجاؤه»[1].

رابعًا: تدَبُّر آيات القرآن:

وهذه حال الأبرار المتقين، فتجد الواحد منهم يناجي ربه بكلامه، وليس شيء أنفع للقلوب من تدبر آي القُرْآن؛ «فَتَجْذِب قلبه وروحه آيات

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٣).

المحبّة والوداد، وتُطَيِّب له السير آيات الرجاء والرحمة، وسعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يُطَيِّب له السير ويُهوّنه.

وتُقْلِقُه آيات الخوف والعَدْل والانتقام، وإحلال غضبه بالمُعرضين عنه، العادلين به غيره، المائلين إلى سواه»(١).

خامسًا: استغلال العبد الأوقات والأحوال الشريفة:

«فكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوى الرجاء لإصابة نَفَحَات الرحمن ﷻ في الأوقات الفاضلة، والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الدواعي والهِمَم، وتساعدت القلوب، وعظُمَ الجَمْع، كجمع عرفة والجمعة، فإن اجتماع الهِمَم والأنفاس أسباب، نَصَبَها الله مُقْتَضِيَة لحصول الخير، ونزول الرَّحْمَة. وهذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مُسَبَّباتها، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحَسَن، وبظلمه يُؤْثر ما يحكم به هذا المحسوس العاجل ويقْتَضِيه على ما يحكم به الآخر ويقْتَضِيهِ. ولو فَرَّغَ العبد المحلّ، وهيَّأه، وأصلحه لرأى العجائب؛ فإن فضل الله لا يردّه إلّا المانع الذي في العبد»(٢).

وكان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي يدعو بعد دروسه التي كانت تُعْقَد في المسجد النبوي في رمضان، ويؤمِّن الحاضرون على دعائه، وربما نبَّه على سبب ذلك؛ وهو أن ذلك الجَمْع يُرْجَى عنده أن تتنزّل رحمة الله تبارك وتعالى، لا سيما مع الصيام، أو لعله يُوجَد في هؤلاء مَنْ تُجَاب دعوته؛ فإن المُؤَمِّن داع كما هو معلوم(٣).

---

(١) «طريق الهجرتين» (٤٥٩/١) وما بعدها.

(٢) «عدة الصابرين» (ص١١٠ ـ ١١١) بتصرف.

(٣) انظر: «العذب النمير» (٣٠/١)، (٤٣٠/٣).

سادسًا: تحقيق التوحيد بأنواعه الثلاثة:

توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا هو السبب الذي مِنْ أجْلِهِ ينزل الفَرَج على أهل الكروب، فإن المكروب يجيب الله ﷻ دعوته: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٢]؛ وذلك أن أمَلَهُ ورجاءه ينقطع من المخلوقين بالكلية، فلا يبقى له رجاء ولا تعلّق إلّا بالله الواحد الأحد.

سابعًا: مدافعة العَبْدِ اليأس والقنوط من قلبه:

فالمؤمن لا مَحلّ للقنوط واليأس في قلبه بِحَالٍ مِنَ الأحوال، فهو يجتهد في مدافعة هذا الداء؛ لأن حصول اليأس في قلب الإنسان أمرٌ قد يغلبه. والقاعدة أن الشارع إذا أمر بِأَمْر، ولم يكن مقدورًا للمكلّف، فإن ذلك يتوجه إلى سببه، أو إلى أثره، فينبغي للإنسان أن يُفَتِّشَ في الأمور التي تبعث الأمل في قلبه، فينَمِّيهَا، كما يُفَتِّش في الأمور التي تسْتَوجب اليأس فيدفعها عن قلبه، فإذا مَرَّنَ الإنسان نَفْسه على هذا نفعه في إزالة هذا اليأس بإذن الله، ولو فَرَّطَ فرُبَّمَا أدى به تفريطه إلى الهلاك في دنياه وآخرته.

فإذا علم العبد أن الله غفورٌ رَحِيم، وأن الله يقبل توبة التائبين، وأنه لا يتعاظمُه ذنب، وتأَمَّلَ المعاني الدالَّة على لطفه بعبده ورحمته به؛ انفرج قلبه، واتَّسَع الأمل فيه، وعَظُمَ فِيهِ الرَّجَاء، فيحصل له الطَّمَع بمغفرة الله ﷻ، وقبول توبته، فيُقْلِع عن الذنوب والمعاصي، ويترك حاله السابقة، ويُنِيب إلى ربه ﷻ.

ولا بد أن يُعلَم أن الرجاء ممدوح نقلًا وعقلًا، كما أن اليأس مذموم نقلًا وعقلًا، ولا ريب أن الشارع مَدَح الرجاء، وأمر به بكل وسيلة توصل إليه، وذمَّ اليأس، ونهى عنه، وأخبر أنه من موبقات الذنوب؛ وذلك لما يترتب على الرجاء من المصالح والثمرات النافعة، وما ينشأ عنه من الأسباب الموصلة للمقاصد الجليلة، وما يترتب على اليأس من أضداد ذلك.

ثَمَرَاتُ الرَّجَاءِ وَآثَارُهُ السُّلُوكِيَّة

من ثمرات الرجاء:

أولًا: إظهار العبودية والفاقة لله ﷻ:

فهو مُسْتشرِف إلى إحسان الله، غير مستغن عن إفْضَالِهِ طَرْفَةَ عين.

ثانيًا: أن الرجاء محبوب لله:

فالله ﷻ يُحِبّ مِنْ عِبَادِهِ أن يرجوه، ويُؤَمِّلوه، ويسألوه من فضله؛ لأنه المَلِك الحق الجواد، فهو أجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وأوْسَع من أعْطَى، وأحب ما إلى الجواد أن يُرْجَى ويُسْأَل.

ثالثًا: أن الراجي يَتَخَلَّصُ مِنْ غَضَبِ الله ﷻ:

فَمَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يغضب عليه، والسائل راجٍ وطالب.

رابعًا: «أن الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سَيْرِهِ إلى الله ﷻ:

فيُطَيِّبُ له المسير، ويحثّه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحْدَهُ لا يُحَرِّكُ العبد، إنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء»[1]. ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥٠) بتصرف.

خامسًا: «أن الرجاء يَطْرَحُنَا على عتبة المحبَّةِ:

فإنه كلما اشتد الرجاء وحصل المرجو ازداد العبد حبًّا لربه تعالى، وشكرًا له، ورضًا به وعنه»[(١)].

سادسًا: أنه يُوصِّل العبد إلى أعلى المقامات:

وهو مقام الشكر؛ لأن الإنسان إذا حَصَّل مرجوَّهُ، فإن ذلك مُؤْذِن بزيادة شكره، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

سابعًا: أنه يُوجِب للعبد المزيد مِنْ معرفة ربِّه ومعاني أسمائه والتعلّق بها:

فإن الراجي ـ كما سبق ـ مُتَعَلِّق بأسماء الله الحسنى، ومتعبِّدٌ ودَاعٍ بها.

ثامنًا: أن المحبة لا تَنْفَكّ عن الرجاء بحال مِنَ الأحوال:

ومِنْ ثَمَّ فَإِنَّ كل واحد منهما يمدّ الآخر ويقوّيه.

تاسعًا: أن الخوف مُسْتَلْزِم للرجاء:

وبناء عليه فإن الرجاء يُنَمِّي الخوف في قلوبنا، وإذا اسْتَحْكَمَ حصل للقلب من التخشّع والتذلّل نحو ما يحصل له إذا استحكم الخوف فيه، فالخوف والرجاء متلازمان؛ وذلك أن الخائف في حال خوفه يرجو خلاف ما يخافه، كما أن الراجي في حال رجائه يخاف خلاف ما يرجو، ويستعيذ بالله مما يخاف، ويسأله صَرْفه، فلا خائف إلّا وهو راج، ولا راج إلّا وهو خائف، ولأجل تَنَاسُب الأمرين قَرَنَ الله تعالى بينهما في غير آية من كتابه، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال في قوم مَدَحهم وأثنى عليهم: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠][(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥٠) بتصرف.

(٢) انظر: «شعب الإيمان» (٣/٧).

عاشرًا: أن العبد إذا تَعَلَّقَ قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رَجاه، كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يَرْجُه.

حادي عشر: «أن في الرجاء من الانتظار والتَّرَقُّب والتوقع لفضل الله:

ما يُوجِب تَعَلُّق العبد بذكره، ودوام الالتفات إليه؛ بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقّل القلب في رياضها الأنيقة»(١)، فيلتذّ العبد بدوام الإقبال على الله ﷻ، ويتنَعّم بمناجاته. وهذه تظهر على من رجا أحدًا من البشر، فكيف بمن رجا الله ﷻ؟!

ثاني عشر: أَنَّ فَقْدَ هَذِهِ الخَلّة يُورِث كُلَّ قبيح، ويحمل على أمور سيئة:

كالطغيان مثلًا؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

ومما يحصل لفاقد الرجاء من الآفات والمفاسد: أنه يكون في حال من الإعراض عن وحي الله ﷻ الذي يَتَضَمَّنُ الشفاء الكامل، والهدى التام.

وكذلك، فإن الإنسان إذا ضعُف رجاؤه زاد كسله وفتورُهُ، وأقعده ذلك عن تحصيل المطالب العالية، والمراتب الرفيعة في سُلَّم الكمال والعبودية، فَتَنْحَطّ مَرْتَبَتُهُ، ويجتَرِئُ على السيئات، وتدعوه نفسه الأمَّارة بالسوء إلى فعل كل قبيح، فيكون مُنقَادًا لها؛ لأنه ليس عنده من رجاء الله ﷻ ومن خَوْفِهِ ما يكسر سَوْرَة النَّفْس، ويدفع شرها، فلا يزال من كان كذلك مُكِبًّا على الذنوب والجَرَائم، حتى يكون هالكًا في نَفْسه، مُهْلِكًا لغيره؛ لأن مَنْ ظَنَّ أنَّ مَصِيرَهُ الهَلاك المُحقَّق، فإنه يَودّ عادةً أن يجرّ الآخرين جميعًا إلى نَفْس المصير(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥١).

(٢) راجع: «الفتاوى السعدية» (ص٦٤١ ـ ٦٤٢).

ثالث عشر: حُسْن الظن بالله يُبَلِّغُ العبد آماله بإذن الله ﷻ:

فيحصل له مرجوّه في عاجل أمره وآجلِهِ، وذلك مصداقًا لِقَوْلِ الله تبَارَكَ وتَعَالى، كما في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»(١).

وتأمل في أحوال مَنْ أحْسَنُوا الظَّنَّ بِرَبِّهِمْ، وما أحْرَزُوه في دنياهم قبل آخرتهم.

ولما أوصى الزبير بن العوام ابنه عبد الله ﭭ بِدَيْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ، قال له: «يا بني! إن عجزت عنه في شيء فاستعن عليه مولاي»، قال ـ عبد الله ـ: فوالله ما دريتُ ما أراد حتى قلتُ: يا أبت! من مولاك؟ قال: «الله».

قال: فوالله، ما وقعتُ في كربة من دَينه إلّا قلتُ: يا مولى الزبير، اقْضِ عَنْهُ دَينه، فيقضِيه(٢).

وهذه امرأة فرعون، أوْتَدَ فرعونُ لها أربَعَةَ أوْتَاد في يَدَيْهَا ورِجلَيْهَا، فكان إذا تفرَّقوا عنها ظَلَّلَتْها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فكُشِفَ لها عن بيتها في الجنّة(٣).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢٩) عن عبد الله بن الزبير ﭭ.

(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٦٤٣١)، موقوفًا على أبي هريرة ﷺ. وصححه الحافظ في «المطالب العالية» (٣٧٦٢).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الرَّجَاءِ

١ ـ عن حيان أبي النضر قال: دخلتُ مع واثلة بن الأسقع ﷺ على أبي الأسود الجُرَشي في مرضه الذي مات فيه، فسَلَّمَ عليه وجلس، فقال له واثلة: واحدة أسألك عنها، قال: وما هي؟ قال: كيف ظنك بربك؟ قال: فقال أبو الأسود، وأشار برأسه، أي: حَسَن. قال واثلة: أَبْشِرْ، إني سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»[1]. وفي رواية: كيف ظنك بالله؟ قال: اعترضتني ذنوب لي أَشْفَيتُ منها على هَلَكة، ولكن أرجو رحمة الله، فكبر واثلة، وكبَّر أهل البيت بتكبيره، وقال: الله أكبر، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:... وذكر الحديث[2].

٢ ـ ولما احتضر ابن المبارك فتح عينه فَضَحِكَ، وقال: «لمثل هذا فليعمل العاملون»[3].

٣ ـ وعن عبد الله بن محمد المُقْرِئ، قال: لما احتُضِر بِشْر بن منصور السَّلِيْمِي ضحك، وقال: «أخرج مِنْ بَيْن ظَهْرَاني مَنْ أَخَافُ فِتْنَتَهُ، وأَقْدِم على مَنْ لا أشك في رحمته»[4].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧٦/٣٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٩٨).

وقيل له: أَوْصِ بِدَيْنِكَ، قال: «أنا أرجو ربي لذنبي، أفلا أرجوه لِدَيْنِي؟! فلما مات قضى عَنْه دَيْنَهُ بعض إِخْوانه»[١].

٤ ـ وهذا سفيان الثوري يقول: «ما أُحِب أن حسابي جُعِل إلى والديَّ، ربي خير لي من والدي»[٢].

٥ ـ وقال عبد الله بن المبارك: جئت إلى سفيان ـ الثوري ـ عَشِيَّةَ عَرَفَة، وهو جَاثٍ على رُكْبَتَيْهِ وعَيْنَاه تهملان... فقلت له: من أسوأ هذا الجَمْع حالًا؟ قال: «الذي يظن أن الله ﷻ لا يغفر له»[٣].

٦ ـ عن إدريس بن عبد الله المروزيِّ قال: «مرض أعرابي، فقيل له: إنك تموت، قال: وأين أذهب؟ قالوا: إلى الله ﷻ، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلّا منه»[٤].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (١٢٤).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٣٧).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن» (٧٧).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٤٠).

الخَوف

تَوْطِئَة

إن من أعظم دعائم التقوى: الخوف من الله ﷻ؛ وذلك أن العبد إذا خاف الله اتقاه بفِعْل ما أمره ربه، وتَرْك ما نهاه عنه، بل إن ذلك الخوف يسوقه إلى المبادرة والمسارعة في فعل الخيرات. وأما إذا قلَّ خوف العبد من ربه وخالقه، فإنه يكون أكثر جُرْأة على حدود الله، وانتهاكًا لمحارمه.

وقد جعلتُ الحديث عن الخوف بعد الحديث عن الرجاء؛ وذلك أن الله تبارك وتعالى لما وَصَفَ أهل العبودية الخاصة قال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ فَقَدَّمَ الرَّجَاءَ على الخَوْفِ.

وفي الحديث القُدسي: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(١)، فكان ذلك مما يدعو إلى تقديم الرَّجَاء على الخوف. وليكون ذلك في مقابل ما تقدم من الحديث عن الرجاء؛ فيحصل الاعتدال في تحصيل هذه الأعمال الجليلة، والتَّحلِّي بها من ناحية أخرى.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه بهذا اللفظ البخاري (٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٤)، ومسلم بنحوه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مَعْنَى الخَوْف وَحَقِيقَتهُ

الخوف في اللغة:

مادة: (خوف) تدل على الذُّعر والفَزَع[١].

الخوف في معناه الشرعي:

«هو اضطراب القلب وحركته من توقّع حلول مكروه أو تذكُّرِ المَخُوف»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «العباب الزاخر» (٤٠٩/١)، و«مقاييس اللغة» (٢٣٠/٢).

(٢) انظر: «مفردات القرآن» (ص١٦١)، و«مدارج السالكين» (٥١٢/١).

الفُرُوقَاتُ فِي بَابِ الخَوْف

أولًا: الفرق بين الخَوْف والحزن:

الخوف يكون لشيء مستقبل. أما الحزن، فيتعلق بأمر فائت.

ورُبَّما استُعمِل أحدهما في موضع الآخر(١).

ثانيًا: الفرق بين الخوف والخشية:

الخشية أخصّ من الخوف، فهي خوف يصاحبه علم، ينبئ عن إجلال وتعظيم؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِالله، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»(٢).

ومِنْ ثَمَّ، فإنه على قَدْرِ العلم النافع تكون الخشية، أمَّا العلم الضارّ فإنه لا يزيد الإنسان إلّا بُعْدًا عن الله ﷻ؛ ولهذا فمرتبة الخشية أعلى من مرتبة الخوف.

ثالثًا: الفرق بين الإشفاق والخوف:

الإشفاق إذا عَدَّيْتَهُ بـ «في»، أو «على» دَلّ على العناية بهذا المُشْفَق، والرَّحْمَة به، والحرص عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، وكقولك: فُلان يُشفق على ولده.

---

(١) «زاد المعاد» (١/١٧٧) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة ﵂.

أما إذا عديته بـ «من»؛ كقولك: فلان يُشفق من كذا، دلَّ على معنى الخوف وزيادة.

قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فَلَوْ كَانَتِ الخشية بمعنى الإشفاق لما ذكر هذا وهذا.

فدلَّ على أن الإشفاق أخصّ من الخشية، وأخصّ من الخوف، فهو خشية مقرونة بضعف ورِقَّة وتضَرّع إلى المخشيّ منه، فليس كل خائف مُشْفِقًا.

رابعًا: الفرق بين الرَّهْبَةِ والخوف:

الرهبة أخصّ من مُطلق الخوف، فهي خوف مع تحرّز واضطراب الخائف وارتعاده، فيحصل له بسبب ذلك رَهْبة تُخالِج شعورَه، فتَدْفَعه إلى مُجَانَبة مَوَاطِن الهَلَكة؛ فيحصل له الإمعان في الهَرب من المكروه(١).

* * *

(١) ينظر: «المدارج» (٥١٢/١).

مَنزِلةُ الخَوف

الخوف: «من المقامات العَلِيَّة، وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٥].

قال ابن سعدي: «وفي هذه الآية: وجوب الخوف من الله وحْدَه، وأنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الإيمان، فعَلَى قَدْرِ إيمَانِ الْعَبْدِ يَكُون خَوْفُهُ مِنَ الله»[١].

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، فـ «الخوف هو عَلامَةُ صِحَّةِ الإيمان، وتَرَحُّلُه من القلب علامة ترحّل الإيمان منه»[٢].

قال وَهْب بن مُنَبِّه: «ما عُبِدَ الله بمثل الخوف»[٣].

وقال أبو سليمان الداراني: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى»[٤].

وقال ابن قدامة: «فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه؛ فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة. قال الله

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٢٦٢).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٥١٥).

(٣) «مجموع رسائل ابن رجب» (٤/٩٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٥٩).

تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]»[١].

ومَن تأمَّل كتاب الله ﷻ، وأدارَ فيه فِكْرَه، وهكذا مَنْ نَظَرَ في سنة رسول الله ﷺ، وحَالِ السَّلَفِ الصالح ﷺ؛ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَلَغُوا أعلى المقامات بسبب ما وَقَعَ فِي قلوبهم من إجلال الله، وخَوْفِه، وخشيته، وتعظيمه، وتقواه. فهذا هو الذي حملهم على الجِدِّ والاجْتِهَادِ في الطاعة، ونشر دين الله ﷻ في الآفاق، وكفّ النفوس وفَطْمها عن شهواتها وأهوائها؛ فكان لهم تلك المنزلة التي لا يُدَانِيهَا أحد ممَّن جَاء بعدهم، وأنَّى لهم بذلك؟ كيف لا وقد قال قائلهم ـ وهو عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ ـ: «لأن أدمع دمعة من خشية الله ﷻ أحبّ إلي مِنْ أَنْ أتصدَّق بألف دينار»[٢].

وعن أبي أُمامة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى الله مِنْ قَطْرَتَيْنِ وأَثَرَيْنِ: قَطْرَةِ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ الله...»[٣].

وقال حاتم الأصم: «لكل شيء زِينة، وزِينة العبادة الخوف»[٤].

وقد قيل: «ما لِلْعَبْد صاحب خير من الخَوْف والهمّ، فيما مضى من ذنوبه، وما ينزل به»[٥].

* * *

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٦).

(٢) «صفة الصفوة» (١/٦٥٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٦٩) وحسنه، ووافقه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٨٦).
راجع: «السبيل الهاد» (١٠٨).

(٤) «الرسالة القشيرية» (١/٢٥٤).

(٥) «تاريخ الإسلام» (١٣/٢٣١) ونسبه لشقيق البلخي.

الخَوف فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

النصوص الواردة في الخوف كثيرة جدًّا، نكتفي بذكر بعضها.

أولًا: الخوف في القرآن الكريم:

لقد تنوعت النصوص الواردة في الخوف في كتاب الله تعالى:

فتارة: يأمر الله ﷻ به، كما في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وتارة: **يجعل أهل الخوف هم أهل الاعتبار والانتفاع بالمواعظ والقرآن والذكر؛ كما قال الله ﷻ**: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وتارة: **يجعل الخوف من صفات خاصة أوليائه وعباده المتَّقِينَ؛ كما قال الله ﷻ**: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

وتارة: **يذكر أنه أدخلهم الجنة بسبب خوفهم**: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال أهل الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧].

ولهذا قال إبراهيم التيمي: «ينبغي لمن لم يُشفق أن يخاف ألَّا يكون من أهل الجنَّة؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]»[١].

ثانيًا: الخوف في السنة:

عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟»، قال: والله يا رسول الله! إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ الله مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ سَلَفَ... أَعْطَاهُ الله مَالًا وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الوَفَاةُ، قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ[٣]... عِنْدَ الله خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ الله عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي... فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي، فَفَعَلُوا، ثُمَّ أَذْرَوْهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَقَالَ الله ﷻ: كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ، قَالَ الله: أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ ـ أَوْ: فَرَقٌ مِنْكَ ـ قَالَ: فَمَا تَلاَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا»[٤].

***

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢١٥/٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أي: لم يُقَدِّم لنفسه خَبيئة خير ولم يَدَّخر. «النهاية» لابن الأثير (٢١٥/١)، مادة: (بأر).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٨١، ٧٥٠٨).

المُفَاضَلَةُ بَيْنَ الخَوْفِ والمَحَبَّةِ

رَجَّحَ بعض أهل العلم المحبَّة على الخوف.

يقول يحيى بن معاذ: «حَسْبُك من الخوف ما يمنع من الذنوب، ولا حَسْب من الحُبّ أبدًا»[1]. يعني: أن الخوف إنما يكون بالقدر الذي يحجز العَبْدَ عن فعل الذّنوب، ويحثه على القيام بوظائف العبودية، فإذا زاد أورث القنوط. وأما المحبة: فإنه لا حَدَّ لَها.

وقال ابن القيم: «الخوف يَتَعَلَّق بالأفعال، والمحبة تَتَعَلَّق بالذات والصفات؛ ولهذا تَتَضَاعَف مَحَبَّة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النَّعِيم، ولا يَلْحَقهم فيها خوف؛ ولهذا كانت مَنْزِلة المحبة ومَقَامُها أعلى وأرفع من مَنْزِلة الخوف ومَقَامه»[2].

❊ ❊ ❊

(١) «التخويف من النار» (ص٣٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٥١٤).

أَنْوَاعُ الخَوْفِ(١)

تَقَدَّمَ أن الشيء قد يُنْظَر إليه من نواحٍ متعددة، فيتنوّع باعتبارات مختلفة.

فإذا نظرنا إلى الخَوْف مِن جِهَة الحكم التكليفي؛ فإننا نجد أنه ينقسم إلى: مشروع، وممنوع، ومباح.

أولًا: الخوف المشروع:

وهو خوف العبادة؛ وهو الخوف من الله وعذابه، ما لم يُوقِع صاحبه في القنوط واليأس من رحمة الله ﷻ، وإلا كان مُحرَّمًا، وهو بهذا الاعتبار مِنْ أَفْضَلِ المقامات وأجلّها ـ كما سبق ـ كما قال الله ﷻ يَمْدَحُ خَاصَّة أَوْلِيَائه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وإنما القَدْر الواجب منه ما حمل على تَرْك المحرَّمَات وفِعْل الواجبات، والقَدْر المستحَبّ منه: ما حثَّ صَاحِبَه على فِعْل المُستحبَّات، وتَرْك المكروهات والاسترسال مع المباحات، فإذا تزايد فإنه يُورِث القنوط، وبهذا يكون محرَّمًا(٢).

ثانيًا: الخوف المحرم:

وهو ثلاثة أنواع:

الأول: ما زاد حتى أورث صَاحِبَهُ القنُوط، وهذا لا يجوز.

---

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٢٣، ٤١٦ ـ ٤١٨)، و«القول المفيد على كتاب التوحيد» (٢/٦٧ ـ ٦٨).

(٢) انظر: «التخويف من النار» (ص٣٩).

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بوظائف العبودية خوفًا من الناس، وهذا أمر محرَّم، وهو نقص في كمال التوحيد؛ ولذلك وصف الله ﷻ خاصة أوليائه بأنهم لا يخافون في الله لومة لائم، فهم يُقَدِّمُونَ رضا الله ﷻ والخوف منه على لَوْم المخلوقين وخَوْفِهِمْ، وهذا يدل على قوّة هِمَمِهِمْ وعزائمهم في عبوديَّتِهِمْ لله تبارك وتعالى.

وهذا هو الذي بايع النبي ﷺ أصحابَهُ عليه؛ كما في حديث عبادة ﷺ: «بَايَعْنَا رسُول الله ﷺ على السَّمْع والطاعَة في المنْشَطِ والمَكْرَهِ، وألا نُنَازِعَ الأمْر أهْلَهُ، وأن نقولَ بالحَقِّ حيثُمَا كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»[(١)].

فإذا نقص خوف العبد من الله ﷻ خاف من المخلوقين، وعلى قَدْر نقص الخوف من الله تعالى يكون الخوف من المخلوقين مُتَعَاظِمًا في قلب العبد، وإذا كان الخوف مِنْ غَيْرِ الله يُزَاحِم الخوف من الله جَلَّ جَلالُه، فيترك أمر الله، أو يرتكب معصيته خوفًا من المخلوقين؛ فهذا من الشِّرْك الخَفِيّ، ولا يكاد يسلم منه أحد إلّا مَنْ رَحِمَ الله ﷻ وعُصِم.

وقد جاء في الحديث بأن الشرك في هذه الأمَّةِ أخْفَى من دبيب النمل[(٢)]. وطريق التخلص من ذلك كله الإخلاص لله ﷻ، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠][(٣)].

الثالث ـ من أنواع الخوف المحرم، وهو أعظمها وأشدها ـ: ما يسمى بخوف السرّ؛ وذلك أن يعتقد في ميِّت مقبور، أو صنم، أو أحد من الأحياء أنه يَمْلِكُ مِنَ القُوَى الخارقة ما يطَّلع فيه على بواطِنِهِ، أو أنه يستطيع أن

(١) أخرجه البخاري (٧١٩٩، ٧٢٠٠) واللفظ له، ومسلم (١٧٠٩).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٩٤/١).

يُوصِل إليه أنواع الأضرار والمخاوف والمكَارِه، فتجده وهو بعيد عنه يخافه ويتَّقِيه، ولا يُحَدِّث نَفْسه بأمرٍ يكرهه؛ فهذا من أعظم الشِّرْك، وهو الذي كان عليه أهل الإشراك؛ حيث كانوا يخافون أصنامهم وأوثانهم، ويعتقدون فيها أنها تُوَصِّل النفع والضر، وقد خَوَّفوا منها إبراهيم ﷺ، فرد عليهم بقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١].

فهذا النوع من أعظم الإشراك بالله تعالى. وتجد في بعض البلاد إذا اسْتُحْلِف الرجل بالله ﷻ حلف وهو كاذب، وإذا استُحْلِف بأحد هؤلاء فإنه لا يحلف. وما ذاك إلّا لأن المقبور أخوف عنده من الله.

فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، ويحتاج إلى تصحيح الإيمان وتجديده، وإلى توبة عظيمة.

ثالثًا: الخوف الجائز:

وهو الخوف الجِبلِّي؛ كما وصف الله ﷻ به موسى عليه الصلاة والسلام حينما قَتَل القِبْطِي، قال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

وكمَنْ يَخَافُ مِنَ السُّرَّاق، والسِّبَاع، والحيَّات، والهَوَام، ونحو ذلك، فهذا أمر يقع في جِبلَّةِ الإنسان وطبيعته، وهذا ليس بمذموم، لكنه قد يكون وَهْنًا، فيخاف الإنسان أمورًا ليست مَخُوْفَة، ولا يحصل منها أذى ولا ضرر، فيكون ذلك لونًا من الجُبْن والضعف والهَلَع الذي لا محل له، فيكون نقصًا في كمال الإنسان ومروءته، لكنه لا يتعلق به الحكم الشَّرْعي.

والخوف من الظالمين والمعْتَدِين أن يظلموه خوفٌ طبيعي أيضًا، فإذا زاد فترك أمر الله ﷻ، وارْتَكَبَ نهيه من أجل ذلك كان نقصًا في كمال التوحيد.

والخلاصة: أن الخوف؛ منه ما يكون خوف عِبَادة، وذلك خوف التذلّل والتعظيم والخضوع، وهكذا خوف السِّر إذا صَرَفَهُ لِغَيْرِ الله ﷻ، فإنه يكون من قبيل الإشراك.

وأما الخوف الطبيعي الجِبِلِّي فهو في الأصل مباح، فإن استلزم محرَّمًا صَار محرَّمًا.

أما الخوف المحمُود: فهو الخوف من الله ﷻ، ومن عقابه، ومِنْ وَعِيدِهِ.

❊ ❊ ❊

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الخَوْفِ مِنَ اللهِ

عامَّة الناس بحاجة إلى معالجة الخوف وتنميته في قلوبهم، وذلك للتقصير الظاهر في هذا الجانب، ويمكن ذلك بأمور، منها:

أولًا: تفريغ القلب من الخوف من غير الله، ومَلْؤُه بالخوف منه سبحانه:

وهذه قضية جليَّة من الشاهد، فإن الإِنَاءَ مثلًا إذا كان مُمْتَلِئًا بالخَلّ؛ فإنه لا يمكن أن يُوضَع عليه اللبن، بل لا بد من تَفْرِيغه أولًا من الخَلّ، ثم بعد ذلك يُمكِن مَلْؤُه باللبن؛ لأن التَّخْلِيَة قَبْلَ التحلية.

وهذا يُلاحَظ في جميع الأعمال القلبية؛ كما قال جندب ﷺ: «تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تَعَلَّمْنَا القرآن، فازْدَدْنَا به إيمانًا»[(١)][(٢)].

فصادف هذا الإيمان محلًا فارغًا، فتمَكَّنَ فيه، فلمَّا حَصَلَ معه تعلُّم القرآن، والتفقُّه كان ذلك بمنزلة ضوء الشمس مع نور العين، فصار الإيمان صحيحًا، كاملًا، حيًّا، نَابِضًا في نفوس الصَّحَابة ﷺ.

يقول ابن القيم عن المهاجر إلى رَبِّهِ: «فيهاجر بقلبه من محبَّةِ غير الله إلى محبَّتِه، ومن عبودية غيره إلى عبوديَّتِه، ومن خوف غيره ورجائه والتوكّل عليه، إلى خوف الله ورجائه والتوكّل عليه،.. وهذا بعينه معنى الفرار إليه،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٦١).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٠١).

قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠]، والتوحيد المطلوب من العبد: هو الفرار من الله إليه»[١].

ثانيًا: تدبّر القرآن:

فالمتَدَبِّر لآيات الله سبحانه يجد فيها من الوعيد لمن عصى الله ما يدعوه إلى الخوف منه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

والحصر بـ «إنما» يدلّ على أن ذلك من الإيمان الواجِب. ومَنْ لم يَحْصل له هذا الْوَجَل لا يلزم أن يكون كافرًا، ولَكِنَّه قد نقص من إيمانه الواجب.

فإذا تدبَّرْتَ كلام الله ﷻ حق التَّدَبر أورثك ذلك النظر فيما ذكره الله في هذا القرآن من أنواع المَخَاوف، الَّتِي منها حلول نقمته وعذابه بأقوام كذّبوا رسله، وحاربوا أوْلِيَاءَه، وما أعد لهم في الآخرة من الجحيم والعذاب والسلاسل والأغلال، وما فيه من أوصاف الكمال لله تعالى؛ فإن ذلك يُحَرِّكُ الخَوْفَ في قلب الإنسان ويزيده؛ ولهذا نجد أن الذين يفهمون معاني القرآن، ويتدَبَّرونه هم أعظم الناس خوفًا.

ثالثًا: معرفة الله ﷻ معرفة صحيحة بأَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ:

فَبِالْعِلْم بها يَزْدَاد المسلم معرفة بربِّهِ سبحانه، فيزداد خوفًا منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

والعلم الذي يُورِث الخشية هو العلم بالمعبود ﷻ؛ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، والعلم بالطريق الموصِّلِ إليه، والعلم بحدوده ومعالم الطريق التي وصفها للسالكين مِنْ أجل أن يسلكوها. فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة للعبد، مع معرفة بالنَّفس، بحيث لا يتعدَّى طَوره، فيعرف أنه ضعيف عاجز مسكين؛

---

(١) «الرسالة التبوكية» (ص١٦).

فإن ذلك يُثْمِر الإشفاق، والإخبات، والتواضع، والوَجَل، والخوف من الله جل جلاله؛ ولهذا قال ابن مسعود ﵁: «كفى بخشية الله علمًا»[1].

وتأمَّل قول حبيبنا المصطفى ﷺ حيث قال: «فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[2]. فمَنْ عَلِمَ أنه حقير أمام عظمة الله، وأن الله هو العظيم خاف منه، وأكثر خوف الملائكة والنبيين من الله من هذا الباب، ألا وهو خوف التعظيم.

رابعًا: اليقين الراسخ بوَعْد الله ووعيده، وتصديق كتابه ورسوله ﷺ:

وقد قيل: «إذا صح اليقين في القلب صحّ الخوف فيه»[3]. ولكل شيء صِدْق، وصِدْق اليقين الخوف من الله تعالى.

«ولو آمن الإنسان بالله وحده، وجزم يقينًا بما بعد الحياة من الجنة والنار، وما أعدّ الله لأهل هذه وهذه إجمالًا وتفصيلًا؛ لما اجترأ يومًا أن يتخطَّى شريعة الله، أو ينتهك محارم الله التي حذَّره من تخطيها بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]»[4].

ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن مسعود ﵁: «ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية»[5].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٩٧٩) من كلام ذي النون.

(٤) «الخوف من الله تعالى»، لمحمد شومان (ص٥٩) بتصرف واختصار.

(٥) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٤).

خامسًا: ذِكْرُ المَوْتِ وما بعده؛ فكَفَى بِهِ واعظًا.

والله يقول: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وَكَيْفَ قَرَّتْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْيُنُهُمْ ... أَوِ اسْتَلَذُّوا لَذِيذَ النَّوْمِ أَوْ هَجَعُوا
وَالمَوْتُ يُنْذِرُهُمْ جَهْرًا عَلَانِيَةً ... لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ أَسْمَاعٌ لَقَدْ سَمِعُوا
وَالنَّارُ ضَاحِيَةٌ لَا بُدَّ مَوْرِدُهُمْ ... وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَنْ يَنْجُو وَمَنْ يَقَعُ
أَفِي الجِنَانِ وَفَوْزٍ لَا انْقِطَاعَ لَهُ ... أَمِ الجَحِيمِ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَدَعُ
لِيَنْفَعِ الْعِلْمُ قَبْلَ المَوْتِ عَالِمَهُ ... قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا(١)

قال الغزالي: «اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كَرْب ولا هَوْل ولا عَذَاب سوى سكرات الموت بمُجَرَّدِها؛ لكان جديرًا بأن يَتَنَغَّصَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ، ويَتَكَدَّر عليه سروره، ويفارقه سَهْوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فِكْرُهُ، ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نَفَس بصدده»(٢).

فَـاذْكُـرِ الـمَـوْتَ وَدَاوِمْ ذِكْـرَهُ ... إِنَّ فِي المَوْتِ لِذِي اللُّبِّ عِبَرْ
وَكَفَى بِالـمَوْتِ فَاعْلَـمْ وَاعِظًا ... لِـمَنِ الـمَوْتُ عَلَـيْهِ قَدْ قُدِرْ(٣)

سادسًا: الوقوف عند الآيات الكونية التي يخوّف الله ﷻ بها عباده:

كالخسوف والكسوف، وتغيّر الأحوال الأرْضِيَّة والسماوية، ومما يقع من البلايا والأهوال العِظَام، من الزلازل والبراكين؛ فلو أن الناس تَفَكَّرُوا في هذه الآيات العِظَام، وما أجراه الله تعالى على المكذِّبين من العذاب والنِّقَم، فبَقِيَتْ بَعْض آثارهم، وما يجريه الله سبحانه في هذه العصور مِنْ أَلْوَان العقوبات والمَثُلَات، وتَسْلِيط الأعداء، وما يجريه الله ﷻ من بعض

---

(١) «المدهش» (ص٢٧١). وبين بعض الأبيات أبيات تركت ذِكرها اختصارًا.
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/٤٦١).
(٣) «لطائف المعارف» (ص١٩٦)، وأوردها القرطبي في «تفسيره» (٢٠/٤٥٩)، ونسبها لطَرَفَة.

الجوائح التي تُصيب الناس؛ لرَأوا في ذلك أعْظَم العِبَر. ولكن العِبْرة: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

سابعًا: الدعاء:

فالعَبْدُ فَقِير إلى رَبِّهِ كل الافتقار، فهو بحاجة شديدة إلى عَوْنه وتسديده وتَأْيِيدِهِ، وأن يُفْتَح على قلبه، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرَّحْمَن، يقلبها كيف يشاء.

فينبغي لِلْعَبْدِ أن يُلِحَّ في الطَّلَب والسؤال، وأن يسأل ربه قائمًا وقاعدًا، وأن يذكره بقلب خائف يخشاه، ويَهَابه، ويَتَّقِيهِ، والنبي ﷺ وهو أعْظَمُ الأمَّةِ خَشْيَةً لله ﷻ، ومع ذلك كان يقول: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي. اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...» الحديث[1].

قال ابن القيم: «ولما كانت خشية الله ﷻ رأس كل خير في المَشْهد والمغيب سأله خشيته في الغيب والشهادة»[2].

وعن ابن عمر ﵄ قال: قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم مِنْ مجْلِس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ» الحديث[3].

وكان من دعائه ﷺ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ...»، إلى أن قال: «رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا...» الحديث[4].

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦) عن عمارة ﵁، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» (١٢٩).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/٧٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٨.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٥١) من حديث ابن عباس ﵄، وصحَّحه.

ثامنًا: أن يُجيل الإنسان فِكْرَهُ، وينظر في قُبْح الجناية التي يُريد أن يُقْدِم عليها، أو التي أقدم عليها واجترأ على فِعْلها:

ويتأمل فيما قد يقع به من العقوبة بسبب ذلك في الدنيا والآخرة، وأنه قد يُحْرَم من التوبة، فلا يُوَفَّق إليها، فيموت مُصِرًّا على هذا الذنب، فيَخْسر كثيرًا إذا لَقِيَ رَبَّهُ؛ فهو مُشْفِقٌ من ذنبه، طالِبٌ مِنْ رَبِّه أن يدخله فيمن غفر الله لهم.

فهذه الأمور وغيرها إذا أجال الإنسان نَظَرَه فيها كانت رادعًا له عن اقتراف الآثَام، وعن التَّقْصِير في حقوق الله سبحانه، فينهض مُسْتعينًا بالله ﷻ على تحقيق الامتثال.

قال ابن شُبْرُمة: «عَجِبْتُ لمن تَحَمَّى من الطعام والشراب مخافة الداء كيف لا يَحْتَمِي من الذنوب مخافة النار!!»[1].

وقد رُوِي عن النبي ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا»[2].

تاسعًا: مُجَالَسة مَنْ يُخَوِّفنا من الله ﷻ بالتذكير:

لأن الله يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قَ: ٤٥]، وقد كان أسلافنا «يتراسلون بالمواعظ، لتقع المساعدة على اليقظة؛ كصياح الحارس بالحارس»[3].

قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد! كيف نصنع بمُجَالَسة أقوام يُخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تتقطّع؟ فقال: «والله لأن تَصْحب أقْوامًا يُخوّفونك حتى تُدْرك أَمْنًا، خير لك من أن تَصْحَب أقْوامًا يُؤَمِّنُونَك حتى تلحقك المَخَاوف»[4].

---

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ وحَسَّنَهُ الألباني في «الصحيحة» (٩٥٣).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص٣٤٢).

(٤) تقدم تخريجه.

ولما جاء الواعظ شيبان إلى هارون الرشيد، قال له هارون الرشيد: عِظْنِي. فقال له: «يا أمير المؤمنين! لأن تصحب من يخوفك حتى يُدْرِكك الأمن خيْر لك من أن تصحب مَنْ يُؤَمِّنكَ حتى يدركك الخوف»(١).

هذا ما يتعلّق بالأسباب التي يُسْتَجْلَب بها الخوف.

❊ ❊ ❊

(١) «المنتظم» (١٨/٢٥٠).

ثمرات الخوف

ثمرات الخوف والخشية من الله سبحانه كثيرة جدًّا؛ فمن ذلك:

أولًا: أنه سببٌ مُوَصِّل لِجَنَّةِ الله ﷻ، والخلاص مِنْ عَذَابه في الدنيا والآخرة:

وقد ضمن الله جل جلاله الجَنَّة لمنْ خَافَه من أهل الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قال مجاهد: «هو الرَّجُل يريد أن يُذْنِبَ، فيَذْكر مقام ربِّه، فيَدَع الذنب»[(١)].

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وعَدَ الله جل ثناؤه المُؤْمِنِينَ الذين خافوا مقامَه فأدَّوا فَرَائِضَه الجنة»[(٢)].

وقال الله ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ»[(٣)]، واللبن لا يعود في الضَّرْعِ أبدًا.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٢٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/٢٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٣٣، ٢٣١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصَحَّحَهُ.

ثانيًا: أنه أمان للخائفين:

أمانٌ لهم يوْمَ الفزَعِ الأكبر؛ كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ، إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ فِيْهِ عِبَادِي...»(١).

وقال أبو أيوب الأنصاري ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ ليعمل المُحقّرات حتى يأتي الله وقد أحطَنَ بهِ، وإن الرجل ليَعْمَلُ السيئة فيَفْرَق منها حتى يأتي الله آمنًا»(٢).

وفي حديث السَّبْعة الذين يُظِلّهم الله في ظِلّه يَوْمَ لا ظل إلّا ظله: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله... وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٣).

فهؤلاء الذين صاروا في ظلِّ الرَّحْمَنِ تبارك وتعالى لا تَطُولُهم المخاوف، فهم في غاية الأمن؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ثالثًا: أنه سبب لِنَيْلِ مَغْفِرَة الله تبارك وتعالى:

فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «يَقُولُ الله: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً»(٤).

وفي لفظ لمسلم(٥): «وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»، أي: مِنْ أجلي، خوفًا مني.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٤٢).

(٢) ذكره البغوي في «شرح السنة» (٤/٣٧٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه، وهذا لفظ البخاري.

(٥) برقم: (١٢٩).

رابعًا: أنه يورث المَهَابة:

فيكون للخَائِفِ مِنَ الله جل جلاله مِنَ الهَيْبَةِ في قلوب الخَلْق ما لا يكون للمُسْتَرسِلين في معْصِيَة الله تعالى، الذين لا يرفعون لخشيته رأسًا.

وقد قال يحيى بن معاذ: «عَلَى قَدْر حبك لله يُحبّك الخَلْقُ، وعلى قَدْرِ خَوْفِكَ مِنَ الله يَهَابُكَ الخَلق»(١).

وقال عُمَرُ بن عبد العزيز: «مَن خاف الله أخاف منه كُلَّ شيء، ومَن لَمْ يَخَفِ الله أخَافَه مِن كلِّ شيء»(٢).

خامسًا: أنه يحمل صاحِبَهُ على الإحسان إلى الخَلْق وتَرْك ظلمهم:

فهو يعاملهم بالمعروف، ويَتَّقِي الله سبحانه فِيهِمْ؛ لأنه يعلم يقينًا أنه كما يدين يُدان، فليس في قلبه رجاء لهؤلاء المخلوقين، وليس في قلبه خوف من أحد منهم، فهو يحسن إليهم، وينتظر الجزاء مِن الله سبحانه، لا ينتظر العطِيَّة منهم. وهو أيضًا يقوم بأمْرِ الله ﷻ فيهم، فلا يترك أمر الله تبارك وتعالى تمَلُّقًا لهم، ومُداهنةً ورياء.

ولذلك تجد مَن يخافُ الله تعالى يَتَّقِيه في الخَلْق، فلا يظلم خادمًا، ولا زَوْجَة، ولا غلامًا، ولا طالبًا، ولا يظلم أحدًا من الناس؛ لأنه يخاف من الله سبحانه.

سادسًا: أنه سائق يَسُوق العبد إلى امتثال المأمور واجتناب المحظور:

فيعمل بطاعة الله ﷻ، ويُشَمِّر في ذلك، ويَقْمع هذه النَّفْس التي تريد أن تستولي عليه بالشهوات، فيكون من أهل الورَع الكامل الذي يُجْتَنب فيه الحرام، ويُتَّقَى فيه المكروه وفضول المباح.

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٤٨).

(٢) المصدر السابق (٩٤٣).

قال ابن قدامة: «الخوف سَوْط الله تعالى يَسُوق به عباده إلى المُوَاظَبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رُتْبة القُرْب من الله تعالى»[1].

وذلك أن خوف الله وخشيته هي التي تَحْمله على صيام النهار، وقيام الليل، وفعل الفَرَائِض، وتَرْك المحرَّمَات؛ ولولا الخَشْيَةُ لأخلد الناس إلى المعاصي والشَّهَوات والذنوب.

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ»[2].

وذلك يعني: أنَّ من خاف أسْرَع وشَمَّر وبَادَر، حتى لا يُدْركه عدوه فيَبْغَته.

وسُئِلَ ابن المبارك عن صفة الخائفين، فقال[3]:

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلَامِ وَهُمْ سُجُودٌ ... أَنِينٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ
وَخُرْسٌ بِالنَّهَارِ لِطُولِ صَمْتٍ ... عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِينَتِهِمْ خُشُوعُ

سابعًا: أنه سبب للتَّوْفِيقِ والرحمة:

كما قال الله تعالى في شأن التوراة: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. فأخبر أن الهدى والرَّحْمَة للذين يَرْهَبُون الله.

وهذه الآية تدلّ على أن أصْلَ كل خير في الدنيا والآخرة الخَوْف من الله تعالى، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام[4].

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٨٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «ديوان ابن المبارك» (ص٩٠ ـ ٩١).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/٢٠).

ثامنًا: الخوف يدل على كل خير:

قال الفضيل: «مَنْ خَافَ الله دَلَّه الخوف على كل خير»[١].

وقال أبو سليمان: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى»[٢]. وقال الحسن: «الرجاء والخوف مَطِيَّتَا المؤمن»[٣].

ولو أردنا أن نتتَبَّع هذا لطال بنا المَقَام.

❊ ❊ ❊

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/١٦١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٢٤).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الخَوْفِ

أولًا: خوف الجمادات:

قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

قال مجاهد: «كل حجر يتفجّر منه الماء، أو يتشقّق عن ماء، أو يتردّى مِنْ رأسِ جبل، فهو من خشية الله ﷻ، نزل بذلك القرآن»[(١)].

قال ابن القيم: «فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصّلبة، وهذه رقّتها وخَشْيَتها وتَدَكْدُكُهَا من جَلَال رَبِّهَا وعظمته، وقد أخبر عنها فاطِرُهَا وباريها أنه لو أنزل عليها كلامَه لخشعَت، ولتصدَّعَت من خشية الله.

فيا عَجَبًا مِنْ مُضْغَةِ لحم أقسى من هذه الجبال! تَسْمَع آيات الله تتلى عليها، ويُذْكَر الرب فلا تَلِين، ولا تخْشَع، ولا تُنيب. فليس بمُسْتَنْكَر على الله ﷻ، ولا يُخالِف حكمتَه أن يَخْلق لها نارًا تُذِيبها ـ يعني: القلوب ـ؛ إذ لم تَلِن بكلامه وذِكْره وزواجره ومَوَاعِظِه»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/٢٤٠).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/٨٩).

ثانيًا: خوف البهائم:

فالبهائم تَفْرَقُ مِنْ خشية الله، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الجُمُعَةِ مُصِيخَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا ابْنَ آدَمَ»(١).

ثالثًا: خوف الملائكة:

وقد وصَفَهُمْ الله ﷻ بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالمَلَإِ الْأَعْلَى وَجِبْرِيلُ كَالحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ الله ﷻ»(٢).

رابعًا: خوف الأنبياء والمرسلين:

فقد وَصَفَهُم الله ﷻ، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ووصف إبراهيم ﷺ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

فقيل: «الأوّاه: هو الذي إذا ذَكَر خطاياه استَغْفَر منها»(٣).

قال الشوكاني: «والمُطابق لمعنَى الأوَّاه لغة أن يقال: إنه الذي يُكْثِرُ التأوّه مِنْ ذُنُوبِهِ»(٤).

وأما النبي ﷺ فشأنه معْرُوف، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول: «فَوَالله إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِالله، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»(٥).

---

(١) أخرجه النسائي (١٤٣٠) ضمن حديث طويل، وصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» (٣/٢٢٨).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٩).

(٣) ذكره الشوكاني في «فتح القدير» (٢/٥٨١).

(٤) المصدر السابق، (٢/٥٨١).

(٥) تقدم تخريجه.

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: «أتيتُ النبي ﷺ وهو يُصَلِّي، ولجوْفِهِ أزِيز كأَزِيز المِرْجَل»، يعني: يَبْكِي[1].

خامسًا: خوف الصحابة رضي الله عنهم:

فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَة بليغة، ذَرَفَتْ مِنْهَا العيون، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القلوب»[2].

فهذا وصف أصحاب النبي ﷺ، وهو الوَصْف الذي مَدَح الله ﷻ أهله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

قال ابن أبي مُلَيْكَة: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النِّفَاق على نَفْسه»[3].

وكان الحسن البصري يُعَاتِب أهل زمانه، فيقول: «لقد مضى بين يديكم أقوام، لو أن أحدهم أنْفَقَ عَدَد هذا الحصى لخشي ألَّا ينجو من عِظَم ذلك اليوم»[4].

وقال ابن القيِّم: «ومَنْ تَأَمَّل أحْوَال الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف. ونحن جَمَعْنَا بين التقصير - بل التفريط - والأمن»[5].

---

(١) أخرجه النسائي (١٢١٤)، وصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الموارد» (٤٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصَحَّحه.

(٣) ذكره البخاري مُعلقًا (١/٣٠)، ووَصَله غَيْر وَاحِد؛ منهُم محمد بن نَصْر في كتابه «تعظيم قدر الصلاة» (٦٨٨).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٠).

(٥) «الجواب الكافي» (ص٩١).

(فصل) في بيان جملة مِنْ أحْوَالهم في هذا الباب:

١ ـ فهذا أبو بكر رضي الله عنه، كان يمسك بلسانه، ويقول: «إنَّ هذا أوردني المَوَارِد»[١]. وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عُوْدٌ من خشية الله عز وجل[٢].

ولما احْتُضِر قال لعائشة رضي الله عنها: «يا بُنَيَّة! إني أصبْتُ من مال المسلمين هذه العباءة، وهذه الحِلَاب، وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب. ثم قال: والله لوددتُ أني كنتُ هذه الشجرة، تُؤْكَل وتُعْضَد»[٣].

٢ ـ وهذا خليفته عمر رضي الله عنه، سُمِعَ نَشِيجُه رضي الله عنه من آخر الصفوف لَمَّا قرأ في صلاة الفجر من سورة يوسف: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦][٤].

وقرأ سورة الطور، إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧]، فبَكَى، وَاشْتَدَّ بُكاؤُه حَتَّى مَرِض وعادُوه[٥].

٣ ـ وهذا الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، يقول: «وَدِدْتُ لَوْ أني إذا مِتُّ لَمْ أُبْعَثْ». وكان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته[٦]. وقال: «لو أنني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيهما يُؤْمَر بي لاخترتُ أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيهما أصِير»[٧].

والأخبار عن أصحاب النبي ﷺ، في هذا الباب متكاثرة مشهورة يتبين

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢٨٢٥). وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٦٤).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١١٠).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٤١٧).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٠٠).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وحسنه.

(٧) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٢٩).

بها بعض ما كانوا عليه من خوف الله ﷻ وإجلاله، ليقتدي بهم المُشَمِّر والمُقَصِّر، فيزيد الله المُشَمِّر من فضله، وينظر المُقَصِّر فيما كان من عمله.

سادسًا: خوف التابعين رحمهم الله:

١ ـ فعن الوليد بن أبي السَّائب قال: «ما رأيتُ أحدًا قط الخوف أبْيَن على وجهه من عمر بن عبد العزيز»(١).

وكانت زوجته تقول عنه: «ما رأيتُ أحدًا قط أَشَدَّ فَرَقًا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد، ثم يرفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه، فلم يزل رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عينه»(٢).

وقالت: «قد يكون من الرجال مَنْ هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر، ولكني لم أرَ من الناس أحدًا قط كان أشد خوفًا من ربِّه من عمر؛ كان إذا دخل البيت ألقى نَفْسه في مسجده، فلا يزال يبكي، ويدعو حتى تغلبه عيناه، ثم يستيقظ، فيفعل مثل ذلك ليلته أجمع»(٣).

٢ ـ وأُتِيَ الحسن بكوز من ماء ليُفْطِر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى، وقال: «ذكرتُ أُمنية أهل النار؛ قولهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾، وذكرتُ ما أُجِيبوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]»(٤).

وكان يقول: «المؤمن مَنْ يعْلَمُ أن ما قال الله ﷻ كما قال. والمؤمن أحسن الناس عملًا، وأشد الناس خوفًا، لو أنفق جَبَلًا من مال ما أَمِنَ دون أن يُعَاين، ولا يزداد صلاحًا وبرًّا وعبادة إلّا ازداد فَرَقًا؛ يقول: لا أنجو،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٦٠).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٩٨ ـ ٢٩٩).
(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٨٤).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/١٨٩).

لا أنجو. والمنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيُغْفَر لي، ولا بأس عليَّ، يسيء العمل، ويتمنَّى على الله تعالى»(١).

٣ ـ وأما ابن المُبَارك فكان ـ كما قال نُعيم بن حماد ـ إذا قرأ كتاب الرِّقاق يصير كأنه ثور مَنْحُور، أو بقرة منحورة من البكاء. لا يجترئ أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء إلّا دفعه(٢).

وقال: «إن البُصَرَاء لا يأمنون من أربع خصال: ذنب قد مضى لا يُدْرَى ما يصنع الرب فيه، وعمر قد بقي، لا يُدْرى ماذا فيه من الهَلكات، وفضل قد أُعْطِيَ، لعله مَكْر واستدراج، وضَلَالة قد زيّنت له فَيَرَاهَا هدًى. ومن زَيْغ القلب ساعةً أسرع من طَرْفة عين، قد يُسْلَب دينه وهو لا يَشْعر»(٣).

٤ ـ وهذا طاوس بن كيسان، كان يُفْرَش فراشه، ثم يضطجع، فيتقَلَّى كما تتقَلَّى الحَبَّة على المِقْلَى، ثم يَثِب فَيُدْرِجه، ويستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول: «طَيَّرَ ذِكْرُ جَهَنَّم نَوْمَ العابدين»(٤).

٥ ـ وهذا الإمام أحمد بن حنبل كان إذا ذُكِرَ المَوْتُ خنَقَتْهُ العَبْرَة، يقول: «الخوف يمنعني أَكْل الطعام والشراب، وإذا ذكرتُ الموت هان عليَّ كل أَمْر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيَّام قَلَائل، ما أَعْدِل بالفقر شيئًا، ولو وجدتُ السبيل لخرجتُ حتى لا يكون لي ذِكْر»(٥).

٦ ـ وهذا الإمام الفَقِيه أبو حنيفة النعمان قام ليلةً بهذه الآية: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، يُرَدِّدها، ويَبْكي، ويَتَضَرَّع(٦).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٣٢).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/١٦٧).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٣٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٩٠).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١١/٢١٥ ـ ٢١٦).

(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/٣٥٦).

٧ ـ ويقول الأعمش واصفًا مَنْ عَاصَرَهم مِنْ سَلَفِ هذه الأمة مِنْ صَالحيها: «إن كنّا لنشهد الجنازة، فلا ندري مَنْ نُعَزِّي مِنْ حُزْنِ القَوْمِ»(١).

٨ ـ ويقول إبراهيم التيمي: «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون مِنْ أهل النار؛ لأن أهل الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وينبغي لمن لم يُشْفِق أن يخاف ألَّا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]»(٢).

وبعدُ، فَهَذا غيض من فيض من أخبار سلفنا الصالح ﷺ في خَوْفِهِمْ مِن الله ﷻ، مع شِدَّةِ اجتهادهم في العمل. فأيْنَ نحن من هؤلاء؟! فينبغي أن يَعْرِض العاقل نَفْسه على حالهم، وأن ينظر في تقصيره، ولعله أن يَسْتَدْرِك بعض ذلك، وأن يَصِل إلى شيء من حالهم.

أما القَسْوة المُسْتَدِيمة، والغفْلَة التَّامَّة التي نَعِيشها، فإن هذا أمر يحتاج إلى إعادة نظر ومُراجعة، فإن اتباعهم ليس بمجرَّد الدعوى، إنما هو بالاقتداء بهم حقيقه، في القول، والاعتقاد، والعمل، والأخلاق، والسلوك.

لقد أشغلنا فضول الكلام، والقيل والقال، والوَقِيعَة في أعراض الناس عن النَّظَرِ في أحوالنا، وما عليه قلوبنا من الشدة والقساوة. فمِنْ أَيْنَ لَنَا بالخشوع؟! ومن أيْنَ لنا برقة القلب ونحن سادرون في غفلة كبيرة؟! قد شغلتنا الحياة الدنيا وزينتها عن التبصُّر في أمر الآخرة، والله ﷻ يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٠٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (٢٤)،.

الصَّبر

تَوْطِئَة

يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فالإنسان يخرج من بطن أمّه باكيًا، يُعَانِي آلَام الولادة، ثم بعد ذلك يخرج إلى هذه الدار؛ بِحَرِّها وبَرْدِهَا، وما يصيبه فيها من آلام وأمراض، وأوجاع وأسقام، وما يلمّ به من جوع، وفقر، وحاجات، ومصائب يتقلَّب فِيهَا صباحَ مساءَ، يُكابِدُ في كل شيء، كما يكابد لإقامة طاعة الله ﷻ، فذلك يتطلب مجاهدة كبيرة.

كما يجاهد الإنسان داعي النَّفْس إلى الإخلاد والكَسَل، ويجاهد أيضًا في التخلُّص من شهواته وأهوائه.

والإنسان بحاجة أيضًا إلى مكابَدَةٍ وصَبْرٍ عظيم لمواجهة ما يقع عليه من المصائب والآلام التي تنزل بعَامَّةِ الناس، أو تنزل به على وجه الخصوص؛ فالمصائب والآلام محيطة بالإنسان من كل جانب، وهذه طبيعة هذه الحياة، ومَنْ ظَنَّ أن هذه الحياة دار يَسْتَرْوِح الإنسان فيها، ويَجِد بغيته من السعادة والهناءة فهو واهم لا محالة.

ثم إن جميع المطالب العالية، والمقاصد السامية؛ من تحقيق إنجازات علميّة، أو تحصيل ربح، أو نجاح في عمل، أو تربية ولد، ونحو ذلك؛ لا تُنَال إلّا بالصبر.

فنحن بحاجة إلى مِثْل هذا الموضوع، وتذكير النفوس بهذه القضايا التي يُحتاج إليها؛ حينما ينزل المكروه، أو حينما تتطلع النَّفْس إلى معالي الأمور.

مَعْنَى الصَّبْرِ وَحَقِيقَتُهُ

الصبر في اللغة[١]: «مأخوذ من الحَبْسِ والمَنْع، فهو حبس النَّفْس عن الجَزَع، واللّسان عن التشكّي، والجوارح عن لَطْم الخدود، وشقّ الثياب، ونحو ذلك»[٢]، وقيل: بل هو حَبْس النَّفْس عن الخروج عن مُرَاد الإنسان إلى ما تَهْوَاه نَفْسه من الدَّعَة والرَّاحة.

وقيل: «أصْلُ الكلمة من الشِّدَّةِ والقُوَّةِ، ومنه: الصَّبِر، للدواء المعروف؛ لشدة مَرَارته وكراهته»[٣].

قال الأصمعي: «إذا لَقِيَ الرَّجُل الشِّدَّةَ بِكَمَالِهَا قيل: لقيها بأصبارها»[٤].

وقيل: «مأْخُوذ مِنَ الجَمْعِ وَالضَّمِّ، فالصَّابِر يجْمَع نَفْسه، ويضمّها عن الهَلَع والجَزَع، ومنه صُبْرة الطعام»[٥].

وأما الصبر في معناه الشرعي:

فيمكن أن يُقال: إن هذه المعاني السابقة جميعًا متحقِّقة في الصبر، فهو

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٣/٣٢٩ ـ ٣٣٠)، مادة: (صبر)، و«تاج العروس» (١٢/٢٧١ ـ ٢٧٣)، مادة: (صبر).

(٢) «عدة الصابرين» (ص١٥).

(٣) المصدر السابق (ص١٦).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

حبسٌ للنفس وفِطَام لها عن مشتهياتها، ودواعيها التي تدعوها إلى المَيْل مع الشهوات، والملذّات، والرَّاحَة، والكسل، والإخلاد إلى الأرض.

ومِنْ أَوْسَعِ مَا قِيلَ في معناه ومِنْ أَحْسَنِهِ أنه: «حَبْس النَّفْس على ما يقتضيه العقل والشرع»[1].

والصبر نوعان: صبر محمود، وصبر مذموم، ويجمع هذين النوعين أنه حَبْسُ النَّفْس على مُرَاد صاحبها ومُبْتَغَاهُ، وإن خالف ما تطمح إليه نَفْسه، وتميل إليه من الهوى والدَّعَة والسكون إلى الراحة، فيدخل في هذا الصبر المحمود والصبر المذموم.

وحقيقة الصبر: أنه خُلُقٌ فاضل، يحمل صاحبه على ما يحسن ويجمل، وهو قوَّة من قُوَى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها[2].

وهذه القُوَّة تُمَكّن الإنسان من ضبط نَفْسه لتحمُّلِ المَتَاعب والمَشَاق والآلام، فيفعل المأمور، ويجتنب المحظور، ويصبر على المقدور.

* * *

---

(١) «مفردات القرآن» للراغب (ص٢٧٣). مع ملاحظة أن العقل لا يُجعل قسيمًا للشرع، إذ العقل الصحيح من أدلة الشرع، وإنما يُجعل قسيمًا للنقل، فيقال: دل عليه الشرع نقلًا وعقلًا.

(٢) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٩).

مَنزِلةُ الصَّبْر

قال ابن حبان: «الصبر جِمَاع الأمر، ونِظَام الحَزْم، ودَعامة العقل، وبَذْر الخير، وحِيلَة مَنْ لَا حِيلَةَ لَهُ»(١). وقد ذكره الله ﷻ في القرآن عشَرات المرَّات كما سيأتي، وذلك يدل على شدة طَلَب الشرع له، وقِيْمَته، وقدره، وأنه لا غِنَى للعبد عنه بحال. وقد قَرَنه الله ﷻ بالصلاة، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وذلك أن الاستعانة بهذين الأمرين يُسَهّل على الإنسان القيام بسائر الطاعات، وكفّ النَّفْس عن سائر المعاصي؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن أَوْجَبِ الصبر فَطْم النَّفس عن أهوائها.

قال ابن القيم: «الصبر أوَّلُ منازل الإيمان ودرجاته، وأوسطها، وآخرها، فإن صاحب الرضا والشكر لا يُعدَم الصَّبْر في مرتبته، بل الصبر معه، وبه يَتَحَقَّقُ الرِّضَا والشكر، لا تَصَوُّر ولا تَحَقُّق لهما بدونه»(٢).

والعبد في هذه الدنيا لا يخرُج عن أربعة أحوال:

أمرٌ يجِبُ أن يَمْتَثِلَهُ، ونَهْيٌ يجب أن يكُفّ عنه، وقَدَرٌ يَجِبُ التسليم له، ونِعَمٌ يَجِبُ عليْهِ الشكر فيها، وهذه الأحوال جميعًا تحتاج إلى الصبر.

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٦١).

(٢) «طريق الهجرتين» (٥٧٧/٢).

فالصبر هو خير ما يعطاه العبد في هذه الحياة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، ومَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[١].

وقال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[٢].

وجاء عن عليٍّ رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وإِذَا ذَهَبَ الرأس ذهب الإيمان»[٣].

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) ذكره البخاري في «صحيحه» معلقًا (٢٣٩/٤)، ووصله ابن المبارك في «الزهد» (٢٢٢)، وصحح ابن حجر إسناده في «الفتح» (٣٠٩/١١).

(٣) أخرجه وكيع في «الزهد» (١٩٩).

فَضْلُ الصَّبْرِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ(١)

أولًا: الصبر في القرآن:

ذكر الله الصبر في القرآن في أكثر من سبعين موضعًا، ومن أهْل العِلم مَنْ أوْصَلَه إلَى تِسْعِين موضعًا، وكثْرَة ذِكْره وتكراره يدل على منزلته وفضله ومكانته عند الله تبارك وتعالى، كما أضاف الله إليه أكثر الخيرات والدَّرَجات، وجَعَلَها ثمرة له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، والقُرُبَات ـ كما هو معلوم ـ أَخْبَر الله ﷻ بمقادير أُجُورها وثوابها إلّا الصبر؛ ولهذا لما كان الصَّوْم من الصبر قال: «الصَّوْمُ لِي وأنَا أجْزِي بِهِ»(٢)، فأضَافَهُ إلى نَفْسه مِنْ بين سائر العبادات.

ومِمَّا يَدُلّ على فضله: أن الله ﷻ وَعَد الصابرين بمعيَّتِهِ فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وجَمَع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾(٣) [البقرة: ١٥٧]، فذكر ثلاثة أشياء: الصلاة عليهم، والرَّحْمَة، والاهتداء، وصلاته تبارك وتعالى على الصابر هي ذِكْره في الملأ الأعلى، كما أن صلاته على العبد تدلّ على هدايته وعنايته به.

---

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٢٩) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١/١٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (٣٤٢).

ومما يَدُلّ على فضله أيضًا: أن التواصي بالصبر قرينُ الإيمان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]؛ لأنه لا يمكن أن يحقق العبد الإيمان، وأن يَسْلُك الصراط المستقيم الذي أمَرَهُ الله ﷻ بسلوكه إلّا بالصبر، وقد لا يتمكّن من الصبر إلّا بالتَّوَاصِي عليه؛ لأنَّ النَّفْس قد تشغلها المصائب والهموم، وقد تُرْهقها الأعمال والتكاليف التي أُنيطت بها، فيَحْتَاجُ إلى التذكير بين الحين والآخر حتى يبلغ العبد رحمة الله ﷻ، ويصل إلى مطلوبه.

وأن الله علق به الفلاح فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ثانيًا: الصَّبْر في السُّنَّة:

وَرَدَ ذِكْر الصَّبْرِ وفضائله في السنة في غَيْرِ ما حديث صحيح، فمن ذلك:

ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خيرًا وأوْسَعَ مِنَ الصَّبْر»[(١)]، فإذا أُعْطِيَ العبد الصبر أعطي ما يدفعه، ويرفعه، ويثبته على الطريق حتى يبلغ بإذن الله.

وقوله ﷺ: «الصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ...»[(٢)] الحديث.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[(٣)].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد مضى جملة منها[(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٣٧) وما بعدها.

واعلم أن الصبر يشتمل على أكثر مكارم الأخلاق، فيدخل فيه الحلم؛ فإنه صبر عن دواعي الانتقام عند الغضب، والأناة صبر عن إجابة دواعي العَجَلة، والعفو والصَّفْح صبر عن إجابة دواعي الانتقام، والجود والكرم صبر عن إجابة دواعي الإمساك، والكسب صبْر عن إجابة دواعي الكسل والخمول، والعدل صبر إذا تعلق بالتسوية بين المُتَمَاثِلَين، وسَعَة الصَّدْر صبر عن الضَّجَر، والكتمان وحفظ السر صبر عن إظهار ما لا يحسن إظهاره، والشجاعة صبْر عن إجابة دواعي الفرار[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) ينظر: «أنواع الصبر ومجالاته» (ص١١).

المُفَاضَلَاتُ فِي بَابِ الصَّبْرِ

أولًا: المُفَاضلة بين الصبر والشكر:

اختلف الناس في المُفَاضلة بين الصبر والشكر:

فذهبت طَائِفَة: إلى أن الصبر أفضل؛ «لأن الله سبحانه أثْنَى عليه، وعلى أهله، ومدَحَه، وأمَرَ به، وعلَّق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد تقَدَّمَتِ النّصوص في بيان فضله.

وذهبت طائفة: إلى أن الشكر أفْضَلُ مِنَ الصَّبْرِ؛ وذلك أن القول بتفضيل الصبر تقديم للوسيلة على الغاية، والمطلوب لغيره على المطلوب لنَفْسه، والعمل الكامل على الأكمل، والفاضل على الأفضل، وقد قَرَنَ الله تعالى ذِكْرَه الذي هو المراد من الخلق بشكْرِه، وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر وسيلة إليهما، وعون عليهما، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وتوسَّطت طائفة ثالثة، فقالت: ليس لأحدهما فضيلة إلّا بالتقوى:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قد تنازع كثير من متأخّري المسلمين في الغَنِيِّ الشاكر والفقير الصَّابِر، أيهما أفضل؟ فرجَّح هذا طائفة من العلماء والعُبَّاد، ورجح هذا طائفة من العلماء والعُبَّاد... وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر.

وقالت طائفة ثالثة: ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلّا بالتقوى،

فأيهما كان أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل، وإن اسْتَوَيَا في ذلك اسْتَوَيَا في الفضيلة، وهذا أصح الأقوال»[١].

وقد ذُكِر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليتُ أيّهما رَكِبتُ»[٢].

ثانيًا: المُفَاضلة بين الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرَّمات وأفضل؛ فإن مصلحة فِعْل الطاعة أحبّ إلى الشارع من مصلحة تَرْك المعصية، ومَفسدة عَدَم الطاعة أبغض إليه وأكره من مَفْسدة وجود المعصية»[٣].

«إذًا: الصبر ثلاثة أنواع: أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب ـ من حيث الجنس ـ فالصَّبْر على جنس الطاعة أفضل من الصبر عن جنس المعصية، وأما فيما يتعلق بآحاد الطاعات وآحاد المعاصي ـ يعني: الجزئيات والمفردات ـ فإن ذلك لا شك أنه يختلف.

وإلا فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة، إذا فُتِن الإنسان ـ مثلًا ـ بامرأة جميلة تدعوه إلى نَفْسها، في مكان خال، لا يَطَّلِعُ عليه إلّا الله، وهو رَجُلٌ شَابٌ ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشَقّ ما يكون على النفوس، قدْ يُصَلِّي الإنسان مائة ركعة، وتكون أهون عليه من هذا.

«وفَصْل النزاع في ذلك: أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/١١٩ ـ ١٢٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٢٥).

(٣) نقله ابن القيم عنه في «مدارج السالكين» (٢/١٥٧).

فالصبر على الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدَّنِيَّة، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلًا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى وصوم يوم تطوّعًا ونحوه. فهذا فَصْل النِّزاع في المسألة»(١).

ثالثًا: المُفَاضَلة بين الصبر على الطاعة وعن المعصية والصبر على المَقْدُور:

قال ابن القيِّم: «فإن قيل: أيّ أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبر على المأمور، أم الصبر عن المحظور، أم الصبر على المقدور؟

قيل: الصبر المُتَعَلّق بالتكليف، وهو الأمر والنهي أفضل من الصبر على مُجَرَّد القدر؛ فإن هذا الصبر يأتي به البَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا بُدَّ لكل أحد من الصبر على القَدَر، اختيارًا أو اضطرارًا.

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم اتّبَاعًا أصْبَرهم في ذلك»(٢).

رابعًا: المُفَاضَلة بين العافية والبلاء مع الصبر:

هل الأفضل في حَقّ العَبْدِ أن يكون في عافية الله ﷻ، أو أن يُبْتَلَى فيصبر؟

والحق أن السلامة لا يعْدِلها شيء، وساحة العافية أوْسَعُ للعبد مِن ساحة الصَّبْر، وقد قال النبي ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا الله الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»(٣).

(١) «طريق الهجرتين» (٥٩٩/٢ ـ ٦٠٠).

(٢) «عدة الصابرين» (ص٦٣ ـ ٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٦٦، ٧٢٣٧)، ومسلم (١٧٤٢) واللفظ له، من حديث ابن أبي أوفى ﷺ.

فإن البلاء إذا وقع بالعبد لا يدري؛ أيصبر أم يجزع؟ فالعافية في الجملة خير له؛ لأنها أوسع له.

«ولا يُنَاقِض هذا قوله ﷺ: «ومَا أُعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»(١)؛ فإن هذا بعد نزول البلاء، ليس للعبد أوسع من الصبر. وأما قبله فالعافية أوسع له»(٢).

وقد قال مُطَرِّف بن عبد الله: «لأن أُعَافَى فأشكر أحبّ إليَّ مِنْ أنْ أُبْتَلَى فأصْبِر، نظرتُ في العافية فوجدتُ فيها خير الدنيا والآخرة»(٣).

وقد سُئل سفيان بن عُيينة عن قول مُطَرِّف المذكور: أهو أَحَبّ إليك أم قول أخيه أبي العلاء: اللهم رضيتُ لنفسي ما رضيتَ لي؟

فقال: «قول مُطَرِّف أحب إلي. فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟ قال سفيان: إني قرأت القرآن فوجدت صفة سليمان مع العافية التي كان فيها: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ووجدت صفة أيوب مع البلاء الذي كان فيه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فاستوت الصفتان. وهذا مُعَافَى، وهذا مُبتَلى، فوجدتُ الشكر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحب إلي من البلاء مع الصبر»(٤).

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) «عدة الصابرين» (٢٢ ـ ٢٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٢)، وهناد (٤٤٢) كلاهما في «الزهد».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢١٢)، (٧/٢٨٣).

حُكْمُ الصَّبْر

سبق أن ذكرنا أن الصبر ذكر في القرآن في أكثر من سبعين موضعًا بتصاريف من الخطاب عديدة، تدل بمجموعها على وجوبه، منها:

١ ـ الأمر به؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٢ ـ النهي عن ضِدِّه، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال ابن رجب الحنبلي: «الصَّبْر واجب على المؤمن حَتْم، وفي الصبر خير كثير، فإن الله أمر به، ووعد عليه جزيل الأجر»[(١)].

وقد ذكر طائفة من أهل العلم أن الصبر مستحبّ أو أنه مسْنون، وهم يقصدون بذلك أنه مشروع، أو أن بعض أنواعه مُسْتَحَبّ.

والتَّحْقِيق أن الصبر تجري عليه أحكام التَّكْلِيف الخمسة:

فتَارَة: يكون الصبر واجبًا، كالصبر على الواجبات، والصبر عن المحرَّمَات، والصبر على المصائب التي لا صُنْع للعبد فيها، كالأمراض، والفقر، وفَقْد الأنفس والأموال، وغير ذلك.

قال شيخ الإسلام: «الصبر واجب ـ باتّفاق المسلمين ـ على أداء الواجبات، وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب»[(٢)].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٩)، (١١/٢٦٠).

وتارة: يكون مندوبًا، كالصَّبْرِ عن المكروهات، والصَّبْر على المستحبات، فهذا صبر مندوب مستحبٌّ.

وتارة: يكون محرمًا، كالصبر على المحرَّمات، وذلك كمَنْ يَصْبِر عن الطعام والشراب حتى يموت، أو يصبر على ما يهلكه؛ من سَبُع، أو حية، أو حريق، أو ماء وهو يستطيع دفع ذلك عنه ولا يفعل. وكذلك مَنْ جُرِحَ جراحة شديدة، فيمتنع عن التداوي بحجة الصبر، فهذا إن مات فهو قاتل لنفسه. وهكذا صَبْر أهل الفجور والمعاصي على ما يلقون في سبيل ذلك من الأذى والمشقَّات، ويدخل في ذلك: صبر الكافرين على كفرهم.

وتارة: يكون مكروهًا، كَمَنْ يَصْبِر عن الطعام والشراب حتى يتأذَّى بذلك، ويتَضَرَّر منه، وكمن يصبر على فعل المكروهات أو على تَرْكِ المستحبَّات.

وتارة: يكون مباحًا، وهو كل صبر على الأفعال المستوية الطرفين، التي خُيِّر فيها بين فِعْلها، وتَرْكها، والصبر عليها، كالذي يصبر على تجارته، وبيعه، وشرائه، وعمله، واكتسابه، وما أشبه ذلك[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/٦٩)، و«عدة الصابرين» (٥٤ ـ ٥٨).

شُرُوطُ الصَّبْر

لا بد من توافر شروط في الصبر حتى يُؤْجَر عليه العبد، والمشروط بشرط موقوف عليه، ويتأكّد ذلك في تلك الأعمال الجليلة التي يصل بها أصحابها إلى المنازل السامية، وإلا فكيف يقال في حق عبدٍ يصبر لعِلَّة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]؟!

الشرط الأول: الإخلاص:

فالصبر يشترك فيه الناس جميعًا، ولكن الذي يميز الصبر الشرعي عن غيره هو الدافع عليه، فالصبر المحمود في القرآن والسنة هو ما كان لله تعالى؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢]، وهذا هو مقام الإخلاص الذي تنتفي عنده حظوظ النَّفْس، وتزول به شوائب الرياء.

الشرط الثاني: عدم شكوى الله إلى عباده:

فإنها تُنَافِي الصبر، وتُخْرِج العبد إلى السَّخَط والجَزَع.

وقد قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِي، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ»[(١)].

(١) أخرجه الحاكم (١/٣٤٨ ـ ٣٤٩) وصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٢٧٢).

وقد قيل(١):

وَإِذَا بُلِيتَ بِعُسْرَةٍ فَاصْبِرْ لَهَا ... صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْزَمُ
لَا تَشْكُوَنَّ إِلَى الخَلَائِقِ إِنَّمَا ... تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

الشرط الثالث: أن يكون في أَوَانِهِ:

فالصبر المحمود المأجور عليه صاحبه هو ما كان في أوانه، أمَّا إذا فات الأوان فلا جدوى منه.

وهذا ما حكاه الله ﷻ عن صَبْرِ أهْلِ النار: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]. وقال ﷻ: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وعن أنس رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة تَبْكِي عند قبر، فقال: «اتَّقِي الله واصْبِرِي»، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي! فإنك لم تُصَب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى»(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) «الكشكول» (١/٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (٩٢٦).

مجالاتُ الصَّبْر

للصبر مجالات كثيرة في حياتنا، فَمِنْ ذَلِكَ:

١ ـ ضبط النَّفْس عن السَّأم والمَلَل عند القيام بالأعمال التي تتطلَّب الصبر والمثابرة خلال مدة مناسبة، قد يراها المُسْتعجل مدة طويلة، ولا سيما في الأعمال التطوّعية، حيث يبدأ الإنسان مُنْدَفِعًا مُتَحَمِّسًا، يريد أن يُقَدِّم، ويبذل، ثم ما يلبث أن يفتر، وتركبه المَلَالَة، حتى يُعْرِض عن أداء العمل المطلوب.

ولذلك ينبغي للإنسان ألا يدخل في أمرٍ حتى يعرف من نَفْسه أن له فيه نية، وأنه قادر على القيام به على الوجه المطلوب، وأنه يستطيع الاستمرار فيه حتى تمامه، فإن كان هذا العمل يحتاج إلى أعوانٍ؛ فليبحث عمَّن يُعِينه على القيام به على الوجه اللائق.

٢ ـ ضبط النَّفْس عن الضَّجَر، والجَزَع عند حلول المصائب والمكاره.

٣ ـ ضبط النَّفْس عن العَجَلة والرُّعونة عند العمل على تحقيق مطلب من المطالب المادية أو المعنوية.

٤ ـ ضبط النَّفْس عن الغضب والطَّيْش حينما تنبعث عوامل الغضب في النَّفَس، ومُحَرِّضات الإرادة للاندفاع بطَيْش لا حكمة فيه، ولا اتّزان في القول أو في العمل.

٥ ـ ضبط النَّفْس عن الخوف عند توفر مُثِيراته، حتى لا يَجْبُن الإنسان

في المواضع التي تَحْسُن فيها الشجاعة، وتكون خيرًا، ويَقْبُح فيها الجُبْن، ويكون شرًّا.

٦ ـ ضبط النَّفْس عن الطَّمَع عند حصول مثيرات الطَّمَع، حتى لا يندفع الإنسان وراءه، فيقع في أمور يقْبُح فيها.

٧ ـ ضبط النَّفْس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها.

٨ ـ ضبط النَّفْس لتتحمّل المتاعب والمشاقّ، والآلام الجسديَّة والنَّفْسِيَّة، كلَّما كان في هذا التحمّل خير عاجل أو آجل[1].

«ومن الصبر المحمود: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مَرْجُوّة، وأَعْوَز نَيْله من مسَرَّة مأمولة؛ فإن الصبر عنها يُعْقب السُّلُوّ منها، والأَسَف بعد اليأس خَرَق...

ومن جميل الصبر: الصبر فيما يُخْشَى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها، فلا يتعجَّل همّ ما لم يأت؛ فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الخوف مدفوع...»[2].

* * *

(١) انظر: «نضرة النعيم» (٦/٢٤٧١ ـ ٢٤٧٢).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٤٥٤ ـ ٤٥٦) مع زيادة يسيرة.

الصَّبرُ لَا يَكفِي وَحدَهُ

لا بُدَّ مع الصبر من اليقين؛ فإن الصبر من غير يقين لا يكتمل، ولا يصل به العبد إلى المطلوب، قال زُهير بن نُعَيم: «إن هذا الأمر لا يتم إلّا بشيئين: الصبر واليقين؛ فإن كان يقين ولم يكن معه صبر لم يتم، وإن كان صبر ولم يكن معه يقين لم يتم»[1].

والله ﷻ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٤٧).

أَقْسَامُ الصَّبْر

إذا نظرنا إلى الصبر باعتبار مُتَعَلَّقه فإن عامّة أهل العلم يجعلونه ثلاثة أنواع، مَنِ اسْتَكْمَلَها فقد استكمل الصبر.

الأول: الصبر على الطاعات:

وما أمر الله به من العبادات، وما يلحق النَّفْس في إقامتها من المشَقَّة.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

والصبر على الطاعة: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وينقسم إلى «ثلاثة أحوال:

١ ـ حال قبل العبادة: وهو الإخلاص، وتصحيح النية، والصبر عن شوائب الرياء.

٢ ـ حال في نَفْس العبادة: وهو ألَّا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن.

٣ ـ حال العبد بعد الفراغ من العبادة: وهو الصبر عن إفشاء العمل، والتظاهر به؛ لأجل الرياء والسُّمعة، وعن كل ما يُبْطِل عمله، فمَنْ لَمْ يَصْبِرْ بعد الصَّدَقَةِ عَنِ المَنِّ وَالأذى أَبْطَلَها»[1].

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٤٥) باختصار وتصرف، وانظر: «إحياء علوم الدين» (٤/٧٠).

ومن الصور الداخلة تحت الصبر على الطاعة[1]:

أ ـ الصبر على مشاق الدعوة إلى الله:

قال تعالى عن عَبْدِهِ لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

ب ـ الصبر حين البأس:

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ج ـ الصبر في مجال العلاقات الإنسانية:

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

الثاني: الصبر عما نهى الله عنه من المحرمات والمعاصي:

«فإن النَّفْس ودواعيها، وتزيين الشيطان، وقرناء السوء تأمره بالمعصية، وتُجَرِّئه عليها، فبِحَسَب قوّة الصبر يكون تَرْكه لها. قال بعض السلف:

(١) انظر: «رفقًا بالقوارير» (٤٨٧ ـ ٤٨٨).

«أعمال البِرّ يفعلها البَرّ والفاجر، ولا يقدر على ترك المعاصي إلّا صِدِّيق»(١)(٢).

وهكذا الصبر عن مُشْتَهَيات النَّفْس:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

الثالث: الصبر على الابتلاءات، والمصائب المُؤلمة:

وهذه الابتلاءات على «نوعين:

نوع: لا اختيار للخَلْقِ فيه كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية، فهذه يسْهل الصبر فيها؛ لأن العبد يشهد فيها قضاء الله وقَدَره، وأنه لا مَدْخل للناس فيها، فيصبر إما اضطرارًا وإما اختيارًا.

فإن فَتَح الله على قلبه باب الفِكْرة في فوائدها، وما في حَشْوها من النِّعم والألْطاف، انتقل من الصبر عليها إلى الشكر لها، والرِّضَا بها...

النوع الثاني: أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عِرْضه أو نَفْسه، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جدًا؛ لأن النَّفْس تسْتَشْعر المُؤْذي لها، وهي تكره الغَلَبَة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلّا الأنبياء والصدِّيقُون.

وكان نبينا ﷺ إذا أُوذِيَ يقول: «يَرْحَمُ الله مُوسَى؛ لَقَدْ أوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»(٣).

وأخبر عن نبيٍّ من الأنبياء أنه ضَرَبَهُ قومُهُ، فأَدْمَوْهُ، وهو يمْسَحُ الدَّمَ عن

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٩٧، ٢١١) عن سهل التستري.

(٢) «جامع المسائل» (١/١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وجهه، ويقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[١]. وقد روي عنه ﷺ أنه جرى له هذا مع قومه، فجعل يقول مثل ذلك[٢]. فجمع في هذا ثلاثة أمور: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون»[٣].

وزاد بعضهم نوعًا رابعًا، وهو «الصبر على النِّعَم، وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبّر بها»[٤]؛ فيحمله ذلك على البَطَر والأَشَر.

ومن الصبر على النعم؛ ألَّا يَنْهَمِك في تحصيلها، وطلب المزيد منها، ويبالغ في استقصائها، فتنقلب إلى أضدادها.

وقد جمع الله في كتابه بين الصبر على المصيبة والصبر على النِّعْمَة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩ ـ ١١]، وقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وكلتا النِّعْمَتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر، أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السَّرَّاءِ فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنة السَّرَّاءِ أعْظَم من فتنة الضراء، كما قال بعض السلف: «ابْتُلِينا بالضَّرَّاء فصبرنا، وابْتُلِينَا بالسَّرَّاء فلم نَصْبِر»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري (٦/١٢٠/٥٦٩٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١/٧).

(٣) «جامع المسائل» (١/١٦٦ ـ ١٦٧).

(٤) ذكره ابن جزي في «التسهيل» (١/٦٥)، وانظر: «الاستقامة» لابن تيمية (٢/٢٦١).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) من كلام عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وحسنه الترمذي، والألباني في «صحيح الترمذي» (٢/٥٩٣).

مَرَاتِبُ النَّاسِ فِي الصَّبْرِ

قال الفيروز آبادي: «مراتب الصبر خمسة: صابر، ومُصْطَبِر، ومُتَصَبِّر، وصَبُور، وصبَّار»[١].

«فالصابر أعمها، والمُصْطَبِر: المُكتسب الصبر المليء به، والمُتصبّر: المُتكلّف، حامل نَفْسه عليه، والصَّبُور: العظيم الصبر، الذي صَبْره أشدّ مِنْ صَبْرِ غيره، والصبَّار: الكثير الصبر»[٢].

* * *

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٣/٣٧٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٥٨).

مَرَاتِبُ النَّاسِ حَالَ المُصِيبَةِ

الناس حال المصيبة على مراتب أربع(١):

الأولى: التَّسَخُّط، وذلك قد يكون بالقلب، كأن يسخط على ربه، ويغْضَب على قَدَرِهِ، وقد يُؤَدِّي به إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]. وقد يكون باللّسان؛ كالدعاء بالوَيْلِ والثّبور، ونحو هذا.

وقد يكون بالجوارح؛ كَلَطْم الخُدُودِ، وشَقِّ الجُيُوبِ، وما أشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر(٢):

الـصَّبْرُ مِـثْلُ اسْـمِهِ مُرٌّ مَـذَاقَـتُهُ لَـكِنْ عَـوَاقِـبُهُ أَحْـلَى مِـنَ الْـعَسَلِ

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه، ويكرهه، لكنه يتحمله، ويصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا، ولكن إيمانه يحميه من السَّخَط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره، وإنْ كان قد يحزن من المصيبة، فهو إن أُصيب بنعمة أو أصيب بضدِّها فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميّت، بل لتمام رضاه بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

---

(١) انظر: «مغني المريد» (٢٢٨٠ ـ ٢٢٨١).

(٢) البيت لمحمود بن الحسن (كَشَاجِم)، وهو في ديوانه (ص: ٤٦٠) مع اختلاف يسير في الصدر.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، فيكون في عباد الله الشاكرين، فيرى الواحد منهم أن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته، وقد قال النبي ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه، فوجدتُ حَرَّه بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله! ما أشدها عليك؟ قال: «إِنَّا كَذَلِكَ، يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ»، قلتُ: يَا رسول الله! أَيُّ النَّاس أَشَدُّ بلاءً؟ قال: «الْأَنْبِيَاءُ»، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: «ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ»(٢).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٤).

مَا يُنَافِي الصَّبر وَمَا لَا يُنَافِيه

أولًا: الشكوى:

«الشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصَّبر؛ فإن نبي الله يعقوب ﷺ وعد بالصبر الجميل، والنبي إذا وَعَد لا يُخلِف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وكذلك أيوب ﷺ أخبر الله عنه أنه وجده صابرًا مع قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]»[١]، فعُلِم أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه فإن ذلك لا يقدح في صبره، وقد عُرِّفَ الصَّبْرُ بأنه ترك الشكوى من ألَمِ البَلْوَى لِغَيْر الله.

«فإعراض العبد عن الشكوى إلى غير الله جملة، وجَعْل الشكوى إليه وحده سبحانه هو الصبر، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه، وتضرّعه، ودعاءه. وقد ذم سبحانه من لم يتضرَّع إليه، ولم يستكن له وقت البلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، والعبد أضعف من أن يتجلَّد على ربِّه، والرب تعالى لم يُرِدْ مِنْ عَبْدِهِ أن يتجلَّدَ علَيْه، بل أراد منه أن يستكين له، ويتضرَّعَ إِلَيْهِ، وهو تعالى يمقت مَنْ يَشْكُوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه»[٢]. وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إليه.

---

(١) «مدارج السالكين» (١٦١/٢) بتصرف.

(٢) «عدة الصابرين» (ص٦٣) بتصرف.

وقد قيل(١):

وإذَا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لهَا   صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا   تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

وقد قال شقيق البلخي: «مَنْ شكا مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا»(٢).

فأما إظهار البلاء على غير وَجْهِ الشَّكْوَى، فإنه لا ينافي الصبر.

وخلاصة القول في هذا أن المراتب أربع:

الأولى: ألَّا يشكو إلَّا إِلَى الله، وهذه أعلى المَرَاتِب.

الثانية: أن يذكر عِلَّته، ويصفها عند مَنْ يَرْجُو عنده الدواء؛ كشَكْوَى المريض إلى الطبيب، فمثل هذا جائز.

الثالثة: ما يُذْكَر من ذلك على سبيل الإخبار لا الشكاية. وهذا جائز أيضًا، وقد يكون تَرْكه أوْلَى إلّا لمصلحة أو حاجة.

الرابعة: ما يُذكَر منه على سبيل التشكِّي، وعدَم الصبر على أقدار الله.

وقد يكون ذلك بلسان الحال لا المقال، وكل ذلك من قِلَّة العقل، وضَعْف الإرادة.

ثانيًا: الجَزَع:

«والصبر والجَزَع ضِدَّانِ؛ ولهذا يُقَابَل أحدهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

والجَزَع قرين العَجْز وشقيقه، والصبر قرين الكَيْس ومادته»(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٦١).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٦٠١).

(٣) «عدة الصابرين» (ص٢٥).

[المعارج: ١٩ ـ ٢١]، فالجزع عند ورود المصيبة يضادّ الصبر، والمَنْع عند ورود النعمة يضادّ الشكر.

ثالثًا: البكاء والحزن(١):

مذهب أحمد وأبي حنيفة(٢) جواز البكاء على الميت، قبل الموت وبعده، وهذا هو الأقرب لعدة أدلة منها:

١ ـ عن ابن عمر ﵄ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الله لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا ـ وأشار إلى لسانه ـ أَوْ يَرْحَمُ»(٣).

٢ ـ عن أسامة بن زيد ﵁ قال: كنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رسول إحدى بناته، يدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي ﷺ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، فأعادت الرسول أنها قد أقسَمَت لتأتينّها، فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، فَدُفِع الصبي إليه ونَفْسه تَقَعْقَع كأنها في شَنّ، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله! ما هذا؟ قال: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ الله مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»(٤).

فهذه الأدلة وغيرها تدل على عدم كراهة البكاء، وأما الأحاديث التي ورد فيها ما يدل على النهي عن البكاء كما ورد:

١ ـ عن جابر بن عَتِيك ﵁، أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت، فوجده قد غُلِبَ، فصاح به رسول الله ﷺ، فلم يُجِبْهُ، فاسْتَرْجَع

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص١٨٩ ـ ١٩٤).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع» (١/٣١٠)، و«الإنصاف» (٦/٢٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٢٤).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٨٤) واللفظ له، ومسلم (٩٢٣).

رسول الله ﷺ، وقال: «غُلِبْنَا عليك يا أبَا الرَّبيعِ!»، فصاح النسوة، وبكَيْن، فجعل ابن عَتِيك يسكّتهن، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ، فَإِذَا وَجَبَ فَلَا تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ»، قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟! قال: «المَوْت»[١].

٢ ـ وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»[٢].

فيتعيَّن حَمْل أحاديث النهي هذه؛ على البكاء الذي معه نَدْب ونياحة؛ ولهذا جاء في بعض ألفاظ حديث عمر ﷺ: «الميّت يُعَذَّب فِيْ قبره بما نِيحَ عليه»[٣]، وفي بعضها: «إن الميت يُعَذَّب ببعض بكاء أهله عليه»[٤].

رابعًا: الندب والنياحة:

قال ابن عبد البر: «أجمع العلماء على أنَّ النّياحة لا تجوز للرِّجَال، وَلَا للنساء»[٥].

وعلى ذلك أدلة كثيرة، مِنْهَا:

١ ـ عن ابن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[٦].

٢ ـ عن أبي موسى ﷺ قال: «أنا بريء مما بَرِئَ مِنْهُ رسول الله ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَة، والحَالِقَة، والشَّاقَّة»[٧].

وكيف لا تكون هذه الخصال مُحَرَّمة وهي مُشْتملة على التَّسَخّط على

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١١١) وصححه الألباني في «صحيح الموارد» (١٣٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٨).

(٥) «الاستذكار» (٣١٤/٨).

(٦) أخرجه البخاري (١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٠٣).

(٧) أخرجه مسلم (١٠٤) وذكره البخاري تعليقًا (١٢٩٦).

الرَّبِّ، وفِعْل ما يُنَاقِض الصبر، والإضرار بالنَّفْس مِنْ لَطْمِ الوَجه، وحلْق الشعر، ونَتْفه، والدعاء عليها بالويل والثبور، والتظلّم من الله سبحانه، وإتلاف المال بشقّ الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه؟! ولا رَيْبَ أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا.

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صِدْقًا، لا على وجه النَّوح والتَّسَخط فلا تُحَرّم، ولا تنافي الصبر الواجب.

فعن أنس ﷺ قال: لمَّا ثَقُلَ النبي ﷺ جعل يتغشَّاه، فقالت فاطمة ﷺ: وا كَرْبَ أبَاهُ! فقال لها: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ»، فلما مات قالت: يا أبتاه! أجاب رَبًّا دعاه، يا أبتاه! مَنْ جَنَّة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريل نَنْعَاهُ[1].

فهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلّم للمقدور، ولا تسخّط على الرَّبِّ، ولا إسخاط له، فهو كمجرّد البكاء[2].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).

(٢) انظر: «عدة الصابرين» (٢٠٠ ـ ٢٠١).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الصَّبْرِ

والطريق إلى تحقيق الصبر والتَّحَلِّي به يَتَأَتَّى بأمور، منها[١]:

الأوَّل: أن يتذكَّر الإنسان أن الله قد ارتضى له هذا الأمر، واختارَهُ له، وأنَّ العبودية الحقَّة تقتضي أن يرضى بما رَضِيَ الله ﷻ له، فلا يَتَبَرَّم، ولا يتسخَّط، ولا يَنْدب حظَّه، ولا يشكو ربَّه، ولا يجزع مما قَدَّرَه الله عليه.

الثَّاني: أن يتذكَّر أن الذي ابتلاه بهذا هو أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، فهو أرحم به من نَفْسه، وإن كان نَقْص، وإن كان فَقْد، وإن كان عَيْب: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

الثالث: «أن يعلم أنَّ هَذِه المصيبة هي دواءٌ نافع، ساقَهُ إليه الطبيب العليم بمصلحته، الرحيم به، فلْيَصْبِرْ على تجرُّعِهِ، ولا يتقيّأه بتَسَخّطه وشكواه، فيَذْهَب نفعه باطلًا»[٢].

الرابع: أن يستحضر أن هذه الأمور الواقعة المكروهة إِنَّمَا هي بسبب الذنوب والتقصير، والله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، فيكون شُغْل العبد ـ بدلًا من الجَزَع والتفكير في المصيبة ـ التفكير في أسباب المصيبة، وهي التي جَرَّهَا العبد على نَفْسه؛ فإِنَّ مِنْ حُسْنِ العقل في ذلك أن يكون التفكير بالتقصير، ومعرفة الذنوب التي

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (١/٦٠٠ ـ ٦٠١).

(٢) المصدر السابق (٢/٦٠١).

أَوْجَبَت له مثل هذه المصيبة، فيتدارك ذلك، ويرجع إلى الله ﷻ، وتكون هذه المصيبة سببًا لتصحيح مساره، وتقويم سلوكه، وتهذيب نَفْسه، وإصلاح قلبه، بدلًا من أن يَرْجِع على نَفْسه باللَّوْمِ على أمور قَدْ فاتت، لا يُجْدِي التلوّم عليها، وكما قيل: «لم ينزل بلاء من السماء إلّا بذنب، ولا يُكْشَف إلّا بتوبة»[(١)].

الخامس: أن يشهد حَقَّ الله عليه في هذه المصيبة، وهو الصبر.

فحقّ الله علينا في البلية والمصيبة الصبر عليها، ونَحْنُ مأمورون بأداء هذا الحق لله ﷻ، وإذا كان الله تعالى قد قَدَّرَ المصيبة وأمر بالصَّبْرِ، فقد وعد على الصبر بحُسْن الجزاء، فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وعلى المؤمن إذا وقع به ما يكره أن يتذكر قولَ المؤمنين لما رأوا الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وأجود ما قيل في تفسير الآية: أن المؤمنين لما رأوا الأحزاب يُطَوّقون المدينة تذكَّروا ما وعد الله به من الابتلاء والاختبار والامتحان، الذي يعقبه النصر القريب، والله تعالى أعلم[(٢)].

السادس: أن يعلم أن هذه قضية مقدَّرة ثابتة لا بُدَّ من وقوعها، وأنه قد كُتِبَ مَا قدر للإِنْسَانِ وهو في بطن أمه أيضًا، حينما بعَث إليه المَلَك، فأمَرَهُ بأرْبَع كلمات: بكتب أجله، ورزقه، وعمله، وشقيٌّ أم سعيدٌ.

فالعاقل لا يجزع من أمرٍ قد فُرِغ منه، فمَا قدَّرَهُ الله ﷻ فلا بد من وقوعه وتحققِهِ، ولو اجتمع الخلق جميعًا على دفْعِهِ لا يمكن أن يدفعوه.

كما ثبت من حديث ابن عباس ﭭ مرفوعًا: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٧٢٧) عن العباس ﭬ.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٣٩٢).

اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ»(١).

السابع: أن يتذكر أن الجَزَعَ كما أنه لا يَرُد الفائت فإنه يسُرّ الشَّامِت.

وقد قال بعض العقلاء لِبَنِيه ينصحهم: «إياكم والجَزَع عند المصائب؛ فإنه مجْلَبَة للهَمّ، وسوء ظَنٍّ بِالرَّبّ، وشَمَاتة للعدوّ»(٢).

فإذا علم العاقل ذلك دعاه ذلك إلى الصبر، والرضا بالمقدور.

الثامن: أن يعلم أن في عُقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصِّحَّة وزوال الألم ما لا يحصل بدونه، فإذا طالعت نَفْسُه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظُرْ إلى عاقبته وحُسْن تأثيره.

قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ... وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ(٣)

فقد يكون هذا الأمر المكْرُوه كلَسْعَةِ الكَيِّ التي يكون بعدها الشِّفَاء بإذن الله ﷻ، والعِبْرَةُ بِالنِّهَايَاتِ وكمالها.

التاسع: أن يتيقّن أن المصيبة ما جاءت لتُهْلِكَهُ وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبيّن عند ذلك مَنْ يصلح للعبودية ومَنْ لا يصلح لها، ويتبيّن مَنْ هُمْ أولياء الله ﷻ ومَنْ هم الذين لا يصلحون لولايته، فالله يجتبي أهل الولاية والصبر والرّضا والشكر، وأما الذي يجْزَع، ويَنْقَلِبُ على وجْهِهِ، فإنه يُطْرد، ويُقْصَى، وتَتَضَاعَف عليه المصيبة وهو لا يشعر في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «العقد الفريد» (٣/٩٧).

(٣) «ديوان المتنبي» (ص٣٧٤) مع «العرف الطيب».

الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بِأَنَّ المُصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أنَّ المُصيبة في حَقِّهِ صَارَت نِعَمًا عديدة، وما بين هاتين المنزلتين المُتَباينتين إلّا صبر ساعة، فيَحْتَاجُ إلى تشجيع القَلْبِ تلك الساعة؛ ليتجاوز هذا الضِّيق، ثم بعد ذلك يصيرُ إلى سعَة وعافية، والله المستعان.

العاشر: أنْ يعلم أنَّ الله ﷻ يُرَبِّي عِبَادَهُ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وبالنِّعْمَة والبَلَاءِ، فيستخرج منهم عبوديَّته في جميع الأحوال؛ عبودية في حال السَّرَّاءِ، وعبودِيَّة في حال الضرَّاء. والعَبْدُ على الحقيقة هو مَنْ قَام بعبودية الله ﷻ في الأحوال كلها[1].

الحادي عشر: أن يعلم العبد حقيقة الدنيا، وأنها ظلٌّ زَائِل، ومتاعٌ قليل، وأنها سجنُ المؤمن، وجنَّة الكافر. إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سَرَّتْ يَوْمًا أساءَتْ دَهْرًا، وإن متَّعت قَلِيلًا مَنَعت طَويلًا.

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الْأَقْذَاءِ وَالْأَكْدَارِ[2]

فإذا أدرك العاقل ذلك هَانَ عليه ما يَلْقَى من المصائب؛ ولكن لما كان الإنسان لا يعرف إلّا حال نَفْسه غالبًا، ويجهل ما يعانيه ويُكَابِدُه أكثر الناس؛ فإنه يتألّم كثيرًا ممَّا يصيبه، ولَوْ تَأَمَّل حال الناس لوَجَد البلاء لم يغادر أحدًا إلّا بِحَظٍّ مِنه.

الثاني عشر: تحقيق اليقين.

فإن اليقين إذا كان ثابتًا راسخًا في قلب العبد، فإِنَّهُ يثبت في الشدائد، «ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئنّ به، ويتنعَّم به، ويغتذي به؛ وهو اليقين»[3].

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٥٨٨ ـ ٦٠٤).

(٢) البيت لأبي الحسن التهامي، وهو في ديوانه (ص: ٣٠٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/١٥٣).

الثالث عشر: تكلّف الصَّبْر:

«فَإِذَا تَكَلَّفَه الإنسان واستدعاه صار سجيَّة له، كَمَا في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله»[١]، فمَنْ زَاوَلَ شَيْئًا، واعْتَادَهُ، وتَمَرَّنَ عليه صار مَلَكَة له، وسَجيَّة وطبيعة؛ ولهذا قيل: «العوائد تَنْقل الطبائع»، فَلَا يزال العبد يتكلَّف الصبر حتى يصير الصبر له سَجيَّة.

الرابع عشر: اللّجوء إلى الصَّلَاةِ والذِّكْرِ وقِيَام الليل.

قال الله ﷻ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، قال ابن جُريج: «إنهما معونتان على رحمة الله»[٢]. ولما بلغ ابن عباس نَبأ وفاة أخيه قُثَم وهو في سفر نزل، واسْتَرْجَع، وصَلَّى، وَقَرَأَ هذه الآية[٣].

الخامس عشر: تهوين المصيبة، ويكون ذلك بعدَّة أمور، منها:

١ ـ أن نذكر مُصَابنا برسول الله ﷺ، وقد جاء في الحديث: «إِذَا أُصِيبَ أَحَدُكُمْ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ المَصَائِبِ عِنْدَهُ»[٤]، وأرسل بعض العقلاء إلى أخٍ له يُعَزِّيه في ابن له اسمه محمد، كتب إليه يقول[٥]:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ ... وَاعْلَمْ بِأَنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
وَإِذَا ذَكَرْتَ مُصِيبَةً تَشْجُو بِهَا ... فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

٢ ـ أنها حيث وقعت لم تكن أعظم من ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٩٨/١) بسندٍ صحيح. كما قال أحمد شاكر في تعليقه على «تفسير الطبري» (١٤/٢).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٧١٨) من حديث سابط الجُمَحِي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١٠٦)، بشواهده.

(٥) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٧٧١).

٣ ـ النَّظَر في حال المُبْتَلَين بالمصائب من أمثاله، أو ممن هو أشد منه:
تقول الخنساء رضي الله عنها[(١)]:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وقال لبيد بن ربيعة[(٢)]:

أَتَجْزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى ... وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ الْقَوَارِعُ[(٣)]

٤ ـ النظر في حال المصابين ممَنْ هُوَ أشدّ مِنْهُ:

٥ ـ أن يتذكر سَوَالِف النِّعَم، ويعدد حاضرها، فإذا أيس من حصرها، هان عليه ما يجد.

٦ ـ تَذَكُّر أن وقت الشدة وقت محدود محصور، وسيذهب لا محالة، فإنما هي ساعة فكأنها لم تكن.

وقد كان محمد بن شُبْرُمة إذا نزل به بلاء قال: «سحابة، ثم تَنْقَشِع»[(٤)].

يقول الشيخ علي الطنطاوي: «سيأتي على هؤلاء المُتَألِّمِينَ المُعَذَّبين بمرض يُنَغِّصُ عليهم عِيْشتهم، أو فَقْرٍ يُنَكِّد عليهم أيَّامَهُمْ، أوْ سِجْن ظالم يُقَيِّد أيديهم، ويحرمهم أهلهم وأولادهم، أو عذاب مُسْتمرّ من جبار آثم يُغاديهم به ويماسيهم، سيأتي عليهم يوم يكون فيه هذا كله ذِكْرى في النَّفس، وحديثًا في المجالس، ومهما اشتَدَّ الضِّيق فالفَرَجُ موْجُود... وإنْ لم يَرَ البائس الفرج في الدنيا، فما الدنيا؟ أيَّام معدودة، وإن الحياة الباقِيَة لهي الحياة الآخرة، وهنالك يُعَوّض المظلوم تعويضًا يُرْضِيه، ويرى الظالم ما قدَّم لنفسه...» إلى آخر ما ذكر[(٥)].

---

(١) «محاضرات الأدباء» (٢/٥٣٢).

(٢) «ديوان لبيد» (ص٩٠).

(٣) لا يُنسَب هذا للدهر، لكنهم يتجوَّزُون بذلك، ويتوسَّعون في التعبير.

(٤) «الرسالة القشيرية» (١/٣٢٧).

(٥) «ذكريات علي الطنطاوي» (٢/٣٧٥).

تَسَلَّ عَنِ الهُمومِ فَلَيْسَ شَيْءٌ يُقِيمُ وَمَا هُمُومكَ بالمُقِيمَهْ
لَعَلَّ الله يَنْظُرُ بَعْدَ هَذَا إِلَيْكَ بِنَظْرَةٍ مِنْهُ رَحِيمَهْ(١)

السادس عشر: أن يتذكَّر أن أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، كما في حديث سعد رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٢).

ويقول وهب بن مُنَبِّه: «مَنْ أُصيب بشيء من البلاء فقد سلك به طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»(٣).

السابع عشر: أن يعلم أنه على خير ما دام أنه صابر شاكر.

فعن صُهَيْب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(٤).

الثامن عشر: أن يعلم أنه إذا مَرِضَ أو ابْتُلِيَ فإنه يجري عليه عملُهُ الَّذِي كان يعمله حينما كان صحيحًا مُعافًى؛ فعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»(٥).

التاسع عشر: أن العبد قد تكون له منزلة في الآخرة في الجنة لا يبلغها بالعمل، فيصيبه ما يُصِيبُهُ مِنَ بَلَاءِ الدنيا، فيَصْبِر ويَحْتَسِب حتى يبلغها،

---

(١) «الفرج بعد الشدة» لابن أبي الدنيا (٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وصححه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٥٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

وهذا ثبت به الخبر في حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الرَّجُل لَتَكُونُ لَهُ عِنْدَ الله المَنْزِلَةَ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ الله يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»[(١)].

العشرون: أن يتذكَّرَ أن البلاء كَفَّارَة، وقَدْ جَاءَ في هذا كثير من الأحاديث والأخبار الصحيحة، منها: قوله ﷺ: «مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[(٢)].

الحادي والعشرون: ملاحظة الثواب.

فإذا لاحظ الثواب والأجر وحُسْنَ الجَزَاء فإنه يطمئن قلبه إلى ذلك، وتَرْتَاض النَّفْس، «ويَخِفُّ عليه حمْل البلاء؛ لشهود العِوَض»[(٣)]

فينبغي أن يتذكَّر الإنسان دائمًا ما أعدَّهُ الله ﷻ لأهل البلاء في الآخرة، ولذلك جاء في حديث جابر ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ»[(٤)].

وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: «إِنَّ المُسْلِمَ لَيُؤْجَر في كل شيء، حتى في النَّكْبَة وانقطاع شِسْعه - يعني: شِسْع النَّعْل - والبضاعة تكون في كمّه... فيفْزع لها، فيجدها في ضَبَّته»[(٥)].

الثاني والعشرون: أن يَتَلَمَّحَ ما في المُصاب من الفوائد والمنافع، فإنَّ الإنسانَ إذا لاحظ ما في مَضَامين المُصيبة هانت عليه، والكلام في هذا

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٠٨) وصححه االألباني في «الصحيحة» (١٥٩٩، ٢٥٩٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/١٦٦ - ١٦٧) بتصرف.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢) وضعَّفَهُ، وحسّنه االألباني في «الصحيحة» (٢٢٠٦).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص١٠٩)، ورجاله ثقات، لكنه منقطع.

يطول، وقد كَثُرَتْ أمْثَال العَرَب والعَجَم في التعبير عن هذه الحقيقة، فهي قضيَّة مُؤكّدة مقرّرة عند العالمين؛ ففي بعض الأمثال عند الرّوس يقولون: «لو لم تكن المصيبة لما كانت هناك سعادة»، يعني: لا تعْرِف طَعْم اللَّذّة إلّا إذا ذُقْتَ طعْمَ المَرَارة في أيام النَّكد والألَم والبُؤْس.

ومن أمثال بعض الأُمَم: «المُصيبة: هي القَابِلَة القانونية التي تُوَلِّد العبقرية»[(١)].

الثالث والعشرون: اللجوء إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء.

قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالإنسان يسأل ربه أن يرزقه الصَّبْر، ويعينه على بَلِيَّتِهِ، فإذا أعان الرب عبده هان عليه كل بلاء.

إِلَيْكَ وَقَدْ سُدَّتْ بِوَجْهِي الشَّرَائِعُ ... تَوَجَّهْتُ يَا مَوْلَايَ وَالطَّرْفُ دَامِعُ
يَرُومُونَ إِذْلَالِي فَجِئْتُكَ أَحْتَمِي ... وَمَا ذَلَّ عَبْدٌ أَنْتَ عَنْهُ تُدَافِعُ
فَأَنْتَ الَّذِي يَدْرِي خَفِيَّ خَوَاطِرِي ... وَهَاجِسَ فِكْرِي إِنْ جَفَتْنِي المَضَاجِعُ
فَإِنْ رَابَنِي أَمْرٌ قَصَدْتُكَ عَائِذًا ... وَكُلُّ الَّذِي قَدَّرْتَ لَا بُدَّ وَاقِعُ

* * *

---

(١) القَابِلَة هي: التي تقوم بالتوليد.

عَقَبَاتٌ فِي طَرِيقِ الصَّبْرِ

وقد نَصَب الشيطان في طريق الخير كل عَقَبَة يستطيع وضْعَها؛ ليصدّ عن سبيل الله، وجعل على طريق الصبر عَقَبَة كَؤُودًا، وهي ضَعْف العزيمة، وقِلَّة الاحتمال، وجعل مِنْ دُونِهَا عَقَبَات وعَقَبَات. فمِنْ ذَلِكَ:

١ ـ العَجَلَة: قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وفي الحديث: «التَّأَنِّي مِنَ الله، وَالْعجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»[١].

وقد قال مروان بن الحَكَم لابنه عبد العزيز حين وَلَّاهُ مِصْرَ: «لا تَعْجَلْ بالعُقُوبَةِ إذا أشكل عليك الأمر؛ فإنك على العقوبة أقدر منك على ارتجاعها»[٢].

٢ ـ اليأس: واليأس والصبر لا يجتمعان أبدًا؛ ولذلك فالمؤمن لا ييأس.

٣ ـ الضيق: وهو ضيق الصَّدْر عن الاحتمال، مما يؤدِّي في الغالب إلى سوء التصرّف.

٤ ـ الغضب: وهو عدوّ الصبر، وأكبر مُعِين للشيطان على ابن آدم.

---

(١) أخرجه البيهقي (١٠٤/١٠) وغيره، من حديث أنس ﷺ، وحَسَّنَهُ الألباني في «الصحيحة» (١٧٩٥).

(٢) «بهجة المجالس» (٢٦٧/١).

فعن أبي هريرة ﷺ، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لَا تَغْضَبْ»، فردَّدَ مِرارًا، قال: «لَا تَغْضَبْ»[1].

ولذلك كان الذي يملك نَفْسه عند الغضب أعْظَم الناس قُوَّةً، وأشدّهم صبرًا واحتمالًا لأذى الخلق.

والغضب يؤول إلى التَّقَاطُع ومَنْع الرفق، ورُبَّما آل إلى أن يُؤذي المَغْضُوب عليه، ويُفْرط في أذَاهُ.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦).

ثَمَرَاتُ الصَّبْرِ (١)

١ ـ الصبر يُنِير الطَّرِيقَ:

وذلك أنه يهدي العبد للخير، ويدلّه عليه، ويأخذ بيده؛ فَلَا يَزَالُ العبد مُسْتضيئًا بالصَّبْر، ومُسْتمرًّا على الصَّوَاب.

فعن أبي مالك الأشعريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «... والصَّلَاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»[٢].

٢ ـ الصبر يُعِينُ عَلَى تَحمُّلِ المَشَاقّ:

فالصَّبْرُ عَوْنٌ على تَحمّل ما يشقّ من تكاليف شرعيَّة، والقيام بها طاعة لله بنَفْسٍ مُطمَئِنَّة رَضيَّة إن كانت أوامر، وحَجْز النَّفْس وقهرها عن ارتكابها إن كانت نواهي، والصبر عليها، واحتسابها عند الله إن كانت أقدارًا مُؤلمة.

قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ومَنْ كان الله معه لم يَخْشَ من الأهوال، وإِنْ كَانَتْ أعظم من الجبال.

٣ ـ الثبات على الحق:

قال شيخ الإسلام: «وليصبر على ما يَعْرِض له من الموانع والصّوارف؛ فإنه لا يَلْبَث أن يُؤيده الله بِرُوح منه، ويكتب الإيمان في قلبه»[٣].

---

(١) انظر: «نضرة النعيم» (٦/٢٤٧١ ـ ٢٤٧٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٣٧).

٤ ـ النَّجاح في الابتلاء:

فعن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ الله قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[(١)].

٥ ـ الأجر والثَّواب ودخول الجنَّة:

فالصَّبْر من صفات عباد الرحمن التي استحقّوا بِهَا الجَنَّة العَالِيَة بفضل الله، ولُقُّوا فيها التَّحِيَّة وَالسَّلَامَ، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥][(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

قال ابن كثير: «قَسَمٌ مِنَ الرَّبِّ ﷻ مُتَلَقًّى باللام أنه يُجازي الصابرين بأحسن أعمالهم؛ أي: ويَتَجَاوَز عن سيئها»[(٣)].

٦ ـ توفيتهم أجورهم بغير حساب:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن جُزَي: «قال بعض العلماء: كل الحسنات لها أجر محصور، من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلَّا الصبر، فإنه لا يُحْصَر أجره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»[(٤)].

٧ ـ محبة الله للصابرين:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وهذا أعظم شرف لهم، وأكرم عطاء، وأجلّ كَرَامَة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) راجع «تفسير ابن كثير» (١٣٣/٦).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦٠١/٤).

(٤) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٦٥/١).

٨ ـ معيَّة الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وفي هذا دليل على أنه مُعَان من قِبَلِ الله، وأن الله يُعِين الصابر، ويُؤَيِّده، ويكْلَؤُه، حتى يتم له الصبر على ما يحبّه الله.

٩ ـ لهم البُشرى من الله والصلاة والرحمة والهداية:

قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

١٠ ـ النصر:

قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقال النبي ﷺ: «النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ، وَالْفَرَجُ مَعَ الْكَرْبِ»(١).

١١ ـ التمكين:

قال ابن القيِّم: «سُئِلَ الشافعي: أيما أفضل للرجل: أن يُمَكَّن ـ يعني: فيَشْكُر الله ﷻ ـ أو يُبْتَلَى؟ ـ يعني: فيصبر ـ، قال: لا يُمَكَّن حتَّى يُبْتَلَى، والله تعالى ابْتَلَى أولي العَزْمِ من الرسل، فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ»(٢).

١٢ ـ نَيل المَطالب:

وقد قيل(٣):

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ ... لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةَ الأَثَرِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وحسنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٣٤٣) وما بعدها.

(٢) «زاد المعاد» (٣/١٣).

(٣) أخرجها البيهقي في «الشعب» (٩٦٢٠)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُطَالِبُهُ فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

وعن مَيْمُون بن مِهْران قال: «ما نال رجل من جسيمِ الخَيْرِ، نبيٌّ ولا غيره، إلّا بالصَّبْرِ»[(١)].

١٣ ـ الصبر سبب لتحصيل كل كمال:

قال ابن القيم: «الصبر سَبَبٌ في حصول كل كمال، فأكْمَل الخَلْقِ أصْبَرُهم، ولم يتخَلَّفْ عن أحد كماله المُمْكِن إلّا من ضَعْف صَبْره؛ فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمَنْ لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، فإذا انْضَمَّ الثَّبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل؛ ولهذا في دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ»[(٢)].ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلّا على ساق الصبر»[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا انْضَافَ إلى الصبر قوّة اليقين والإيمان ترقَّى العَبْد في درجات السعادة بفضل الله تعالى»[(٤)].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٩٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١١٤)؛ من حديث شداد بن أوس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٢٨).

(٣) «طريق الهجرتين» (٢/٥٧٨ ـ ٥٧٩).

(٤) قاعدة في «الصبر» (ص١٦٨) بتصرف يسير.

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الصَّبْرِ

١ ـ وعن أنس بن مالك ﷺ، قال: «اشتكى ابنٌ لِأَبِي طَلْحَةَ، قال: فمات، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هَيَّأَتْ شَيْئًا، ونَحَّتْه في جانب البيت، فلمَّا جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هَدَأَت نَفْسه، وأرجو أن يكون قد اسْتَرَاحَ، وظَنَّ أبو طلحة أنها صَادِقة، قال: فَبَات، فلَمَّا أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعْلَمَتْهُ أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: «لَعَلَّ الله أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا»... قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن»(١).

والمُراد بقوله: «فرأيت لهما»، أي: لولدهما المدعو له بالبركة.

٢ ـ وعن منصور بن عبد الرحمن عن أُمِّه قالت: «لما صُلِبَ ابْنُ الزُّبَيْرِ دخل ابن عمر المسجد، وذلك حين قُتِلَ ابن الزبير وهومَصْلُوب مَطْرُوح، فقيل له: إن أسماء في ناحية المسجد، فمال إليها، فقال: إن هذه الجُثث ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فاتَّقِ الله، وعَلَيْكِ بالصَّبْرِ، فقالت: وما يَمْنَعُنِي وقد أُهْدِيَ رأس يحيى بن زكريا إلى بَغِيٍّ مِنْ بَغَايا بني إسرائيل»(٢).

---

(١) أخرجه ا لبخاري (١٣٠١).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/٦٩).

٣ ـ وقيل لسعد بن أبي وقاص ﷺ ـ وهو المعروف بإجابة الدعوة ـ : لو دعوتَ الله لبَصَرِك ـ وكان قد أُضِرَّ ـ فقال: «قضاء الله أحبّ إليَّ مِنْ بَصَرِي»(١).

٤ ـ ولما أرادوا قَطْع رجل عروة قيل له: لو سقيناك شيئًا حتى لا تشعر بالوَجَع؟ قال: «إنما ابتلاني ليرى صبري، أَفَأُعَارِض أمره بِدَفْع؟!»(٢).

٥ ـ وكان له ابن يقال له: محمَّد، وكانَ مِنْ أَحَبِّ وَلَدِهِ، رَكَضَته بغلة فقتلته، فقال عروة: «اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذتَ منهم واحدًا، وأبقيت سِتَّة، وكانت لي أطراف أربعة، فأخذت مني طَرَفًا وأبقيت لي ثلاثة، وايمك لئن ابتليتَ لقد عافيتَ، ولئن أخذتَ لقد أبقيتَ»(٣).

٦ ـ وعن الشَّعْبِي أن شُرَيْحًا القاضي قال: «إنّي لأُصاب بالمُصيبة فأَحْمَد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفَّقني للاسترجاع لِمَا أرْجُو فيه من الثواب، وأحْمَدُه إذ لم يجعلها في ديني»(٤).

٧ ـ وعن إبراهيم بن الوليد قال: دخلت على إبراهيم المغربي وقد رفَسَتْهُ بغلة، فكسرت رجله، فقال: «لولا مصائب الدنيا لَقَدِمْنا على الله مَفَالِيس»(٥).

٨ ـ وذُكِرَ عند الإمام أحمد ـ لمَّا كان في مرض الموت ـ عن طاوس أنَّه كان يكره الأنين، فلم يَئِنّ حَتّى مَاتَ(٦).

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٩٨٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٧٢).

(٣) المصدر السابق (١٤١).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

٩ ـ وعن عطية بن قيس قال: مرض كعب، فعادَهُ رَهْط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجدك يا أبا إسحاق؟! قال: «بخير، جسد أُخِذَ بذنبه، إن شاء ربُّه عَذَّبَه، وإن شاء رَحِمَهُ، وإن بَعَثَهُ بَعَثَه خَلْقًا جديدًا لا ذنب له»[١].

١٠ ـ وعن القاسم بن محمد قال: «هلكت امرأتي، فأتاني محمد بن كعب القُرَظي يُعزّيني بها، فقال: إنه كان في بني إسرائيل رَجُل فقيه، عالِم، عابد، مُجتهد، وكانت له امرأة، وكان بها مُعْجبًا، ولها مُحِبًّا، فماتت، فوَجَد عليها وَجْدًا شديدًا، ولقِيَ عليها أَسَفًا، واحْتَجَب من الناس، فلم يكن يدخل عليه أحد، وإن امرأة سمعتْ به، فجاءته، فقالت: إن لي إليه حاجة أُريد أن أستفتيه فيها، ليس يُجزئني إلّا مُشَافَهَتُه، فذهب الناس، ولزِمَتْ بابه، وقالت: ما لي منه بُدّ، فقال له قائل: إن هاهنا امرأة أرادت أن تستفتيك، وقالت: إنْ أَردتُ مُشَافَهَتُه، وقد ذهب الناس، وهي لا تُفارق الباب، فقال: ائذنوا لها، قال: فَدَخَلَت عليه، فقالت: إني جئتك أستفتيك في أمر، قال: وما هو؟ قالت: إني اسْتَعَرْتُ من جارة لي حُلِيًّا، فكنتُ أَلْبَسُه، وأُعِيره، فلَبِث عندي زمانًا، ثم إنهم أرسلوا إليَّ فيه، أَفَأَرُدّه إليهم؟ فقال: نعم، والله. فقالت: إنه قد مكث عندي زمانًا، فقال: ذلك أحقّ لردِّك إياه إليهم، حين أَعَارُوْكِيْهِ زمانًا. فقالت: أي رحمك الله، أَفَتَأَسَّف على ما أَعَارَك الله، ثمّ أَخَذَه منك وهو أحقُّ به منك؟ فَأَبْصَر ما هو فيه، ونَفَعَه الله بقولها»[٢].

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٤٤).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٦٣٦).

الرِّضَا

تَوْطِئَة

إن مقام الرضا من أشرف مقامات السالكين، وأجلّ منازل العابدين، المُبْتَغِين رضا الله رب العالمين.

ولا يزال العبد يرضى عن الله تعالى في كل مقدور حتى يرضى الله عنه.

والله أكْرَم من عبده، وأوْلَى بِكل جميل؛ ولذلك فإنه لا يَصِلُ إلى هذا المقام إلّا خاصة عباد الله الصالحين؛ وذلك أنه لا يمكن الوصول إلى منزلة الرضا حتى يتم تحصيل منزلة الصبر، وإذا كان الصابرون يوفّيهم الله أجُورهم يوم القيامة بغير حساب، فكيف بالرَّاضِين الذين رَضِيَ الله عنهم ورَضُوا عنه؟!

إنه مقام صحابة رسول الله ﷺ، ونحن إذ نتكلّم عنهم وعن مقامهم نستبشر بقول رسول الله ﷺ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»(١).

ونحن نأمل أن يكتبنا الله من مُحِبِّيهِم، وأن يجمع المحبِّين مَع مَنْ أَحَبّوا، إنه سميع قريب.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

مَعْنَى الرِّضَا وَحَقِيقَتُهُ

الرِّضَا في اللغة[١]:

الرضا: مصدر ضدُّ السُّخط، والسُّخْط: الكراهية للشيء، وعدم الرِّضَا به. وفي الحديث: «أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْد القَضَاءِ»[٢].

والرضا نقيض الغضب، والتسليم: بذل الرضا بالحكم.

معنى الرضا بالقضاء والقدر في الاصطلاح[٣]:

هو: التسليم بالقضاء، والقناعة بما قُسِمَ، قَلَّ أَوْ كَثُر، والسكون إلى الله، وتَرْكُ الحسرة على ما فات، وعَدَم التَّسَخّط أو الاعتراض على ما وقَع من قضاء الله الكوني.

وحقيقة الرِّضَا: أن يرضى العبد بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا؛ فإذا تَمَّ له ذلك حصل له سكون وطمأنينة بتدبير الله ﷻ له، وحُكْمه عليه.

❊ ❊ ❊

---

(١) راجع: «تهذيب اللغة»، (١٢/٦٤)، مادة: (رضي)، و«لسان العرب» (٥/٢٣٥)، مادة: (رضي).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٧٧)، و«التوقيف على مهمات التعاريف» (ص١٧٨).

الفُرُوقَاتُ فِي بَابِ الرِّضَا

أولًا: الفرق بين الرِّضا والصبر:

قال ابن رجب: «والفرق بين الرِّضا والصبر: أن الصبر كَفّ النَّفْس وحَبْسها عن التَّسخّط، مع وجود الأَلَم... والرضا يُوجِب انشراح الصدر وسَعَته بالقضاء... وإن وُجِد الإحساس بالأَلَم، لكن الرضا يُخَفِّفه؛ لما يُباشِر القلب من رَوْح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا فقد يُزِيل الإحساس بالألم بالكُلِّيَّة»[(١)].

قال عمر بن عبد العزيز: «الرضا قليل، ولكنَّ الصبر مُعَوَّل المؤمن»[(٢)].

ثانيًا: الفرق بين الرضا بالله، والرضا عن الله:

الرضا بالله: أن ترضى به ربًّا، وأنه المعبود لا غيره، وأن الحُكم له لا لغيره، وأن ترضى بما شرع، وتُسَلِّم. وهذا لا يكون إلّا للمؤمن.

أمَّا الرِّضَا عن الله: فهو أن ترضى بما قضى وقَدَّرَ، ويدخل فيه المؤمن والكافر.

ولا بد من اجتماع الأمرين معًا: الرضا بالله، والرِّضَا عن الله.

والرضا بالله أعلى شأنًا، وأرفع قَدْرًا؛ لأنها مرتبة مُختصّة بالمؤمنين.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٦٨).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٩٣).

والرضا عن الله مُشْتَرَك بين المؤمن والكافر؛ لأن الرضا بالقضاء قد يصح من المؤمن والكافر؛ لكن الكافر لم يَرْضَ بالله رَبًّا.

فالرِّضَا بالله رَبًّا آكَدُ الفروض باتفاق الأمة، فمن لا يرضى بالله ربًّا فلا يَصِحّ له إسلام ولا عمل.

❊ ❊ ❊

حُكمُ الرِّضَا

تنازع العلماء في حكم الرضا بالقضاء في المصائب، أهو واجب أم مستحبّ؟ على قولين:

الأول: أنه واجب، وعلى هذا فهو من أعمال المُقتَصِدِين، ومعنى ذلك: أنه فرض وعبادة كالصبر.

الثاني: أنه مُسْتحَبّ، وعلى هذا فهو من أعْمَالِ المُقَرَّبين»[(١)].

والقول بالاستحباب: هو مذهب جمهور العلماء وبه قال شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى[(٢)].

قال ابن تيمية: «وأكثر العلماء على أن الرضا بذلك مُسْتَحَبٌّ، ولَيْسَ بِوَاجِب».

أدلة القائلين بالاستحباب:

١ ـ أن الإيجاب يَتَطلّب دليلًا شرعيًا على الوجوب، ولا دليل عليه.

٢ ـ أنَّ الرضا من القُرَب التي يُتَقَرَّب بها، وليس من الفرائض؛ كما قال عمر بن عبد العزيز: «الرِّضَا عزيز، ولكن الصبر مُعَوَّل المؤمن»[(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٠ ـ ٤١) بتصرف.

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٣/٢٠٤)، و«مدارج السالكين» (٢/١٧٢).

(٣) تقدم تخريجه.

قال ابن القيم: «لِعِزَّتِه، وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها لم يُوجبه الله على خَلْقه، رحمةً بهم، وتخفيفًا عنهم، ولكن نَدَبهم إليه»(١).

٣ ـ أنه لم يَرِد الأمر بالرِّضَا في الكتاب ولا في السنَّة، مثل الصبر؛ فالصبر أَمَر الله به في مواضع كثيرة من كتابه. وأما الرِّضَا، فلم يأمر به في آيةٍ واحدة.

٤ ـ أن القول بوجوبه يلزم منه الرِّضَا بما حَرَّم الله، مثل الرضا بالكفر والفسوق وغيرهما من القضاء الكوني القَدَري.

والصحيح أن المصَائِبَ هي قضاء الله، ومنسوبة إليه على وجهين:

الأول: كَوْنُهَا فِعْلُ الله القائم بذاته تعالى، فهذا يجب الرِّضَا به، والتصديق والتسليم له، ومن ذلك عَدْل الله، وحِكْمَتُهُ، وقُدْرَتُهُ، وعِلْمُه سبحانه، وخَلْقه، فالرضا بالمصائب من هذا الوجه واجب لا شك في ذلك.

الثاني: المَقْضِي المُنْفَصِل عن الله، المفعول له، فهذا قسمان: مصائب ومَعَايب، فالمَعَايب لا شك أنه يحرم الرضا بها(٢).

ومن الأدلة على استحباب الرضا أيضًا: أن الله سبحانه وتعالى أثنى على أهل الرضا بقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] فأثنى عليهم، ولم يُوجب ذلك عليهم.

قال ابن القيم: «وأما الرضا فإنما جاء في القرآن مَدْحُ أهله، والثناء عليهم، لا الأمر به»(٣).

ومما ينبغي التنبه له في هذا الباب:

أن القضاء الكَوْنِيّ القَدَرِي على ثلاثة أقسام:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٧٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٠ ـ ٤١، ١١/٢٦٠)، و«مدارج السالكين» (٢/١٨٧ ـ ١٩٦).

(٣) «مدارج السالكين» (١/١٣١).

الأول: قِسْم مُوَافق لمحبّة العبد وإرادته ورضاه؛ من صِحَّة وغِنًى وعافية ولَذَّة، فهذا أمر لازمٌ بمقتضى الطبيعة؛ وليس في الرِّضَا به عبودية، لكن العبودية فيه مُقابلته بالشكر، والاعتراف بالمِنَّةِ، ووَضْع النِّعْمة في المواضع التي يُحبّ الله تعالى أن تُوضَع فيها، وألَّا يعصي العبد بها المُنْعِم سبحانه.

الثاني: ما جاء على خلاف مُرَاد العبد ومحبَّتِه، وذلك مثل المرض، والفقر، وأذى الخَلْق، والآلام، ونحو ذلك من المصائب التي تُصيب العبد المؤمن، فالمؤمن من أكثر الناس بلاء، ولكنه أعظمهم قَدْرًا، والمصائب ابتلاء، واختبار للعبد، أيرضى أم يسخط، ويُبْتَلَى المؤمن على قدر إيمانه.

وهذا النوع منه ما يُمكن مُدافعته، وذلك لا يُنافي الرضا. ومنه ما لا يُمكن مُدافعته، فالواجب فيه التسليم والصبر.

الثالث: وهو الجاري باختيار العبد وقضاء الرَّبّ، مما يكره الله، ويسخطه، وينهى عنه، وهو الرّضا بالمعصية، وهو مذمومٌ، منهيٌّ عنه(١).

فالرِّضَا بالمعصية معصية، فعن عبد الله بن أبي مُلَيْكَةَ أَنَّ عبد الله بن عمرو ﵄ قال يومًا: «ما أَفْرَق على نفسي إلّا من ثلاث مواطن: في دم عثمان». فقال له عبد الله بن صفوان: «إن كنت رَضِيتَ قتله، فقد شركت في دمه»(٢). فجعل الرِّضَا بالقَتْل قَتْلًا.

وقال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فهذا دليل على وجوب اجتناب أهل المعاصي حالَ فعلها ومُوَاقَعَتِها،

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١٨٩/٢).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨٧/٥).

وهذا مُقْتَضَى عدم الرضا بالمعصية؛ لأن مَنْ لم يجتنبهم فقد رضِيَ فِعْلهم؛ كما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

والخلاصة أنّ: «الرِّضَا بالقضاء ثلاثة أنواع:

أحدها: الرِّضَا بالطاعات، فهذا طاعة مأمور بها.

والثاني: الرضا بالمصائب، فهذا مأمور به؛ إما مُستحب، وإما واجب.

والثالث: الكفر والفسوق والعصيان، فهذا لا يُؤْمَر بالرِّضَا به، بل يُؤْمَر بِبُغْضه وسخطه؛ فإن الله لا يُحبه، ولا يرضاه»(١).

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٨٢ ـ ٤٨٣).

الفَرقُ بَينَ أفعَالِ الرَّبِّ سُبحَانهُ وَمَفعُولَاتِه

فليُعْلَم «أنَّ ما يُحبه الله من المأمورات فهو مُتَعَلِّق بصفاته سبحانه، وما يكرهه من المنهيّات، فمُتَعَلِّق بمفعولاته.

فالمنهيات شرور، وتُفضي إلى شرور؛ والمأمورات خير، وتُفضي إلى الخيرات، والخير بيديه سبحانه، والشرّ ليس إليه؛ فإن الشر لا يدخل في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإنما هو من المفعولات، مع أنه شرٌّ بالإضافة والنِّسْبة إلى العبد؛ وإلا من حيث إضافته ونسبته إلى الخالق سبحانه، فليس بِشَرّ مِنْ هَذِهِ الجِهَة»[١].

والله سبحانه وتعالى حيث قَدَّرَ المَقَادِير، وقضى بوجود الكائنات، فإنه سبحانه له الحَمْد، وله النِّعْمَة، وله الثناء الحَسَن على ذلك، وهو سبحانه لا يفعل شيئًا إلّا لحِكْمة بالغة، وأفعاله صادرة عن عِلْم تامّ.

فإنه سبحانه لما قضى بِخَلْق إبليس مثلًا، فإن هذا الفِعْل ـ الذي هو قضاء الرَّبّ ـ ناتج عن عِلْم وحِكْمة؛ فعلينا أن نرضى عن فِعْله وتقديره؛ فهو العزيز الحكيم، له التدبير الكامل المُطْلَق في مخلوقاته كلّها.

وفي خَلْقِ إبليس من الحِكَم الجليلة، والآثار العظيمة ما لا يُحصَى، فنحن نرضى بخَلْقه، وهو فِعْل الرَّبِّ تَعَالى.

---

(١) «الفوائد» (ص١٨٥) بتصرف يسير.

ولكنا لا نرضى بفِعْل هذا المخلوق، وهو ما نسمِّيه مفعول الربّ، فهذا المفعول الناتج عن قضاء الرب تبارك وتعالى لا نرضى به، ولا نُحبّه.

والإنسان قد يكره المرض، ويكره المُصيبة؛ ولكنه إذا الْتَفَتَ إلى فِعْل الرب؛ الذي هو خير، وإحسان، وحِكمة كله، فإنه يجب عليه أن يرضى ويُسَلِّم، ففرق بين هذا وهذا.

قال ابن القيِّم: «ومفعولاته آثار أفعاله، وأفعاله من صفاته القائمة بذاته؛ فذاته سبحانه مُسْتَلْزِمة لصفاته وأفعاله، ومفعولاته مُنفصلة عنه، تلك مخلوقة مُحْدَثة، والرب تعالى هو الخالق بذاته وصفاته وأفعاله»(١).

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٥١).

الرِّضَا بِالقَضَاءِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ

إن من لوازم الإسلام وقواعد الإيمان الرضا بالقضاء الديني الشرعي؛ فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حَرَج، ولا مُنَازَعة، ولا مُعَارَضة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

«فحُكْمُ الله تعالى الشَّرْعي الديني حقّه أن يُتَلَقَّى بالمُسَالَمة والتَّسْلِيم، وتَرْك المُنازَعة؛ بل بالانقياد المَحْضِ، وهذا تَسْليم العبودية المَحْضَة، فلا يُعَارَض بذَوق، ولا وَجْد، ولا سياسة، ولا قياس، ولا تقْلِيد، ولا يرى إلى خلافه سبيلًا البتّة.

فإذا تَلَقَّى بهذا التسليم إقرارًا وتصديقًا، بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له، إرادة وتنفيذًا وعملًا.

فلا تكون له شهوة تُنَازِع مُراد الله من تنفيذ حُكمه، كما لم تكن له شُبهة تُعارض إيمانه وإقراره، وهذه حقيقة القلب السليم الذي سَلِم من شُبْهة تُعَارِض الحَقَّ، وشهوة تُعَارِض الأمر»[١].

ولم يتنازع العلماء في أن الرِّضَا بما أمر الله به ورسوله واجب مُحَبَّب، لا يجوز كراهة ذلك وسُخْطِه، وأنَّ مَحَبَّه ذلك واجبة، بحيث يُبغض ما

(١) «طريق الهجرتين» (١/٧٤ ـ ٧٥).

أبغضه الله، ويَسْخَط ما سَخِطه الله من المحظور، ويُحِبّ ما أَحَبَّه، ويرضى ما رَضِيَهُ الله من المأمور.

* * *

مَنزِلةُ الرِّضَا

الرِّضَا بَاب اليقين الأكبر، وبُستان العبودية... وهو مُسْتَنْزَل الرحمة، ومُسْتَدَرّ الزيادة، ومُسْتَوجَب الرِّضَا منه: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

والرضا مطْرَدة للهموم والغموم، مَذْهَبة للأحزان، وهو علاج التَّرَدّد والحَيْرَة والاضطراب؛ لأنه التسليم بالحِكْمَة والتصديق بالشرع، والاطمئنان إلى حُسْن الاختيار.

قال الإمام أحمد: «أجمع تسعون رجلًا من التابعين، وأئمَّةِ المسلمين، وأئمة السلف، وفقهاء الأمصار على أن السُّنة التي تُوُفِّيَ عليها رسول الله ﷺ أولها: الرِّضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، والصبر على حُكْمِه، والأَخْذ بما أمر الله به، والانتهاء عمَّا نهى عنه، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه.. إلى آخر ما ذكره»[1].

وقال عبد الواحد بن زيد: «ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدَّم الصبر إلّا الرضا، ولا أعلم درجة أشْرَف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة»[2].

(١) أخرجه ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة»(١/٣٤٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/١٦٣).

وقال شيخ الإسلام: «وإن ارتقى إلى الرضا ـ يعني: الصابر ـ رأى أن الرضا جنة الدنيا، ومُسْتَرَاح العابِدِين، وباب الله الأعظم»[١].

وقال ابن المُبارك: «قال داود لابنه سليمان ﷺ: يا بني! إنَّما يُسْتَدَل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: بحُسْن توكّله على الله فيما نَابَه، وبحُسْن رضاه فيما آتاه، وبحُسْن صبره فيما ينتظره»[٢].

فمنزلة الرضا هي التي تُثْمِر محبَّة الله، والنجاة من النار، والفوز بالجنَّة، ورضوان الله، وحُسْن ظنّ العبد بِرَبِّهِ، والنفس المُطمئنة، والحياة الطيِّبة.

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/١٧).

(٢) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٩٦٤).

الرِّضَا فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

النصوص الواردة في الرِّضا كثيرة جدًّا، وحسْبُنا أن نشير إلى بعضها:

١ ـ قال الله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فهذه الآية تضمَّنت الحَضّ على التزام أمر الله ﷻ، وإن شقّ على النفوس، وعلى الرِّضَا بقضائه، وإن كرهته النفوس؛ فالله هو العليم والخبير والحكيم في اختياره، لا يعلم العواقب في الأمور كلها إلّا الله ﷻ، فقد يكره العبد شيئًا وهو عَين الخير له، وقد يفرح بشيء ويُحبه وهو عَيْنُ الشَّرِّ لَهُ؛ فما على العبد إلّا أن يَرْضَى إذا وقعت به مُصيبة، أو أصابه ما يكره؛ فإن الله هو العليم بمصالح العباد وما ينفعهم.

وقد اقتضت حكمته ومشيئته أن يُقدِّر هذا المكروه، فمن رَضِيَ فله الرِّضَا، ومن سَخِط فله السَّخَط.

٢ ـ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، فما أصاب العباد من المصائب؛ مِنْ قَحْطٍ وجَدْب وذَهَاب زَرْع وغير ذلك، أو في الأنفس؛ من الأمراض والأوجاع والأسقام، قَلَّ ذلك أو كثر، عَظُم ذلك أو صَغُر؛ فكله مكتوب في اللَّوْحِ المحفوظ من قبل أن يُوْجِدَه الله ﷻ، فلا يحزن العبد على ما فاته، ولا يَفْرَح بما آتاه فَرَح مخْتَال فخور، ولكن يَرْضَى بِقَضَاءِ الله ﷻ.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، فكل ما يُصيبنا من الآفات والآلام والمكاره؛ فبقدر الله ﷻ. فإذا تيقَّنَ العبد هذه الحقيقة، فإنه يَحتسِب، ويُسَلِّم، ويرضى بقضاء ربه، فيُعَوّضه الله ﷻ عَمَّا فاته، ويَهدي قلبه، ويَحصل له اليقين.

ومن السنَّة:

١ ـ عن العباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(١).

٢ ـ وفي حديث الاستخارة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ» الحديث، وفي آخره: «وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»(٢)؛ فالعبد مُحتاج إلى أن يُرْضِيَه الله ﷻ بما قُسِمَ لَهُ، وقُدِّرَ عَلَيْهِ؛ وإلا فإنه قد يقع له الأمر يكرهه، فيسخط، ويتبرَّم؛ وذلك خلاف الصبر على المقدور والرِّضَا به، والمُستخير ربّه مُفَوِّض أمره إليه، راكنٌ إلى حُسْن اختيار الرب له، مُقِرٌّ بالعَجْز والتقصير والجهل على نَفْسه، وهذا مقام الرِّضا.

٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنتُ خلْف النبي ﷺ يومًا، فقال: «يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ؛ احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

فإذا عرف الإنسان هذه الحقيقة، وأن التَّسَخّط أو التَّحَسّر لن يكشف الضر أو يجلب النفع اطمأنت نَفْسه بالرّضا بما قسم الله تعالى، فصبر على ما أصابه، وقنع بما آتاه الله.

فالعاقل الرشيد يَجْري مع المقادير على قَدَمِ الرِّضَا، فيَقْنَع، ويَرْضَى، وتَسْلُو نَفْسه عن الرّكون إلى تلك الأوهام التي تجلب له المواجع، وتزيده حسرة وألمًا.

ولو تأمل العاقل حديث ابن عباس هذا حق تأمله، وقوله: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيء لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ»؛ لاستراح مِنْ عَنَتٍ كثير، وأوجاع وأوهام تَسْلُب الراحات، وتقضّ المضاجع.

❊ ❊ ❊

أَنْوَاعُ الرِّضَا

قوله ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»(١).

«قد تَضَمَّن هذا الحديث الرضا بربوبيَّتِه سبحانه وألوهيته، والرّضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له.

ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصِّدِّيق حقًّا. وهي سهلة بالدَّعْوَى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يُخَالِفُ هَوَى النَّفس ومُرَادها من ذلك تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

فالرّضا بإلهيته: يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، وذلك يتضمَّن عبادته والإخلاص له.

والرِّضا بربوبيته: يتضمَّن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكّل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به»(٢).

«وأما الرضا بنبيِّه رسولًا: فيتضمَّن كمال الانقياد له، والتسليم المُطلق إليه، بحيث يكون أوْلى به من نَفْسه... ولا يرضى بحُكْم غيره البتَّة...

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٧٢)، بتصرف.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حَكَم أو أمَرَ أو نَهَى رَضِيَ كلّ الرضا، ولم يبقَ في قلبه حرج من حُكْمه وسَلَّم لَهُ تسليمًا؛ ولو كان مخالفًا لمُراد نَفْسه أو هواها، أو قول مُقَلَّده وشيخه وطائفته»[1].

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

* * *

(١) المصدر السابق (٢/١٧٢ ـ ١٧٣)، وانظر (ص١٩٢).

عَلامَاتُ الرِّضَا

الرضا عن الله يتحقق بثلاثة أمور:

١ ـ استواء النعمة والبَليّة عند العبد؛ لأنه يُشاهد حُسْنَ اختيار الله له.

٢ ـ سقوط الخُصومة عن الخلق، إلّا ما كان حقًّا لله ورسوله ﷺ.

فالراضي لا يُخاصِم ولا يُعاتِب إلّا فيما يتعلق بحقّ الله، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها: «والله ما انتقم لنفسه في شيء يُؤتَى إليه قطّ، حتى تُنتَهك حُرُمات الله فينتقم لله»[١].

٣ ـ الخَلاَص من المسألة للخلق والإلحاح.

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. قال ابن عباس: «إذا كان عنده غَدَاء لم يسأل عَشَاء، وإذا كان عنده عَشَاء لم يسأل غَدَاء»، فالإلحاح ينافي حال الرضا ووصفه»[٢].

ينضاف إلى ما تقدَّم: تَرك التَّذَمّرِ والشكوى؛ لأن ذلك قَدْح في مقام الصبر الذي هو دون مقام الرّضا.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٣١) باختصار وتصرف.

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الرِّضَا

إن «طريق الرضا طريق مُخْتَصرَة قريبة جدًّا، مُوصِلة إلى أَجَلّ غاية؛ ولكن فيها مَشقّة - كما تقدم - ومع هذا فليست مَشقّتها أصعب من مَشقَّة طريق المُجَاهَدة، ولا فيها من العَقَبات والمَفَاوِز ما فيها، وإنما عَقَبتها هِمَّة عالية، ونَفْس زكيَّة، وتَوطِين النَّفْس على كل ما يَرِدُ عليها من الله.

ويُسَهِّل ذلك على العبد: عِلْمه بضعفه وعجزه، ورحمة ربّه به، وشَفَقته عليه وبِرّه به»[1].

ومما يعين على تحقيق الرضا، ويتوصل بها إلى بلوغ درجته أمور منها:

«الأول: عِلْم العبد بأن الله سبحانه مُسْتوجِب لذلك، مُسْتحِق له لنَفْسه؛ فإنه أَحْسَنَ كلَّ شيء خَلَقَهُ، وأتْقَنَ كُلَّ شَيْء، وهو العليم الحكيم، الخَبِيرُ الرحيم.

الثاني: عِلْمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خيرٌ من اختياره لنَفْسه.

وقد قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[2].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٧٥ - ١٧٦) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

فأخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء، ويشكر على السَّرَّاء فهو خير له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

فأمَّا من لا يصبر على البلاء، ولا يشكر على الرخاء؛ فلا يلزم أن يكون القضاء خيرًا له»[١].

الثالث: الثقة بالله تعالى وحُسْن تَدْبِيره؛ «لأن العبد لا يُريد مصلحة نفْسه مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ولو عَرَف أسبابها فهو جاهل ظَالِم، وربه تعالى يُريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها ما يكرهه العبد؛ فإنَّ مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يُحبّ.

قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]»[٢].

و«العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمَحْبوب، والمَحْبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن تُوافيه المَضرَّة من جانب المَسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المَسرَّة من جانب المَضرَّة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد...

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى مَنْ يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له؛ لما يرجو فيه من حُسْنِ العَاقِبَة»[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٣ ـ ٤٤) بتصرف.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٠٥) بتصرف يسير.

(٣) «الفوائد» (ص١٩٩ ـ ٢٠٠).

ولله در القائل[(١)]:

الْعَبْدُ ذُو ضَجَرٍ وَالرَّبُّ ذُو قَدَرٍ   وَالدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ وَالرِّزْقُ مَقْسُومُ
وَالخَيْرُ أَجْمَعُ فِيمَا اخْتَارَ خَالِقُنَا   وَفِي اخْتِيَارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ وَالشُّومُ

فالراضي هو الذي يَعُدّ نِعَم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نِعَمِهِ عليه فيما يُحبه... وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال بعض العارفين: «ارْضَ عَنِ الله في جميع ما يفعله بك، فإنَّه مَا منعك إلّا ليُعْطِيكَ، ولا ابتلاك إلّا ليُعَافِيكَ، ولا أمرضك إلّا ليَشْفيك، ولا أماتك إلّا ليُحْيِيكَ؛ فإياك أن تُفارِق الرضا عنه طَرْفَةَ عين»[(٢)].

الرابع: اليقين الراسخ «بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا رادّ لحُكمه، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فهو يعلم أن كُلًّا من البَلية والنِّعمة بقضاء سابق، وقدرٍ حتم»[(٣)].

و«عدم الرِّضا إما أن يكون لفَوات ما أخطأه مما يُحبّه ويُريده، وإما لإصابة ما يكرهه ويُسخطه، فإذا تيقّن أن ما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وما أصابه لم يكن ليُخطئه؛ فلا فائدة في سَخَطِه بعد ذلك إلّا فَوَات ما ينفعه، وحصول ما يضرّه»[(٤)].

الخامس: «أن يعلم أن حظَّه من المَقدور إنما هو ما يتلقَّاهُ بِهِ من الرِّضَا والسّخْط حقيقة، فالمَقدور لا بد منه؛ فمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السخط»[(٥)].

---

(١) وهو الجنيد الطبري كما في «شعب الإيمان» (٢٥٠).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢١٥ ـ ٢١٦).
(٣) المصدر السابق (٢/٢٠٥) بتصرف يسير.
(٤) المصدر السابق (٢/٢١٤).
(٥) المصدر السابق (٢/٢٠٦) بتصرف يسير.

السادس: أن يعلم العبد بأنه إذا رَضِيَ عن أقضية الله ﷻ وأقداره المُؤلمة؛ فإنها تنقلب في حقه نعمة ومِنْحة، وهذا الفهم والتصوّر يُخفّف عليه حِمْل المصائب والآلام، ولو كان السُّخْط يُجْدي عليه شيئًا لكان له فيه راحة، لكنه لا ينفعه؛ إنما الذي ينفعه ويرفعه هو الرّضا.

السابع: أن يعلم أن تمام العبودية الحَقَّة في جَرَيان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو أن الإنسان لم يحصل له إلّا ما يُحبّ، لكان أبعد الناس عن حقيقة العبودية؛ فعبودية الصبر، وعبودية التوكّل، وعبودية الرضا، والتَضرّع والافتقار، والذُّل، والخضوع، والمَسْكَنة، وغير ذلك لها تَعَلُّق كبير بالأمور التي يكرهها الإنسان. وليس الشأن في الرضا بالقضاء المُلَائِم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المُؤلِم المُنَافِر للطَّبْع[(١)].

الثامن: أن يعلم أنَّ كل قَدَر لا يُلَائِم العبد مما تَنفِر منه نَفْسه لا يخلو إمَّا أن يكون عقوبة على الذَّنْب، فهو دواء للعِلّة والمرض تَدَارَكَه به رَبّه تبارك وتعالى؛ لئلا يسترسل به هذا المرض، فيَعْطَب، ويهلك، وقد يكون ذلك سببًا لنعمة لا تُنَال إلّا بذلك المكروه؛ فالمكروه ينقطع، ويتلاشى، ويذهب، وما يترتّب عليه من النعمة يبقى، ويدوم، ولا ينقطع، فإذا تذكّر العبد هذه المعاني انفتح له باب الرّضا[(٢)].

التاسع: أن يَستشعِر أنه مُحِب، والمُحِب الصادق مَنْ رَضِيَ بما يُعامله به محبوبه.

العاشر: أن ينظر في النصوص الواردة في الثناء على أهل الرِّضَا؛ فإن ذلك يُنشط النَّفس، ويحفّزها، ويُحَرّكها لتصل وترتقي، ويُهَوّن عليها الشِّدّة التي يلقاها بسبب المُجاهَدات في سَيْرِهِ إلى هذا المطلوب.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/٢١٢).

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]، والنبي ﷺ يقول: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[١].

الحادي عشر: تحقيق بعض الأعمال التي يتوقف عليها الرِّضَا؛ فالرضا يتوقف على جُملة من الأمور: من أعمال البدن، ومن أعمال القلب، ومن أعمال اللسان؛ فَنَلْزَم ما جعل الله ﷻ رضاه فيه، فإنه يُوَصّلنا إلى مقام الرّضا[٢].

ولو تأمّل الإنسان نصوص الكتاب والسنة، ونَظَر في الأمور التي أخبر الله ﷻ أنها تُوَصِّل العبد إلى حال الرِّضَا؛ فإنه بذلك يعرف الطريق فيسلكه، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: ٧، ٨]؛ فهذه الآيات ذكر الله ﷻ فيها الصِّدق، والإيمان، والأعمال الصالحة، والمُجاهدة لأعدائه، وترك مُوالاتهم، فرضي الله ﷻ عن هؤلاء وأرضاهم[٣].

قيل ليحيى بن مُعاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: «إذا أقام

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٧٤).

(٣) المصدر السابق (٢/١٨٧).

نَفْسه على أربعة أصول فيما يُعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قَبِلْت، وإن منعتني رضيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دَعَوْتَني أجبتُ»[١].

وهكذا الأعمال القلبية: الخوف والرجاء والقناعة، وغير ذلك كلّه يُثْمِر الرضا، والرضا من توابع المحبة لله ﷻ؛ فمَنْ أَحَبَّ الله محبَّة حقيقية رضي به، ورَضِيَ عنه. و«الرضا آخر التوكل، فمَنْ رَسَخَ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولا بُد»[٢].

الثاني عشر: أن ينظر عند وقوع المكروه أو المصيبة إلى من هو دونه، كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «انظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ»[٣]، هذا في المصائب، وفي الأمور الدنيوية.

وأمَّا في الطاعات، فإن الإنسان ينظر إلى مَنْ هو فَوْقَه، لِيُحَرِّضَه النظر على مزيد من العَزْمِ والتَّشْمِيرِ فِي طَاعَةِ الله تعالى.

❊ ❊ ❊

---

(١) المصدر السابق (٢/١٧٤)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٦٦) بنحوه.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٧٣ ـ ١٧٤).

(٣) تقدم تخريجه.

ثَمَرَاتُ الرِّضَا

وثَمَرات الرضا كثيرة ومُتنوّعة ومُتجدِّدة، يصعب حصرها، ويكفينا أن نذكر منها على سبيل الاختصار أبرزها وأهمّها، فمن ذلك:

الأول: رضا الله تعالى عن العبد:

قال ابن القيِّم: «رضا الله عن العبد أكبر من الجنَّة وما فيها؛ لأن الرِّضَا صفة الله، والجنة خَلْقه. قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وهذا الرّضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال»(١).

وعن أبي سعيد الخُدري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الله يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ! وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ خَلْقِكَ! فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

الثاني: كفاية الله للعبد:

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ الله مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله وَكَلَهُ الله إِلَى النَّاسِ»[١].

فمن «عَرَض له أمْرٌ في فِعْله رضا الله وغَضَب الناس، أو عكسه؛ فإن فَعَل الأول رضي الله عنه، ودفع عنه شر الناس؛ وإن فَعَل الثاني وَكَلَه إلى الناس، يعني: سلَّط الناس عليه حتى يُؤذوه ويظلموه، ولم يدفع عنه شرهم في النهاية»[٢].

الثالث: لُطْف الله بالعبد:

قال ابن القيم: «يُريح الله عبده المؤمن من الأفكار المُتْعِبة في أنواع الاختيارات، فلو رَضِيَ باختيار الله أصابه القَدَر وهو محمود، مشكور، مَلطوفٌ به فيه؛ وإلا جرى عليه القدَر وهو مذموم غير مَلطوفٍ به فيه؛ لأنه مع اختياره لنَفْسه.

ومَتَى صَحَّ تفويضه ورضاه اكْتَنَفه في المَقدور العَطْف عليه، واللُّطْف به، فيصير بين عَطْفه ولُطْفه؛ فعَطْفه يَقِيه ما يحذره، ولُطْفه يُهَوِّن عليه ما قَدَّرَه»[٣].

وكان من لُطْف الله ﷻ وكفايته لابن تيمية أنْ جعل له من قلبه بما استقَرَّ بِهِ من الرِّضَا بمقدور الله ﷻ أعظم المُواساة لما كان يجده ويلقاه من أذى الناس.

وكان يقول: «ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبُستاني في صدري، أنى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣١١).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٣١٨/٩) بتصرف.

(٣) «الفوائد» (ص٢٠٠) بتصرف.

رُحْتُ فهي معي لا تُفارقني، إنَّ حَبْسِي خَلْوَة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سِياحة»[١]. وكان يقول في مَحْبَسِه في القَلْعة: «لو بَذَلْتُ مِلْء هذه القلعة ذهبًا ما عَدَل عندي شكر هذه النِّعْمَة»[٢].

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سُورها نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣][٣].

يقول ابن القيِّم: «وعَلِم الله، ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قطّ، مع ما كان فيه من ضِيق العَيش، وخِلاف الرَّفاهية والنعيم؛ بل ضدّها، ومع ما كان فيه من الحَبْس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عَيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم لُبًّا وأَسَرّهم نَفْسًا، تلُوح نَضْرة النعيم على وجهه»[٤].

فهذا وأمثاله إنما يحصل لمن حَقَّق رضا الله تبارك وتعالى، فيلْطُف الله به، ويُقَدِّرُ له ما فيه الخير، ويُدَبّر له أمره أحسن التدبير.

الرابع: حصول العِوَض مما فاته:

فعن أم سلمه رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»[٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «لمَّا حَضَرَت أبا سلمة الوفاة، قالت أم

---

(١) «الوابل الصيب» (ص١٠٩)، وقد تقدم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، وقد تقدم.

(٥) أخرجه مسلم (٩١٨).

سَلَمة: إلى مَنْ تكِلُني؟ فقال: اللَّهُمَّ إنك لأم سَلَمة خير من أبي سَلَمة، فلما تُوُفِّي خطبها رسول الله ﷺ»(١).

الخامس: أنه يُورِث اليقين:

«فإن الرضا واليقين أخَوان مُصطحِبان، والشكّ والسخط قرينان»(٢).

السادس: تحقيق الثبات:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١].

قال ابن القيم: «السخط يُوجِب تَلَوّن العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلّا بما يلائم طَبْعه ونَفْسه، والمقادير تجري دائمًا بما يُلائمه وبما لا يُلائمه، وكلما جَرى عليه منها ما لا يُلائِمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رَضِيَ عن ربِّه في جميع الحالات استقرَّت قدمه في مقام العبودية، فلا يُزيل التَّلَوّن عن العبد شيءٌ مثل الرضا»(٣).

السابع: يُوَرِّث الطمأنينة والراحة، والقناعة والسعادة:

فـ «الرضا يُثْمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطِيب النَّفْس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مُفْزِع مُهْلِع من أُمور الدنيا، وبَرْد القناعة، واغتباط العبد بِقَسْمه من رَبِّه، وفَرَحِه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يُجْريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حُسْن تدبيره، وكمال حِكمته»(٤).

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤١٦١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٣).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٠٨) بتصرف يسير.
(٣) المصدر السابق (٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨).
(٤) المصدر السابق (٢/٢٢٠).

وقال إبراهيم الحَرْبِيّ: «أجْمَعَ عُقَلاء كل أمّة أنّه من لم يَجْرِ مع القَدَرِ لم يَتَهنّأ بعيشه»[١].

وسِرّ سعادة العبد في الرضا أنه لا يتسخّط على المقدور، ولا يَتبرّم من البلاء، فإذا لم يَشْقَ بالعَسِيرِ هَنِئَ بكل سرور؛ لأنه لا يُنَغِّص عليه شيء، فيَخْلُص سروره من كل تنغيص.

الثامن: الثواب والأجر:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ الله لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[٢].

فـ «الراضي مُتَلَقٍّ أوامر ربِّه الدينية والقَدَرية بالانشراح، والتسليم، وطِيب النَّفْس، والاستسلام، والسَّاخِط يَتلقَّاها بضِدِّ ذلك، إلّا ما وافق طَبْعه وإرادته منها، والرضا بذلك لا ينفعه، ولا يُثَاب عليه، فإنه لم يَرْضَ به لكون الله قدَّره، وقضاه، وأمر به، وإنما رَضِيَ به لمُوافقته هواه وطَبْعه»[٣].

التاسع: يُذْهِب عن العبد شكوى ربّه إلى غيره، وتبَرُّمه بأقضيته:

«فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر! ولا يقول: هذا يوم شديد الحَر، أو شديد البَرد. ولا يقول: الفقر بلاء، والعيال هَمّ وغَمّ. ولا يُسمي شيئًا قضاه الله وقدَّرَه باسم مذموم إذا لم يذمه الله، فإن هذا كله يُنافي رضاه»[٤].

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٦/٣٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢١١) بتصرف يسير.

(٤) المصدر السابق (٢/٢٢٢ ـ ٢٢٣) بتصرف.

العاشر: الرّضا مفتاح باب حُسْن الخُلُق:

ولهذا سَمَّى بعضهم الرضا: حُسْن الخُلُق مع الله؛ فإنه يُوجب تَرْك الاعتراض عليه في مُلْكِه، وحَذْف فُضُول الكلام التي تَقْدَح في حُسْن خُلُقه.

قال ابن القيِّم: «الرِّضا يفتح باب حُسْن الخُلُق مع الله ومع الناس، فَإِنَّ حُسْن الخُلُق من الرضا، وسوء الخُلُق من السَّخَط، وحُسْن الخُلُق يَبْلُغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وسوء الخُلُق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحَطَب»(١).

الحادي عشر: الرضا يُوَرِّث سلامة القلب:

فـ «الرضا يفتح للعبد باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغِشّ والدَّغَل والغِل، ولا ينجو من عذاب الله إلّا مَنْ أتَى الله بقلب سليم، وتستحيل سلامة القلب مع السَّخَط، وعدم الرضا»(٢).

الثاني عشر: الشكر:

«والشكر من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، فإذا رَضِيَ العبد عن رَبِّهِ في جميع الحالات أوجب له ذلك شُكْره؛ فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين، وسَلَك سبيل الكافرين»(٣).

الثالث عشر: الرضا أصل الطاعات:

فـ «المُخالفات كلها أصلها من عدم الرضا، والطاعات كلّها أصلها من الرضا؛..وإن أوّل معصية عُصِيَ الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرِّضا، فإبليس لم يَرْضَ بحُكم الله الذي حَكم به كَونًا؛ من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحُكمه الديني؛ من أمْرِه بالسجود لآدم.

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٢٠).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٠٧) بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق (٢/٢٠٩) بتصرف يسير.

وآدم لم يَرْضَ بما أُبيح له من الجنَّة، حتى ضَم إليه الأكل من الشجرة التي نُهِيَ عنها، ثم ترتَّبت معاصي الذُّرية على عدم الصبر وعدم الرضا»[١].

الرابع عشر: الرضا والمحبة يسيران بالعبد وهو مُسْتلْقٍ عَلَى فِرَاشِهِ، فيصبح أمام الرَّكْب بمراحل:

فهما أصل كل خُلُقٍ كريم وعمل صالح، فالمُحِبّ مُتَلَهِّف على طاعة المحبوب، والراضي قَانِع مُكْتَفٍ، غير ساخط ولا مُتَضَجِّر؛ فالعمل صالح، والقلب سليم، والنَّفْس مُطمئنة، والسعي مشكور.

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق (٢/٢١١، ٢١٤) بتصرف يسير.

مَا لَا يُنَافِي الرِّضَا وَمَا يُنَافِيه

أولًا: الأمور التي لا تتَنافى مع الرضا:

١ ـ الإحساس بالألم، فإن هذا بمُجرّده لا ينافي الرّضا، ولا يضر العبد أن يجتمع في قَلْبِه الرضا وحرارة المصيبة؛ وذلك كالإنسان الذي يُكابِد الجوع والعطش في الصيام، وهو في غاية الرِّضَا، فهذا الشعور بالجوع لا يُخْرِجه عن حال الرِّضا؛ لأنه إنما صام طَلبًا لمَرضاة الله ﷻ، فيَهُون عنده ذلك في سبيل تحقيق مَرضَاة الرب. وهكذا حينما يشعر الإنسان بالألم أو يجد حرارة المصيبة أو نحو ذلك، وهو في غاية الرضا، وهكذا المُجاهِد يستقبل الطعن والضرب بالسيوف وهو يجد ألم ذلك، ولكنه يُقْبِل بنَفْس رَضِيَّة لما يرجو عند الله ﷻ من الأجر والثواب.

فمهما أُصيب الإنسان بمصيبة، فأَحَسّ بأَلَمِها، وأنَّ لِوجَعها؛ فإنه لا يضرّه ذلك ما لم يكن على سبيل الشِّكايَة والتَّسخُّط(١).

٢ ـ الإخبار بما يجده من الجُوع والفقر، من غير شِكَاية ولا ضَجَر ولا جَزع، فإن كان يُخبر على سبيل الشِّكاية؛ فإنّ هذا يُخرجه عن حال الرّضا؛ بل يُخْرجه عن حال الصبر. وهكذا الذي يجزع أو يتسخَّط ونحو ذلك.

وقد قال موسى ﷺ في رحلته التي قَصَّها الله ﷻ علينا في القرآن: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، فهذا مُجرّد إخبار، وكذلك النبي ﷺ

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/١١٢).

حينما خرج ذات ليلة، فلقي أبا بكر وعمر فسألهما: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجوع يا رسول الله! قال: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا»[1].

فمُجرّد الإخبار لا إشكال فيه.

٣ ـ **الحُزن والبُكاء**؛ فإنَّ هذا لا يُخرجه عن حال الرضا، كما حصل للنبي ﷺ عند وَفَاةِ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، وحصل للأنبياء قبله، كما حصل لنبيّ الله يعقوب ﵇، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤]، لكنه كان يشكو بثّه وحُزنه إلى الله تبارك وتعالى، ولم يكن يشكو إلى المخلوق؛ فالحُزن الذي لا يُخرج الإنسان عن كونه صابرًا راضيًا لا يُؤَاخَذ به.

٤ ـ **الدعاء**، فالدعاء عبادة، والله ﷻ قد يسوق للإنسان البليّة والمرض والمصيبة حتى يَنكسِر، وَيتصدَّع، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فالله يُحبّ ضَرَاعَةَ العبد وانكساره بين يديه، فهذا من المَطالِب الشرعية، فلا يُنافي الرِّضَا.

٥ ـ **فِعْل الأسباب**: فلا يكون فِعْل الأسباب مانعًا من الرِّضَا، بل هي من الرضا بقضاء الله وقَدَرِه، ولا يتحقق الرضا بالقضاء إلّا بفِعْل الأسباب المأمور بها. فالعبد يُوقِن أن ما قَدَّره الله ﷻ وقضاه لا بُدَّ أن يَقَعَ، ولكنه يرفع يديه؛ لأن الله تَعَبَّده بذلك. والنبي ﷺ أخبر أنه: «لَا يَرُدّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ»[2]، فيكون الله ﷻ قد قَدّر لهذا العبد أن يَلتجِئ إليه، وأن يكون ذلك سببًا لدفع المصيبة؛ فيكون قد دفع القَدَر بالقَدَر، كما في قصة عمر بن الخطاب ﵁ عندما عُوتِبَ على فراره من الطاعون، وعدم دخوله أرض

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٣٩) من حديث سلمان ﵁، وحَسَّنَهُ الألباني في «الصحيحة» (١٥٤).

الشام بمَنْ معه من الصحابة والتابعين ﷺ، فقال له أبو عُبيدة: أَفِرَارًا من قَدَر الله؟ فقال: «نعم، نَفِرّ مِنْ قَدَرِ الله إلى قَدَر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عُدْوَتان: إحداهما خصْبة، والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيت الخصْبة رعيتها بقدر الله، وإن رَعيت الجَدْبة رعيتها بقدر الله؟»(١).

ثانيًا: الأمور التي تُنافي الرضا:

وهي التي تُخرج الإنسان عن حَدِّ الرِّضَا، بل تُخْرِجُه عن الصبر، فَمِنْ هَذِهِ الأمور:

١ ـ الاعتراض على الله ﷻ، ومُضادته في إلهيّته وربوبيّته، وأسمائه وصفاته، فلا يرضى به ربًّا، ويجعل له شركاء من دونه؛ كما قال هؤلاء المشركون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [صَ: ٥].

وهكذا أولئك الذين يُنازِعون في ربوبية الله ﷻ، كالذين يقولون: إن العبد هو الذي يخلق فِعْله.

وكذلك الذين يَعترضُون على أسماء الله وصفاته، ويَنفون عن الله سبحانه السمع والبصر، والرحمة والغضب، وما أشبه ذلك من صفات الكمال.

وكذلك أيضًا أولئك الذين يَعترضُون على أخبار الله ﷻ، ويُكذّبونها، وهذا يقع لكثير من أصحاب النَّظَريات التي أستَمدّوها من الكفار، كالتي تُنافي وتُناقض ما أخبر الله عنه من الحقائق إخبارًا صريحًا في القرآن؛ كالذي يقول: إن الشمس لا تجري!! والله يقول: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [يسٓ: ٣٨]، فيقول: إن الشمس ثابتة لا تتحرّك؛ فهذا مُكَذِّبٌ لِخَبَرِ الله ﷻ.

وكذلك الذين يَعترضُون على الله في أحْكَامِه الشرعية، فيقولون مثلًا:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) من حديث ابن عباس ﷺ.

لماذا حَرَّمَ الله الرِّبَا وعليه عَصَب الاقتصاد اليوم؟! ولماذا لا تَرِثُ المَرْأَة مِثْلَ مَا يَرِث الرجل، سواء بسواء؟! فهذا وأمثاله من الاعتراض على شرع الله، وهو راجع إلى عدم الرّضا بالله ربًّا، وإلهًا، ومعبودًا، وحَكَمًا.

وهؤلاء وأمثالهم غوايتهم من نوع غواية إبليس الذي اعترض على حُكْم ربه، قائلًا: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، ومن غواية أتباعه من الكَفَرة الآثمين، المُعترضين، القائلين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، والقائلين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

٢ ـ الاعتراض على أفعال الرب وقضائه وقَدَرِه:

قال ابن القيم: «وهذا اعتراض الجُهَّال... وهو أنواع لا تُحْصَى، وهو سارٍ في النُّفُوس سَرَيَان الحُمَّى في بَدَنِ المحْمُوم، ولو تأمَّل العبد كلامه، وأُمنيته، وإرادته، وأحواله لرأى ذلك في قلبه عِيَانًا،.. إلّا نَفْسًا قد اطمأنت إليه، وعرفته حق المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها، فتلك حَظّها التسليم، والانقياد، والرضا كل الرضا»(١).

ومن صُوَر هذا الاعتراض:

أ ـ التَّسَخُّط:

فالسَّخَط ضد الرضا، وفيه شَقَاوة السَّاخِط، وقد جَعَل الله فيه الهَمّ، والغَمّ، والحَزَن، وشَتَات القلب، وهو من سُوء الخُلُق مع الله ﷻ.

والتَّسخّط تارة يكون بالقلب، وقد يؤدّي بصاحبه إلى الكفر. وتارة يكون باللسان، كالدعاء بالوَيل والثُّبور، وما أشبه ذلك.

ويكون التسخّط أيضًا بالجوارح، كلَطْم الخُدود، وشَقّ الجيوب، ونَتْف

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٧١).

الشُّعور، وما أشبه ذلك. وقد قال النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»(١).

ب ـ عدم الرِّضَا بالمَقْسُومِ مِنَ الرِّزْق:

وهو من الاعتراض على أفعال الرَّبِّ وقضائه.

ج ـ الجَزَع والهَلَع:

والنياحة من الجَزَع والاعتراض على القضاء، وكذا ما يَصحبه من صَكِّ الوَجْهِ، أو لَطْم الخَدّ، أو سَبِّ الدَّهْرِ ونحو ذلك.

د ـ تمنّي الموت لضرٍّ نَزَلَ به أو مصيبة:

ففي الحديث: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»(٢).

وقد قال النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»(٣).

هـ ـ ومِن أعظم ما ينافي الرّضا: الحسد:

فالحاسد مُعْترض على الله ﷻ، وعلى تقديره وتَفَضُّله.

ولو علم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، ويُصيب برحمته مَنْ يشاء من عباده، ويمتنّ بفضله على مَنْ يَشَاء، لمَا أصابه هذا الداء.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠) واللفظ له من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وصَحَّحَهُ.

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ السَّخَط

يقول ابن عقيل الحنبلي في كتاب «الفنون»: «الواحد من العوام إذا رأى مراكب مُقَلَّدة بالذهب والفضة، ودُورًا مُشيّدة مَمْلُوءة بالخَدَم والزينة، قال: انظر إلى ما أعطاهم مع سوء أفعالهم. ولا يزال يلعنهم، ويَذمّ مُعْطِيهم... حتى يقول: فلان يصلّي الجماعات والجُمَع ولا يذوق قَطْرة خَمْر، ولا يُؤذي الذَّر، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال، ويحجّ، ويُجاهد، ولا ينال خُلَّة بِقُلَّة، ويُظْهِر الإعجاب كأنه ينطق عن تَخايُله أنه لو كانت الشرائع حقًّا لكان الأمر بخلاف ما نرى، وكان الصالح غنيًّا والفاسق فقيرًا»(١).

وهذا فهم فاسد، فالله يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، وهذا من لُطف الله ﷻ.

وهذه حالة قد شَمَلت خلقًا كثيرًا، أولهم «إبليس»؛ فإنه رأى بعقله أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين، فَرَدَّ حِكْمَة الخالق، ومَرَّ على هذا خَلْقٌ كثيرٌ من المُعْترضين الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وانطلقوا

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/١٨٦).

مع أهوائهم، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التي جعلتهم يعترضون على الله جلّ وعلا.

قال ابن الجوزي: «دخلتُ على صَدَقَة بن الحسين الحَدَّاد، وكان فقيهًا، غير أنه كان كثير الاعتراض ـ يعني: على القدر ـ وكان عليه جَرَب، فقال: هذا ينبغي أن يكون على جَمَل لا عليَّ... وكان رجل يصحبني، قد قارب ثمانين سنة، كثير الصلاة والصوم، فمرض، واشتدّ به المرض، فقال لي: إن كان يريد أن أموت فيُمِتني، فأما هذا التعذيب فما له معنى!! والله لو أعطاني الفردوس كان مَكْفُورًا!!..

وفي الحمقى مَنْ يقول: أي فائدة في خَلْق الحَيَّات والعَقَارِب؟! وما عَلِم أن ذلك أُنموذج لعقوبة المُخالِف، وهذا أمرٌ قد شاع»[١].

يقول ابن القيم: «غالب بني آدم يعتقد أنه مَبْخوس الحقّ، ناقص الحظّ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونَفْسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه يُنْكِره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومَنْ فَتَّش نَفْسه وتَغَلْغَل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامنًا، كُمون النار في الزِّناد»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) نقله ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/١٨٤ ـ ١٨٥).

(٢) «زاد المعاد» (٣/٢١١)، وللاستفادة ينظر: إغاثة اللهفان (٢/١٧٦ ـ ١٩٥) ط: مكتبة المعارف.

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الرِّضَا

١ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما اتخذ النساء المَنْطِق مِن قِبَلِ أم إسماعيل، اتخذت مَنطِقًا لتُعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي تُرضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة[1]، فوق زَمْزَم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرَابا فيه تمر، وسِقاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيم مُنْطلقًا، وذَهَبَ، فتبِعَته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يُضيّعنا[2]، وفي رواية قالت: رضيت بالله[3].

ولما كَبر إسماعيل عليه السلام، وقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فكانا عليهما السلام على غاية الرضا والتسليم لأمر الله.

٢ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو

---

(١) الدَّوحة: الشجرة الكبيرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

(٣) أخرجها البخاري (٣٣٦٥).

يَجُود بنَفْسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تَذْرِفَان، وقال: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»(١).

٣ ـ عن مُطَرِّف بن عبد الله قال: قلت لعمران بن حُصين: ما يمنعني من عيادتك إلّا ما أرى مِنْ حَالك، قال: «فلا تفعل، فإنَّ أحبَّهُ إليَّ أحبّه إلى الله»(٢).

٤ ـ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الفقر والغِنى مَطيَّتَان، ما أُبالي أيّهما ركبتُ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البَذْل»(٣).

٥ ـ وقال عمر رضي الله عنه: «ما أُبالي على أيِّ حال أصبحتُ على ما أُحِب أو على ما أكره؛ لأني لا أدري الخير فيما أُحِب أو فيما أكره»(٤).

وقال رضي الله عنه يومًا لامرأته عَاتِكة بنت زيد وقد غضب عليها: «والله لأَسُوأنَّكِ، فقالت: أتستطيع أن تَصْرِفَني عن الإسلام بعد إذ هداني الله؟ قال: لا، فقالت: فأي شيء تَسُوءني به إذًا؟!»(٥).

٦ ـ وعن محمد بن علي أن بعض أهله اشتكى، فوَجَد عليه، ثم أُخبِر بموته، فسُرِّي عنه، فقيل له، فقال: «ندعو الله فيما نُحبّ، فإذا وَقَع ما نكْرَه لم نُخَالِف الله فيما أَحَب»(٦).

٧ ـ وعن رَجَاء بن أبي سَلَمَة قال: «لمّا مات عبد الملك بن عمر بن

---

(١) تقدّم تخريجه.
(٢) أخرجه ابن المبارك (٤٦١) في «الزهد».
(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢٢٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٣٠).
(٥) «مدارج السالكين» (٢/٢٢١).
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٧).

عبد العزيز كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار ينهى أن يُنَاح عليه، وكتب: «إنَّ الله ﷺ أَحَبَّ قَبْضَه، وأعوذ بالله أن أُخَالِف محبَّته»[١].

٨ ـ وقال عروة بن الزبير، لمّا مات ابنه وقُطِعَت رِجله: «اللَّهُمّ كان لي بنون سبعة فأخذتَ منهم واحدًا وأبقيتَ ستة، وكانت لي أطراف أربعة فأخذتَ مني طَرَفًا وأبقيتَ لي ثلاثة، وايْمُك لئن ابتليتَ لقد عافيتَ، ولئن أخذتَ لقد أبقيتَ»[٢].

* * *

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٩٧) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٣٠٦).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٧١).

الشُّكرُ

تَوْطِئَة

الشكر عبادة قلبية، عظيمة القَدْر، تَفِيْض آثارها الجميلة على اللسان، فَيَلْهَج بالحمد والثناء والاعتراف بالإحسان والإفضال، كما يظهر أثرها على الجوارح، فتزداد عملًا بطاعة الله تعالى، واجتهادًا في طلب مرضاته، مع تسخير النِّعَم فيما يكون مَرْضيًا لله جلَّ جلاله؛ وذلك مُؤْذِن بثبات الحاصل من الإنعام مع الزيادة عليها كما وَعَد الله عباده بقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

أما إذا كان الشكر صادرًا من العبد في مُقابل ما يقع له من المَصَائب؛ فإن ذلك يُعَدّ من أعلى درجات العبودية، ولا يَصِل إليه إلّا خَوَاصّ المؤمنين، وعباد الله المُتقين.

فنسأل الله أن يُبَلِّغَنا هذه المنازل، إنه سميع مُجيب.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى الشُّكْرِ وَحَقِيقَتُهُ

الشكر في اللغة:

«أصل الشكر في كلام العرب: ظُهور أَثَر الغِذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بيِّنًا، تقول: شَكَرَتِ الدَّابَّة: إذا ظَهَر عليها أثَرُ العَلَفِ»[(١)].

الشكر في الاصطلاح:

اعلم أن الشكر يكون من العبد لربِّه، ويكون من الرب لعبده.

فأما شكر الرب لعبده: فالشَّكُور في أسمائه معناه: أنه يَزْكُو عنده القليل من أعمال العباد، فيُضَاعِف لهم الجزاء»[(٢)].

قال الله ﷻ عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

قال ابن عباس ﷺ وغيره: «غَفَر لهم الكثير من السيئات، وشَكَر لهم اليسير من الحسنات»[(٣)].

والله تعالى يشكر عبده إذا أحْسَن طاعته، ويغْفِر له إذا تَابَ إليه، فيجمع للعَبْدِ بين شُكْرِه لإحسانه، ومغفرته لإساءته.

وهو سبحانه يُعْطِي العبد ويُوفّقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (٦/٩٣)، مادة: (شكر)، و«القاموس المحيط» (١/٤١٩)، مادة: (شكر).

(٢) ينظر: «تاج العروس» (١٢/٢٢٧)، مادة: (شكر). و«مدارج السالكين» (٢/٢٤٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/٥٥٢).

العمل والعَطَاء، فلا يستَقِلّه أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مُضاعفة، ويشكر عبده بقوله؛ بأن يُثْني عليه في المَلَأ الأعلى، ويُلقي له الشكر بين عباده، ويشكره بِفِعْله، فإذا تَرَك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بَذَلَ له شيئًا رَدَّه عليه أضعافًا مُضَاعفة، وهو الذي وفَّقَه للتَّرْك والبَذْل، وشَكَره على هذا وذاك.

ولما عَقَر نبيُّه سليمانُ الخيلَ - على قول في التفسير - غَضَبًا له؛ إذ شَغَلَته عن ذِكْره، فأراد ألا تَشْغَلَه مرة أُخرى؛ أعاضه عنها مَتن الرِّيحِ.

ولما تَرَكَ الصحابة ديارهم، وخرجوا منها في مرضاته؛ أعاضهم عنها أن مَلَّكَهُم الدنيا، وفَتَحَها عليهم.

ولمّا احتمل يوسف الصدّيق ﷺ ضِيْق السجن شَكَر الله له ذلك، فمكَّنَ له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولمَّا بذل الشهداء أبدانهم له في سبيل الله ﷻ، حتى مَزَّقَها أعداؤه؛ شكر لهم ذلك بأن عوَّضهم عنها، فجعل أرواحهم في جَوْف طير خُضْر، تسْرَح في الجَنَّةِ حيث شاءت، حتى تُرَدَّ عليهم تلك الأبدان أحسن ما تكون في يوم البعث والنشور.

ولما بَذَل رسله عليهم الصلاة والسلام أعراضهم في سبيل الله ﷻ لأعدائهم، فنالوا منهم وسَبُّوهم؛ أعاضهم الله ﷻ بأن صَلَّى الله عليهم وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في السموات والأرض وبين خَلْقِهِ، فأَخْلَصَهم بخَالِصَة ذِكْرى الدار.

ومِن شُكْرِه تبارك وتعالى أنه يُجازي عدوَّه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، فَيُعطيهم في الدنيا ما يُعْطِيهِم من السَّعَة في الأرزاق والعافية في الأبدان وغير ذلك، ويُخَفِّف به عنهم يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، ومع أن هؤلاء الكفار مِنْ أبْغَضِ خَلْقِهِ إليه.

ومِنْ شُكْرِهِ تبارك وتعالى أن غَفَرَ لتلك المرأة البَغيِّ التي سَقَتْ كَلْبًا يَلْعَق الثَّرى من شدة العَطَش[١]، وغَفَر لآخر بتَنْحِيَته غُصْن شَوْك عن طريق المسلمين[٢]، فالله ﷻ يَشْكر العبد على إحسانه لنَفْسه. والمخلوق إنما يشكر مَنْ أحسن إليه. وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يُحْسِن به إلى نَفْسه، وشَكَرَهُ على قليله بالأضعاف المُضاعَفة التي لا نِسْبة لإحسان العبد إليها، فهو المُحْسِن بإعطاء الإحسان، وإعطاء الشكر.

ومِنْ شُكْرِهِ تبارك وتعالى للعِباد أنه يُخْرج العبد من النار بأدنى مِثْقَال ذَرة من الإيمان[٣]، فلا يَضِيع عنده هذا القَدْر، وكذلك أيضًا إذا قام العبد لربِّه مَقامًا يُرْضيه عنه؛ فإنَّ الله يُنَوِّه بِذِكْره بين عباده وملائكته، كما شَكَرَ لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثْنَى به عليه، فذكره الله ﷻ في أشرف كتاب، وقَصَّ خبره على أشرف نبي وأشرف أمَّة، وكذلك شَكَر لصاحب يس مقامه ودعوته إليه. فلا يهلك على الله بين شُكْره ومغفرته إلَّا هالك.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحبَّ الخلق إليه مَنِ اتَّصَف بهذه الصفة، وأبْغَضهم إليه مَنْ عَطَّلَها، واتَّصَفَ بضِدِّهَا[٤].

وأمَّا شُكْر العبد لربِّه:

فهو: «ظهور أَثَر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة»[٥].

و«الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنِعْمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره. فهذه الخمس

---

(١) وذلك فيما رواه البخاري (٣٣٢)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كما روى ذلك البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) انظر: «عدة الصابرين» (ص٥٤٠ ـ ٥٤٤).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٤) بتصرف.

هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عُدِم منها واحدة اختَلَّ من قواعد الشكر قاعدة، وكل مَنْ تكَلّم في الشكر وحَدِّه فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور»[(١)].

فأصل الشكر ذكر المُنْعِم والعمل بطاعته.

ومن أهل العلم مَنْ قَسَّمَ الشكر إلى قسمين:

«**الشكر اللغوي**: وهو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل، على النعمة من اللسان والجَنَان والأركان.

والشكر العُرْفي: هو صَرْف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خُلِقَ لأجله»[(٢)].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٤).

(٢) «التعريفات» للجرجاني (ص١٣٣ ـ ١٣٤) بتصرف يسير.

الفَرْقُ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالحَمْدِ

«اختلف العلماء - أيهما أعمّ: الحمد أو الشكر؟ على قولين.

والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعمّ من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللّازمة والمُتَعَدِّية، تقول: حَمِدْتُه لفروسيته، وحَمِدتُه لكرمه، وهو أخصّ؛ لأنه لا يكون إلّا بالقَوْلِ.

والشكر أعَمّ من حيث ما يقعان به؛ لأنه يكون بالقول والفِعْل والنية، وهو أخصّ؛ لأنه لا يكون إلّا على الصفات المُتَعَدِّية، لا يُقَال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه...

وأما المدح فهو أعَمّ من الحمد؛ لأنه يكون للحيّ وللميت وللجماد أيضًا، كما يُمْدَح الطعام والمال ونحو ذلك»[(١)].

وقد سُئِلَ شيخ الإسلام عن الحمد والشكر: ما حقيقتهما؟ هل هما بمعنى واحد أو معنيان؟

فأجاب: «الحمد يتضمّن المَدح والثناء على المَحمود بِذِكْر مَحَاسِنه، سواء كان الإحسان إلى الحَامِد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلّا على إحسانِ المَشْكُور إلى الشاكر.

فمن هذا الوجه الحمد أعمّ من الشكر؛ لأنه يكون على المَحَاسِن والإحسان...

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/١٢٨)، بتصرف يسير.

وأما الشكر فإنه لا يكون إلّا على الإنعام، فهو أخَصّ مِن الحَمْد مِنْ هذا الوجه، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، كما قيل:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

والحمد إنَّمَا يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشّكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعمّ من جهة أسبابه»[(١)].

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/١٣٣ ـ ١٣٤).

المُفَاضَلَةُ بَيْنَ الشُّكْرِ والصَّبْرِ والرِّضَا

تقدم الكلام على المفاضلة بين الشكر والصبر بشيء من التفصيل في الكلام على الصبر(١).

المُفَاضَلَة بين الشكر والرضا:

قال الفيروز آبادي: «الشكر أعلى منازل السالكين، وفوق منزلة الرضا؛ فإنه يتضمَّن الرضا وزيادة، والرضا مُنْدَرج في الشكر؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان»(٢).

وبيان ذلك: أن لله عبودية في قضاء المصائب؛ وهي الصبر عليها، وأعلى من الصبر: الرضا بها، فتراه راضيًا بقضاء الله، لا يجزع، ولا يتبرَّم. فإذا شَاهَد مِن البَلِيّة آثار النعمة، وأنها مُكَفِّرة للسيئات، ورِفْعَة في الدَّرَجات، وأَحْسَن الظنّ بربِّه، وعَلِم أن البلاء لا يَزَال بالعبد حتى يَمْشِيَ على الأرض وليست عليه خطيئة، وأن الأوَّلِينَ من الصالحين كانوا أشَدَّ فَرَحًا بالبلاء مِنْ أحَدِنَا بالرَّخَاءِ؛ انتقلت المصيبة إلى ديوان النِّعْمة المُسْتَلْزِمة للشكر، فصار الشُّكْر بهذا الاعتبار أرْفَع من الرِّضَا.

* * *

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٤٤٢ ـ ٤٤٣)، و«عدة الصابرين» (ص٢٩٧) وما بعدها.

(٢) «بصائر ذوي التمييز» (٣/٣٣٥).

حُكمُ الشُّكر

يجب على العباد تجاه الله تعالى أن يشكروه، و«وجوب شكره أظهر من وجوب كل واجب، وكيف لا يجب على العباد حَمْده، وتوحيده، ومحبته، وذِكْر آلائه، وإحسانه، وتعظيمه، وتكبيره، والخضوع له، والتَّحَدّث بنعمته، والإقرار بها بجميع طُرُق الوجوب»(١).

ويتبيّن وجوبه من وجه آخر، وهو أن العبد إمّا شاكر لنِعَمِه سبحانه، وإما كافر بها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال عن نبيه سليمان ﷺ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

فَمَنْ لَمْ يشكر وقَعَ في الكفر؛ إما في الكفر الأكبر، وإما في كفران النِّعْمة، فلا يُنَجّي من الوقوع في هذا الضلال إلّا الشكر، فتَعَيَّن القول بفرضِيَّته، ووجوبه على الناس.

هذا حكم الشكر من حيث الجُملة، وأما على سبيل التفصيل؛ فإن منه ما هو واجب، ومنه ما هو مُستحب، وذلك أن المصائب ـ كما سبق ـ يجب فيها الصبر، وأما الشكر عليها فمُستحب كما لا يخفى. والله تعالى أعلم.

* * *

---

(١) «شفاء العليل» (٢/٦١٣).

مَنزِلةُ الشُّكر

الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أخصّ خلقه وأقربهم إليه، وأيّ مقام أرْفَع من الشكر، الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان؟! حتى المحبة والرّضا والتوكل وغيرها؛ فإن الشكر لا يَصِحّ إلّا بعد حصولها، فهو «جامعٌ لجميع مقامات الإيمان؛ ولذلك كان أرفعها وأعلاها... فجميع المقامات مُنْدَرِجة فيه، لا يستحقّ صاحبه اسمه على الإطلاق إلّا باستجماع المقامات له؛ ولهذا كان الإيمان نصفين: نِصْف صبر، ونِصْف شُكْر، والصبر داخلٌ في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرًا، والشاكرون هم أقَلّ العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]»[١].

ثم إن مبنى الدِّين على قاعدتين: الذِّكر والشّكر، وقد جمَعَهُما الله بقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، «وقال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ! لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[٢].

والذِّكر رأس الشكر، والذِّكر والشكر جِمَاع السعادة والفلاح»[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٣٧)، (٢/٢٤٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «الوابل الصيب» (ص١٦١) باختصار وتصرف.

ويكفي في بيان مَنْزِلَته ومعرفة فضله أن الله تبارك وتعالى سَمَّى نَفْسه (شاكرًا)، و(شكورًا)، وسمَّى الشاكرين بهذين الاسمين، وهذا تشريف وتكريم لهم، وحَسْبك بهذا محبّة للشاكرين وفضلًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقِلَّة أهله في العالمَين تدلّ على أنهم هم خواصّه، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

❊ ❊ ❊

الشُّكر في الكِتَابِ والسُّنَّة

والنصوص الواردة في الشكر كثيرة جدًّا، وحسبنا أن نُشير إلى بعضها:

أما القرآن: فقد أمر الله بالشكر، فقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، وأخبر عن الشاكرين بأنهم القليل من عباده، فقال: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. ووعد الله بالمزيد على الشكر، فقال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧]، وأخبر أن هذا الشكر إنما يعود نَواله وأجره على صاحبه، فقال: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأمَّا في السنّة:

١ ـ فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»(١).

٢ ـ وعن صُهَيْب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٦من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٥٥).

(٢) تقدم تخريجه.

«فالعبد ما دام قلمُ التَّكْلِيفِ جَارِيًا عليه فَمَنَاهِجِ الخير مفتوحة بين يديه، فإِنَّهُ بين نِعْمَة يجب عليه شُكْر المُنْعِم بها، ومصيبة يجب عليه الصبر عليها، وأَمْر يُنَفِّذه، ونهْي يجتنبه؛ وذلك لازم له إلى الممات»[١].

٣ ـ وعن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»[٢].

* * *

(١) «فيض القدير» للمناوي (٤/٣٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣٤).

دَرَجَاتُ الشُّكْر

١ ـ الشكر على المَحَابِّ: وهو الاعتراف بِنِعَمِه سبحانه، والثناء عليه بها، والإحسان إلى خَلْقه منها، وهذا بلا شك يُوجِب حِفْظها على الشاكر، والمَزيد منها. وحقيقة الشكر الاستعانة بها على مَرْضَاته، وقد كَتَبَت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية رضي الله عنه: «إن أقلّ ما يجب للمُنْعِم على مَنْ أنْعَم عليه ألا يجعل ما أنعم عليه سبيلًا إلى معصيته»[١].

٢ ـ الشكر في المَكَاره: وهو أشَدّ وأصعب من الشكر على المَحَابِّ؛ ولهذا كان فوقه في الدرجة.

٣ ـ أن يَتَعَرّف على المُنْعِم بأسمائه وصفاته من وَرَاء النِّعمة، ويعلم أنه المُنْعِم حقيقة، وأنه المُسْتَحقّ للحمد على كلِّ حال.

وهذا المقام هو تمام المقامَيْنِ السابقين، وحقيقة بلوغهما[٢].

قال ابن القيِّم: «الشكر الواقع على التَّفْضيل والتَّخْصيص أعلى وأفضل من غيره؛ ولهذا كان شكر الملائكة وخضوعهم وذُلُّهم لعظمته وجلاله بعد أن شاهدوا من إبليس ما جرى له... أعلى وأكمل مما كان قبله...

ولهذا كان شُكْر الأنبياء وأتباعهم بعد أن عَايَنُوا هلاك أعدائهم، وانتقام الربِّ منهم، وما أنزل بهم من بأسه أعلى وأكمل...»[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٥٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/٢٥٣ ـ ٢٥٥).

(٣) «شفاء العليل» (٢/٦١٤ ـ ٦٥١). بتصرف يسير.

وقد كان من دعائه ﷺ: «اللهُمَّ أعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ»[١].

فقوله: «لا أُحْصِي ثَنَاءً علَيْكَ»، أي: لا أُطيقه، ولا آتي عليه، ولا أُحِيط به.

«وقوله: «أنتَ كَما أثْنَيْتَ على نَفْسِكَ» اعترافٌ بالعجز عن تفصيل الثناء، وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، وردٌّ للثناء إلى الجُملة دون التفصيل والإحصار والتعيين، فوَكَل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، المُحيط بكل شيء جُملةً وتفصيلًا، وكما أنه لا نهاية لصفاته، لا نهاية للثناء عليه؛ لأن الثناء تابعٌ للمُثْنَى عليه، وكل ثناء أثنى به عليه، وإنْ كَثُر وطال وبُولِغَ فيه، فقَدْر الله أعظم، وسلطانه أعزّ، وصفاته أكبر وأكثر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ»[٢].

* * *

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٤/٢٠٤).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الشُّكْرِ

ويكون ذلك بأمُور متعددة:

أولًا: تنمية المحبة الصادقة لله تعالى:

و«إنما يَتَأَتَّى الشكر لله من العبد إذا تَمَكَّن حُب الله من قلبه، وعَلِم حُسْن اختياره له، وبِرّه به، ولُطْفه به، وإحسانه إليه بالمصيبة، وإنْ كَرِه المصيبة، وعبوديّته في قضاء المَعَائِب المُبَادرة إلى التوبة منها، والتَّنَصُّل والوقوف في مقام الاعتذار والانكسار»(١).

وإذا كان العبد مُحبًّا لله، فإنه يَسْتَعْظِم ما يَصِل إليه من الله من النِّعَم، ويَعْتَرِفُ بها، فهو مسرور بذلك؛ لأن الله ﷻ قد اختاره، وأَوْلاه، وحَرَمَ آخرين، وقد يكون ذلك أعظم في نَظَره من النّعمة نَفْسها.

ثانيًا: النَّظَر في عظمة الله تعالى وصفات كماله:

فالله ﷻ هو المُسْتَحق بذاته للعبادة والتعظيم والإجلال؛ وكما قيل(٢):

هَبِ الْبَعْثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسْلُه ... وَجَاحِمَةَ النَّارِ لَمْ تُضْرَمِ
أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقّ ... عَلَى ذِي الْوَرَى الشُّكْرُ لِلْمُنْعِمِ

فالنفوس العَلِيَّة الزَّكِيَّة تَعْبُده؛ لأنه أهلٌ لأنْ يُعْبد، ويُجَلّ، ويُحَبّ، ويُعَظَّم، فهو لذاته مُسْتَحقٌّ للعبادة.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٦٣ ـ ١٦٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٧٦).

ولا ينبغي للعبد أن يكون كأجير السُّوء، إن أُعْطِي أَجْره عَمِل، وإن لم يُعْطَ لم يعمل(١).

فكيف وهو يَمْتَنّ عليه بوافر النِّعَم التي لا تُحصى؟! ويتفَضَّل عليه بأنواع الفضائل التي لا تُسْتَقْصَى؟!.

وقد قيل: «لو لم يُعَذِّبِ الله ﷻ على معصيته؛ لكان ينبغي أَلَّا يُعْصَى؛ لشكر نعمته»(٢).

ثالثًا: حُسْن النظر في نِعْمة الله الحاضرة:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «انظرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله»(٣).

قال ابن بَطّال: «قال الطبري: وهذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المَرْءَ لا يكون بحال تتعلق بالدّين؛ من عبادة ربّه مُجْتهدًا فيها إلّا وَجَد مَنْ هو فوقه، فمتى طلبت نَفْسه اللّحاق به اسْتَقْصر حاله، فيكون أبدًا في زيادة تَقرُّب من ربِّه. ولا يكون على حالٍ خَسِيْسَة من الدنيا إلّا وَجَد من أهلها مَنْ هُوَ أخسّ حالًا منه، فإذا تفكّر في ذلك عَلِمَ أنَّ نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممّن فُضِّل عليه بذلك، من غير أمْر أوْجَبه؛ فيُلْزِم نَفْسه الشكر، فيَعْظم اغتباطه بذلك في مَعَاده»(٤).

رابعًا: الدعاء:

فإذا علم العبد أن النِّعَم كلها من الله وحده، نِعَم الطاعات، ونِعم اللّذات، رغب إليه لِيُلْهِمَهُ، ويُوزِعَهُ شكرها، فإن ذِكْرها وشكرها لا يُنَال إلّا بتوفيقه.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٧٥ ـ ٧٦).

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٠٨)، عن بعض الحكماء.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/١٩٩) بتصرف.

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(١).

«فجمع ﷺ بين الذِّكر والشّكر، كما جَمَع الله سبحانه وتعالى بينهما في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فالذِّكر والشكر جِماع السعادة والفلاح»(٢).

خامسًا: التفكّر في نِعَم الله:

وهو أمْرٌ جدير بالعناية، ومِنْ أعْظَم ما يُتَوَصَّل به إلى معرفة النِّعم.

فإذا لاَحَظ العبد ما هو فيه من نِعْمة الله، ومَحْضِ جُوْده، شَهِد مع ذلك فَقْره إليه في كل لَحْظَة، وعدم استغنائه عنه طَرْفَة عين؛ فكَانَ ذلك من أعظم أبواب الشكر، وأسباب المَزيد، وتوالي النِّعَم عليه.

وإذا عَلِمَ أنَّ الشَّر لا يحصل له إلّا من نَفْسه بذنوبه استغفر وتاب؛ فزال عنه سبب الشر، فيكون العبد دائمًا شاكرًا مُسْتغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشرّ يَنْدَفِعُ عنه؛ كما كان النبي ﷺ يقول في خطبته: «الحمْدُ للهِ»، فيشكر الله، ثم يقول: «نسْتَعِينُه ونسْتَغْفِرُهُ»، نستعينه على الطاعة، ونستغفره من المعصية، ثم يقول: «ونَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»(٣)، فيستعيذ به من الشر الذي في النَّفس، ومن عقوبة عمله؛ فليس الشر إلّا من نَفْسه، ومن عَمَل نَفْسه، فيستعيذ الله من شر النَّفْس أن يعمل بسبب سيئاته الخطايا، ثم إذا عَمِل استعاذ بالله من سيئات عَمَلِه، ومن عقوبات عَمَله.

---

(١) رواه أحمد (٢٩٩/١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٤٤).

(٢) «الوابل الصيب» (ص١٦٥) بتصرف.

(٣) رواه أبو داود (١٠٩٧، ٢١١٩)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وصححه الألباني في تحقيق «المشكاة» (٣١٤٩) وغيرها.

فاسْتَعَانَهُ على الطاعة وأسبابها، واسْتَعَاذَ به من المعصية وعِقَابِهَا؛ فَعَلِم العبد بأنّ ما أصابه من حسنة فَمِنَ الله، وما أصابه من سيّئة فَمِنْ نَفْسِه»[١].

فالحاصل أن العبد بين أمرين:

ـ نعمة من الله سَابِغة يجب عليه شكرها، ولا يتمّ له ذلك إلّا بالاستعانة بربه.

ـ وذنبٌ فَعَله، يجب عليه لله الاستغفار منه، ومَنْ يغفر الذنوب إلّا الله؟! فما أفْقر العبد في سَرَّائه وضرَّائه، وحَسَنته وسيئته إلى رَبِّهِ الغفور الرحيم، الجَوَاد الكريم!

ولا يُلاحِظ العبد في ذلك إلّا تمام فَقْره إليه، وتَمام غِنَى رَبِّهِ عنه؛ فحاله حال مُضطر ليس له إلّا الله.

وكتب بعض الحُكَمَاء إلى أخ له يقول: «أمَّا بَعْد، يا أخي! فقد أصبح بنا مِنْ نِعَم الله ما لا نُحْصِيه، مع كثرة ما نَعْصيه، فما ندري أيهما نشكر؟ أَجَميلُ ما ظَهَر، أم قبيح ما سَتَر؟»[٢].

وكيف يبلغ العبد شكر نعمة رَبِّهِ، وتوفيقه إلى الحَمْد والشكر نِعْمَةٌ؟! إنه لا يزال في نِعْمَة لا يبلغ شُكْرها أبدًا؛ ولذلك قال النبي ﷺ في ثنائه على ربه ﷻ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[٣].

قال محمود الوَرَّاق[٤]:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ الله نِعْمَةً عَلَيَّ وَفِي أَمْثَالِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وُقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٤/٢٦١ ـ ٢٦٢).

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٩٤).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨٣).

إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ

كما قال داود ﷺ: «يا رب كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من نِعَمِك عليَّ تَسْتَوجِب شكرًا آخر؟! فقال: الآن شكرتني يا داود»[١].

قال ابن رجب: «على كل نعمة على العبد من الله في دِيْن أو دُنيا يحتاج إلى شكر عليها، ثم للتوفيق للشكر عليها نِعْمة أخرى تحتاج إلى شكْرٍ ثانٍ، ثم التوفيق للشكر الثاني نعمة أخرى يحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبدًا؛ فلا يَقْدر العبد على القيام بشكر النِّعَم. وحقيقة الشكر الاعتراف بالعَجْز عن الشكر»[٢].

* * *

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٦٩ ـ ٧٠).

(٢) لطائف المعارف (ص٢٢١).

ثَمَرَاتُ الشُّكْر

إن «إنعام الرب تعالى على عَبْده إحسان إليه، وتَفَضُّلٌ عليه، ومجرَّد امتنان؛ لا لحاجة منه إليه، ولا لِمُعَاوَضَة، ولا لاستعانة به، ولا لِيَتَكَثَّر به مِنْ قِلَّة، ولا ليتعزّز بِهِ مِنْ ذِلّة، ولا لِيَقْوَى به من ضَعْف سبحانه وبحَمْده.

وأَمْره له بالشكر أيضًا إنعام آخَر عليه، وإحسانٌ منه إليه؛ إذ منفَعَة الشكر ترجع إلى العبد دُنيا وآخرة، لا إلى الله، والعبد هو الذي ينتفع بشكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]...

ومن تمام نِعْمَته سبحانه، وعظيم برِّهِ وكرَمِهِ وجودِهِ محبَّته له على هذا الشكر، ورضاه منه به، وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مُختصَّة بالعبد، لا تعود منفعته على الله، وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه؛ يُنْعِم عليك، ثم يُوزِعُك شُكْر النِّعْمة، ويَرْضَى عنك، ثم يُعِيدُ إليك مَنْفَعة شُكْرك، ويجعله سببًا لتوالي نِعَمِه، واتِّصَالِها إليك، والزيادة على ذلك منها»(١).

فالنفع راجعٌ إليكم في الدنيا والآخرة، ولا يزال العبد يزداد بالشكر نعمةً وفضلًا، حتى يلقى الله وهو راضٍ عنه، فيجازيه الجزاء الأَوْفَى.

وبعد هذا الإجمال نذكر جملة من ثَمرات الشكر، فمن ذلك:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٥١ ـ ٢٥٢).

أولًا: المحبة لله تعالى:

وكيف لا يُحب المؤمن ربه وخالقه ورازقه وهاديه، وما انفكّ مِنْ تَوَاتُرِ نعمته قط، ولا ينفكّ أبدًا؟!

ثانيًا: القُرب من الله تعالى:

قال أبو حازم: «كلّ نعمة لا تُقرّب من الله فهي بَلِيَّة»(١). ولا يمكن أن تُقرِّب النعمة من الله إلّا بالشكر عليها.

ثالثًا: تحقيق النجاة:

قال أبو العالية: «إني لأرجو ألّا يَهْلَكَ عَبْد بين نعمة يَحْمَد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه»(٢).

وقال أبو قِلَابة: «لا تضرّكم دنيا إذا شكرتموها»(٣).

رابعًا: قوة الإيمان والانتفاع بآيات الله:

فـ «الصبر والشكر سببان لانتفاع صاحبهما بالآيات... فعلى حَسَب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه، وآيات الله إنما يَنْتَفِعُ بها مَنْ آمَن بالله، ولا يتم له الإيمان إلّا بالصبر والشكر»(٤).

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]. فالصابر الشاكر هو المُنتفع بآيات الله.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٠).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢١٩).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٩).
(٤) «الفوائد» لابن القيم (ص١٩١).

خامسًا: دوام النِّعْمَة:

قال عمر بن عبد العزيز: «قَيِّدوا النعم بالشكر»[١].

وقالت هند بنت المُهَلّب: «إذا رأيتم النِّعَم مُسْتَدِرَّة، فبادروها بتعجيل الشكر قبل حُلُول الزوال»[٢].

سادسًا: مع الشكر المَزِيْد:

«وقد جعل الله سبحانه لكل مَطْلُوب مِفتاحًا يُفْتَح به؛ فجعل مِفْتاح الصلاة الطهور... ومِفْتاح الحجّ الإحرام، ومِفْتاح البِرّ الصِّدْق، ومِفْتاح الجنّة التوحيد، ومِفْتاح العِلْم حُسْن السؤال، وحُسْن الإصغاء، ومِفْتاح النصر والظَّفَر الصبر، ومِفْتاح المَزِيْد الشكر»[٣].

«والشكر معه المزيد أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فمتى لم تَرَ حالك في مزيد فاستقبل الشكر»[٤].

وقال علي رضي الله عنه لرجل من هَمْدَان: «إن النعمة مُوَصَّلَة بالشكر، والشكر مُعَلَّق بالمَزِيْد، وهما مقرونان في قَرْن، فلن ينقطع المَزِيْد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[٥].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٢٧).
(٢) أخرجه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٧١).
(٣) «حادي الأرواح» (١/١٣٨ ـ ١٣٩).
(٤) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٥ ـ ٢٤٦).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨).

أَسْبَابُ الغَفْلَةِ عَنِ النِّعَمِ

قال في الإحياء: «اعلم أنه لم يَقْصُر بالخَلْق عن شُكْر النِّعْمة إلّا الجهل والغَفْلَة؛ فإنهم مُنِعُوا بالجهل والغَفْلَة عن معرفة النِّعَم، ولا يُتَصَوَّر شُكْر النِّعْمَة إلّا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نِعْمَة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر: أن يَسْتَعْمِل النِّعْمة في إتمام الحِكْمَة التي أُرِيدَت بها؛ وهي طاعة الله ﷻ...

أما الغفلة عن النِّعَم فلها أسباب، وأحد أسبابها: أن الناس بِجَهْلِهم لا يَعُدُّون ما يَعُمّ الخَلْق ويَسْلَم لهم في جميع أحوالهم نِعْمَة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النِّعَم؛ لأنها عامة للخَلْق،... فلا يرى كل واحد لنَفْسه منهم اختصاصًا به، فلا يَعُدّه نِعْمَة، ولا تراهم يشكرون الله على رَوْح الهواء، ولو أُخِذ بمُخْتَنَقِهم لَحْظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حُبِسُوا في بيتِ حَمَّام فيه هواء حار، أو في بئر فيه هواء ثَقُل برطوبة الماء؛ ماتوا غَمًّا.

فإن ابتُلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نَجَا ربما قَدَّر ذلك نِعْمة، وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل؛ إذ صار شكرهم موقوفًا على أن تُسْلَب عنهم النِّعْمَة، ثم تُرَد عليهم في بعض الأحوال، والنِّعْمة في جميع الأحوال أولى بأن تُشْكَر في بعضها، فلا ترى البصير يَشْكر صِحَّة بَصَرِه إلّا أن تَعمى عيناه، فعند ذلك لو أُعِيد عليه بصره أَحَسّ به، وشَكَره، وَعَدَّه نِعْمَة...

إذًا: كل من اعتبر حال نَفْسه، وفَتَّش عما خُصَّ به؛ وَجَد لله تعالى نِعَمًا

كثيرة، لا سيما من خُصَّ بالسنة والإيمان والعلم والقرآن، ثم الفراغ والصحة والأمن، وغير ذلك»[١].

ودخل ابن السَّمَّاك يومًا على الرشيد، فاستسقى الرشيد، فأُتي بقُلَّة فيها ماء مُبَرَّد، فقال لابن السَّمَّاك: عِظْنِي. فقال: يا أمير المؤمنين! بِكَم كنت مُشْتَرِيًا هذه الشَّرْبَة لو مُنِعتها؟ فقال: بِنِصْف مُلْكي. فقال: اشرب هنيئًا. فلما شرب قال: أرأيت لو مُنِعت خروجها من بدنك، بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بنِصْف مُلْكي الآخر. فقال: إن مُلكًا قِيْمَة نِصْفه شَربة ماء، وقِيْمَة نِصْفه الآخر بَوْلَة لَخَلِيق ألا يُتَنَافس فيه. فبكى هارون[٢].

وقال في الإحياء: «ما من عبد إلّا ولو أمْعَن النَّظَر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعمًا كثيرة تَخُصّه، لا يُشاركه فيها الناس كافة، بل يُشاركه عدد يسير من الناس، وربما لا يُشاركه فيها أحد، وذلك يَعْتَرِف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخُلُق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلّا وهو راض عن الله في عَقْلِه، يعتقد أنه أَعْقَل الناس، وقَلَّ مَن يسأل الله العقل... فواجب عليه أن يشكر الله.

وأما الخُلُق: فما من عبد إلّا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها، وأخلاقًا يَذُمّها، وإنما يَذُمّها من حيث يرى نَفْسه بريئًا عنها، فإذا لم يشتغل بِذَمّ الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى؛ إذ حَسَّن خُلُقه، وابتلى غيره بالخُلُق السَّيِّئ.

وأما العلم: فما من أحد إلّا ويعرف بَوَاطِن أمور نَفْسه، وخفايا أفكاره، وما هو مُنْفَرِد به، ولو كُشِف الغِطَاء حتى اطَّلَع عليه أحد من الخَلْق لافْتَضَح، فكيف لو اطَّلَع الناس كافة. فَلِمَ لا يشكر سَتْر الله الجميل الذي

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/١٢٣ ـ ١٢٥) بتصرف يسير.

(٢) تقدم تخريجه.

أرسله على وَجْه مَسَاوِيه؟! فأَظْهَر الجميل، وسَتَر القبيح، وأخفى ذلك عن أعين الناس، وخَصَّص عِلْمه به حتى لا يطَّلِع عليه أحد»[١].

* * *

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/١٢٤).

مِنْ مَظَاهِرِ الشُّكْرِ وَصُوَرِهِ

أولًا: الحَمْد:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ: الحَمْدُ لله»[1].

وعَنْ أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: أيّ الكلام أفضل؟ قال: «مَا اصْطَفَى الله لِمَلائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ»[2].

ثانيًا: سجود الشكر:

وهو سجود مَخْصُوص لحصول نعمة.

ففي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه المشهور في توبته حين تَخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة العُسْرة، قال: «فبينا أنا جَالِس على الحال التي ذَكَر الله، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رَحُبَت؛ سمعتُ صوت صَارِخ أَوْفى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أَبْشِر، قال: فَخَرَرْتُ ساجدًا، وعرفت أنْ قَدْ جاء فَرَج»[3].

ثالثًا: التَحَدّث بها:

عن النُعمان بن بَشير رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وصححه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/٥٨ ـ ٥٩).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣١).

(٣) رواه البخاري (٤٤١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٩).

يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ. التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»(١).

وأَنْشد مُحْرِز بن الفضل(٢):

عَلَامَةُ شُكْرِ المَرْءِ إِعْلَانُ شُكْرِهِ وَمَنْ شَكَرَ المَعْرُوف مِنْهُ فَمَا كَفَرْ

رابعًا: إعْمَال الجوارح بطاعة الله:

قال رجل لأبي حازم: «ما شُكر العينين يا أبا حازم؟! قال: إن رأيتَ بهما خيرًا أعلنتَه، وإن رأيتَ بهما شرًّا سَتَرْتَهُ؛ قال: فما شُكْرُ الأذنين؟ قال: إن سمعتَ بهما خيرًا وعَيْته، وإن سمعتَ بهما شرًّا دفعتَه. قال: فما شُكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تَمنع حقًّا لله ﷻ هو فيهما. قال: فما شُكْر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا، وأعلاه عِلْمًا. قال: ما شُكر الفَرْج؟ قال: كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٦، ٧]. قال: فما شُكر الرِّجْلَيْن؟ قال: إن رأيتَ حيًّا غَبَطْته استعملتَ بهما عَمَلَه، وإن رأيتَ ميتًا مَقتَّه كففتَهما عن عمله وأنت شاكر لله ﷻ. فأمّا مَنْ شَكَر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه؛ فمَثَلُهُ كَمَثَل رجل له كِسَاء، فأخذ بطَرَفه ولم يَلْبَسْه، فلم ينفعه ذلك من الحَرّ، والبَرْد، والثلج، والمطر»(٣).

خامسًا: ظُهور أَثَر النعمة على العبد:

فعن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جَدِّه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»(٤).

---

(١) رواه أحمد وابنه عبد الله (٤/٢٧٨، ٥٧٥)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٦٦٧) وقارن بـ «الضعيفة» (١٠/٤٣٤).

(٢) أخرجها الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٨٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٢٤٤).

(٤) رواه الترمذي (٢٨١٩)، وحسنه، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٧٥).

سادسًا: الرضا والتسليم بقضاء الله:

فعن الرَّبِيع بن أنس عن بعض أصحابه قال: «علامة حُبّ الله: كثرة ذِكْره، وعلامة الدِّين: الإخلاص لله. وعلامة العِلْم: الخشية لله، وعلامة الشكر: الرِّضَا بقضاء الله، والتسليم لقَدَرِه»(١).

سابعًا: شُكر الناس:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ»(٢).

قال الخَطَّابي: «هذا الكلام يُتَأَوَّل على وجهين:

أحدهما: أنَّ مَنْ كَانَ طَبْعه وعادته كفران نعمة الناس، وتَرْك الشكر لمعروفهم، كان من عادته كفران نعمة الله تعالى، وتَرْك الشكر له سبحانه.

والوجه الآخر: أنَّ الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم؛ لاتِّصال أحد الأمرين بالآخر»(٣).

وعن الأشعث بن قيس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَشْكَرَ النَّاسِ للهِ ﷻ أَشْكَرُهُمْ لِلنَّاسِ»(٤).

وبالجملة: فالشكر كما قيل(٥):

لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ فَوْقَ الشُّكْرِ مَنْزِلَةً ... أَعْلَى مِنَ الشُّكْرِ عِنْدَ اللهِ فِي الثَّمَنِ
إِذًا مَنَحْتُكَهَا مِنِّي مُهَذَّبَةً ... حَذْوًا عَلَى حَذْوِ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٤٤).
(٢) رواه الترمذي (١٩٥٤)، وصححه.
(٣) «معالم السنن» (٤/١١٣).
(٤) رواه أحمد (٥/٢١٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٠٨).
(٥) أخرجها ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٩٢) عن الحسين بن عبد الرحمن.

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الشُّكْر

١ ـ عن المُغيرة بن شُعبة ﷺ قال: إن كان النبي ﷺ لَيَقُوم لِيُصَلّي حتى تَرِمَ قدمَاه أو ساقاه، فيُقَال له، فيقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!»[١].

عن أبي بَكْرَة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان إذا جاءه أمر سُرور أو بُشِّر به خرّ ساجدًا شاكرًا للهِ[٢].

٢ ـ وذكر الذهبي في ترجمة عبد الله بن عامر أنه افْتَتَح خُرَاسان، وأَحْرَم من نِيْسَابُور شكرًا، وكان سَخِيًّا كريمًا[٣].

٣ ـ وعن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، قال: ما قَلَّب عمر بن عبد العزيز بصره على نعمة أنعم الله بها عليه إلّا قال: «اللّهُمَّ إِني أعوذ بك أن أُبَدِّلَ نِعَمَك كُفْرًا، أو أَكْفُرها بعْدَ مَعْرِفَتِهَا، أو أَنْسَاهَا فلا أُثْني بها»[٤].

٤ ـ وأُمطِر أهل الكوفة مَطَرًا، فَهُدِمَت منه البيوت، فأعتق ابن أبي داود جارية له شكرًا لله ﷻ إذ عافاه من ذلك[٥].

---

(١) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) رواه أبو داود (٢٧٧٤)، وصححه الألباني (٢/٥٣٤).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٣/٣٣١). تنبيه: لا يُشْرَع الإحرام قبل المواقيت التي حَدَّدَها الشارع.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٧).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٨٠).

٥ ـ وقال الذهبي: «بلغنا أن المُزَني كان إذا فرَغ من تبييض مسألة، وأَوْدَعَها مُخْتَصَره صلى لله ركعتين»(١).

٦ ـ وقال شُريح القاضي: «إني لأُصَاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات، أَحْمَد إذ لم يكن أعظم منها، وأَحْمَد إذ رزقني الصبر عليها، وأَحْمَد إذ وفَّقَني للاسْتِرْجَاع لِمَا أرجو من الثواب، وأَحْمَد إذْ لم يجعلها في ديني»(٢).

٧ ـ وقال أبو العالية: «إني لأرجو ألَّا يَهْلِك عبدٌ بين نِعْمَتَين: نعمة يَحْمَد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه»(٣).

❊ ❊ ❊

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٤٩٣ ـ ٤٩٤).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٠).

الغَيرة

تَوْطِئَة

الغَيْرة غريزة وخَصْلَة فَرِيدة، أودعها الله تعالى في الإنسان من أَجْل صِيَانة ضرورات كبرى تقوم عليها حياة الناس؛ فإنه إذا اختلَّت هذه الغريزة حصل من الفساد ما لا يُقادَر قَدْره.

فليس حديثنا عن قَضِيَّة تكْمِيلِيّة ثانوية، أو قَضِيّة تَحْسِيْنِيَّة، إنما هو عن أصل كبير لا بد من وجوده، وإلا تَحَطَّمت الأخلاق والقِيَم، وذهبت الأعراض، واخْتَلَطت الأنساب، وعمَّ الفساد.

فأسأل الله أن يكون الحديث عن هذا الموضوع باعثًا للغَيْرة في نفوسنا جميعًا، إنه سميع مجيب.

* * *

مَعْنَى الغَيْرَة وَحَقِيقَتها

الغَيْرة لغة: «مُشْتَقَّة من تَغَيُّر القلب، وهَيَجَان الغَضَب بسبب المُشَارِكة فيما به الاختصاص»[١]. يُقَالُ: رجل غَيُور، وغَيْرَان، ومِغْيَار، وامرأة غَيْراء، وغَيُور.

والغَيْرة اصطلاحًا: كراهة الرجل اشْتِراك غَيْره في حقِّه الذي يختص به[٢].

فهي حَمِيّة وأَنَفَة جعلها الله تعالى في النفوس الأبيَّة، تَغَار على ما يَجِب أن يُغَار منه، وهي فَوَرَان الغضب حمايةً على إكرام الحُرَم.

والغَيْرة: لا تختص بالرجال، بل تكون للكرام من الرجال والنساء، الصغار والكبار.

❊ ❊ ❊

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٨/٢٣١).

(٢) انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١٧٦)، و«الكليات» للكفوي (ص٦٧١).

الفَرقُ بَينَ الغَيرة مِنَ الشَّيءِ وَالغَيرة عَلَيهِ وَلَهُ

«الغَيْرة من الشيء: هيَ أن تَكْره مُزَاحَمَته ومُشَارَكته لك في محبوبك، كالمرأة حينما تَغَار من ضرائرها، وكالأقْران يَغَار أحدُهم من الآخر.

وأما الغَيْرة على الشيء: فهي شِدّة حِرْصك على المحبوب أن يَفُوز به غيرك»[1].

و«أما الغَيْرة للشيء: فهي الحَمِيَّة والغضب له إذا اسْتُهِين بحقِّه، وانْتُقِصَت حُرمتُه، فيغضب له، وتأخذُه الغَيْرة له بالمبادرة إلى التَّغْيير، وهذه هي غَيْرة المُحِبِّين حقًا، وهي من غَيْرة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم لله تعالى، ممن أشْرك بالله، واسْتَحَلَّ مَحَارِمَه؛ فالمؤمن يَغَار على حدود الله وحرماته إذا انتُهِكت، والدين كلُّه من هذه الغَيْرة، بل الغَيْرة هي الدين، وما جاهد مؤمنٌ نفسَه وعدوَّه، ولا أمَرَ أحدٌ بمعروف ولا نهى عن مُنكر إلّا بهذه الغَيْرة، ومتى خَلَت من القلب خلا من الدين»[2]، واضمحلَّ ذلك فيه.

وهذه الفروق التي أشرنا إليها ـ بين الغيرة من الشيء والغيرة له وعليه ـ صحيحةُ المعنى في الجملة، وقد نجد في الاستعمال نيابةَ هذه الحروف بعضها عن بعض، فلا تستشكل ذلك عند الكلام على أنواع الغيرة.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٤٣) بتصرف.

(٢) «روضة المحبين» (ص٤١١) باختصار وتصرف، وانظر: «الفوائد» (ص٤٨ ـ ٤٩).

مَنزِلَةُ الغَيْرَة

الغَيْرة منزلة عظيمة، جَلِيلَة القَدْر، يَعْرِف منزلتها وفضلها ومكانتها كلُّ العقلاء، ويَكْفيها شَرَفًا وفَضْلًا أنها صفة من صفات الله تعالى، يقول ﷺ: «إِنَّ الله يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ الله»[1]. فهذا أصلٌ في باب الغَيْرة.

«ومن غيرتِه تبارك وتعالى لعبده وعليه أن يحْمِيَه مما يَضرُّه في آخرته؛ فقد جاء من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الله يَحْمِي عَبْدَهُ الْمؤمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ؛ تَخَافُونَ عَلَيْهِ»[2]»[3].

وبهذا نعلم أن الغَيْرة صفة من صفات الله، وأن الله تعالى يُحِبُّها، ويُدْني صاحبها.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨١٤).

(٣) «روضة المحبين» (ص٢٩٥) بتصرف واختصار.

الغيرة المذمومة والممدوحة

يقول النبي ﷺ: «مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ الله، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ الله، فَأَمَّا الَّتِي يُحِبُّهَا الله فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا الله فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَة»[1].

فالغَيْرة إذا تَجَاوَزت حدَّها، وتَعَدَّت قَدْرها؛ فإنها تتحول إلى صفة ذم، كما لو صار ذلك مُلَازِمًا للإنسان، وتَرَتَّب عليه شيء من سُوء الظن بأهل العَفَاف والطُّهْر والنَّزَاهة، كمن يغار ويَظُنُّ بأهله وقراباته الظنون الفاسدة من غير مُوجِب.

بخلاف الغَيْرة المحمودة فإنها تكون في مَحَلِّها، مُقْتَرِنة بالعُذْر؛ إذا وَجَد عذرًا لمَن يَغَار عليه عَذَرَه من غير تَفْرِيط، ولا تضييع، وبالمقابل نجد آخرين يبحثون عن المَعَاذِير المُسْتَكْرهة والمُسْتَبْعدة التي لا تخطر على بَال؛ وما ذلك إلّا لأجل تَمْرير المنكر، وتَقْرِير الخَبَث في أهلهم؛ فيكون بذلك دَيُّوثًا[2].

والاعتدال في ذلك هو المطلوب، وقد جاء عن سليمان بن داود

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٢١).

(٢) انظر: «الجواب الكافي» (ص١٦٤ ـ ١٦٥) بتصرف.

المنْقَري أنه قال لابنه: «لا تُكثر الغَيْرة على أهلك ولم ترَ منها سُوءًا، فتُرْمَى بالشَّر من أَجْلِك وإن كانت منه بريئةً»[١].

* * *

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٧١) واللفظ له.

أَنْوَاعُ الغَيْرَة(١)

النوع الأول: غَيْرة الله تعالى، وهي أنواع، منها:

١ ـ غَيْرة الله ﷻ على عبده:

وذلك بألَّا يَجْعله للخَلْق عبدًا، بل يتَّخِذه لنَفْسه عبْدًا، فالله تعالى يَغَار على عبده أن يَتَوَجَّه بقلبه أو بعمله إلى ربٍّ ومعبودٍ سواه، كما أنه «يَغَار على قلب العبد أن يكون مُعَطَّلًا من حبِّه، وخوفه ورجائه، أو أن يكون فيه غَيْره...

كما أنه سبحانه يَغَار على لسان عبده أن يَتَعَطَّل من ذِكْره، ويَشْتَغِل بِذِكْر غَيْرِه. ويَغَار على جوارحه أن تتعطَّل من طاعته، وتَشْتَغِل بمعصيته»(٢).

ومن سنَّته تعالى مع أوليائه إذا ساكنت قلوبُهم أحدًا غيره، أو رَكَنُوا إلى شيء سواه، أو صالحوا بقلوبهم شيئًا، فشوَّش عليها صفوَ العبودية؛ فمن سنته أنه يَغار على هذه القلوب؛ فيُسَلِّط عليها أنواع الآلام والمَكَارِه والمصائب حتى يُعيدها خالصة لنَفْسه جلّ في علاه(٣).

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِيْ وَاحِدِ ... أَعْنِيْ سَبِيْلَ الحَقِّ والإِيْمَانِ(٤)

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/٤٤ ـ ٤٥).

(٢) «روضة المحبين» (ص٣٢٤) بتصرف.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) «نونية ابن القيم» (ص٢١٩ ط. مكتبة ابن تيمية، وقد سقطت من ط. عالم الفوائد).

ومن غَيْرته تعالى على عبده: أن العبْد لربَّما حَصَّل مراتب عاليةً من مَرَاتب العبودية، فَيَرْكُن إلى ذلك، ويَأْنَس ويُسَرّ به، ولَرُبَّما حَصَل له نوع ارتفاعٍ بذلك، فيُلْجِئه الله بألوان الآلام والمصائب، مما يضطرُّه إلى الافتقار إليه.

كما أنه سبحانه يَغَار على عبده أن يُضيِّع الأنفاس والأوقات فيما سوى الله تبارك وتعالى، مما لا طائل تحته؛ من القيل والقال، واللهو والعَبَث.

٢ ـ غَيْرة الله تعالى على توحيده وكلامه:

فمن ذلك: أنه جعل على قلوب الذين أعرضوا عنه وكذَّبوا رسله أكِنَّةً أن يفقهوا كلامه، وفي آذانهم وقرًا.

ومنه أيضًا: تَثْبِيْطُه للمَخْذُوْلين من المنافقين، وأعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام عن شَرَف اللحاق برسول الله ﷺ في مَغَازِيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

ومنه أيضًا: أنه لم يجعل للخَلْق طريقًا يُوصِلُهم إلى الله تبارك وتعالى سوى توحيده، فليس ثَمَّةَ واسطة ووسيلة يَتَعلَّق بها العباد سوى التَّوَجّه إلى الله وحده لا شريك له بالعمل الصالح(١).

٣ ـ غَيْرَة الله تعالى على حدوده:

فالله يَغار إذا انتُهِكت حُرُماتُه، فعن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ الله، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»(٢).

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٤٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ الله»(١).

ووجه ذلك: أن المسلم عند وقوعه في المعصية يكون قد أطاع هواه، وانقاد للشيطان، والطاعةُ خاصة بالله تعالى، ويأبى أن يشاركه فيها غيره، فكأنه بمعصيته جَعَل لغير الله نصيبًا في طاعته وتَوَجُّهه وعمله وإرادته.

النوع الثاني: غَيْرة العبد، وهي أنواع، ومنها:

١ ـ غَيْرتُه من نَفْسه على نَفْسه:

وذلك بـ «ألَّا يَجْعل شيئًا من أعماله وأقواله، وأحواله وأوقاته، وأنفاسه لغير ربِّه»(٢)، فيَغَار إذا رأى أعماله وأقواله تَنْفَرِط وتضمحل بين يديه، وتُصرف في غير مَرْضاة الله تعالى، وفيما لا يُقرِّبُه إليه.

وغَيْرةُ العبد من نَفْسه أَهَمُّ من غَيْرتِه من غَيْره؛ لأن العبد إذا غار من نَفْسه صحَّت له غَيْرتُه لله تعالى من غَيْره، والذي لا يَغَار من نَفْسه لا يغار من غَيْره من باب أولى؛ لأن أَهَمَّ مطلوب هو نجاة العبد عند الله ﷻ، وأن تَنْفَكَّ رَقَبَته وتُعْتَق من عذاب الله جَلَّ جلاله(٣).

٢ ـ غَيْرَة العبد من غَيْره:

وذلك بأن يَغَار على حدود الله تعالى، ودينه وشرعه، فيَغَار إذا رأى حُرُمات الله تُنْتَهك، أو يُتَطَاوَل عليها، أو يُشَكَّك في مَعَالم الدِّين.

وكلما كان دِين العبد أعظم وأَمْتَن كانت غَيْرتُه أكبر؛ ولذلك كان النبي ﷺ أعظم غَيْرةً من غيره، كما قال ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/٤٥).

(٣) انظر: المصدر السابق (٣/٤٦).

فَوَالله لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي»[١]، وعلى قدر إيمان العبد ومحبته لربه تكون غَيْرته على دِين الله، فإذا خلا قلبُه من الإيمان والمحبة تَأَثَّرت تلك الغَيْرة واضْمَحَلَّت، ولربّما انعدمت بالكلية.

ومن غيْرة العبد على غيره: غَيْرته على العلم أن يُبْذَل لغير أهله.

قال المناوي: «من الغَيْرة غَيْرة العلماء لمَقَام الورَاثَة، وهو مَقَام العِلْم»[٢]، فالعِلْم دُرَّة شريفة لا تُبذَل للبطَّالين، والمَسْألة الدَّقِيْقَة اللَّطِيفَة حينما تُبذَل لغير أهلها كالمرأة الحسناء تُهدَى إلى ضَرِير مُقْعَد.

٣ ـ غَيْرَة العبد على عِرْضه، وأعراض المسلمين:

وأعظم الناس غَيْرة على الأعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الأمثل فالأمثل، فكلما كان العبد مُتَشَبِّهًا بالأنبياء، مُكَمِّلًا للإيمان، مُسْتَوفِيًا للرّجُولَة؛ كانت غَيْرتُه أتم. وذلك لا يختص بالرجال، بل إن المرأة المؤمنة تَغَار على عِرْضها، وعِرْض المؤمنات.

وسنذكر نماذج لغَيرة العبد عند الكلام على أخبار أهل الغيرة إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩) واللفظ له، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) «فيض القدير» (٦/٢٥٣).

أَسْبَابُ ضَعْفِ الغَيْرَةِ وَزَوَالِهَا

أولًا: كثرة الذنوب والمعاصي:

يقول ابن القيم: «من عقوبات المعاصي أنها تُطفئ من القلب نار الغَيْرة التي هي لحياته وصَلَاحه كالحرارة الغَرِيْزِيَّة لحياة جميع البَدَن،... فَكُلَّما اشْتَدَّت مُلابَسَةُ العبد للذنوب والمعاصي أَخْرَجَت من قَلْبِه الغَيْرة على نَفْسه وأهله وعموم الناس، وقد تَضْعُف في القلب جِدًّا حتى لا يَسْتَقْبِح القَبِيح لا من نَفْسه ولا مِن غيره...»(١)، فالدين يحمي القلب، ويؤثِّر الغَيْرة فيه ويُقوِّيها ويُنمِّيها كما لا يخفى.

ومن الذنوب التي تُذْهِب الغَيْرة وتُضْعِفُها: تعاطي المُسْكرات؛ من الخمور والمخدرات والحشيش، فإنها تَغْتَال العقول، والشِيَم والغَيْرة والمروءة، وتدعو إلى الزنا، ولَرُبَّمَا دَعَت إلى الوقوع على البنت والأخت وذَوَات المَحَارِم.

ثانيًا: الانْسِيَاق وراء العَوَاطف:

فمن الخطأ أن يُعَالِج الإنسان مُشْكِلات وسُلُوكِيَّات زَوْجِه وقريباته بالعاطفة؛ ولهذا يقول الله في حدِّ الزُّنَاة: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

فبعض الناس تَحْمِلهم المحبة والشَّفَقة على تَرْك الغَيْرة، فإذا رأى من

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٦٦)؛ بتصرف.

مَحَارِمه مُنْكرًا؛ من علاقة غير شرعية ونحو ذلك؛ حَمَلَته تلك المحبة على غَضّ الطَّرْف، وعدم الإنكار، وهذا من المَهَانَة والدّيَاثة وقِلّة الدِّين، والإعانة على الإثم والعُدْوَان، وترْك التناهي عن الفحشاء والمُنْكَر.

ثالثًا: سوء التربية:

فكم من رجل ضَيَّع القَوَامَة، فصار تبَعًا لامرأته، فاغْتِيلَت غَيْرته ورُجُولته! ثم بعد ذلك يُضيِّع ما أَمَره الله تعالى به من الرِّعاية، يَترك امرأته ومن وَلَّاه الله عليهن يَفْعلْن ما شئْنَ، فيتربَّى على ذلك الصغير، ويَنْشأ عليه، ومن أين له أن ينشأ على الأخلاق الحميدة والغَيْرة، وهو يرى أمَّه تَخْرج حيثُ شاءت، وأخته تَفْعل ما شاءت دون نَكِيرٍ ولا مُحَاسَبَة من أبيه؟!.

هِيَ الْأَخْلَاقُ تَنْبُتُ كَالنَّبَاتِ ... إِذَا سُقِيَتْ بِمَاءِ الْمَكْرُمَاتِ
تَقُومُ إِذَا تَعَهَّدَهَا الْمُرَبِّي ... عَلَى سَاقِ الْفَضِيلَةِ مُثْمِرَاتِ
وَلَيْسَ النَّبْتُ يَنْبُتُ فِيْ جِنَانٍ ... كَمِثْلِ النَّبْتِ يَنْبتُ فِيْ الفَلَاةِ
فَكَيْفَ نَظُنّ بِالْأَبْنَاءِ خَيْرًا ... إِذَا نَشَؤُوا بِحِضْنِ الجَاهِلَاتِ
وَهَلْ يُرْجَى لِأَطْفَالٍ كَمَالٌ ... إِذَا ارْتَضَعُوْا ثُدِيَّ النَّاقِصَاتِ[1]

رابعًا: التَّأَثُّر بالمجتمعات غير المُسْلِمة التي لا تعرف الغيرة:

وَلَرُبّما رَبَط بعض هؤلاء التَّقَدُّم وَالتَّحَضّر بأن تُتْرَك المرأة تَفْعل ما يحلو لها من غير رَقِيْب ولا حسيب، تذهب حيث شاءت، وتُخَالِل من شاءت، وتَفْعَل ما تشاء!

خامسًا: دُخُول مَفَاهِيم وَعَادَات غَرِيبة على المجتمعات المُسْلِمة:

لقد أدَّت تلك المفاهيم والعادات إلى تَغَيُّر كَثِير من المَعَايِير لدى بعض الناس، فَتَغَيَّرَت تَصَوُّراتهم.

(١) «ديوان معروف الرصافي» (٧١)، مع حذف بعض الأبيات قبل وبعد البيت الثالث.

سادسًا: السفر إلى بلاد تكثر فيها المنكرات وتظهر:

ولا يخفى ما يَتَرَتَّب على ذلك من المفاسد؛ فإن تلك المجتمعات قد ذَهَبَت الغَيْرة عن كثير منهم، وانتشرت الأخلاق الدَّنِيئة فيهم، فكيف يَسْلَم من ذلك من عَايَشَهم وسَاكَنَهم؟!

سابعًا: البرامج والمَشَاهِد التي من شأنها أن تُضْعِف الغَيرة:

حيث يرى المُشاهِدُ المَشاهدَ المَشِيْنَة، وما يقع مع ذلك من أمور لا تخفى، إضافة إلى ما يُعْرَض في بعضها من إظهار الرجل الغَيُور على أنه محل للتندُّر والضحك والاشمئزاز.

ثامنًا: ما أَلِفَه بعض الناس مِن الأحوال والمُزَاوَلات المُنافية للغيرة:

وذلك عبر ما يشاهدونه في المجلات، والقنوات، والإنترنت، والأسواق، في حلِّهم وتَرْحَالِهم.

وهذا يَاقُوت الحَمَوَي، زار بلدة في اليمن يُقَال لها: مِرْبَاط، يقول في وَصْفِها: «أَهْلها عَرَب، وَزَيّهم زَيّ العَرَب القديم، وفيهم صَلَاح مع شَرَاسَة في خُلُقِهم... وَتَعَصّب، وفيهم قِلَّة غَيْرة، كأنهم اكْتَسَبُوها بالعادة، وذلك أنه في كل ليلة تَخْرج نساؤهم إلى ظاهر مَدِينَتهم، ويُسَامِرْنَ الرجال الذين لا حُرْمة بينهم، ويُلاعِبْنهم ويجالسْنهم إلى أن يَذْهب أكثر الليل، فَيَجُوز الرجل على زوجته وأخته وأمه وعمته وإذا هي تُلَاعِب آخر وتُحَادِثه، فيُعْرِض عنها ويَمْضي إلى امرأة غيره، فيُجَالِسها كما فُعِل بزوجته.

وقد اجتمعتُ بجماعة كثيرة، منهم: رَجُل عاقل أَدِيب، يَحْفَظ شيئًا كثيرًا، وأنشدني أشعارًا، وَكَتَبْتُها عنه، فلما طَال الحديث بيني وبينه قلتُ له: بَلَغَني عنكم شيء أَنْكَرْته، ولا أعرف صِحَّته، فَبَدَرَني وقال: لَعَلَّك تَعْني السَّمَر؟ قلت: ما أردتُ غيره، فقال: الذي بَلَغَك من ذلك صحيح، وبالله أقسم إنه لَقَبِيح، ولكن عليه نَشَأنا، وله مذ خُلِقْنَا أَلِفْنا، ولو استَطَعْنا أن

نُزِيله لأزلناه، ولو قَدِرْنا لغَيَّرْناه، ولكن لا سبيل إلى ذلك مع مَمَرّ السنين عليه، واستمرار العادة به»[١].

تاسعًا: دعاة الفِتنة وأعداء الفضيلة:

من أصحاب الجهود الشيطانية الذين اسْتَمَاتُوا في إفساد الضرورات الخمس: من الدِّين، والنَّفْس، والعقل، والعِرْض، والمال.

يقول أحدهم: هذه بَقِيَّةٌ من مَوْرُوثات سلْجُوقِيَّة وعثمانية!

عاشرًا: السُّكوت عن المنكر.

حادي عشر: ضَعْف الإيمان، واتِّباع الهَوَى.

ثاني عشر: الجَهْل بعِظَم الإثم، وخُطُورة الدّيَاثة، وتَضْيِيع المَسْؤوليّة.

ثالث عشر: الثِّقة الزائدة في غير محلِّها.

❊ ❊ ❊

---

(١) «معجم البلدان» (٥/٩٧).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الغَيْرَةِ

لِتَنْمِيَةِ الغَيْرة في النفوس طُرُق كثيرة، ومن ذلك:

١ ـ تَرْبية الصَّغِيرات على الحِشْمة والحياء في اللباس وغيره.

٢ ـ تَرْبِية الأولاد على الغَيْرة؛ وذلك بأن يُوكَل البيع والشراء، ومخاطبة الرجال ونحو ذلك للبنين.

٣ ـ مُحَارَبة وسائل إضعاف الغَيْرة، وإخراجها من البيوت.

٤ ـ الرجوع إلى الدين، وغَرْس تَعَالِيمه في نُفُوس الناس.

٥ ـ التَّأْكِيد على دور الرجل في القَوَامة، وحِفْظ ما استرعاه الله تعالى.

٦ ـ تَوْعِية المُجْتَمع بمثل هذه الأمور.

٧ ـ مَعْرفة قَدْر الأَعْراض؛ فإن مَعْرِفة قَدْر الشيء تدعو إلى المحافظة عليه.

❊ ❊ ❊

آثَارُ الغَيْرَة[١]

للغَيْرة آثار وفوائد كثيرة، ومن ذلك:

١ ـ أنها قوة لمُقَاوَمَة أدواء القلب المُتَنَوِّعة.

٢ ـ أن ذهاب الغَيْرة ذهاب للدين.

٣ ـ أنها تُحرِّز صاحبها من الفواحش.

٤ ـ أن الله يحبُّ أهلها، فهي صفة من صفات الله تعالى، و«المؤمن الذي يغار في مَحَلِّ الغَيْرة قد وَافَق ربه في صفة من صفاته، ومن وافقه في صفة منها قادته تلك الصِّفَة بِزِمَامه، وأَدْخَلَته عليه، وأَدْنَتْه منه، وقَرَّبَتْه من رحمته»[٢].

٥ ـ أنه بوُجُودِها تُصَان الأعْرَاض.

وغير ذلك من الآثار الطيِّبة.

* * *

(١) انظر: «نضرة النعيم» (٣٠٨٥/٧).

(٢) «فيض القدير» للمناوي (٢٥٣/٦).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الغَيْرَة

أولًا: غيرة الله جل جلاله:

١ ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله يَغَارُ، وَغَيْرَةُ الله أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ الله»[1].

٢ ـ وعن عائشة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال في خُطبته في الكسوف: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَالله مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ»[2].

ثانيًا: غَيرة النبي ﷺ:

١ ـ وعن المغيرة ﷺ: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَح، فقال النبي ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي»[3].

ثالثًا: الغَيرة عند الصحابة والمسلمين:

١ ـ فهذا سعد بن عُبَادَة ﷺ، سَيِّد الخَزْرَج، كان من أكثر الناس غَيْرةً، حتى إنه ما طلَّق امرأةً فتَجرَّأ أحدٌ على أن يَتَزَوَّجها بعده؛ لِشِدَّة غَيْرتِه[4].

٢ ـ وكان عمر بن الخطاب ﷺ من أشد الناس غَيْرةً، وأخباره في ذلك

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «البداية والنهاية» (٩/٦٠٨).

كثيرة، وهو الذي أشار على النبي ﷺ أن يحجب نساءه قبل أن تَنْزِل آية الحجاب، وكانت من عادة العَرَب أن المرأة لا تَحْتَجِب لنزاهَتِهم، ونَزَاهَة نسائهم، وكان الأمر في أول الإسلام على ذلك، فقال عمر ﷺ: «يا رسول الله! لو أَمَرْتَ نساءَك أن يَحْتَجِبْن؛ فإنه يُكَلِّمهن البَرّ والفاجر»، فنزلت آية الحجاب(١).

وهو الذي يقول فيه النبي ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا»(٢).

٣ ـ ولما دخل على عثمانَ خُصُومُه وأعداؤه ليَقْتُلُوه جاءت امرأته نائلة، ونَشَرَت شَعْرَها، وأرادت أن تَسْتُرَه بِشَعْرِها وتَحْمِيه، فقال لها: «خُذي خمَارَكِ، فَلَعَمْري لدخولهم عليَّ ـ أي: لقتلي ـ أهون من حُرْمة شَعْرِك»(٣).

ولم تكن الغَيْرة مَقْصُورَة على أصحاب رسول الله ﷺ، بل هي عند كلِّ فَحْلٍ حُرٍّ أَبِيٍّ.

٤ ـ يقول ابن الجوزي: «سمعت أبا عَبْد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد بن موسى القاضي، يقول: حضرتُ مَجْلِس موسى بن إسحاق القاضي بالرَّي سنة ست وثمانين ومائتين، فَتَقَدَمَت امرأة، فَادَّعى وَلِيُّهَا عَلَى زَوْجِهَا خَمْسمائة دينار مَهْرًا، فَأَنكَر، فَقَالَ القَاضِي: شُهُودك، قَالَ: قد أحضرتهم، فاسْتَدْعَى بعض الشُّهُود أن يَنْظُر إلى المرأة؛ ليُشِير إليها في شَهَادَته، فقام الشَّاهِد وَقَالَ للمرأة: قومي! فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قَالَ الوكيل: يَنْظُرون إلى امرأتك، وَهِي مُسْفِرة؛ لتَصِحَّ عندهم مَعْرِفَتها، فقال الزوج: فإني أُشْهِد

(١) أخرجه البخاري (٤٠٢) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٢، ٣٦٨٠، ٧٠٢٣، ٧٠٢٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٤/١٣٠٠).

القاضي أن لها عليَّ هذا المَهْر الّذي تَدَّعِيه، ولا يُسْفر عن وجهها، فأُخْبِرَت المرأة بما كان من زوجها، فقالت: فاني أُشْهِد القاضي أنّي قد وَهَبْت له هذا المَهْر، وأبْرَأته منه في الدنيا والآخرة! فقال القاضي: يُكْتَب هذا في مكارم الأخلاق»[١].

رابعًا: الغَيْرة عند العرب وغير المسلمين:

الغَيْرة لا تختص بالمسلمين، بل هي غريزة من الغرائز تُوجَد عند الكافر الذي لم تَتَدَنَّس فِطْرته، فالعرب في الجاهلية «تجاوزوا في الغَيرة حدودها، إلى كراهة أن يلدوا البنات، حتى دَفَنُوهنّ أحياء، وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وأما بَذْلهم للأموال لِصَون أعراضهم فَأَسْهَل ما تَجُود به نفوسهم، حتى قال قائلهم[٢]:

أَصُوْنُ عِرْضِيْ بِمَالِيْ لَا أُبَدِّدُهُ   لَا بَارَكَ الله بَعْدَ الْعِرْضِ فِيْ المَالِ
أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَكْسبُه   وَلَسْتُ لِلْعِرْضِ إِنْ أَوْدَى بِمُحْتَالِ

خامسًا: الغَيْرة عند الحيوان:

عن عمرو بن مَيْمُون قال: «رأيتُ في الجاهلية قِرْدَة اجتمع عليها قِرَدَة، قد زَنَت، فَرَجَمُوها، فَرَجَمْتُها معهم»[٣].

فأين ذهبت الغَيْرة عند كثير من المسلمين اليوم؟!

* * *

(١) «المنتظم» (١٢/٤٠٢).

(٢) وهو حسان بن ثابت. ينظر: «التذكرة الحمدونية» (٢/٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤٩).

الحَيَاءُ

تَوْطِئَة

ما أحوجنا للحديث عن الحياء، ذلك الخُلُق الكريم الذي يدعو النَّفْس إلى الفضائل، ويُجَنِّبُها الرَّذَائل، ما أحوجنا أن نتحدث عن الحياء في وقت تَرَى فيه مَظَاهِر عَجِيبة تَدُلّ على تَصَحُّر الحياء في نفوس كثير من المُنْتَسِبين إلى الإسلام!

ومن هنا جاء الحديث عن هذا الموضوع، فأسأل الله أن يكون ذلك باعثًا للحياء في نفوسنا جميعًا، إنه سميع مجيب.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى الحَيَاء وَحَقِيقَتهُ

الحياء في اللغة:

«أصل الاستحياء: من الحياة، فهو كاسمه، مشتق من الحياة، واستحيا الرجل لقوة الحياة فيه؛ لشدة علمه بمواقع العيب، فالحياء من قوة الحِسّ ولُطْفه وقوة الحياة»[(١)].

الحياء في الاصطلاح:

حقيقته: انقباض النَّفْس من شيء وتَرْكه حَذَرًا عن اللوم فيه[(٢)].

وهو: «تَغَيُّر وانْكِسَار يَعْتَري الإنسان من خَوْف ما يُعَاب به»[(٣)]. فهو خُلُق كريم فاضل، يبعث على فِعْل المَحَاسِن، وَتَرْك القبائح، ويُقَابِله البَذَاء والجَفَاء، كما في الحديث: «الحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ»[(٤)].

❊ ❊ ❊

(١) ينظر: «التفسير البسيط» (٢/٢٧١). «مختار الصحاح» (ص٨٦)، مادة: (حيا).

(٢) «التعريفات» للجرجاني (ص٩٤).

(٣) «فتح الباري» (١/٦٧)؛ بتصرف يسير.

(٤) أخرجه الترمذي (٤١٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه.

الفَرقُ بَيْنَ الحَياءِ وَالخَجَل

الحياء وسط بين طَرَفين مَذْمُومَين؛ بين الخَجَل والبَذَاء.

فالخَجَل خُلُق يَدُلّ على ضَعَة صاحبه ومَهَانَتِه وقُصُوره؛ فهو لا يَسْتَطِيع أن يَرْفَع رأسه ليُنْكِر مُنْكَرًا ولا أن يقول كلمة الحق؛ لأنه يَخْجَل.

ويُقَابِل ذلك البَذَاء والوَقَاحَة والجُرْأَة، وهي تُعَدّ من سَافِل الأخلاق؛ حيث تَحْمِل صاحبها على فِعْل ما لا يليق أمام جُمُوع الناس بكل صَفَاقَة ووَقَاحَة.

والحياء وَسَط بينهما، فهو خُلُق يَكْتَنِفه وَصْفَان ذَمِيمان، مِثْله مِثْل الكَرَم؛ الذي هو وَسَطٌ بين الشُّح والإسراف والتَّبْذِير، ومِثْل التَّوَاضع؛ الذي هو وَسَط بين الذُّل والكِبْر، فإذا انْحَرَفت النَّفْس عن فِطْرتها، وعمَّا رَسَم الله تعالى لها من الأخلاق الفاضلة، فإنها تَمِيل إلى أحد الطرفين، وقليل من الناس من يُوَفَّق إلى لزوم الفِطْرة والمُحَافَظَة عليها.

وبهذا يرتفع الإشكال الذي يُورِده كثيرون، وهو قولهم: كيف كان الحياء من الإيمان، وهو خير كله، ولا يأتي إلّا بخير، مع أنه لربما جعل صاحبه يَجْبُن في بعض المقامات التي كان يجب عليه أن يَنْطِق فيها آمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر، وقائلًا بالحق؟! كما قد يثنيه عن النهوض ببعض المكرمات، أو يحمله على مُوَافقة غيره فيما لا يَجْمل على سبيل المُدَاهَنة تَحَرُّجًا من المُخالَفة، فكيف يكون ذلك من الإيمان؟!

والجواب: أن هذا الذي سماه الناس في عُرْف استعمالهم بالحياء؛ هو

في الحقيقة ليس من الحياء في شيء، بل هو من المَهَانة والخُنُوع والضَّعْف؛ إذ إن الحياء الشرعي هو الذي يَحْمِلك دائمًا على فِعْل ما يليق، فالنبي ﷺ كان أشد حياء من العذراء في خِدْرها، ومع ذلك كان يقول كلمة الحق، ويُبَلِّغ دين الله ﷻ، ويغضب لله تعالى إذا انْتُهِكَت حرماته، ويغار لله غَيْرة لا يَغَارُها أحد من الناس. فلم يكن الحياء مانعًا له من القيام بما يجب لله تعالى، أو يَحْسن من الفضائل.

❊ ❊ ❊

مَنزِلَة الحَيَاءِ

الحياء أَصْل لكل خير، وهو «أفضل وأجلُّ الأخلاق، وأعظمها قَدْرًا، وأَكْثَرُها نَفْعًا، بل هو خاصة الإنسانية؛ لأن الحيوان لا حياء له، فمن لا حياء له ليس معه من الإنسانية إلّا اللحم والدَّم. وصورتها الظاهرة، صُورَتُه صُورَة إنسان، ودَاخِلَتُه دَاخِلَة حَيَوَان، كما أنه ليس معه من الخير شيء إذا تَخَلَّى من الحياء، ولولا هذا الخُلُق لم يُقرَ الضَّيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تُؤَدَّ الأمانة، ولم تُقْضَ لأحد حاجة، ولا تَحَرَّى الرجلُ الجميلَ فَآثَرَه، والقبيحَ فَتَجَنَّبَه، ولا سَتَر له عورة، ولا امْتَنَع عن فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يُؤَدِّ شيئًا من الأمور المُفْتَرَضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوق حَقًّا، ولم يَصِل له رَحِمًا، ولا بَرَّ له والدًا؛ فإن الباعث على هذه الأفعال: إما ديني؛ وهو رجاء عاقبتها الحَمِيدَة، وإما دُنْيوِيّ عُلْوِي؛ وهو حياء فَاعِلها من المَخْلُوقِين.

ويَتَبَيَّن بهذا: أنه لولا الحياء ـ مِن الخالق أو من المَخْلُوق ـ لم يَفْعَل الإنسان شيئًا من هذه المَكَارِم»[1].

ثم إن هذا الحياء يقوم مَقَام الذِّكْر في بعض المقامات التي لا يُذْكَر الله ﷻ فيها، كحال الإنسان عند الخلاء؛ فإنه لا يَذْكُر ربَّه، ولا يَلِيق به أن يَذْكُره وهو على حاجته؛ ولكن مَقَام الحياء من الله تعالى وهو في هذه الحال، ومَقَام المُرَاقبة لله، واستحضار هذه النعمة من الله سبحانه عليه بالتَّخَلُّص من

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٢٧٧) بتصرف.

هذه المُؤْذِيَات التي تَخرج من جَسَده، لا شك أنه مِن أجلِّ الذِّكْر كما صَرَّح بذلك جَمْع من العلماء.

والحياء من الإيمان، كما قال النبي ﷺ لرجل من الأنصار حينما مَرَّ به وهو يَعِظ أخاه في الحياء، فقال له النبي ﷺ: «دَعْهُ؛ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»(١).

فالحياء مِن أَجَلِّ الأعمال القلبية التي تَدْفع الإنسان على فِعْل ما يَلِيق، وتكُفّه عما لا يَلِيق.

كما أن الحياء خُلُق إسلامي رَفِيع، كما في حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الحَيَاءُ»(٢)، وأخلاق الإسلام كثيرة وإنما جعله النبي ﷺ خُلُق الإسلام؛ لأن به جِمَاع الخُلُق؛ فإن الإنسان إذا كان من أهل الحياء وُجِد فيه الكَرَم، والنَّخْوة، والحَمِيّة، والغَيْرة، وسائر الأخلاق الفاضلة.

والحياء صفة يُحِبّها الله تعالى، كما قال النبي ﷺ لأَشَجِّ عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الْحِلْمَ، وَالحَيَاءَ»(٣).

كما أنه صفة من صفات الله تعالى، ففي الحديث: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»(٤)، فهذا حياء كَرَم وبِرٍّ وجُودٍ وجَلَال وإفضال من الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤، ٦١١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١، ٤١٨٢) من حديث ابن عباس وأنس رضي الله عنهم، وصححه الألباني بمجموع طرقه في «الصحيحة» (٩٤٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١٨٨) وغيره. وأصل الحديث في الصحيحين.

(٤) أخرجه أبو داود (١٤٨٨) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٧).

الحَيَاءُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

أولًا: في القرآن:

قال الله تعالى عن ابنة صَاحِب مَدْيَن: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

وقال عن نبيه ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ثانيًا: الحياء في السنة:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ»، قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله، قال: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال للأَشَجِّ العَصَرِي: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الْحِلْمَ، وَالحَيَاءَ»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١٦٠٨ ـ التحقيق الثاني).

(٢) تقدم تخريجه.

وعن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»(١).

وعن عمران بن حصين ﵁، عن النبي ﷺ قال: «الحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»(٢).

وعن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَلَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ»(٣).

***

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٥٥).

هَلِ الحَياءُ غَرِيزَة أَوْ شَيْءٌ مُكْتَسَب؟

لا شك أن الحياء غَرِيزة فُطِر عليها جميع الناس ـ المؤمن والكافر ـ على تفاوت بينهم في ذلك، فمِنهم من فُطِر على قَدْر كبير منه، كما قال النبي ﷺ لأَشَجّ عبد القيس ـ في بعض روايات الحديث: ـ «بل الله جبلَك عليهما»[1].

وإذا كان هذا الخُلُق في أصله غَرِيزة فُطِر الناس عليها إلّا أنه يمكن أن يُكتَسَب، ويُنَمَّى، فالصغير حينما يُرَبَّى ويُنَشَّأ على الحياء؛ فإن ذلك ينمو ويَتَجذَّر في نَفْسه، حتى يصير الحياء سِمَة بارزة له، وأما إذا نُشِّئ على خِلَاف الحياء، كما لو تَرَبَّى في بيئة لا مَجَال للحشمة فيها، فتَقَع عينه على أمٍّ قد تَعرَّت من السِّتْر، وأبٍ يَتَلَفَّظ بأبشع الألفاظ، فَأَنَّى لهذه الفِطْرة أن تنمو؟! وكيف لهذا الصغير أن يَتَحاشَى تلك الأمور بعد ذلك؟!

وَيَنْشأ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ[2]

مع أن هذه الخَصْلَة مَغْرُوزَة فيه حينما وُلِد؛ فهي خَاصِيّة بَشَرِيَة؛ حباها الله ﷻ هذا الإنسان، وَمَيَّزَه بها عن الحيوانات؛ فإن الحيوان لا يَعْرِف الحياء، وَكُلَّمَا انْحَطّ الإنسان وتَدَنَّى في أخلاقه شَابَه العَجْمَاوَات والحيوانات في نَزْع الحياء، ووقُوعها على ذَمِيم الأخلاق ومَسَاوِئها.

---

(١) تقدم تخريجه، وهذا لفظ أبي داود (٥٢٢٥).

(٢) «ديوان أبي العلاء المعري» (ص١٤٥٨).

وانظر إلى آدم وحواء عليهما السلام حينما أكلا من الشجرة بَدَت لهما سوآتهما، لكنهما بِفِطْرتهما طَفِقَا يَخْصِفَان عليهما من ورق الجنة، وهذا يَدُلّ على أن الحياء فِطْرَة فيهما، وأن التَّعَرّي والتَّكَشُّف والتَّهَتُّك خِلَاف الفِطْرة، إنما الفِطْرة في السَّتْر والحِشْمة والحياء، والشيطان حَرِيص على نَزْع ذلك بدَعْوته إلى كَشْف العَوْرات، والتَّعَرِي، وإظهار المَفَاتِن والمَحَاسِن؛ من أجل إغراق الناس في الرَّذِيلة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وهذا الذي تدعو إليه الجاهلية الغَرْبِيّة المُعَاصِرة، بكل ما أُوتِيَت من قُوَّة وآلة تُدَمِّر فيها ما تبَقَّى عند الناس من مَكَارِم الأخلاق التي بُعِثَ النبي ﷺ لتَتْمِيمِها وتكْمِيلِها.

❊ ❊ ❊

أَنْوَاعُ الحَيَاءِ(١)

الحياء ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الحياء من الله تعالى:

ويكون بامتثال أوامره، واجتناب زواجره، فَعَن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ أنه قال: قلتُ: يا رسول الله! عَوْرَاتُنا ما نأتي منها وما نَذَر؟ قال: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، قال: قلت: يا رسول الله! إذا كان القوم بعضهم في بعض، قال: «إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ فَلَا يَرَيَنَّهَا»، قال: قلت: يا رسول الله! إذا كان أحدنا خاليًا، قال: «الله أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ»(٢).

وعن سعيد بن يَزِيد الأَزْدي ﷺ، أنه قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ الله ﷻ، كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ»(٣).

وعن ابن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ»، قال: قلنا: يا رسول الله! إنا نستحيي والحمد لله، قال: «لَيْسَ

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص٣٩٢ ـ ٣٩٦).

(٢) ذكره البخاري معلقًا مختصرًا (١/٦٤)، ووصله أبو داود (٤٠١٧)، وحسنه ابن حجر في «مقدمة فتح الباري» (١/١٠٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير» (٥٥٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٤١).

ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[١].

النوع الثاني: الحياء من الخَلْق:

ويكون بِكَفِّ الأذى عنهم بجميع أنواعه، سواء كان بالقول أو الفِعْل، وتَرْك سوء الظَنِّ بهم، وتَرْك المُجَاهَرَة بِكُلِّ قَبِيح.

وبين الحياء من الله تعالى والحياء من المخلوقين مُلَازَمَة أكيدة، يقول زيد بن ثابت ﷺ: «مَن لم يَسْتَحِ مَن الناس لم يَسْتَحِ من الله»[٢].

النوع الثالث: الحياء من النَّفْس:

ويكون بالعفاف، وصِيَانة الخَلَوات. وهو نَوع لَطِيف من الحياء، يَعْرِفه أصحاب النُّفُوس الكريمة، الشَّرِيفة، العزيزة، الرفيعة، الأبية، فتلك النُّفُوس تستحي من رضاها لِنَفْسها بالنَّقْص، ومن قناعتها بالدون، حتى كأنما صاحبها له نفسان، يَسْتَحي بإحداهما من الأخرى.

وهذا النوع أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحى من نَفْسه كان أولى وأجدر بأن يستحي من غيره كما لا يخفى.

❊ ❊ ❊

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٣٥٩).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الحَيَاءِ

إن الطريق إلى تَنْمِيَة الحياء وغرْسه في النفوس يَتَحَقَّق بأمور، منها:

أولًا: اسْتِحْضار مُرَاقبة الله تعالى ونَظَرِه إلى العبد، وهذا المَشْهَد أَصْل لجميع الأعمال القلبية.

فنتذكر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وكلما اشتدت هذه المُرَاقبة أوجبت للعبد من الحياء ما لا يَحْصل بدونها، والحياء يجمع بين مَقَام المعرفة ومَقَام المُراقبة.

ثانيًا: تَقْوية المَعْرِفة بالله ﷻ، وذلك من خلال التَّعَرُّف على صفات الكمال التي وصف الله تعالى بها نَفْسه؛ فإن العبد إذا عرف ربه بصفاته الكاملة مَعْرِفة صحيحة عَظُم في قلبه؛ فَهَابه، وخَافَه، واسْتَحيَا منه، وعَظَّمَه.

وجِمَاع ذلك: الفِقْه في مَعَاني الأسماء الحسنى وجَلَالها وكَمَالها، وتَفَرّده بذلك، وتَعَلّقها بالخَلْق والأَمْر، فيكون العبد فَقِيهًا في أوامر الله ونَوَاهيه، وفَقِيهًا في قضائه وقَدَره، وفَقِيهًا في أسمائه وصفاته، وفَقِيهًا في الحُكم الدِّيني الشَّرعِي، والحُكم الكوني القَدَرِي»[1]، وكلما ازدادت هذه المَعْرِفة وهذا الفقه ازداد الحياء في قلب العبد.

ثالثًا: تَنْمِيَة العِفَّة في النُّفوس، وإِشَاعة العَفَاف؛ فالعِفَّة هي أحد أركان حُسْن الخُلُق الأربعة. وهي خَصْلة شَرِيفة تَحْمِل صاحبها على «اجتناب

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص٢٤٩) باختصار وتصرف.

الرذائل والقبائح القولية والفعلية، وتَحْمِله على الحياء الذي هو رَأس كل خير»[(١)].

رابعًا: مَعْرِفة النَّفْس وضَبْطها، فلا تَتَعَالى وتَتَكَبَّر؛ فإن الإنسان إذا ضبط نَفْسه وعَرَفها، وكان فَقِيهًا بها؛ فإنه يستطيع بعد ذلك بِعَوْن الله تعالى أن يُسَيطِر عليها؛ فيَضْبِط سُلُوكه، فيُوجِب له ذلك: الحياء من الله، والحياء من الخلق.

خامسًا: مُجَالَسة من يُسْتَحيا منه؛ لأن الطَّبْع سَرَّاق، والناس كأسْرَاب القَطَا جُبِلُوا على تَشَبّه بعضهم ببعض، فإذا جالس الإنسان من يَسْتَحيي بمُجَالَسَتِهم كان ذلك سَبَبًا لنَمَاء الحياء في نَفْسه. ولهذا قال بعض السلف: «أَحْيُوا الحياء بِمُجَالَسَة من يُسْتَحْيَا منه»[(٢)].

سادسًا: تَدَبُّر كلام الله تعالى، فتبقى حَرَكَاته وأقواله ونَظَراته وخَوَاطِره مَوْزُونة بميزان الشّرع، غير مُرْسَلة تحت حُكْم الهوى.

سابعًا: التربية على الحياء: فَيُنَشَّأ الصغير على الحياء، ويُنَمَّى ذلك فيه؛ ويُعَوَّد على الحِشْمَة والسَّتْر، وتَرْك ما لا يَلِيق، فمن نَشَأ على ذلك في صِغَره لازمه في كبره، ومن شَبَّ على شيء شاب عليه.

ثامنًا: البُعْد عن كل ما يُنَافِي الحياء، مِن مَرئِي، أو مَقْرُوء، أو مَسْمُوع، ونحو ذلك.

وهكذا ما استجد للناس اليوم من وسائل التواصل التي صارت معها المرأة تُتابع الرجل، والرجل يُتَابع المرأة، فيعرف كل واحد عن الآخر كثيرًا من تفصيلات حياته، ثم ما قد يقع مع ذلك من التَّرَاسُل والتَّوَاصُل وإبداء

---

(١) الفوائد (٢/٩٠) باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٦٦٢).

المَشَاعِر، مما يُجَرِّئ كل طَرَف على الآخر، حتى يكون بينهما من المُقَارَبة ما لا يُوجَد بين الأخ وأخيه، بل لا يُوجَد بين بعض الأزواج.

تاسعًا: أن يَسْتَحْضِر العبد رؤية الملائكة له، وأنه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وفي الحديث «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ: مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ»[(١)]، فإذا استحضر العبد ذلك اسْتَحْيَا أن يفعل ما لا يليق.

عاشرًا: الإِمْساك عن الأقوال والأفعال المُنَافِية للحياء: وفي الحديث: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ»[(٢)]، فالحياء إنما يكون بِتَكَسُّبه وتَطَلُّبه، فإذا فَعَل الإنسان الأفعال اللائقة بأهل الحياء صار ذلك خُلُقًا راسخًا له، وإذا فَعَل ما يُضَادّ ذلك انْخَلَع من رِبْقَة الحياء.

حادي عشر: مُجَاهَدة النَّفْس، وتَرْوِيضها على الأخلاق الفاضلة؛ وذلك أن كل شَرَف وعُلُو ورِفْعَة يحتاج إلى مُجَاهَدة ومُكَابَدة وأَلْوَانٍ من الصبر؛ لأن أضداد ذلك تُزَيِّن خِلَافَه، والنَّفْس فيها نَوَازِع، فيبقى الصِّرَاع مُحْتَدِمًا بين الفَضِيْلة والرَّذِيلة، بين داعٍ يدعوه إلى الخير ومُلَازَمة الأخلاق الفاضلة، وداعٍ يدعوه إلى ضدِّ ذلك.

ثاني عشر: النَّظَر في سِيرَة أهل الفَضْل والشَّرَف، وفي مُقَدَّمِهم رسول الله ﷺ، فيُنْظَر في أخلاقه وصفاته وشمائله، وفي سِيَر الصحابة ﷺ، ومُطَالَعة أخلاقهم.

ثالث عشر: حياة القلب، فالحياء من الحَيَاة، وَعَلى حَسَب حَيَاة القلب

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢).

يكون الحياء؛ ولهذا قال عمر ﷺ: «من قَلَّ حياؤه قَلَّ ورَعه، ومن قَلَّ ورَعه مات قلبه»[١].

رابع عشر: تَذَكّر الآثار الطيبة للحياء، والآثار القبيحة المُتَرَتِّبة على تَرْكه.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢٦).

الأمور التي تنافي الحياء

للحياء أضداد، وموانع تُضْعِفه وتُحَطِّمه، فينبغي الحذر على هذه الخصلة الفَذَّة الشَّرِيفة من كل آسر وكاسر، ومن الخطأ أن تُجْعَل عُرْضَة للصوص الأخلاق، ودعاة الرذيلة، يَنْتَشِلُونها ويَقْتَلِعُونها من النُّفُوس.

ومن الأمور التي تُذْهب الحياء وتُضْعِفه:

أولًا: المعاصي بجميع أنواعها، فالذّنوب تُضْعِف الحياء في القلب، حتى إن القلب لَيَمُوت بسبب هذه الذنوب، وينْسَلِخ من الحياء بالكُلِّيَّة، فلا يَتَأَثَّر الإنسان بعد ذلك بفِعْل القَبِيْح، بل لربما تبجَّحَ به، وأخبر الناس عنه، وافْتَخَر بما لا يَلِيْق.

ثانيًا: التربية السيئة؛ فإن أثر التربية لا يُنْكَر، وقد مضى ما يكفي في هذا الجانب.

ثالثًا: مُخَالَطة النساء للرجال الأجانب، وقد نُقل أن امرأة من أشراف العرب، زَنَت بعبدها، فَسُئِلت عن سَبَب ذلك، فقالت: «طُول السُّهَاد، وقُرْب الوِسَاد»[1]، أي: كثرة المُخَالطة مع طُول المُحَادَثة.

رابعًا: مُخَالَطة من قَلَّ حياؤهم، أو إدْمَان النَّظَر إليهم عبر المسلسلات وما إلى ذلك.

خامسًا: كثرة خروج المرأة من بيتها، فإن ذلك لَوْن من أَلْوَان التَّبَرُّج،

---

(١) تقدم ذكرها.

قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والتَّبَرُّج من البُرُوج، وهو الظُّهُور والانْكِشَاف، ومنه قيل للبُرْج ذلك؛ لأنه مُنْكَشِف ظاهر(١).

وفي القراءة الأخرى المتواترة: «وَقِرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ»(٢)، فأمرها بالقَرَار وبالوَقَار، وهما مُتَلَازِمان، فوَقَار المرأة في قَرَارِها، وذَهَاب ماء الوجه إنما يكون بِكَثْرة خُرُوجِها.

وقال ﷺ: «المَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ»(٣)، أي: هَمَّ بها.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (١/٢٣٨)، مادة: (برج).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص٥٢١ ـ ٥٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي (١١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وصححه.

ثَمَرَاتُ الحَيَاءِ(١)

أولًا: أنه يَزْجر صاحبه عن المعصية، ومُقَارَفة ما لا يَلِيق:

وبِغِيَاب الحياء تُدَمَّر الأخلاق، وتُرْتَكَب الفواحش والمُوبِقَات، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ»(٢).

فَلَا وَاللهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ ... وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ
يَعِيْشُ المرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ ... وَيَبْقَى العودُ مَا بَقِيَ اللحاءُ
إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي ... وَلَمْ تَسْتَحْيِي(٣) فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ(٤)

ثانيًا: ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»(٥)، وقوله ﷺ: «مَا كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ»(٦).

(١) انظر: «موسوعة الأخلاق الإسلامية» (١/٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٦١٢٠) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

(٣) أثبِتَت الياء لأجل الوزن.

(٤) «شرح ديوان أبي تمام» للخطيب التبريزي (٢/٣١١)، البيت الأخير ليس موجودًا في شرح الخطيب التبريزي، وهي موجودة في ديوانه بشرح محيي الدين الخياط (ص٤٨٥).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

ثالثًا: أنه يُورِث دوام المراقبة لله تعالى، ويُورِث العبد رِفْعَة:

قال الحسن: «الحياء والتَّكَرُّم خَصْلَتان من خِصَال الخير، لم يكونا في عبد إلّا رَفَعَه الله ﷻ بهما»(١).

رابعًا: تَحْصِيل محبة الله تعالى:

فالله حَيِي سِتِّير، يُحِبّ أهل الحياء، كما أن الحياء يُورِث حياة القلب، ويُؤَثِّر في حَجْم المُخَالَفَة والمعصية، فَشَتَّان بين من يَفْعَل المعصية وهو مُتَبَجِّح من غير حياء ومن يَفْعَلها وهو مُسْتَحٍ من الله تعالى.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٠٩).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الحَيَاءِ

١ ـ أكثر الناس حياء، وأعظمهم قَدْرًا فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد جاء في وصف النبي ﷺ أنه كان أشد حَيَاءً من العَذْرَاء في خِدْرِها[(١)].

٢ ـ وقال ﷺ في وَصْف موسى عليه السلام: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لاَ يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ»[(٢)].

وهكذا كان من بعدهم، فإنهم سَلَكُوا سبيلهم، وانْتَهَجُوا نَهْجَهم:

٣ ـ فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: «يا معشر المسلمين استحيوا من الله، فوالذي نفسي بيده إني لأَظَلّ حين أذهب الغائط في الفضاء مُتَقَنِّعًا بثوبي استحياءً من ربي عز وجل»[(٣)].

٤ ـ وخرج زيد بن ثابت رضي الله عنه يريد الجمعة، فاستقبله الناس راجعين، فَدَخَل دارًا، فقيل له، فقال: «إنه من لا يَسْتَحي من الناس لا يَسْتَحِي من الله»[(٤)].

٥ ـ وهذا الأسود بن يزيد كان مُجْتَهِدًا في العبادة، يصوم حتى يَخْضَرّ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠)..

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه..

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٦)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا (٩٢) واللفظ له،.

(٤) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٦١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٣٢/١٩) واللفظ له.

جَسَدُه ويَصْفَرّ... فلما احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجَزَع؟ قال: «ما لي لا أَجْزَع؟! ومن أحق بذلك مني؟! والله لو أُتِيتُ بالمغفرة من الله ﷻ لهَمَّنِي الحياء منه، مما قد صَنَعْتُه، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يَزَال مُسْتَحِيِيًا منه»(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/١٠٣).

التَّوبَة

تَوطِئَة

«إن مَنْزِل التوبة أوّل المَنَازِل وأوسطها وآخرها، فلا يُفارقه العبد السَّالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارْتَحَل إلى مَنزِل آخر ارتحل به، واسْتَصْحَبه معه. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١]، وهذه الآية خَاطَب الله بها أهلَ الإيمان وخِيارَ خَلْقِهِ؛ أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصَبرهم وهِجْرتهم وجِهادهم، ثم علَّق الفَلاَحَ بالتوبة تَعليقَ المُسَبَّب بسببه، وأتى بأداة (لعل) المُشْعِرة بالتَّرَجِّي، إيذانًا بأنكم إذا تُبتم كنتم على رَجَاء الفلاح، فلا يرجو الفلاحَ إلّا التائبون.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجرَات: ١١]، فقَسَّمَ العبادَ إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسمٌ ثالثٌ البتةَ. وأوقع اسم الظالم على من لم يَتُب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقِّه، وبعيب نَفْسه، وآفات عمله»[1].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/١٩٩) باختصار وتصرف يسير.

مَعْنَى التَّوْبَةِ وَحَقِيقَتِهَا

التوبة في اللغة:

التوبة في اللغة تدور على معنى الرجوع والعَودة، والإنابة والنَّدَم.[١].

التوبة في الشرع:

وأما معنى التوبة في الشرع: فقد كثرت عبارات العلماء في بيان حقيقتها[٢]، ويجمع تلك التعاريف القولُ بأنها: تَرْك الذنب عِلْمًا بقُبْحه، ونَدَمًا على فِعْله، وعَزْمًا على ألَّا يعود إليه إذا قَدِر، وتَدَارُكًا لما يمكن تَدَارُكه من الأعمال، وأداءً لما ضيِّع من الفرائض؛ إخلاصًا لله، ورجاء لثوابه، وخوفًا من عقابه، وأن يكون ذلك قبل الغَرْغَرَة، وقبل طلوع الشمس من مَغْربها.

وقد ذكر الإمام ابن القيم أن حقيقة التوبة في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، تتضمن الرجوع إلى الله بالتزام فِعْلِ ما يُحِبّ، وتَرْك ما يكره[٣].

فهو يرى أن التوبة لا يَكفي فيها الندم، والعزم على عدم العَودة إلى الذنب، والإقلاع عنه، وَردّ المَظَالِم إلى أصحابها، كما هي الشروطُ الأربعةُ

(١) ينظر: «مقاييس اللغة» (١/٣٥٧)، مادة: (توب)، وانظر: «تهذيب اللغة» (٤/٣ ـ ٤)، مادة: (توب).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» (٨/٥٠٠ ـ ٥٠١ بشرح الزبيدي)، و«مدارج السالكين» (١/٣٠٥).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/٣٠٥).

المعروفةُ؛ بل لا بد معها من صَلَاح الحال؛ بالتزام أمر الله ﷻ، واجتناب نهيه. وما ذكروه من هذه الأربع إنما هو بعض مُسَمَّاها، بل شروطها[١].

«فالرجوع إلى المَحبوب جُزْء مُسَمَّاها، والرجوع عن المَكْروه الجزء الآخر؛ ولهذا عَلَّق سبحانه الفلاحَ المُطلقَ على فِعْل المَأمور وتَرْك المَحظور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فكل تائب مُفْلح، ولا يكون مُفْلحًا إلّا مَنْ فَعَل ما أُمِر به، وتَرَك ما نُهِيَ عنه...فالتوبة هي الرجوع عما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يُحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مُسماها الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ،... ولولا أن التوبةَ اسمٌ جَامِعٌ لشرائعِ الإسلامِ وحقائقِ الإيمان لم يكن الربُّ تبارك وتعالى يَفرح بتوبة عبده ذلك الفرحَ العظيمَ، فجميعُ ما يتكلم فيه الناسُ من المقامات والأحوال هو تفصيل التوبة وآثارها»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: المصدر السابق (١/٣٠٥).

(٢) المصدر السابق (١/٣٠٦ ـ ٣٠٧) بتصرف.

إِطْلَاقَاتٌ أُخْرَىٰ لِلتَّوْبَةِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

أولًا: الإنابة:

وهي في اللغة: الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة، وكثيرًا ما يَتَكَرَّر في القرآن ذِكْرُ الإنابة والأمر بها[1].

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٥٤]، وقال شُعيب ﷺ لقومه: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: ٨٨].

والإنابة لها معنيان:

الأول: التوبة.

والثاني: ما بعد التوبة؛ مِنَ الصِّلة الدائمة بالله، ولجوء التائب إلى رَبِّهِ تعالى في كل شؤون حياته، واعتصامه به. وتحديد أحد هذين المعنيين يرجع إلى السياق.

أما الإنابة في الشرع:

فقد ذكر الحافظ ابن القيم أن «الإنابة هي الرجوع إلى الله، وانصراف دَوَاعي القلب وجَوَاذبه إليه، فهي إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عَمَّا سِوَاهُ»[2].

فالإنابةَ أوسعُ من التوبة، فإنها تكون بالرجوع عن الذنب، وبالإقبال

---

(١) انظر: «لسان العرب» (٢٢٦/١)، مادة: (نوب).

(٢) «طريق الهجرتين» (٣٧٣/١ ـ ٣٧٤)، و«مدارج السالكين» (٤٣٤/١) بتصرف.

على الله ﷻ بفِعْل الطاعات بالقلب، واللسان، والجوارح، وبالإقبال عليه سبحانه وتعالى بإنزال الحاجات، والضَّرَاعة إليه، والدُّعاء...

مع مُلاحَظة أن معاني ذلك جميعًا ترجع إلى أصل واحد، وهو: الرجوع، إلّا أن الرجوع في الإنابة أوسع؛ ذلك أنه يكون من التقصير والإساءة، كما يكون بالطاعة. والله أعلم.

ثانيًا: الأَوْبَة:

فالأَوْب هو الرجوع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغَاشِيَة: ٢٥] أي: رجوعهم. والأَوَّاب هو كثير الرجوعِ إلى الله ﷻ من ذنبه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإِسْرَاء: ٢٥][(١)].

ثالثًا: التوبة النَّصُوح:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التَّحْرِيم: ٨]، فأصلُ هذه المادة (نصح) لخَلَاص الشيء من الغِشّ والشَّوائب الغَريبة، فالنُّصْح في التوبة هو تخليصها من كل غِش ونَقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه.

«فَنُصْحُ التوبةِ: الصِّدقُ فيها، والإخلاصُ، وتَعميم الذُّنوب بها، ولا رَيْب أنَّ هذه التوبة تَسْتَلْزم الاستغفار، وتَتضمّنه، وتَمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة»[(٢)].

❊ ❊ ❊

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (١/١١٦): مادة (أوب).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٣١٠).

الفُرُوقَاتُ فِي بَابِ التَّوْبَةِ

أولًا: الفرق بين التوبة العامة والتوبة المُطْلَقَةِ:

التوبة العامة: هي المُقْتَضِية لغُفرانِ الذنوبِ، وإن لم يَستحضر صاحبها أعيانَ الذنوب، فهو يتوب إلى الله ﷻ من كل ذنب، وإن لم يتذكر عند توبتِه كلَّ ذنبٍ بعينِه، لكن بشرط أنه لو استحضر شيئًا منها، فإنه لا يَسْتَثْنِيه.

وأما التوبة المُطْلَقَة: فهي أن يتوبَ توبةً مُجملةً، لكنها لا تَستلزمُ التوبة من كل ذنب؛ فهذه لا تُوجِب دخولَ كلِّ فردٍ من أفراد الذنوب فيها، ولا تمنع دخولَه كاللفظ المُطْلَق، لكن هذه تَصلح أن تكون سببًا لغفران الذنب المُعَيَّنِ، كما تصلح سببًا لغفران الجميع، بخلاف التوبة العامة، فإنها مُقتضيةٌ للغفران العامِّ[1].

ثانيًا: الفرقُ بينَ تكفيرِ السيئاتِ ومغفرةِ الذنوبِ:

قال ابن القيِّم: «وقد جاء في كتاب الله تعالى ذكرُهما مُقْتَرِنين، وذِكْر كلٍّ منهما مُنْفَرِدًا عن الآخر. فالمُقْتَرِنان كقوله حاكيًا عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آلِ عِمرَانَ: ١٩٣]، والمُنفَرد كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ [مُحَمَّد: ٢]، وقوله في المغفرة: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [مُحَمَّد: ١٥]...

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٢٨ - ٣٢٩).

فها هنا أربعة أمور: ذنوب وسيئات، ومغفرة وتكفير، فالذنوب المُراد بها الكبائر، والمُراد بالسيئات الصغائر...

والدليل على أن السيئات هي الصغائر، والتكفير لها؛ قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٣١].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ كان يقول: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»[(١)]، ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير؛ ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر؛ فإن لفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحِفْظ، ولفظ التكفير يتضمن السَّتْر والإزالة. وعند الإفراد يدخل كل منهما في الآخَر...

وإذا فُهِمَ هذا فُهِمَ السِّرُّ في الوعد على المَصَائب، والهُموم والغُموم، والنَّصَب والوَصَب بالتكفير دون المغْفِرَة؛ كقوله في الحديث الصحيح: «مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ، وَلَا غَمٍّ، وَلَا أَذًى ـ حَتَّى الشَّوْكَةُ يَشَاكُهَا ـ إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[(٢)]، فإن المصائب لا تَسْتَقِل بمغفرة الذنوب، ولا تُغْفَر الذنوب جميعها إلّا بالتوبة، أو بحسنات تَتَضَاءل وتَتَلاشى فيها الذنوب، فلِأهل الذنوب ثلاثة أنهار عِظَام يتطهّرون بها في الدنيا، فإن لم تَفِ بِطُهْرهم طُهِّروا في نَهْر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النَّصُوح، ونهر الحسنات المُسْتَغْرِقة للأوزار المُحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المُكفِّرة. فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فَوَرَد القيامة طَيِّبًا طاهرًا، فلم يحتج إلى التطهير الرابع»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) «مدارج السالكين» (١/٣١٠ ـ ٣١٢).

ثالثًا: الفرق بين الصغائر والكبائر:

الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر بنصِّ القرآن والسنة والإجماع، وهذا ثابت أيضًا من جهة النَّظَر والاعتبار:

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النِّساء: ٣١]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النَّجم: ٣٢].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ؛ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»(١).

والصحيح في تفسير اللمم ـ وهو قول الجمهور ـ: أنه ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس ﷺ، وقد جاء ذلك في الصحيحين؛ فعند البخاري عن ابن عباس ﷺ، أنه قال: ما رأيتُ شيئًا أشبه باللَّمَم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إِنَّ الله كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ»(٢).

وهو قول أبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومسروق، والشعبي(٣).

وأما الكبائر فقد اختلف السلف ﷺ في معناها، وعباراتهم فيها مُتَقارِبة، فعن ابن عباس ﷺ قال: «الكبائر: كل ذنب خَتَمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب»(٤)، وهذا هو المشهور.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٧).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٦٢/٢٢ ـ ٦٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤٦/٨).

وقال الضحاك: «هي ما أَوْعَد الله عليه حدًّا في الدنيا، أو عذابًا في الآخرة»[١].

وقد سأل رجلٌ ابنَ عباس رضي الله عنهما عن الكبائر: أسبع هي؟ قال: إلى سبعمائةٍ أقربُ منها إلى سبع، إلّا أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار[٢].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»[٣]. وحديث عبد الرحمن بن أبي بَكْرة عن أبيه عن النبي ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» ثلاثًا. قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وجلس وكان مُتَّكِئًا، فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ». فما زال يُكَرِّرها حتى قُلنا: لَيْتَه سَكَت[٤].

وهاهنا أمر ينبغي التَّفَطُّن له، وهو أن الكبيرة قد يَقترن بها ـ من الحياء، والخوف، والاستِعْظَام لها ـ ما يُلحقها بالصغائر، وقد يَقْتَرِن بالصغيرة ـ من قِلَّة الحياء، وعدم المُبَالَاة، وتَرْك الخوف، والاستهانة بها ـ ما يُلْحِقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رُتَبِها. وهذا أمر مَرْجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قَدْرٌ زائدٌ على مُجَرَّد الفِعْل»[٥].

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٢١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/٢٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) واللفظ له، ومسلم (٨٧).

(٥) «مدارج السالكين» (١/٣٢٨).

التَّوبَةُ لَا تَكُونُ إلَّا لِلّهِ وَحدَهُ

فالتوبة لا ينبغي أن تكون لأحد إلّا لله وحده.

وحينما نُورِد هذه القضية نُورِدها من أَجْل أن يتبيَّن أمران:

الأمر الأول: وهو ما يقع من بعض الصوفية، حيث يتوبون إلى شيوخهم التوبةَ التي يتعبدون بها، فمنهم مَنْ يَحْلق رأسه للشيخ تَقَرُّبًا وتَعَبُّدًا، ومنهم مَن يتوب إلى شيخه كما يتوب إلى الله، فهذا وأمثاله من العظائم والجرائم الكبار، وهو نوعُ إشراكٍ بالله تبارك وتعالى.

والأمر الثاني: أن من الناس مَنْ قد يتوبُ إلى إنسانٍ مثله، أو كالولد يتوب إلى أبيه حينما يَطَّلِع على بعض تقصيرِه في دراسته أو غير ذلك، فيقول: أنا أتوبُ من هذا ونحو ذلك، فهذه ليست التوبةَ التي يُقصد بها التَقَرّبُ، والتَّعَبُّد، وتكفيرُ الذنوبِ والسيئاتِ، وليست مَحلَّ حديثِنا، وإنما حديثُنا عن التوبة التي يُتَعَبَّد لله تبارك وتعالى بها، فهذه لا يجوز أن تُصرف لغير الله؛ ولذلك تجد النصارى يذهبون إلى القسيس مثلًا، ويعترفون بجميع الذنوب، ويرون أن ذلك من لوازم التوبة، بل هو شرطٌ لها، فلا تصح توبةُ أحدهم حتى يذهبَ إلى القسيسِ، فيتوب إليه، فهذا لا يجوز، والله ﷻ لم يجعل بينَه وبينَ خلقِهِ في ذلك واسطةً، فعلى العبد أن يتوب إلى ربه مُباشرة.

❊ ❊ ❊

حُكمُ التَّوبَة

التوبة تارة تكون واجبة، وتارة تكون مُستحبة؛ فالتوبة من المعاصي، أو من تَرْك الواجبات فَرْضٌ واجبٌ لازمٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التَّحْرِيم: ٨].

فالإصرار على الذنب حرامٌ بالإجماع، والتوبة منه فَرضٌ بالإجماع، وقد نَقَلَ هذا الإجماعَ جماعةٌ من أهل العلم[١].

«فالتوبة واجبة على كل عبد في كل حال؛ لأنه دائمًا يظهر له ما فَرَّط فيه من تَرْك مأمور، أو ما اعتدى فيه من فِعْل مَحْظور، فعليه أن يتوب دائمًا»[٢].

«والتوبة واجبة على الفَور، فَمَنْ أَخَّرَهَا زمانًا صار عاصيًا بتأخيرها، وكذلك يتكرّر عصيانُه بتكرر الأزمنة المُتَّسِعة لها، فيحتاج إلى توبةٍ من تأخيرها، وهذا جارٍ في تأخير كلِّ ما يجب تَقْدِيمه من الطاعات»[٣].

قال ابن رجب تعليقا على قول بعض السلف: «أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين»؛ يشير إلى أن المؤمن لا ينبغي أن يصبح ويمسي إلا على توبة فإنه لا يدري متى يفاجئه الموت صباحا أو مساء فمن أصبح أو أمسى على غير توبة

---

(١) «المحلى» (٤٨/١)، و«إحياء علوم الدين» (٥/٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٤٩/٦)، (١٥/ ٢٢٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٣٠/١٠).

(٣) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» للعز بن عبد السلام (٢٢١/١).

فهو على خطر لأنه يخشى أن يلقى الله غير تائب فيحشر في زمرة الظالمين قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]»[١].

حكم الاستغفار:

«الأصل في الاستغفار أنه مندوب إليه؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]، فالأمر في الآية يُحْمَلُ على الندب؛ لأنه قد يكون من غير معصية، لكنه قد يُحْمَل على الوجوب؛ كالاستغفار من المعصية، وقد يخرج إلى الكراهية ـ عند البعض ـ كالاستغفار للميت خَلْف الجنازة، صرَّح بذلك المالكية، وقد يخرج إلى الحُرمة؛ كالاستغفار للكفار»[٢].

* * *

---

(١) «لطائف المعارف» (ص ٣٤٤).

(٢) «الموسوعة الفقهية الكويتية» (٣٥/٤) بتصرف.

مَنزِلةُ التَّوبَة(١)

التوبة كما أنها من أوّل المَقامات، فهي آخرها أيضًا، بل هي في كل مَقام مُسْتَصْحَبَة؛ ولهذا جعلها الله تعالى آخرَ مَقامات خاصّته، فقال في غزوة تبوك، وهي آخِر الغزوات: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبَة: ١١٧]، فجعل التوبةَ أولَ أمرهم وآخرَه.

وقال في سورة النصر التي يذكر فيها أَجَل رسول الله ﷺ، وهي آخر سورة كاملة نزلت على الأرجح: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر].

وفي الآية الأخرى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١]، فهذه آية مدنية، خاطب الله بها أهلَ الإيمانِ، وخيارَ خَلْقِه، وَأَمَرَهُمْ أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم، وصَبْرِهم، وهِجْرَتهم، وجِهادهم، ثم عَلَّقَ الفلاحَ بالتوبة تعليقَ المُسَبَّبِ بسببِه، وأتى بأداة (لعل) المُشْعِرة بالترجّي، إيذانًا بأنكم إذا تُبْتم كنتُم على رجاءِ الفلاحِ، فلا يرجو الفلاحَ إلّا التائبونَ.

«ولم يجعل الله ﷻ محبته للتائبين إلّا وَهُمْ خواصُّ الخَلْقِ لديه»(٢)، وهي

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٩٣/١ ـ ٢٩٤)، و«مدارج السالكين» (٤٣٤/٣ ـ ٤٤١).
(٢) «مدارج السالكين» (٣٠٦/١).

من أفضلِ الكمالاتِ، والله ﷻ قد أَخْبَرَ عن عامةِ الأنبياءِ بالتوبة والاستغفار، وهم أكملُ الخلقِ.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِيَ كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»(١)، وهو أكملُ الخلقِ عليه الصلاة والسلام.

وهو ﷺ نبي التوبة، وقد «فَتَح الله به باب التوبة على أهل الأرض، فتاب الله عليهم توبةً لم يحصل مثلُها لأهل الأرض قَبْلَهُ، وكان ﷺ أكثرَ الناسِ استغفارًا وتوبةً... وكان يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى الله؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(٢).

قال ابن القيم: «عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه، فإنه سبحانه يحب التوابين، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه»(٣).

ومما يدل على فضل التوبة أيضًا: قوله ﷺ لكعب بن مالك: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»(٤).

«فهذا دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يومُ توبتِه إلى الله وقبولِ الله توبتَه.

فإن قيل: كيف يكون هذا اليومُ خيرًا من يومِ إسلامه؟

قيل: هو مُكَمِّلٌ ليوم إسلامِه، ومن تَمامه، فيومُ إسلامِه بدايةُ سعادتِه، ويومُ توبتِه كمالُها وتَمامُها»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المُزني ﷺ.

(٣) «مدارج السالكين» (١/٣٠٦).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٥) «زاد المعاد» (٣/٥١٢) بتصرف.

وهكذا الفَرَح من الله بتوبة عبده ـ مع أنه لم يأتِ نَظِيره في غيرها من الطاعات ـ دليلٌ على عِظَم التوبة وفضلها ومنزلتها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»(١).

وقال يحيى بن مُعاذ: «لِلتائب فخرٌ لا يُعادله فخرٌ في جميع أفْخَارِه: فَرَح الله بتوبته»(٢).

قال ابن تيمية: «ومن تدبر أصول الشرع علم أنه يتلطف بالناس في التوبة بكل طريق»(٣).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٥٩).

(٣) «تفسير آيات أشكلت» (٢/٥٩٥).

تَوْبَةُ العَبْدِ وَاقِعَةٌ بَيْنَ تَوْبَتَيْنِ

قال ابن القيم: «كلُّ توبةٍ تقعُ من العبد فإنها مَحْفُوفةٌ بتوبة من الله عليه قبلَها، وتوبة منه بعدَها، فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحِقة؛ فإنه تاب عليه أولًا: إذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا: قَبُولًا وإثَابة.

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ١١٧، ١١٨]؛ فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سَبَقَت توبتَهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مُقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم...

ونظير هذا هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتُوجِب له تلك الهداية هداية أخرى يُثيبه الله بها هداية على هدايته؛ فإن من ثواب الهُدى الهُدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [مُحَمَّد: ١٧]، فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هُدًى ثانيًا، وعكسُه في أهل الزَّيْغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، فهذه الإزاغة الثانية عقوبةٌ لهم على زيغِهم.

وهذا القَدْر من سِرِّ اسْمَيْهِ: (الأولِ والآخِر)، فهو المُعِدُّ، وهو المُمِدّ،

ومنه السبب والـمُسَبَّب، وهو الذي يُعيذُ من نفْسه بنفْسه... والعبدُ توابٌ، والله توابٌ، فتوبةُ العبدِ رجوعُه إلى سيدِه بعد الإِبَاق، وتوبةُ الله نوعانِ: إِذْنٌ وتوفيقٌ، وقبولٌ وإمدادٌ»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (٣١٣/١) بتصرف، وراجع أيضًا: «مفتاح دار السعادة» (٢٧٣/٢).

وَقْتُ التَّوْبَة

لقد فتح الله باب التوبة بجوده وكرمه، وقد تَوَارَدت دلائل الكتاب والسنة على تقرير هذا المعنى، فمن ذلك:

١ ـ أنه سبحانه أمرنا بها، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٥٤]، أي: بَادِرُوا بالتوبة والعمل الصالح قبلَ حلولِ النِّقْمةِ.

٢ ـ أنه وَعَدَ بقبولِها مهما عَظُمَتْ الذنوبُ، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشُّورَى: ٢٥]، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: ١١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ الله عَلَيْكُمْ»[1].

٣ ـ أن الله حَذَّر من القُنوط من رحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

٤ ـ «أَنَّ الله عز وجل يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» كما أخبر النبيُّ ﷺ[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٩٠٣، ١٩٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه..

٥ ـ وعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ الله عَلَيْهِ»(١).

٦ ـ وعن ابن عمر ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(٢).

قال شيخ الإسلام: «التوبةُ لا تمنعُ إلّا إذا عَايَنَ أمرَ الآخرةِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ﴾ [النِّسَاء: ١٧، ١٨].

قال أبو العالية: «سألتُ أصحابَ محمدٍ ﷺ عن ذلك فقالوا لي: كلُّ مَنْ عصى الله فهو جاهلٌ، وكلُّ مَنْ تَابَ قبلَ الموتِ فقد تاب من قريب»(٣).

وأما من تاب عندَ مُعاينةِ الموتِ فهذا كفرعونَ الذي قال: أنا الله، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، قال الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونُس: ٩٠، ٩١]، وهذا استفهامُ إنكارٍ، بيَّنَ به أن هذه التوبةَ ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ﴾ الآية [غافر: ٨٣ ـ ٨٥]؛ بَيَّنَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وصححه ابن حبان (٦٢٨)، والحاكم (٤/٢٥٧)، والذهبي، وحسنه الترمذي، والألباني في «صحيح الجامع» (١٩٠٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/٨٩).

أن التوبة بعدَ رؤيةِ البأسِ لا تنفعُ، وأن هذه سنةُ الله التي قد خَلَتْ في عبادِه كفرعونَ وغيرِه.

وقد ثبت في الصحيحين أنه ﷺ عَرَضَ على عمِّه التوحيدَ في مرضه الذي مات فيه[١].

وقد عاد يهوديًا كان يخدمُه، فعرض عليه الإسلامَ فَأَسْلَمَ، فقال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِيْ مِنَ النَّارِ»[٢][٣]، وهذا محمول على أنه قبل الغرغرة.

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤)، عن المُسَيِّب بن حَزْن رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٨/١٩٠ ـ ١٩١).

التَّوبَة فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

أولًا: التوبة في القرآن:

وردت كلمة التوبة في القرآن على وجهين:

الأول: توبة الرب على عبده، وهي على نوعين:

١ ـ إذنه بالتوبة وتوفيقه لها، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

٢ ـ قبول التوبة، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠][(١)].

قال ابن القيم في النونية[(٢)]:

وكذلك التواب من أوصافه ... والتَّوب في أوصافه نوعان
إذنٌ بتوبة عبده وقبولها ... بعد المَتاب بمنة المنان

وذكر بعضهم[(٣)] أنها قد تأتي بمعنى:

أ ـ الرجوع بهم من المعصية إلى الطاعة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/٥٤٧ ـ ٥٤٨)، و«مدارج السالكين» (١/٣٢٠)، ط: دار الكتاب العربي.

(٢) ينظر: «نونية ابن القيم» (ص ٢٠٩) ط: مكتبة ابن تيمية.

(٣) ينظر: «مجمع بحار الأنوار» (١/٢٧٥) ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية.

ب ـ الرجوع بهم من التشديد إلى التخفيف، وهذا كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠][(١)].

ج ـ الرجوع بهم من الحظر إلى الإباحة. (وهو فرع عن الذي قبله)، وذلك على أحد القولين في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧][(٢)].

الثاني: توبة العبد إلى ربه، بمعنى الرجوع والإنابة؛ كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النُّور: ٣١].

فيُلَاحَظ أنها إذا عُدِّيَتْ بحرفِ الجرِّ (على) كانت من توبةِ الله على عبده؛ إما بتوفيقه إليها، أو بقبولها منه. وإذا عُديت بحرف الجر (إلى) فهي توبةُ العبد إلى ربه، وهي الرجوع إليه من التقصير والإساءة.

وقد جاء ذِكْرُ التوبةِ في القرآنِ كثيرًا ـ كما سبق في المباحث السابقة ـ:

ومن ذلك: أن الله ـ جل ذكره ـ يذكر عن أنبيائه تَوبَتَهم أو سؤالَهم التوبةَ عليهم، كقول إبراهيم ﷺ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٢٨]، وقول موسى ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعْرَاف: ١٤٣].

ويُخبر عن قبوله لتوبة عباده؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]، فهو يُحِبُّها ويقْبَلها، وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غَافِر: ٣]، وقال جَلَّ في عُلاه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير ابن جرير» (٢٣/٣٩٤)، وتفسير القرطبي (٢/٣١٧)، (٥/٣٢٨)، ط: دار الكتب المصرية.

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (١/٢٤٥)، و«النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب» (٢/٣٠)، ط: المكتبة التجارية، «تفسير القرطبي» (٢/٢١٧).

[الشورى: ٢٥]، وقال ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبَة: ١٠٢]، وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التَّوبَة: ١٠٦] إلى غير ذلك من الآيات.

ثانيًا: التوبة في السنة:

وقد سبق كثير من الأحاديث في المباحث السابقة، ومن ذلك:

١ ـ حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ الله فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المُطفِّفِين: ١٤]»(١).

٢ ـ وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ الله إِلَّا غَفَرَ الله لَهُ»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٣٥](٢).

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وصححه

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٣٨) وغيره.

عَلامَاتُ صِدْقِ التَّوْبَة

التوبة الصَّادِقة الصحيحة لا بُدَّ لها من علامات يَعرف صاحبُها أنَّ تَوْبَتَه صحيحةٌ صَادِقةٌ، فمن ذلك:

١ ـ محبةُ الله ورسولِه ﷺ، ومحبةُ أهلِ الإيمانِ، فيقوى ذلك في قلب التائب، وتَنبعث فيه دَواعي هذه المحبة، حتى يصيرَ الله ورسولُه أحبَّ إليه من نَفْسِه وأهلِه ومالِه، ثم بعدَ ذلك يكون مُرِيدًا لما تقتضيه هذه المحبةُ، فيكون مُحِبًّا لانتصارِ الإسلامِ وأهلِه، وظُهورِه بينَ الأنامِ، وَمُحِبًّا لأهلِ الطاعة، كما أنه يُبغِضُ الكفرَ ومن يُعادي الله ورسولَه وعبادَه المؤمنين[1].

٢ ـ أن يكون حال التائبِ بعدَ التوبةِ خيرًا مما كان قبلها.

٣ ـ ألَّا يزال الخوف مُصَاحِبًا له؛ لأنه لا يَأْمَنُ مكرَ الله طَرْفَةَ عَيْنٍ.

٤ ـ انخلاعُ قلبِه وتَقَطُّعُه نَدَمًا وخوفًا، وهذا على قَدْرِ عِظَمِ الجِنايةِ وَصِغَرِهَا.

وهذه هي حقيقةُ التوبةِ، فهو يَتَحَسَّرُ على ذنبِه، وكلما ذَكَرَه انعصر قلبُه، وَحَزِنَ على ما قَارَفَهُ من معصيةِ الله ﷻ.

٥ ـ «ومن مُوجَبَات التوبة الصحيحة أيضا: كَسْرَةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلبِ، لا يُشبهها شيء، ولا تكونُ لغيرِ المُذْنِبِ... تَكْسِر القلب بين يدي الرب كَسْرَةً تامةً، قد أحاطت به من جميع جهاته، وأَلْقَتْه بين يدي رَبِّهِ طريحًا

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٧٥١ ـ ٧٥٢).

ذليلًا خاشعًا؛ كحال عَبْدٍ جانٍ آبِقٍ من سيدِّه، فَأُخِذَ، فَأُحْضِرَ بينَ يَدَيْهِ، ولم يجد مَنْ يُنْجِيهِ من سَطْوته، ولم يَجِد منه بُدًّا، ولا عنه غَنَاءً، ولا منه مَهْرَبًا. فمن لم يجد ذلك في قلبِه فليتَّهِم توبتَه، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبةَ الصحيحةَ بالحقيقةِ! وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادقُ بشيءٍ أشدَّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة»[1].

* * *

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٨٥ ـ ١٨٧).

شُرُوطُ التَّوبَة

أولًا: النَّدم:

وهو انفعالُ القلبِ بالأَسَى والحَسْرةِ والحزنِ بسبب ما وقع من الذنب، خوفًا من سوءِ عاقبتِه عندَ الله، وحياءً منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والندمُ يتضمنُ ثلاثةَ أشياءٍ: اعتقادُ قُبْحِ ما نَدِمَ عليه، وبُغضه وكراهته، وألَمٌ يَلْحَقه عليه»[(١)].

وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[(٢)].

ثانيًا: الإقلاع عن الذنب:

«والإقلاع عن الأمر: الكفُّ عنه، يقال: أقلع فلان عما كان عليه، أي: كف عنه»[(٣)].

ثالثًا: العَزْم على ألّا يعود للذنب مرة أخرى:

قال الليث: «العزمُ: ما عَقَد عليه قلبُك من أمرٍ أنك فاعِله»[(٤)]. فإذا استَحْكَم قَصْدُه صار عَزمًا جَازِمًا.

---

(١) «جامع الرسائل» (١/٢٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وحسنه الحافظ في «الفتح» (١٣/٤٧١).

(٣) «لسان العرب» (١٠/١٦٦)، مادة: (قلع).

(٤) «تهذيب اللغة» (٢/١٥٢)، مادة: (عزم).

فـ «العزمُ هو القصد الجَازِم المُتَّصل بالفِعْل»[١].

وهذا هو الذي يُسمونه بالعزم المُصَمِّم، وهو الذي يُؤاخَذ عليه الإنسانُ في المعصية، ويُؤْجَر عليه في الطاعة، وهو أحدُ أقسامِ الفعلِ الأربعةِ؛ لأن الفعل يكون باللسان، وبالقلب ـ ويدخل فيه العَزْم المُصَمِّم ـ وبالجوارح، وبالتّرك.

ويُقابِل العَزْم على التَرْكِ: التسويفُ في التوبة، وهو تأجيلها، وعدمُ المُبادَرةِ إليها فَوْرًا، وذلك بأن يُحَدِّثَ نفسَه بأن يتوبَ في المُستقبل، ومعنى ذلك أنه مُقيمٌ على الذنوب في الوقت الحاضر، مُصِرٌّ عليها.

قال ابنُ القيمِ: «الإصرارُ على المعصية معصيةٌ أخرى، والقُعودُ عن تَدارُكِ الفارطِ من المعصيةِ إصرارٌ ورضًا بها، وطُمأنينةٌ إليها، وذلك علامةُ الهَلَاكِ»[٢].

* هل يُشترط في صحة التوبة ألَّا يعودَ إلى الذنب أبدًا؟

«الأكثرونَ على أن ذلك ليس بشرط. فإذا عَاوَده مع عَزْمه حال التوبة على ألَّا يعاوده صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبتُه المُتَقَدِّمةُ.

وقد عَلَّق الله سبحانه قَبولَ التوبةِ بالاستغفار وعدم الإصرار دونَ المُعَاوَدَة، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٣٥].

قالوا: وأما استمرارُ التوبة فشرطٌ في صحةِ كمالِها ونَفْعِها، لا شرط في صحة ما مضى منها،.. ونُكْتة المسألة: أن التوبة المُتقدمة حَسنة، ومُعاوَدَة

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٣٣) باختصار.
(٢) المصدر السابق (١/١٨١).

الذنب سيئة، فلا تُبطِل مُعاوَدته هذه الحسنة، كما لا تُبطِل ما قَارَنها من الحسنات»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا تاب توبة صحيحة غُفرت ذنوبه، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضًا، وإذا تاب قَبِلَ الله توبتَه أيضًا»[٢].

* حكم توبة العاجز:

«إذا حِيلَ بينَ العاصي وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يتعَذَّر وقوعُها منه، هل تصحُّ توبتُه؟

وهذا كالكاذِب، والقاذِف، وشاهِد الزُّور، إذا قُطع لسانه، والزاني إذا جُبَّ، والسارِق إذا أُتِيَ على أطرافه الأربعة، والمُزوِّر إذا قُطِعَتْ يَدُهُ، ومَنْ وَصَل إلى حدٍّ بطلت معه دواعيه إلى معصيةٍ كان يرتكبُها، ففي هذا قولان:

والصواب: أن توبتَه صحيحةٌ مُمكنةٌ، بل واقعةٌ؛ فإن أركانَ التوبةِ مُجتمعةٌ فيه، والمَقدورُ له منها الندمُ... فإذا تحقّق ندمُه على الذَّنْب، ولَومُه نفْسَه عليه فهذه توبةٌ، وكيف يصحُّ أن تُسْلَب التوبةُ عنه مع شِدَّة ندمِه على الذنب، ولَوْمه نَفْسه عليه، ولا سيما ما يَتْبَع ذلك من بكائِه وحُزْنه، وخوفه وعَزْمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحًا والفِعل مَقدورًا له لما فَعَله. وإذا كان الشارع قد نَزَّل العاجزَ عن الطاعةِ مَنْزِلةَ الفاعلِ لها إذا صَحَّتْ نيتُه؛ كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»[٣]... فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قَهْرًا مع نيته تَرْكها اختيارًا لو أمكنه منزلةَ التاركِ المُختارِ أَوْلَى»[٤].

---

(١) المصدر السابق (١/٢٧٦ ـ ٢٧٧) باختصار وتصرف.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/٧٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٤) «مدارج السالكين» (١/٢٨٣ ـ ٢٨٦) بتصرف يسير.

قال ابن تيمية: «توبةُ العاجزِ عن الفِعْلِ كتوبةِ المَجْبُوبِ عن الزنا، وتوبة الأقطعِ العاجزِ عن السَّرِقة، ونحوه من العَجْز، فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القَدرية»[1].

قال النووي: «قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يُقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فِعْلها.

والثالث: أن يعزم ألَّا يعود إليها أبدًا.

فإن فُقِدَ أحد الثلاثة لم تصحّ توبته»[2].

رابعًا: التَّحَلُّل من حقوق الناس:

وهذا الشرط خاص بما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، «فإن كانت مالًا أو نحوه رَدَّهُ إليه، وإن كانت حَدّ قَذْفٍ ونحوه مَكَّنَهُ منه، أو طَلَب عَفْوَه، وإن كانت غيبةً اسْتَحَلَّه منها[3]. ويجبُ أن يتوبَ من جميعِ الذنوبِ، فإن تاب من بعضِها صَحَّتْ توبتُه عندَ أهلِ الحقِّ من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي»[4].

فحقوق العباد الأصلُ فيها المُشَاحَّة، كما أن حقوقَ الله تعالى الأصل فيها المُسَامَحةُ، فلا بد من إعادة حقوق الناس إليهم، وقد قال النبي ﷺ:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٧٤٦).
(٢) «رياض الصالحين» (ص٤٦ ـ ٤٧).
(٣) هذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم.
(٤) «رياض الصالحين» (ص٤٦ ـ ٤٧).

«لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ[(١)] مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»[(٢)].

وقال ﷺ: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنُ»[(٣)].

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[(٤)].

وحقوق العباد أنواع، منها:

١ ـ حقوق مالية: وهذه يجب رَدُّهَا ما أمكن، وإلا تحلَّله، فإن عجز عن تَحلُّله أو إرجاعه؛ تَصَدَّق عنه به.

٢ ـ العِرْض: فإن قَذَفَه، أو رَمَاهُ بِسُوءٍ، أو اغتابه، أو بَهتَه، فهل يكفي في التوبة من ذلك الاستغفار للمُغْتاب، أم لا بد من إعلامه وتَحلُّله؟

في المسألة قولان للعلماء؛ هما روايتان عن الإمام أحمد[(٥)].

القول الأول: اشتراط الإعلام والتَّحلُّل، واحتجُّوا بأن الذنب حق الآدمي، فلا يسقط إلّا بإحلاله منه وإبرائه.

القول الثاني: أنه لا يجب، بل يذكره بخير في مَوَاضع غِيْبته وقَذْفه، ويستغفر له، وبه قال ابن تيمية وابن القيم وأكثر العلماء؛ لأن إعلامه مَفْسَدة

---

(١) الشاة الجَلْحَاء: هي الجَمّاء التي لا قَرْن لها. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (١/٢٨٤)، مادة: (جلح).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٩).

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (١/٢٩٠). وينظر: «الفروع» (١٠/٩٣).

مَحْضة لا مصلحة فيها، وإنما تُؤذيه وتُسَبِّب العداوة، ورُبَّما وقع ما هو أعظم من مَفْسدة غَيْبته، فلا يُقاس ذلك على الحقوق المالية(١).

وقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المُفلِس فينا من لا درهم له ولا مَتاع، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(٢).

قال النووي: «حقيقة الُمفْلِس: هذا المذكور في الحديث، فهو الهالك الهلاكَ التامَّ، والمعدوم الإعدام الـمُقَطَّع؛ فتُؤخَذ حسناته لغُرمائه، فإذا فرغت حسناته أُخِذ من سيئاتهم، فوُضِع عليه، ثم أُلْقِيَ في النار، فتمَّت خسارته وهلاكه وإفلاسه»(٣).

فعلى العاقل أن يتَحَلَّلَ من مظالم الناس اليوم، ويتَّقِي الله فيهم فيما يستقبل من أيَّامه، وحَرِيٌّ بالمؤمن أن يتخذ من أخيه المؤمن صاحبًا ونصيرًا، فينْشُر خيره، ويَسْتر عيبه، بدلًا من ظُلْمه وغيبته والوقيعة في عِرْضه.

خامسًا: الإخلاص لله ﷻ فيها، واعتقاد أن فِعْلَهُ كان سيئة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد يظن الظَّانُّ أنه تائب، ولا يكون تائبًا، بل يكون تارِكًا، والتارِكُ غيرُ التائبِ،... بل لا بد أن يعتقد أنه سيئة، ويكره فِعْلَه؛ لنهي الله عنه، ويَدَعه لله تعالى، لا لرغبةِ مخلوقٍ، ولا لِرَهْبة

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/٢٩١)، «الوابل الصيب» (ص٣٨٩ - ٣٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/١٣٦).

مخلوق؛ فإن التوبةَ من أعظمِ الحسناتِ، والحسناتُ كلُّها يُشترط فيها الإخلاصُ»[١].

* **خُلاصة شروط التوبة:**

ومن خلال ما سبق يتبين أن التوبة لابد أن يجتمع فيها الأمورُ التاليةُ:

١ ـ الإقلاع عن الذنب.

٢ ـ النَّدَم على ما فات، والحدُّ الأدنى من ذلك: وجودُ أصلِ الندمِ، وأما قوةُ الندمِ وضعفُه، فَبِحَسَب قوةِ التوبةِ وَضَعْفِهَا.

٣ ـ العِلْم بقُبح الذنب.

٤ ـ العَزْم على ألَّا يعود.

٥ ـ تَدَارُكُ ما يُمكن تَداركُه من رَدِّ المَظالِم ونحو ذلك.

٦ ـ أن تكون خالصةً لله ﷻ.

٧ ـ أن تكون قبل الغَرغرةِ؛ لحديثِ ابنِ عمرَ: «إِنَّ الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[٢].

٨ ـ أن تكون قبلَ طلوعِ الشمسِ من مغربها؛ لحديث أبي هريرة: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ الله عَلَيْهِ»[٣].

* **هل الاستغفار توبة؟**

«الاستغفارُ في اللغة: طلبُ المغفرةِ بالمَقَال والفِعَال، وعند الفقهاء: سُؤال المَغفِرة كذلك»[٤].

والاستغفار يتضمن أمرين:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣١٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «الموسوعة الفقهية الكويتية» (٣٤ ـ ٣٥).

الأول: السَّتْر، فيستر الله عَيبَه ولا يفضحُه.

الثاني: «الوقايةُ، ومنه المِغْفَر، لِمَا يَقِي الرأسَ من الأذى، والسَّتْرُ لازِمٌ لهذا المعنى؛ وإلا فالعِمَامةُ لا تُسمَّى مِغْفَرًا، فلا بد في لفظ المِغْفَر من الوقاية»(١).

فمعنى قول العبد: (أستغفر الله): (اللهم اغفر لي)، ونحو ذلك: سؤال الله تعالى أن يَستُرَه، ولا يَفضحَه في الدنيا ولا في الآخرة؛ إذ عصاه، وأن يعفو عنه، ولا يُؤَاخِذه بذنبه فيُعَذِّبه.

«والاستغفار نوعان: مُفْرَد، ومَقْرُون بالتوبة؛ فالمُفرَد كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نُوح: ١٠]... والمَقْرُون كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هُود: ٥٢]،... فالاستغفار المُفرَد كالتوبة، بل هو التوبة بِعَيْنِها، مع تَضَمُّنِه طلبَ المغفرة من الله، وهو مَحوُ الذنبِ، وإزالةُ أثرِه، ووقايةُ شَرِّه»(٢).

فهذا الاستغفار الذي ينفع صاحبَه، ويمنع العذابَ بإذن الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفَال: ٣٣]، فليس المُراد مُجَرَّد الاستغفار باللسان، وإنما الاستغفار المَقرون بالتوبةِ، فمَنْ كان استغفارُه لا يتجاوز لسانَه، بحيث أنه باقٍ على معصيته، مُصِرٌّ عليها؛ فإن استغفاره لا يمنع العِقاب؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

«وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى؛ فالاستغفار: طلب وقاية شَرِّ ما مضى، والتوبةُ: الرجوعُ وطَلَبُ وقايةِ شَرِّ ما يخافه في المُستقبل من سيئات أعماله. فهاهنا ذَنْبان: ذَنب قد مضى، فالاستغفار منه طَلَب وقاية

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٠٨)، وانظر: «لسان العرب» (٦/٣٢٩)، مادة: (غفر).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٣٠٧)، بتصرف.

شَره، وذَنبٌ يخافُ وقوعَه، فالتوبةُ: العزمُ على ألَّا يفعلَه، والرجوعُ إلى الله يتناول النوعين...

وعند إفراد أحدهما يَتناول الأمرين؛ ولهذا جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مُرَتَّبًا بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هُود: ٣]، فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مُفارقة الباطل.»[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْه لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فقال: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فاغْفِرْه لِي، فقال الله ﷻ: عَلِمَ عَبْدِي أنَّ لَهُ ربًّا يغْفِرُ الذَّنْبَ ويأْخُذُ بِهِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فليَصْنَعْ مَا شَاءَ»[٢].

قال المُنذري: «قوله: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» معناه والله أعلم: أنه ما دام كلما أذنب ذنبًا استغفر، وتاب منه، ولم يَعُدْ إليه، بدليلِ قوله: «ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ»، فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء؛ لأنه كلما أذنبَ كانت توبتُه واستغفارُه كفارةً لذنبِه، فلا يضرُّه. لا أنه يُذنب الذنبَ، فيستغفرُ منه بلسانِه من غيرِ إقلاعٍ، ثم يُعاودُه؛ فإن هذه توبةُ الكَذَّابينَ»[٣].

* حكم التوبة من بعضِ الذنوبِ دونَ بعضٍ:

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن التوبة من ذنبٍ مع الإصرارِ على غيرِه صحيحة، فالتوبةُ تَتَبَعَّضُ كالمعصيةِ، وتتفاضلُ في كَمِّيَّتِها كما تتفاضلُ في كيْفيَّتِها، فكلُّ ذنبٍ له توبةٌ تَخُصُّه، ولا تتوقف التوبةُ من ذنبٍ على التوبة من

(١) المصدر السابق (١/٣٠٨ ـ ٣٠٩) باختصار وتصرف.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «الترغيب والترهيب» (٤/٩١).

بقيةِ الذنوبِ، كما لا يتعلقُ أحدُ الذَّنْبَيْنِ بالآخَرِ، فكما أنه يصحُّ إيمانُ الكافرِ مع إدامتِه شُرْبَ الخمرِ والزنا، فكذلك تصحُّ التوبةُ عن ذنبٍ مع الإصرارِ على ذنب آخَرَ.

يقول ابن القيم: «والذي عندي في هذه المسألة أن التوبةَ لا تصحُّ من ذنبٍ مع الإصرارِ على آخر من نَوعِه، وأما التوبةُ من ذنبٍ مع مُباشَرةِ آخَرَ لا تَعَلُّقَ له به، ولا هو مِنْ نَوعِه؛ فَتَصِحُّ؛ كما إذا تاب من الربا، ولم يَتُبْ من شربِ الخمرِ مثلًا، فإن توبتَه من الربا صحيحةٌ، وأما إذا تاب من رِبَا الفَضْلِ ولم يَتُبْ من رِبَا النَّسِيئةِ، وأصَرّ عليه، أو بالعكسِ، أو تاب من تَناولِ الحَشيشةِ وَأَصَرَّ على شُرْبِ الخمرِ أو بالعكسِ؛ فهذا لا تصحُّ توبتُه»[(١)].

«وقد يَسْتحضِرُ الإنسان ذنوبًا معينة فيتوب منها، وقد يتوب توبةً مُطْلَقَةً لا يَسْتحضِرُ معها ذنوبَه، لكن إذا كانت نيتُه التوبةَ العامةَ فهي تتناول كلَّ ما يراه ذنبًا؛ لأن التوبةَ العامةَ تَتضمنُ عَزْمًا عامًا بِفِعْلِ المَأمورِ وتَرْكِ المَحظورِ، وكذلك تَتضمَّن نَدَمًا عامًّا على كل مَحظور... إذا تَبَيَّنَ هذا، فَمَنْ تاب توبةً عامةً كانت هذه التوبةُ مُقْتَضِيةً لغُفرانِ الذنوبِ كلِّها، وإن لم يَسْتحضِر أعيانَ الذنوبِ، إلّا أن يُعارِض هذا العامَّ مُعَارِضٌ يُوجِب التخصيصَ، مثل أن يكون بعضُ الذنوبِ لو اسْتَحْضَره لم يَتُبْ منه لقوةِ إرادتِه إياه، أو لاعتقادِه أنه حَسَنٌ ليس بقبيحٍ، فما كان لو اسْتَحْضَره لم يَتُبْ منه لم يدخل في التوبة»[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٧٥).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٣١٩ ـ ٣٢٨)، باختصار وتصرف.

مِنْ آدابِ التَّوبَةِ ومُكمِّلاتِهَا

يَحتاج التائبُ إلى تكميلِ التوبةِ ببعضِ آدابِها وأخلاقِها التي تُعِينُهُ على الثَّباتِ، وتكون من بَراهين الصِّدْق في التوبة؛ فَمِن ذلك:

١ ـ الإكثارُ من الحسناتِ:

فإن الحَسناتِ يُذهبن السيئاتِ، ومن ذَهابِ السيئاتِ ذَهاب آثارها ودَواعيها ومُقْتضياتها.

يقول ابن تيمية: «مِنْ تَمامِ التوبةِ أن يأتيَ بحسناتٍ يفعلُها»(١).

٢ ـ الصَّدَقة:

وهذا مُنْدَرِجٌ تحتَ الذي قَبْلَهُ، إلّا أنه أُفْرد لأهميتِه، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التَّوبَة: ١٠٤].

وعن مُعاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ»(٢).

قال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية: «إذا تاب العبدُ، وأخرجَ من مالِه صدقةً

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وصححه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٥٠٦ ـ ٥٠٧).

للتَّطَهّرِ من ذنبِه كان ذلك حَسَنًا مشروعًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤][١].

٣ ـ مُفَارَقَةُ الحالِ والمكانِ الذي عَصَى الله فيه:

قال ابن تيمية: «مُفَارَقَةُ الحالِ والمكانِ الذي عَصَى الله فيه من تمامِ التوبةِ، وأيضًا فإنهما لمَّا اجْتَمَعَا على معصية الله كان من توبتِهما أن يتفرقَا في طاعةِ الله؛ لقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٦٧].

٤ ـ الاعتراف بالذنب مَقْرُونًا بالانْكِسَار.

٥ ـ الإكثار من التَّضَرّع والاستغفار.

قال ابن جُزَي: «التوبةُ واجبةٌ على كل مؤمنٍ مُكَلَّفٍ بدليلِ الكتابِ والسنةِ وإجماعِ الأمةِ. وفرائضُها ثلاثةٌ: الندمُ على الذنبِ من حيث عُصِيَ به ذو الجلال... والإقلاع عن الذنب في أوَّلِ أوْقَاتِ الإمكان من غير تأخير ولا تَوان، والعَزْم ألَّا يعود إليه أبدًا...

وآدابها ثلاثة: الاعترافُ بالذنب مَقرونًا بالانكسار، والإكثارُ من التضرُّعِ والاستغفارِ، والإكثارُ من الحسناتِ لِمحْوِ ما تقدَّم من السيئات»[٢].

٦ ـ المبادرة بالتوبة في حال الصحة قبل حلول المرض.

قال ابن رجب: «ورُوي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٦٧]. ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] قال: قبل المرض والموت وهذا إشارة إلى أفضل أوقات التوبة وهو أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به حتى يتمكن حينئذ من العمل

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/٥٥٢ ـ ٥٥٣).

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/٦٥).

الصالح ولذلك قرن الله تعالى التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن وأيضا فالتوبة في الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة ورجاء البقاء.

والتوبة في المرض عند حضور إمارات الموت يشبه الصدقة بالمال عند الموت فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه ولذة دنياه فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ وترك ما كان عليه فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي فيتركها خوفا من الله عز وجل ورجاء لثوابه وإيثارا لطاعته على معصيته»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «لطائف المعارف» (ص ٣٣٦).

مَرَاتِبُ المُنِيبِين

أعلى مقامات التوبة «مقامُ الذين يَسْتَقِلُّونَ في حقِّ ربهم ومَعبودهم جميعَ أعمالِهم وأحوالِهم وأقوالِهم، فلا يَرَوْنها قطُّ إلّا بعينِ النَّقْصِ والإِزْرَاء عليها، ويَرونَ شأنَ مَعْبُودهم أعظمَ وقدْرَه أعلى من أن يرضوا نفوسَهم وأعمالَهم له.

وإذا غَفَلُوا عن مُراد مَعْبودهم منهم، ولم يُوَفُّوهُ حَقَّهُ، تابوا إليه من ذلك توبةَ أربابِ الكبائرِ منها؛ فالتوبةُ لا تُفارِقُهم أبدًا، وتوبتُهم لَوْنٌ، وتوبةُ غيرِهم لَوْنٌ، وكلما ازدادوا حُبًّا له ازدادوا معرفةً بحقِّه، وشُهودًا لتقصيرهم، فَعَظُمَتْ لذلك توبتُهم»(١).

هذا وقد ذكر لها ابنُ جُزَي سبعَ مراتبَ:

«**الأولى**: توبةُ الكفارِ من الكفرِ.

الثانية: توبةُ المُخَلِّطِينَ من الذنوب والكبائر.

الثالثة: توبة العُدول من الصغائر.

الرابعة: توبة العابدين من الفَترات.

الخامسة: توبة السالكينَ من عِلَلِ القلوبِ والآفاتِ.

السادسة: توبة أهلِ الوَرَعِ من الشُّبهاتِ.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٦٨ ـ ٢٦٩) بتصرف.

السابعة: توبة أهلِ الإحسانِ من الغَفلاتِ»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح، كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/٦٥) بتصرف.

(٢) «جامع الرسائل» (١/٢٢٨).

الطَّرِيقُ إِلَى تَحْقِيقِ التَّوْبَةِ

١ ـ ينبغي على العبد ألَّا يُعينَ الشيطانَ على أخيه المسلم، فإن وَقَعَ في الذنبِ نَصَحَه وأَرْشَده:

فإن الكثيرين حين يَطَّلِعُون على زَلَّة وقع فيها أحد من إخوانهم المسلمين؛ فإنهم لَرُبَّما شَمَتوا به، واسْتَوحَشُوا منه، وصار مَنْبُوذًا بين إخوانه، تُلاحِقه زَلَّته وخطيئته دون اعتبار لتوبة أو صَلاح حال، أو سَابِقة في الخير والعمل الصالح، مع أن الزلل من طبيعة الإنسان، والله واسِع المَغْفِرَة، وحال النبي ﷺ مع أصحابه معروفة في هذا الباب، ولكننا نَغفل عن ذلك كثيرًا؛ بل لربما دَعَونا على أحدهم ألَّا يُوَفَّق للتوبة!! فأين نحن من هَدْي النبي ﷺ وأصحابه ﷺ؟!

ففي حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ أُتِي برجل قد شَرب، فقال رسول الله ﷺ: «اضْرِبُوهُ»، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، وَلَكِنْ قُولُوا: رَحِمَكَ اللهُ»(١).

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سُرِقَ له: «أَلَا تَدْعُو على ظَالِمك؟ قال: ما أُحِبُّ أن أكونَ عَونًا للشيطانِ عليه»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٨٦)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٥٧٠٠).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٢٨٣/٤).

٢ ـ تَدَبُّرُ القرآنِ:

عن كعب الأحبار قال: «لما قرأتُ: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النِّسَاء: ٤٧] أسلمتُ حينئذ، شَفَقَةً أن يُحَوَّل وَجْهِي نَحْو قَفَاي»[(١)].

فَمَنْ تَدَبَّرَ آي القرآنِ، وما جاء فيها من الوَعد والوَعيد؛ حَمَلَهُ ذلك على استقبالِ التوبةِ، واستقباحِ الحالِ التي هو عليها؛ من مُوَاقعةِ الذنوبِ، والخروج عن طاعة ربِّ العبادِ.

قال ابن باديس: «فوالله الذي لا إله إلّا هو، ما رأيت ـ وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب ـ أعظم إلانة للقلب، واستدرارًا للدمع، وإحضارا للخشية، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن»[(٢)].

٣ ـ النظرُ في أَثَرِ الذَّنْبِ:

فَمَنْ تَأَمَّلَ ما يَجْنيه بذنبِه مِنْ خِزْيٍ في الدنيا وخُسرانٍ في الآخرةِ، مع ما يكون عليه من مقْبُوحِ الحالِ؛ أَنِفَ لنَفْسِه أن يكونَ بتلك المَثَابةِ، إذا كان عَقُولًا، له حظٌّ من النَّظَرِ والتَّعَقُّلِ، وليس كالبهيمةِ، لا ينظر إلّا فيما يَشْتَهِيه، دونَ تَدَبُّرِ العَوَاقبِ، وما يجنيه بها من الخَسَار.

عن العباس بن مِرْدَاس أنه قيل له في الجاهلية: «ألا تأخذ من الشراب، فإنه يزيد من جُرْأَتك ويُقَوِّيك؟ قال: أُصبح سيدَ قومي وَأُمْسِي سفيهَهم؟! لا والله، لا يدخل جوفي شيء يَحُول بيني وبين عقلي أبدًا»[(٣)].

٤ ـ مُحَاسَبَة النَّفْس:

بالمُحَاسَبةِ يُمَيِّزُ العبدُ بينَ مَا لَه وما عليه، فيَسْتَصْحب مَا لَه، ويُؤدي ما عليه، ومن منزلةِ المُحَاسَبةِ يصحُّ له نزولُ مَنزلة التوبةِ؛ لأنه إذا حَاسَبَ نفسَه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٦).

(٢) «تفسير ابن باديس» (ص ٣٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم المُسْكِر» (٥٢).

عَرَفَ ما عليه من الحقِّ، فخرج منه، وَتَنَصَّلَ منه إلى صاحبه، وهي حقيقةُ التوبةِ.

و«التوبةُ مَحفوفةٌ بمُحَاسَبَتينِ: مُحَاسَبة قبلها تقتضي وجوبَها، ومُحَاسَبة بعدَها تقتضي حِفْظَها... وقد دَلَّ عليها قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]...

ولا بُدَّ أن يُعْلَمَ أن التوبة لا تصحُّ إلّا بعدَ معرفةِ الذَّنْبِ، والاعترافِ به، وطلبِ التَّخلُّصِ من سوءِ عواقبِهِ أولًا وآخِرًا»[(١)]، ولا يتمُّ ذلك إلّا بمحاسبة النَّفْس.

وقال الحسن البصري: «إن العبدَ لا يزال بخيرٍ ما كان له واعظٌ من نَفْسه، وكانت المحاسبةُ هِمَّتَه»[(٢)].

٥ ـ التفكُّر:

التفكُّر أداة التَّذكّر، وهو أمرٌ ينبغي أن يحرصَ عليه المُسلمُ في أمر دينِه ودنياه، وهو مما يُعين العبدَ على نفسِه إذا أقبلَ على الله تائبًا، إليه مُنِيبًا، فَحَرِيٌّ بِمَنْ تَفَكَّرَ في عواقبِ الطاعاتِ وآثارِها الحَمِيدةِ أن يُقبِلَ عليها، وحَرِيّ بِمَنْ تَفَكَّرَ في عَوَاقِبِ المعاصِي، وما قد يحصل له بها من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة أن يُعرِض عنها.

٦ ـ ما يفتح الله به على قلب العبد:

وقد يحصل ذلك بسبب موقفٍ أو رُؤيا، فيستيقظ القلبُ من غفلتِه، وَيُشَمِّرُ العبدُ عن ساعدِ الجِدِّ من ساعتِه، ويسعى في تحصيل مَغَانم الرجوع، وليرضَ حينئذ حقًّا من الغنيمة بالإياب.

وقد يفتح الله على العبدِ، ويرزقُه من لَدُنه رحمة، فينتبه إلى «قُبْحِ الذنوبِ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٦٩ ـ ١٧٨) بتصرف.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٠٣).

وضررِها؛ فإنها سمومٌ وآفاتٌ مُهْلِكَةٌ... فإذا نظر العبدُ بتوفيق الله تعالى إلى نَفْسِه، فوجدها مَشْحونةً بذنوبٍ اكْتَسَبَهَا، وسيئاتٍ اقترفَها، وانبعث منه النَّدَمُ على ما فرَّط، وتَرَكَ المعاصي مخافةَ عقوبةِ الله تعالى؛ صَدَقَ عليه أنه تائبٌ»[1].

٧ ـ معرفةُ الله تعالى معرفةً صحيحةً بأسمائِه وصفاتِه:

فكلما كان العبدُ بالله أعلمَ كان له أخوفَ وأشدَّ تعظيمًا، وإقبالًا عليه، وتَطَلُّعًا إلى ما عنده.

وبحَسْب المرء أن يعلم أن الله تعالى هو غافرُ الذنبِ، وقَابِلُ التَّوْب، شديدُ العقابِ، حتى تكون الطاعةُ أحبَّ شيءٍ إليه، وتكون المعصيةُ أبغضَ شيءٍ لديه.

٨ ـ ومما يُوَصِّلُ إلى التوبةِ مما يَخُصُّ أهلَ الأهواءِ: أن يعلمَ صاحبُ البدعةِ شِدةَ حاجتِه إلى العلمِ بالسُّنَّةِ:

فإنه «لا تنكشفُ له ذنوبُه التي يجب عليه التوبةُ منها إلّا بتَضَلُّعِه في علوم السُّنَّةِ، وكثرةِ اطلاعِه عليها، ودوامِ البحثِ عنها، والتفتيشِ عليها؛ فإن السنةَ تَمْحَقُ البدعةَ وَلَا تَقُومُ لها، وإذا طلعت شمسُها في قلبِ العبد قَطَعَتْ من قلبِه ضبابَ كلِّ بدعةٍ، وأزالت ظُلمةَ كلِّ ضلالةٍ»[2].

٩ ـ الصِّدق مع الله، والإخلاص له، والإقبال عليه ﷻ.

١٠ ـ امتلاء القلب من محبة الله ﷻ:

فمن كان الله محبوبَه شَغَلَهُ بحبِّه عن محبةِ ما سواه، وخاصةً ما يبغضه، ويمقت عليه.

١١ ـ مُجَاهَدة النَّفْس، والصبر على تَرْك الشهوات.

١٢ ـ قِصَرُ الأملِ، وتَذَكُّرُ الآخرةِ.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٥/٣٢٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٣٧٤) باختصار وتصرف.

١٣ ـ السعيُ في تحصيلِ العلمِ، ومُزَاحَمةُ طالبيه بالرُّكَبِ.

١٤ ـ الاشتغالُ بما ينفعُ، وتَجَنُّبُ الوحدةِ والفراغِ.

١٥ ـ البعدُ عن المُثيراتِ وما يُذَكِّرُ بالمعصيةِ.

١٦ ـ غضُّ البصرِ.

١٧ ـ مُصاحبةُ الأخيارِ، ومُجَانبةُ الأشرار.

١٨ ـ هَجْرُ العوائدِ المُهَيِّجةِ للشَّوقِ إلى المعصية، والاستكانة لأهواء النفس.

١٩ ـ هَجْرُ العلائقِ:

أي: كل ما تَعَلَّقَ به القلبُ من مَلاذِّ الدنيا وشهواتِها، مما يصرفُه عن رُشْدِهِ وهدايته.

٢٠ ـ إصلاح الخواطر والأفكار الرديئة:

وليس شيءٌ أشدَّ على المرء مما يَسْنح له لأول وَهْلَة، فأول الأمر خَاطِرَة، ثم يكون فِكْرة، ثم يصير عزيمة، ثم يَتَحَوَّل إلى فِعْل.

٢١ ـ استحضارُ فوائدِ تَرْكِ المعاصي:

ومِنْ أهمِّها انشراحُ القلبِ وانْفِسَاحُه لنورِ الإيمانِ، وحلاوةِ الطاعةِ، وَحُسْنِ الفَيْئة.

٢٢ ـ استحضار أن الصبرَ عن الشَّهوة أسهلُ من الصبر على ما تُوجِبه.

٢٣ ـ استحضارُ أضرارِ الذنوبِ والمعاصِي:

ومن أعظمِها استمراءُ الذنب، مع شدة الغفلة، وقلة الحياء، والخَوْض في الذنوب، والانغماس في المعاصي.

وقد جاء عن عائشة ﵂ أنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٣١).

وكان الإمام أحمد يمشي في الوَحَل، ويَتَوَقَّى، فَغَاصَت رِجْله، فَخَاض وقال لأصحابه: «هكذا العبد لا يَزَال يَتَوَقَّى الذُّنوب، فإذا وَاقَعَها خَاضَها»(١).

٢٤ ـ الدعاء:

فإنه خير سلاح للمؤمن.

٢٥ ـ الحياء:

وهو خيرٌ كلُّه، ومن خَيرِه وفضلِه أنه واعِظٌ حَسَنُ الوعظِ عند كلِّ هَمَّةٍ بذَنْب، فجلاله في طهارته، وحُسْن تذكيره، والمرءُ على رَأسِ أَمْره، لم يخالط بعدُ الذَنْبَ، ولم يَغْشَ عصيانًا. وجلاله أيضًا في تَجَدُّدِهِ عندَ كلِّ هَمَّةٍ بذَنْب، وإنما ذلك للقلب الحيِّ، والنَّفْس اللوَّامَةِ، وأما المُسَارِعُ في معصيةِ الرحمنِ، المُبادِرُ إلى سَخَطِه ومَقْتِه، فمن أين له الحياء؟!

٢٦ ـ شرفُ النَّفْسِ وذكاؤها، وأَنَفَتها، وحَمِيَّتُها:

وهذه من الأصول المركوزة، والفطرة السليمة.

٢٧ ـ الأَخْذ بكل الأسباب المُعِيْنة والمُوْصلة إلى التوبة(٢):

وهذا أمرٌ في بعض أفرادِه قد يختلف من شخصٍ لآخَرَ.

وبالجملة: فَحَرِيٌّ بالمرء الذي يعلم الله الصدقَ من قلبِه أن يُعينه على نَفْسه وشيطانه، وأن يصرفَه عن غوايتِه وهَوَانِه، ويكفيه شرَّ ما كان من خسرانه.

* * *

---

(١) ذكره ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (١/١١٢).

(٢) وقد ذكر ابن جُزَي أن البَوَاعثَ على التوبة سبعةٌ: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخَجَل من الحساب، ومحبة الله، ومراقبة الله، وتعظيم الله، وشُكر النِّعْمة. انظر: «التسهيل» (٣/٦٥ ـ ٦٦).

عَقَبَاتٌ فِي طَرِيقِ التَّوْبَةِ

١ ـ التَّسْويف:

وهو من أعظم الآفات، وأشدّ العَقَبات، ينصرف به المَغرورُ إلى أمانيّ كَواذبَ، يقول: غدًا أتوب، إذا حَلَّ رمضانُ ببركتِه وَجَبَتِ التوبة.. عشرُ ذي الحجةِ ميعادُ الأوابينَ، وهكذا.

«والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وَجْه غلبةِ الشهوة، وقوةِ الطبيعةِ، فَيُوَاقِعُ الذنبَ مع كراهتِه له، من غيرِ إصرارٍ في نَفْسه، فهذا تُرجَى له مغفرةُ الله وصَفْحُه وعفوُه؛ لِعِلْمِهِ تعالى بضَعْفه، وغَلَبة شهوته له»[١].

فأما مَنْ كان دأبُه الوقوع في المعاصي، وإذا زَجَرَهُ زَاجِرٌ عنها قال: أتوبُ إن شاء الله، فهو لا يزال بين مُوَاقعةِ الذنبِ والتسويفِ بالتوبةِ؛ فهذا لا شكَّ أنه على خطرٍ عظيمٍ.

٢ ـ غلبةُ الشهواتِ:

فَمَنْ كان حالُه أنه «لا يقف عن الذنب، ولا يُحْجِم خوفًا، ولا يدعُ لله شهوةً، وهو فَرِحٌ مسرورٌ... إذ ظَفِرَ بالذنبِ، فَمِثْلُه يُخافُ عليه أن يُحال بينَه وبينَ التوبةِ، ولا يُوفَّق لها... لأن النُّزوعَ عن اللذات والشهوات إلى مُخالَفة

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/٢٥٠).

الطَّبْع والنَّفْس والاستمرار على ذلك شديدٌ على النَّفْس، صعبٌ عليها، أثقلُ من الجبال، ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضَعْفُ البصيرةِ، وقلَّةُ النصيبِ من الإيمان»[١].

٣ ـ اعتيادُ المُنْكَرِ وإدمانُه:

فإن كثرةَ المُزَاوَلاتِ تُورِث المَلَكَاتِ، ولعلك تجد الواحدَ منهم يفعل المعصيةَ، ويُصرُّ عليها، لا من دَافِعِ الرغبة فيها وغَلبةِ الشهوةِ، ولكن بما يجدُه في نَفْسه من ضرورةٍ تدعوه إليها بسببِ اعتيادِه للمعصية وعُكوفِه عليها.

٤ ـ ما قد يُواجِهه العبدُ في أولِ توبتِه:

وذلك «أنَّ كلَّ تائب لا بد له في أول توبته من عَصْرةٍ وضَغْطةٍ في قلبه، مِنْ هَمٍّ، أو غَمٍّ، أو ضِيقٍ، أو حُزنٍ، ولو لم يكن إلّا تَألّمه بفراق محبوبه، فيَنْضَغِط لذلك، ويَنْعَصر قلبه، ويضيق صدره، فأكثرُ الخَلْقِ رجعوا من التوبة، ونُكِسُوا على رؤوسهم لأجل هذه المِحْنة، والعارِفُ المُوَفَّقُ يعلم أن الفَرحةَ والسرورَ واللَّذّةَ الحاصِلَةَ عقيبَ التوبةِ تكون على قدر هذه العَصْرةِ، فكلما كانت أقوى وأشدَّ كانت الفَرحة واللذة أكملَ وأتمّ. وهذه دقيقةٌ قَلَّ مَنْ يتفطنُ لها إلّا فقيهٌ في هذا الشأن.. فإنه كلما عَظُمَ المطلوبُ كثرت العَوَارِضُ والمَوانعُ دونَه، هذه سنةُ الله في الخَلْق... ولكن إذا صبر على هذه العَصْرة قليلًا أَفْضَتْ به إلى رياضِ الأُنْسِ وجناتِ الانشراحِ، وإن لم يصبر لها انقلب على وجهه»[٢].

فعلى مُسْتَقْبِلِ التوبةِ ألا يجزعَ، وألا يُسيءَ الظنَّ بنَفْسه، فضلًا عن أن

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/٢٥٠) بتصرف.

(٢) «طريق الهجرتين» (٢/٥٢٩ ـ ٥٣٠)، باختصار وتصرف.

يُسيءَ الظنَّ بربه، وليعلم أن ما يُوَاجهه من وساوسَ وكيدٍ أولَ توبتِه إنما هو من أمرِ الشيطانِ؛ ليصدَّه عن سبيل الله.

ولذا لا يجد كثيرٌ من أصحابِ الغيِّ شيئًا من ذلك، وما يفعل الشيطانُ بالقلبِ الخرابِ؟!

قال ابن القيم: «وقال لي غير واحد: إذا تبتُ إليه، وأَنَبْتُ وعملتُ صالحًا، ضيّق عليّ رزقي، ونَكّد عليَّ معيشتي، وإذا راجَعْتُ معصيته، وأعطيتُ نفسي مُرادها، جاءني الرِّزْقُ والعَوْنُ، أو نحو هذا. فقلت لبعضهم: هذا امتحان منه، ليَرى صِدْقك وصَبرك، وهل أنتَ صادقٌ في مجيئك إليه، وإقبالك عليه، فتصبر على بلائه، فتكون لك العاقبةُ، أم أنت كاذبٌ، فترجع على عقبك»[١].

٥ ـ البدعة:

والبدعةَ أحبُّ إلى إبليسَ من المعصيةِ؛ وذلك لما يُصِيب صاحبَها من غشاوةٍ على قلبِه تمنعُه من تحقيقِ الصوابِ.

وقد سُئِل الإمامُ أحمدُ عما وَرَدَ من أن الله تعالى احْتَجَب التوبةَ عن صاحبِ البدعةِ، فقال: «لا يُوَفَّقُ ولا يُيَسَّر صاحبُ بدعةٍ لتوبة»[٢].

وَمُرَادُ الإمامِ أحمدَ: أن صاحبَ البدعةِ يرى أنه على حقٍّ، وأن ما هو عليه هو الصراط المستقيم، فكيف يتوب؟!

٦ ـ الغفلة عن بعض الذنوب:

فـ «كثيرٌ من الناس من المُتنزهينَ عن الكبائرِ الحسِّيَّةِ... واقعونَ في أمثالها، أو فيما هو أعظمُ منها أو دونَها، ولا يخطر بقلوبِهم أنها ذنوبٌ

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٩٢١/٢)، وذكر كلاما بعده يحسن مطالعته.

(٢) «بدائع الفوائد» (١٣٨٧/٤).

ليتوبوا منها، فعندَهم من الإِزْرَاءِ على أهل الكبائر واحتقارهم»[١] الشيءُ العظيمُ، فيصيبُهم بسبب ما ظَنُّوه بأنفسهم من التَّرَفُّع عن التَّلَطُّخ بهذه الأوحال شيء من الكِبْر، والأَنَفَة، واحتقار الناس، مما لعله يصيبهم به أعظم مما أصاب هؤلاء؛ «فإن تَدارَك الله أحدَهم بقَاذُورة يُوقِعه فيها ليكسر بها نَفْسه، ويُعَرِّفهُ قَدْرَه، ويُذله بها؛ فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تَدارَك أصحابَ الكبائرِ بتوبةٍ نَصوحٍ فهي رحمةٌ في حقهم، وإلا فكلاهما على خَطَرٍ»[٢].

٧ ـ قُرَنَاء السوء:

قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفُرْقَان: ٢٧ ـ ٢٩].

ولقد أحسن مَنْ قال[٣]:

تَجَنَّبْ قَرِينَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ ... وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ

وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

وقال آخر[٤]:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ ... خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ ظَرِيفَا

وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِمٍ مَيَّزْتَهَا ... فَوَجَدْتَ مِنْهَا فِضَّةً وَزُيُوفَا

ومعلومٌ ما وَرَدَ من الآثارِ والأخبارِ في رفْقةِ الخيرِ ورفْقةِ السوءِ،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/١٨٧) بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق (١/١٨٧) باختصار وتصرف يسير.

(٣) «روضة العقلاء» (ص٧٢)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص٤٦٧).

(٤) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٠٢) عن محمد بن إسحاق الواسطي.

والجليسِ الصالحِ والجليسِ السوءِ، وأن المرءَ على دين خليله، وَمَنْ أَحَبَّ قومًا حُشِرَ معهم، وَمَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم، فليحذر العاقلُ من صُحبةِ الأشرارِ ومُرافقةِ غيرِ الصالحينَ، فإن الأخلاءَ يومئذ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلّا المتقينَ.

٨ ـ استحضار العوائق:

وهو مما يَصُدُّ عن التوبة، والصدق فيها، وهو من المُنغِّصات حقًّا، وقد يكونُ الواحدُ منهم صاحبَ مكانة بين أهل الضلالة، أومال وفِير من تجارة محرمة، فهو إذا حَدَّثَ نفسَه بالتوبة من ذلك عَارَضَهُ من نَفْسه ما هو فيه من وَجاهةٍ وثَراءٍ، يصدُّه ويمنعُه، فينظر مُتفكِّرًا في أَمْره كيف يتْرُك كل ذلك؟ وماذا سيقول الناسُ عنه؟ وأين تقع منزلتُه بينَهم بعدَ ذلك؟ ولا يزال في أمره هذا مُتردِّدًا مُتحيِّرًا حتى يَصْرِفه ذلك عما حدَّثَتْه به نَفْسُه من الرجوع إلى الله.

وقد جاء من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ لِعَمِّهِ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قال: لولا أن تُعيِّرني قريشٌ؛ يقولون: إنما حَمَلَهُ على ذلك الجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بها عينَك(١).

وقد يَعُوقه عنها: التفكيرُ الفاسدُ في الأهل والولد والعشيرَةِ، وما هو فيه الآن، وما عسى أن يكون بعدُ.

وقد يَعُوقُهُ عنها الحسدُ، كما حسد اليهودُ النبيَّ ﷺ على ما آتاه الله من فضلِهِ، وهم يعرفونه نبيًّا كما يعرفون أبناءَهم(٢).

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٥).

(٢) انظر: «التنكيل» (٢/١٨٠ وما بعدها)، فقد ذكر كلامًا مُهِمًّا في هذه الصوارف.

ثَمَرَاتُ التَّوْبَةِ

إن من مَحَاسِن الصالحات من الأقوال والأعمال ما يتلوها من عَواقبِ الخيرِ، وما ينتج عنها من بِرٍّ وفَضلٍ، وما تُثمره من ثِمارِ الصَّلاحِ وعواملِ الفلاحِ في الدنيا والآخرة.

وثِمَار التوبة كثيرةٌ ومُتنوعةٌ، يَحْسن بنا أن نَتعرضَ لبعضها بالذِّكْرِ للذِّكْرَى، فَيُشمِّر لها المُشَمِّرونَ، ويثبت على طريقها السَّالِكونَ، فمن ذلك:

١ - صَقْل القلب وصلاحه:

فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ الله فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٤]»(١).

والتوبة تَصْقُل القلب وتُجَلِّيه مما عَرَض له من رَيْن الذنوب، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ الله فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(٢).

وقال عَون بن عبد الله: «دَاوُوا الذنوبَ بالتوبةِ، وَلَرُبَّ تائبٍ دَعَتْهُ توبتُه إلى الجنة، حتى أوفدته عليها»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأَغَرّ المُزَني..

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٧٩).

٢ ـ العِلْم والفَهْم:

فـ«العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية رياحٌ عَاصِفةٌ تُطْفِئ ذلك النورَ أو تكاد، ولا بد أن تُضْعفه، وشَهدتُ شيخَ الإسلامِ قَدَّسَ الله رُوحَه إذا أَعْيَته المسائلُ، وَاسْتَصْعَبَتْ عليه فَرَّ منها إلى التوبة والاستغفار، والاستغاثة بالله واللَّجأ إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فَقَلَّما يَلْبَث المَددُ الإلهيُّ أن يتتابعَ عليه مَدًّا، وتَزْدَلِف الفُتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ»[1].

٣ ـ دفْعُ الهَمِّ والحزن:

فالقلب لا يحصل له الانشراحُ، ولا يجد حلاوةَ الإيمان ونورَ الهدايةِ إلّا بطاعةِ الله وطاعةِ رسولِه ﷺ، وقد رُكِّب على هذا تركيبًا خاصًّا؛ بحيث إنه إذا خرج عن ذلك شَقِيَ في الدنيا والآخرةِ، ويحصل له البُؤسُ، حتى يتوب صاحبُه ويستغفر، فَيُصْقَل ويبرأ.

فإذا وجد العبدُ من نَفْسه أنه لا يحصل له حَلاوةُ الإيمان، ولا ينشرح صدرُه لأمر الله، وأنه يُصيبه ما يُصيبه من الهَمِّ والغَمّ، فَلْيُكْثِرْ من التوبة والاستغفار، وَلْيُلَازِم الاجتهادَ بحَسَبِ الإمكان؛ فإن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبُوت: ٦٩].

«فالإنسانُ إذا أصابته المصائبُ بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنَفْسه، فإذا تاب واستغفر جعل الله له من كلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومن كل ضِيْقٍ مخرجًا، ورَزَقه من حيث لا يحتسب»[2].

---

(١) «إعلام الموقعين» (٦/٦٧ ـ ٦٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/٢٤٠).

٤ ـ دَفْع الضَّررِ والأذى الواقعِ علينا في الدنيا:

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشُّورَى: ٣٠]...

فما سَلَّط على العبد مَنْ يُؤْذِيهِ إلّا بذنب، يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعافُ ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعافُ ما يذكره... فإذا عُوفِيَ من الذنوب عُوفِيَ من مُوجَباتها، فليس للعبدِ إذا بُغِي عليه، وأُوذِي، وتَسَلَّط عليه خُصومُه من شيء أنفع له من التوبة النَّصوح»[1].

٥ ـ رجوع الحسنات إليه برجوعه إلى الله:

فالعبد إذا أسلم وتاب من الكفر جَمَعَ الله له بهذه التوبة بينَ حسناتِه التي عملها في جاهليَّتِهِ وحسناته التي عملها في إسلامه. «وذلك لأن الإساءة المُتَخَلِّلَة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة، وصارت كأنها لم تكن، فتلاقت الطاعتان، واجتمعتا»[2].

فإذا حصل ذلك لمن تاب من الكفر، فحصولُه لمن تاب من المعصيةِ أَوْلَى.

٦ ـ مَحْو الذنب:

وهذا أمرٌ معلومٌ بالاضطرار، لا يحتاج إلى كثيرِ بيانٍ، وقد جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»[3].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/٧٧٠) بتصرف يسير.

(٢) «مدارج السالكين» (١/٢٨٢) بتصرف.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٣٣)، وصححه.

٧ ـ تَبْديل السيئاتِ حسنات:

وهذه المسألةُ ثابتةٌ بكتاب الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفُرْقَان: ٧٠].

وذلك أن «التائبُ من الذنوبِ التي عملها قد قَارن كلَّ ذنبٍ منها نَدَمًا عليه، وَكَفَّ نفسَه عن الذنب... وخَلَفه هذا الندم والعَزْم، وهو حسنة، فقد بُدِّلَت تلك السّيئةُ حسنةً، وهذا معنى قول بعض المُفسّرينَ: يجعل مكان السيئةِ التوبة... فإذا كانت كلُّ سيئة من سيئاته قد تاب منها، فتوبتُه منها حسنة حلَّتْ مكانَها»(١). وهذا هو الأقرب في المُراد بتبديل السيئات إلى حسنات في حق التائب، والله أعلم.

٨ ـ أنها سببٌ للفلاحِ:

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١].

٩ ـ أنها سببٌ للمَتَاعِ الحَسَنِ:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هُود: ٣].

١٠ ـ أنها سببٌ لِنُزُولِ الأمطارِ، وزيادةِ القُوةِ والإمدادِ بالأموالِ والبنينَ:

قال تعالى عن نبيه هود ﷺ فيما يقوله لقومه ويدعوهم إليه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هُود: ٥٢].

١١ ـ أنها تُثمر محبةَ الله ﷻ لعبدِه التائبِ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/٥٤٣ ـ ٥٤٤).

١٢ ـ أن الله يفرح بتوبة التائبين:

فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «لله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ الله قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ، فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ»[(١)].

١٣ ـ أنها تُوجِب للتائبِ آثارًا عجيبةً من المَقَامات التي لا تَحصل بدونها، كالمحبّة، والرِّقّة، واللّطف، وشكر الله وحمده والرضا عنه:

فرُتِّبَ له على ذلك أنواعٌ من النِّعَم، لا يهتدي العبدُ لتفاصيلها، بل لا يزال يَتَقلَّب في بركتِها وآثارِها ما لم ينْقضْها أو يُفْسِدها.

١٤ ـ حصول الذلِّ والانكسارِ لله:

فإنه متى استحضر ذنبَه، وعلم أن الله لو آخَذَهُ به عَذَّبَهُ؛ حصل له من الانكسار والخَفْض بمقدار ذلك.

١٥ ـ أن الذنب قد يكون أنفعَ للعبدِ إذا اقترنت به التوبةُ من كثير من الطاعات:

«وهذا معنى قول بعض السلف[(٢)]: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنبَ فلا يزال نُصْبَ عَيْنَيْهِ، إن قام وإن قَعد وإن مَشى ذَكَرَ ذَنْبَهُ، فَيُحْدِثُ له انكسارًا وتوبةً واستغفارًا ونَدَمًا، فيكون ذلك سببَ نجاته.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) جاء بنحوه عن الحسن البصري، كما أخرجه ابن المبارك (١٦٤)، وأحمد (ص٢٦٩) كلاهما في «الزهد».

ويعمل الحسنةَ فلا تزال نُصْبَ عَيْنَيْهِ، إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عُجْبًا وكِبْرًا وَمِنَّةً، فتكون سببَ هلاكِه»[(١)].

١٦ ـ أن الله يُحبُّ أن يتفضّلَ على عبادِه، ويُتمَّ نعمتَه عليهم:

ومِن أعظمِ ذلك أن يُحسنَ إلى مَنْ أَسَاءَ، ويعفو عَمَّنْ ظَلَمَ، ويغفر لمن أَذْنَبَ ويتوبَ على مَنْ تَابَ، ويَقْبَل عذرَ مَنِ اعْتَذَرَ إليه.

١٧ ـ أن يعرف العبدُ حاجتَه إلى حِفْظِ الله، ومَعُونتِه، وصيانَتِه.

١٨ ـ أن يعرف العبدُ حقيقةَ نفسِه:

وأنها الظالمةُ الجهولُ، وأن ما صَدَرَ منها من شَرٍّ فقد صَدَرَ من أهلِه ومَعْدنه.

١٩ ـ تعريف العبد بصفات الرب الكريم.

٢٠ ـ أن يُعَامِلَ العبدُ بني جنسِه بما يحبُّ أن يعاملَه الله به:

ويقيم المَعاذيرَ لِلْخَلْقِ، ويتذكر دائمًا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّساء: ٩٤].

٢١ ـ التَّحرّز والتَّيقّظ من العدو الذي أوقعه في المعصية.

٢٢ ـ أنها سبيل لإغاظة الشيطان ومُرَاغَمته.

٢٣ ـ معرفة الشر حَذَرَ الوقوع فيه.

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٩٩).

أَسَبَابُ دَفْعِ العُقُوبَة

ويمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ التوبة.

٢ ـ الاستغفار.

٣ ـ الحسنات الماحية.

وهذه الثلاثة تَصْدُرُ من الإنسان نَفْسِه.

٤ ـ دعاء المؤمنين له.

٥ ـ ما يُعمَل للميت من أعمال البر، كالصدقة ونحوها.

٦ ـ شفاعة النبي ﷺ وغيره لأهل الذنوب من المُوحدين يومَ القيامةِ.

وهذه الثلاثة تكون من غيره.

٧ ـ المصائب التي يُكَفِّر الله بها الخطايا في الدنيا.

٨ ـ ما يحصل في القبرِ من الفتنة والضَغْطَة والرَّوْعة.

٩ ـ أهوال يوم القيامة وكُروبها وشَدائدها.

١٠ ـ رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد، وهو سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

وقد ذكرنا هذه الأسباب مختصرةً للتَّذَكّرِ والنَّظَرِ، ومن أراد التَّفْصِيل ومعرفة المزيد فليراجع مصنفاتِ الأئمةِ الذين تكلموا في ذلك[1].

---

(١) انظر في ذلك: «مجموع الفتاوى» (٧/٤٨٧ ـ ٥٠١)، و«الاستقامة» (٢/١٨٥)، و«جامع العلوم والحكم» (ص٣٢٩ ـ ٣٣٤)، و«البحار الزاخرة في أسباب المغفرة» (٥١ ـ ٢٥٤).

المَحَاذِيرُ فِي بَابِ التَّوْبَة

يجدر بنا التنبيهُ على بعضِ المَحَاذِيرِ التي تتصل بموضوع التوبة، فالعاقلُ مَنْ يُمَهِّد لنَفْسه في إصابةِ الخيرِ ودَفْعِ الشرِّ، ويأخذ حِذْرَه من آفاتِ الطريقِ.

فمن تلك المَحَاذِير:

١ ـ **تأجيل التوبة**: فكثيرٌ من الناس تَمضي أعمارُهم، وتَنقضي حياتُهم، وهم على رجاء التوبة بِزَعْمِهم، فَيُزَيِّنُ لهم الشيطانُ الأمانيَّ الكاذبةَ، وَيُثَبِّطُهُمْ عن وُلوجِ أبوابِ التوبةِ والرجوعِ إلى الله بالتَّسْويفِ، ولا يزال هذه دَأْبه حتى يأتيه الموتُ وهو على ذلك؛ فينبغي البِدَارُ بالتوبة، والإسراعُ في الفَيْئة، وقد عَلِمْنَا أن الله تعالى يَبْسُطُ يدَه بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مُسيءُ الليلِ، حتى تطلعَ الشمسُ من مَغْربها.

٢ ـ **الغفلة عن التوبة مما لا يَعْلَمُهُ العبدُ من ذنوبه**:

فعن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي»(١).

٣ ـ **تَرْك التوبة مَخَافة الرجوع للذنوب**، وذلك حين يَجِدُ من نَفْسه ضَعْفًا في العزيمة، وخَوَرًا في الهِمَّةِ، فيَتْرك التوبة؛ خشية أن يقع في الذنب بعد أن عَاهَدَ الله ألَّا يعود، وهذا من وحيِ الشيطان وأمره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

٤ ـ نَقْض التوبة، والعبد إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه مرة أخرى يكون ناقضًا للتوبة؛ فيلزمه حينئذ أن يُجدد توبتَه.

ومن ثَمَّ لا يرجع إليه ـ في هذه الحالة ـ إثمُ الذنبِ الذي تاب منه، والعائدُ إليه إنما هو إثم الذنبِ الجديدِ المُسْتأنفِ لا الماضي؛ لأن الماضي قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله.

وعلى هذا، فَلَا يَجُوزُ للتَّائِبِ إذا ابْتُلِيَ بالذنب مرَّةً أُخرى أن يَدَعَ التوبةَ بحجَّةِ أنه نَقَض التوبة، بل عليه أن يتوب، وأن يرجع إلى رَبِّهِ كلما أَحْدَثَ ذَنْبًا.

يقول سعيد بن المُسَيِّب في قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسرَاء: ٢٥]: «هو الذي يُذنِب ثم يتوب، ثم يُذنِب ثم يتوب، ثم يُذْنِبُ ثم يتوب»(١).

وعن سعيد الجُرَيْرِي قال: قلتُ للحسن: يا أبا سعيد! الرجلُ يُذنِب ثم يتوب، ثم يُذنِب ثم يتوب، ثم يُذنِب ثم يتوب، ثم يُذنِب ثم يتوب، حتى مَتَى؟ قال: «ما أعلم هذا إلّا من أخلاق المؤمنين»(٢).

٥ ـ تَرْك التوبة خوفًا من لَمزِ الناس.

٦ ـ تَرْك التوبة مَخَافة سقوط المَنزلة، وذهاب الجَاهِ والشُّهْرَةِ.

٧ ـ التمادي في الذنوب اعتمادًا على سَعة رحمة الله بزعمه.

يقول يحيى بن مُعاذ: «مِنْ أعظم الاغترار عندي التَّمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتَوَقُّع القُرْب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببَذْر النار، وَطَلَبِ دارِ المُطِيعينَ بالمعاصي، وانتظارِ الجزاءِ بغير عملٍ، والتمني على الله ﷻ مع الإفراط.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٩٤).

(٢) أخرجه عبد الله أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٨١).

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ»(١)

وقال الحسن البصري: «إن قومًا أَلْهَتْهم أمانيُّ المغفرة حتى خَرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة. يقول: إني لحَسَن الظن بربي. وكَذَبَ؛ لو أحسن الظنَّ بربه لأحسن العملَ»(٢).

٨ ـ الاغترار بحِلْم الله ﷻ، وإمهاله المُسيئينَ والمُذنبينَ:

وقد جاء من حديث أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

٩ ـ اليأس من رحمة الله، وهذه صفةُ الجاهلينَ الضالينَ، قال الخليل ﵇: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحِجر: ٥٦]، الذين لا علمَ لهم بربِّهم، وكمالِ اقتدارِه، وسعةِ رحمتِه.

وأما مَنْ أَنْعَمَ الله عليه بالهداية والعِلْم، فلا يقنط من رحمة ربه أبدًا؛ لأنه يعرف من كثرةِ الأسبابِ والوسائلِ والطُرُقِ لرحمةِ الله شيئًا كثيرًا.

١٠ ـ اليأس من توبة العُصاة، وهو من سُوء الظنِّ بالله، وقد تاب الله على كثير من أئمةِ الكفرِ ودعاةِ الضلالِ.

١١ ـ الشماتة بالمُبْتَلَينَ بالذنب، فإذا رأيتَ مُبْتَلًى فَسَلِ الله العافيةَ مما ابتلاه به، وَادْعُ له أن يهديَه الله بدلًا من الشماتةِ به، والسخريةِ منه.

وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّساء: ٩٤]، أي: فكَمَا هداكم بعدَ ضلالِكم فكذلك يهدي غيرَكم؛ فكم من مُتَمَرِّد على الله تاب الله عليه.

(١) «إحياء علوم الدين» (١٤٤/٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الوجل والتوثق بالعمل» (٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وحسنه ابن حجر في «تخريج مشكاة المصابيح» (١٦٨/٢).

والذي يَقْطَع لفلان بأنه لا يُوفَّق للتوبة، وأن الله لن يتوبَ عليه مُتَأَلٍّ على الله، فعلى العاقلِ أن يحذرَ من مثل تلك المَزَالِقِ الخطيرةِ.

١٢ ـ الاحتجاج بالقَدَرِ على فِعْلِ المعاصِي، وتَرْكِ الطاعاتِ.

يقول ابن تيمية: «السعيدُ يستغفرُ من المَعايب، ويصبر على المصائب، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

والشقيُّ يَجزعُ عندَ المَصائبِ، ويحتجُّ بالقَدَرِ على المَعايب... ولو كان القَدَرُ عُذْرًا للخَلْق لَلَزِمَ ألَّا يُلامَ أحدٌ ولا يُذَمَّ ولا يُعاقَب، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يُقْتَص من ظالمٍ أصلًا، بل يمكن للناس أن يفعلوا ما يشتهون مُطلقًا.

ومعلومٌ أن هذا لا يُتصور أن يقومَ عليه مصلحةُ أحدٍ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هو مُوجِبُ الفسادِ العامِّ، وصاحبُ هذا لا يكون إلّا ظالمًا مُتَنَاقِضًا، فإذا آذاه غيرُه أو ظَلَمَه طَلَبَ مُعَاقَبتَه وجازاه، ولم يَعْذر بالقَدَرِ، وإذا كان هو الظالم احتجَّ لنَفْسه بالقَدَرِ. فلا يَحتج أحد بالقَدَر إلّا لاتباع هواه بغير عِلْم»[١].

١٣ ـ توبة الكَذَّابينَ، فتَجِد أحدهم يهجر الذنبَ هَجْرًا مُؤقتًا، ثم يَتَحَيَّنُ الفُرَصَ لمعاودته، فمتى سَنَحَتْ له الفُرصةُ أَعادَ الكَرَّةَ، وهذا من البَلاءِ العظيمِ، نسأل الله العافيةَ.

١٤ ـ قِلّة العِناية بالتائبينَ، فقد يُوفَّق أحدهم للتوبة، ويمضي في طريقها مُسْتَبشرًا بصحبة خيار السالكين، وإذا رأى القاصدينَ شَمَّرَ إليهم، وَبَشَّ بهم، غير أنه قد يُفَاجَأُ بمعاملةٍ غيرِ حانيةٍ، ومُقَابَلَةٍ جَافَّةٍ أحيانًا، مما يجعل اليأسَ يدبُّ في دَواخِله، ولعله مع تَوالي ذلك عليه يَمْقت جملةَ الصُّلَحاء، وللشيطان في مثلِ ذلك مِنْ نفسِ العبدِ تدبيرٌ وَكَيْدٌ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/٤٥٤ ـ ٤٥٥) بتصرف.

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»(١).

فالواجبُ العنايةُ بهؤلاء، وتَعاهدهم بالنصحِ والإرشادِ، وتوفيرُ الصحبةِ المُلائمةِ من أهلِ الخيرِ للقيامِ بمصالحِهم، والاعتناءِ بهم، ومُعَاونتِهم على البِرِّ، وصُنْعِ المعروفِ.

١٥ ـ المُجاهَرة بالمعاصي: ففِعْلُ المعصية لا يُسَوِّغُ للعبدِ أن يجهرَ بها، أو يدعوَ إليها، أو يعمل غيرَها؛ فإن الله يمقتُ على ذلك كلِّه. وقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَة أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ الله عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ! عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ الله عَنْهُ»(٢).

وإن مِنْ تلبيس الشيطان على ابن آدم أن يأتيَه وقد تَلَبَّسَ بمعصيةٍ بعدَ أن انْصَلَح حالُه بعض الشيء، فيقول: تَظهر للناس في ثيابِ الصَّلَاحِ وتفعلُ ما تفعلُ في السِّرِّ؟! فلا يزال يُبَغِّضُ إليه حالَه، حتى يُحسِّنَ إليه الجهرَ بالمعصيةِ.

١٦ ـ تَرْك الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر، والدعوة إلى الله، فَفِعْلُ المعصيةِ لا يُسَوِّغُ للعبدِ مثلَ ذلك، فبعضُ الناسِ يترك الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المُنكر لمَا تَلَبَّسَ به من المعصية؛ مُحتجًّا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: ٣].

وبحديثِ أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما، أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) واللفظ له، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»[(١)].

وهذا من الجهل والخطأ البيِّنِ، وما جَعَلَ الله هذه الأمةَ خيرَ أمةٍ أُخرِجَتْ للناس إلّا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر، والإيمان بالله.

وقد ذكر الحافظُ ابن حجر عن بعض العلماء أنه قال: «يجب الأمرُ بالمعروفِ لمن قَدرَ عليه ولم يَخَفْ على نَفْسِه منه ضررًا، ولو كان الآمِرُ مُتَلَبِّسًا بالمعصية؛ لأنه في الجملة يُؤجَر على الأمر بالمعروف، ولا سيما إن كان مُطَاعًا، وأما إثمه الخاص به فقد يغفره الله له، وقد يُؤَاخِذه به. وأما مَنْ قال: لا يأمر بالمعروف إلّا من ليست فيه وَصْمةٌ؛ فإن أراد أنه الأَوْلَى فَجَيِّدٌ، وإلا فيَسْتَلْزم سَدَّ بابِ الأمرِ إذا لم يكن هناك غيرُه»[(٢)].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) «فتح الباري» (١٣/٥٧).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ التَّوْبَة

وإنما نَذْكُر أحوال هؤلاء النُّبلاَء الصُّلَحاء؛ لِيَتَشَبَّهَ الواقفُ على أحوالهم بهم، ويَتَزيَّا بزيِّهم، ويَحذو حَذوَهم؛ فإنه مَنْ أَحَبَّ قومًا حُشِرَ معهم، وَمَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم، ولا أقلَّ من أن يُقال: هم القومُ لا يشقَى بهم جليسُهم.

١ ـ فهذا عُتْبَة الغُلام، لَقِيَه عبد الواحد بن زيد في رَحَبَة القَصَّابين، في يوم شاتٍ شديد البَرْد، فإذا هو يَرْفَضّ[1] عَرَقًا، فقال له عبد الواحد: عُتْبَة! قال: نعم، قال: فما شأنك؟ ما لك تَعْرق في مثل هذا اليوم؟ قال: خير، قال: لَتُخْبِرَني قال: خير... فقال: لِلأُنْس الذي بيني وبينك والإخاء إلّا ما أخبرتني، قال: إني والله ذَكَرت ذَنْبًا أَصَبْتُه في هذا المكان، فهذا الذي رأيتَ من أَجْل ذلك[2].

٢ ـ وهذا بِشْرٌ بن الحارث الحَافِي، جاء في سببِ توبتِه أنه كان في زمن لَهْوِه في داره، وعنده رُفقاؤُه يشربونَ الخمرَ، ويطيبون، فاجتاز بهم رجلٌ من الصالحينَ، فَدَقَّ البابَ، فَخَرَجَتْ إليه جاريةٌ، فقال: صَاحبُ هذه الدار حُرٌّ أو عَبْدٌ؟ فقالت: بَلْ حُرٌّ. فقال: صَدَقْتِ؛ لو كان عبدًا لاستعمل أدبَ العبوديةِ، وَتَرَكَ اللهوَ والطَّربَ. فسمع بِشْرٌ مُحاورَتَهما، فسارع إلى الباب حَافيًا حَاسِرًا وقد ولَّى الرجلُ، فقال للجارية: وَيْحَك، مَنْ كَلَّمَكِ على

---

(١) أي: يتصبّب. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/٢٤٣)، مادة: (رفض).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٢٨).

الباب؟ فَأَخْبَرَتْهُ بما جرى، فقال: أيّ ناحية أخذ الرجلُ؟ فقالت: كذا، فتبعه بِشْرٌ حتى لحقه، فقال له: يا سيدي! أنتَ الذي وقفتَ بالباب وخاطبتَ الجاريةَ؟ قال: نعم، قال: أَعِدْ عليَّ الكلامَ، فأعاده عليه، فمَرَّغَ بِشر خَدَّيْهِ على الأرض، وقال: بَلْ عَبْدٌ، بَلْ عَبْدٌ، ثم انطلق حافيًا حَاسِرًا حتى عُرِفَ بالحفاء(١).

ومن الأمثلة المعاصرة:

هذا المُغَنِّي البريطانيُّ الذي كان يُعرف بـ (كات ستيفنز)، «وُلد في لندن، وَتَعَلَّمَ في مدرسة كاثوليكيَّة، كانت الحياةُ حولَ هذا الرَّجُلِ ماديةً كلها، فما كان منه إلّا أن اختار طريقَ الغِناءِ والثَرْوَةِ، فالتمسَ الغِنَى بالغِناء، فبلغ قمةَ الشُّهرةِ، وأصبحت الأموالُ طَوعَ بنانِه، وحينئذ بدأ القلقُ ينتابه خشيةَ السقوطِ؛ فَلَجَأَ إلى الخمرِ، وبدأ يكره الحياةَ، واعتزل الناسَ، وأُصِيب بالسِّلِّ، وَنُقِلَ إلى المستشفى، وبدأ يُفكر فيما هو عليه، فلم يقتنع تمامًا بتعاليم النصرانية، وبدأ يبحث عن السعادة التي لم يَجِدْهَا في الغناء ولا في الشُّهرة ولا في الكنيسة، فَطَرَقَ بابَ البُوذيةِ والفلسفة الصينية، فلم يجد السعادةَ، ثم انتقل إلى الشيوعيةِ، ولكنه شعر بأنها لا تتفق مع الفِطْرة، فاتَّجه إلى العقاقيرِ المُهَدِّئةِ ليقطع هذه السلسلة القاسية من الحَيْرة، ثم رجع مرة أخرى إلى عالم الغِناء، وفي عام (١٩٧٥م) أهداه شقيقُه الأكبرُ نسخةً من القرآن، ثم بَحَثَ عن تَرْجمةٍ لمعاني القرآنِ، فَفَكَّر في الإسلام، يقول: وَمِنْ أولِ وَهْلةٍ شعرتُ أن القرآنَ يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، وليس باسمٍ سوى اسم الله، وعبارةُ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) كانت مُؤثِّرةً في نفسي، ثم تستمر الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٢]، ثم بعد ذلك تَبَيَّنَ له أن القرآنَ يدعو إلى عبادةِ الله وحدَه، والإيمانِ باليومِ الآخِرِ، ويبين حقيقة

(١) «كتاب التوابين» لابن قدامة (ص١٢٩).

الإنسان وبدايتَه ونهايتَه، وقد حاول أن يبحثَ عن أخطاءٍ في القرآنِ ولكنه لم يَجِدْ. ومن هنا بدأ يعرفُ ما هو الإسلامُ.

يقول: لقد أجاب القرآنُ على كل تساؤلاتِي، وبذلك شَعَرْتُ بالسعادة؛ سعادةِ العثورِ على الحقيقةِ. وبعدَ قراءةِ القرآنِ الكريمِ كلِّه خلالَ عامٍ كاملٍ بدأتُ أُطَبِّقُ الأفكارَ التي قرأتُها فيه، فشعرتُ بذلك أنني المسلمُ الوحيدُ في العالَم، ثم فَكَّرتُ كيف أكون مُسْلِمًا حقيقيًّا؟ فاتجهتُ إلى مسجدِ لندنَ، وأشهرتُ إسلامي، وقلتُ: (أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله)، يقول: أما الملايينُ التي كَسِبْتُها فوهبتها للدعوةِ الإسلاميةِ، وسمَّى نفسَه بيوسف إسلام»[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة.

هذا آخر الكلام على موضوع التوبة، وهو آخر ما أردنا ذِكْره من الأعمال القلبية، نسأل الله أن يُصْلِح قلوبنا وأعمالنا، وأن يُلْهمنا رُشْدنا، ويقينا شَرّ أنفسنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

(١) «التوبة وظيفة العمر» (ص١٨٦) باختصار وتصرف.

قائمة المصادر والمراجع

١ ـ الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير: الحسين بن إبراهيم الجوزقاني، ت: عبد الرحمن الفريوائي، ط. دار الصميعي، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

٢ ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية: عبيد الله بن محمد ابن بطة، ت: مجموعة من المحققين، ط. دار الراية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٣ ـ إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: أحمد بن أبي بكر البوصيري، ت: دار المشكاة، بإشراف ياسر إبراهيم، ط. دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤ ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الزبيدي، ط. المطبعة الميمنية، ١٣١١هـ، تصوير: مؤسسة التاريخ العربي.

٥ ـ إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة: أحمد بن علي ابن حجر، ت: زهير الناصر وآخرين، ط. مركز خدمة السنة والسيرة بالمدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤١٥-١٤٢٣هـ.

٦ ـ الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار التراث، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٧ ـ الآثار السلوكية لمعاني أسماء الله الحسنى: رياض أدهمي، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٨ ـ الآحاد والمثاني: أحمد بن عمرو ابن أبي عاصم، ت: باسم الجوابرة، ط. دار الراية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٩ ـ أحاديث القصاص: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: محمد لطفي الصباغ، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ.

١٠ ـ الأحاديث المختارة: محمد بن عبد الواحد (ضياء الدين المقدسي)، ت: عبد الملك بن دهيش، ط. دار خضر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١١ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة: محمد بن عبد الله (لسان الدين ابن الخطيب)، ت: محمد عبد الله عنان، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

١٢ ـ إحكام الإحكام على عمدة الأحكام: محمد بن علي (ابن دقيق العيد)، ط. دار الكتاب العربي. (لا توجد بيانات أخرى).

١٣ ـ الأحكام الشرعية الكبرى: عبدالحق بن عبدالرحمن الإشبيلي، ت: حسين بن عكاشة، ط. مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٤ ـ الأحكام الصغرى: عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي، ت: أم محمد الهليس، ط. مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٥ ـ أحكام أهل الذمة: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: صبحي الصالح. (لا توجد بيانات الطبع).

١٦ ـ الإحكام في أصول الأحكام: علي بن أحمد ابن حزم. (لا توجد بيانات الطبع).

١٧ ـ إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الغزالي، ط. المشهد الحسيني. (لاتوجد بيانات أخرى).

١٨ ـ أخبار الشيوخ وأخلاقهم: أحمد بن محمد (أبو بكر المَرُّوْذِيُّ)، ت: عامر حسن صبري، ط. دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٩ ـ الإخلاص والنية: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: إياد الطباع، ط. دار البشائر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٢٠ ـ أخلاق العلماء: محمد بن الحسين الآجري، ت: أحمد حاج محمد عثمان، ط. أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٢١ ـ أخلاق حملة القرآن: محمد بن الحسين الآجري، ت: محمد عمرو بن عبد اللطيف، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٢ ـ الأخلاق والسير: علي بن أحمد ابن حزم، ت: عادل أبو المعاطي، ط. دار المشرق العربي - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٣ ـ الإخوان: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد عبد الرحمن طوالبة، ط. دار الاعتصام. (لا توجد بيانات أخرى).

٢٤ ـ آداب الشافعي ومناقبه: عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم، ت: عبد الغني عبد الخالق، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ.

٢٥ ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية: محمد بن مفلح المقدسي، ت: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

٢٦ ـ الآداب: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: عبد القدوس نذير، ط. مكتبة الرياض الحديثة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٧ ـ أدب الدنيا والدين: علي بن محمد الماوردي، ت: ياسين السواس، ط. دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٢٨ ـ الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي. ط. البشائر، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.

٢٩ ـ الأذكار النووية: يحيى بن شرف النووي، ت: عبد القادر الأرناؤوط، ط. دار الهدى، الطبعة الثامنة، ١٤٢٢هـ.

٣٠ ـ الأذكياء: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: عبد الرحمن الحلو، ط. إحياء العلوم، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.

٣١ ـ الأربعين النووية: يحيى بن شرف النووي (مطبوع مع جامع العلوم والحكم).

٣٢ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: محمد بن محمد (أبو السعود العمادي)، ط. دار إحياء التراث العربي.

٣٣ ـ الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد: صالح بن فوزان الفوزان، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٣٤ ـ الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات: طارق عوض الله بن محمد، ط. مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٣٥ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد بن ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٣٦ ـ أساس البلاغة: محمود بن عمرو الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود، ط. دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٧ ـ الأسامي والكنى: أحمد بن حنبل، ت: عبد الله بن يوسف الجديع، ط. مكتبة دار الأقصى - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٣٨ ـ أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي، ت: عصام الحميدان، ط. دار الذخائر - مؤسسة الريان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ.

٣٩ ـ الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار: يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، ت: عبدالمعطي قلعجي، ط. دار قتيبة - دار الوعي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٤٠ ـ الاستقامة: أحمد بن عبد الحميد ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ.

٤١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، ت: علي البجاوي، ط. دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٤٢ ـ الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة: علي القاري، ت: محمد لطفي الصباغ، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٤٣ ـ الأسماء والصفات: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: عبد الله الحاشدي، ط. مكتبة السوادي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٤ ـ الأشربة: أحمد بن محمد بن حنبل، ت: صبحي السامرائي، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٤٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي ابن حجر، ط. السلطانية، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.

٤٦ ـ أصل صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٤٧ ـ إصلاح المال: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد عبد القادر عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٤٨ ـ أصول الفقه: محمد بن مفلح المقدسي، ت: فهد السدحان، ط. العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٩ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي، إشراف: بكر أبو زيد، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٥٠ ـ أطراف الغرائب والأفراد: محمد بن طاهر المقدسي، ت: محمود نصار، والسيد يوسف، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٥١ ـ إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد: صالح بن فوزان الفوزان، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٥٢ ـ الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: نجم عبد الرحمن خلف، ط. دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٥٣ ـ الاعتقاد: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: فريح البهلال، ط. إدارة البحوث العلمية والإفتاء، ١٤٢٣هـ.

٥٤ ـ اعتلال القلوب: محمد بن جعفر الخرائطي، ت: حمدي الدمرداش، ط. نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥٥ ـ أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: حمد بن محمد الخطابي، ت: محمد بن سعد آل سعود، ط. جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥٦ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: مشهور آل سلمان، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٥٧ ـ الأعلام: خير الدين بن محمود الزركلي، ط. دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠م.

٥٨ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: علي الحلبي، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٨هـ.

٥٩ ـ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: ناصر العقل، ط. إشبيليا، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

٦٠ ـ اقتضاء العلم العمل: أحمد بن علي (الخطيب البغدادي)، ت: الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦١ ـ إِكمَالُ المُعْلِم بفَوَائِدِ مسلم: عياض بن موسى المعروف بالقاضي عياض، ت: د. يحْيَى إِسْمَاعِيل، ط. دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٦٢ ـ الأم: محمد بن إدريس الشافعي، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٦٣ ـ الأمالي المطلقة: أحمد بن علي ابن حجر، ت: حمدي السلفي، ط.المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٦٤ ـ الأمالي في آثار الصحابة: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت: مجدي السيد إبراهيم، ط. مكتبة القرآن.

٦٥ ـ الأمالي: إسماعيل بن القاسم القالي، ط. دار الكتاب العربي. (لا توجد بيانات أخرى).

٦٦ ـ الأمالي: علي بن محمد ابن بشران. وله طبعتان، إحداهما تكمل الأخرى:
الأولى: ت: أحمد سليمان، ط. دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
والثانية: ت: عادل العزازي، ط. دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٧ ـ الأمثال السائرة من شعر المتنبي: إسماعيل بن عباد الطالقاني المشهور بالصاحب ابن عباد، ت: محمد حسن آل يس، ط. مكتبة النهضة - بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ.

٦٨ ـ الأمثال: أبو عبيد القاسم بن سلام، ت: عبد المجيد قطامش، ط. مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.

٦٩ ـ الأمراض والكفارات والطب والرقيات: محمد بن عبد الواحد (ضياء الدين المقدسي)، ت: أبي إسحاق الحويني، ط. ابن عفان، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

٧٠ ـ الأموال: أبو عبيد القاسم بن سلام، ت: سيد رجب، قدم له أبو إسحاق الحويني، ط. دار الفضيلة، ودار الهدي النبوي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

٧١ ـ الأموال: حميد بن مخلد ابن زنجوية، ت: شاكر فياض، ط. مركز الملك فيصل للبحوث، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٧٢ ـ إنباه الرواة على أنباء النحاة: علي بن يوسف القفطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية، ١٤٣٠هـ.

٧٣ ـ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، ت: الكوثري، ط. دار الكتب (لا توجد بيانات أخرى).

٧٤ ـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف: علي بن سليمان المرداوي، ت: عبد الله التركي، ط. دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٧٥ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

٧٦ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: علي بن محمد الفاسي، ط. دار المنصور بالرباط.

٧٧ ـ أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ت: إياد القيسي، ط. بيت الأفكار الدولية، ١٤٢٥هـ.

٧٨ ـ الأولياء: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد بسيوني، ط. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٧٩ ـ إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد: محمد ابن إبراهيم ابن الوزير، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

٨٠ ـ الإيمان: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية - ضمن مجموع الفتاوى -.

٨١ ـ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: إسماعيل بن عمر ابن كثير، ت: علي الحلبي، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٨٢ ـ البحر المحيط في التفسير: محمد بن يوسف ابن حيان، ت: صدقي محمد جميل، ط. دار الفكر - بيروت، الطبعة ١٤٢٠هـ.

٨٣ ـ البحر المحيط: محمد بن عبد الله الزركشي، ت: عبد الستار أبو غدة، ط. وزارة الأوقاف بالكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٨٤ ـ البحور الزاخرة في أسباب المغفرة: سيد بن حسين العفاني، ط. مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٨٥ ـ البخلاء: عمرو بن بحر الجاحظ، ت: طه الحاجري، ط. دار المعارف، الطبعة الخامسة. (لا توجد بيانات أخرى).

٨٦ ـ البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر ابن كثير، ت: عبد الله التركي، ط. دار عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٨٧ ـ التبيان في شرح الديوان: أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السَّقَّا وإخوانه، تصوير دار المعرفة.

٨٨ ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: أبو بكر بن مسعود الكاساني، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٨٩ ـ بدائع الفوائد: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: علي العمران، ط. عالم الفوائد، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

٩٠ ـ البدر المنير: عمر بن علي ابن الملقن، ت: مصطفى أبو الغيط، وعبد الله بن سليمان، وياسر بن كمال، ط. دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٩١ ـ بذل الماعون في فضل الطاعون: أحمد بن علي ابن حجر، ت: أحمد الكاتب، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٩٢ ـ البرهان في علوم القرآن: محمد بن عبد الله الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعرفة، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.

٩٣ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت: محمد علي النجار، ط. المكتبة العلمية.

٩٤ ـ البعث والنشور: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: عامر أحمد حيدر، ط. مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٩٥ ـ بغية الوعاة: عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية - لبنان - صيدا.

٩٦ ـ البلغة في تاريخ أئمة اللغة: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت: محمد المصري، ١٣٩٢هـ.

٩٧ ـ بهجة المجالس وأُنس المُجَالِس، وشحذ الذاهن والهاجس: يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، ت: محمد مرسي الخولي. ط. دار الكتب العلمية.

٩٨ ـ بيان الدليل على بطلان التحليل: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: أحمد الخليل، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٩٩ ـ بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام: علي بن محمد ابن القطان، ت: حسين آيت سعيد، ط. دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٠٠ ـ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: مجموعة من المحققين، بإشراف عبد العزيز الراجحي، ط. مجمع الملك فهد للمصحف الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٠١ ـ البيان والتبين: عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ.

١٠٢ ـ تاج العروس في جواهر القاموس: محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، ط. وزارة الإعلام الكويتية، سنة ١٣٨٥هـ.

١٠٣ ـ تاريخ ابن معين: يحيى بن معين البغدادي، ت: د. أحمد محمد نور سيف، ط. مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، ١٣٩٩هـ.

١٠٤ ـ تاريخ الإسلام: محمد بن أحمد الذهبي، ت: عمر عبد السلام تدمري، ط. دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٠٥ ـ تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري، ط. دار التراث - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

١٠٦ ـ تاريخ الخلفاء: عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ١٣٧٩هـ.

١٠٧ ـ التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل البخاري، تصحيح وتعليق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ط بالهند، ١٣٦٠هـ.

١٠٨ ـ تاريخ المدينة: عمر بن شبة النميري، ت: فهيم محمد شلتوت، ١٣٩٩هـ.

١٠٩ ـ تاريخ بغداد: أحمد بن علي (الخطيب البغدادي)، ت: محمد حامد الفقي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت.

١١٠ ـ تاريخ جرجان: حمزة بن يوسف الجرجاني، ت: عبدالرحمن بن يحيى المعلمي، ط. مطبعة دائرة المعارف العثمانية، مصورة دار عالم الكتب، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.

١١١ ـ تاريخ مدينة دمشق: علي بن الحسن ابن عساكر، ت: عمر بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١١٢ ـ تأويل مختلف الحديث: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ط. المكتب الاسلامي - مؤسسة الإشراق، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١١٣ ـ التبصرة: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١١٤ ـ التبيان في آداب حملة القرآن: يحيى بن شرف النووي، ت: بشير محمد عيون، ط. مكتبة دار البيان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ.

١١٥ ـ التبيان في أيمان القرآن: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عبد الله البطاطي، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١١٦ ـ تبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة: محمد عمرو عبد اللطيف، ط. التوعية الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١١٧ ـ التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور، مكتبة ابن تيمية، توزيع الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١١٨ ـ تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي: عبد الرحمن المباركفوري، ت: عبد الرحمن عثمان، ط. مكتبة ابن تيمية، ١٤١٤هـ.

١١٩ ـ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف: يوسف بن عبد الرحمن المزي، ت: عبد الصمد شرف الدين، ط. الدار القيمة، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ.

١٢٠ ـ التحفة العراقية في الأعمال القلبية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ضمن مجموع الفتاوى).

١٢١ ـ تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج: عمر بن علي ابن الملقن، ت: عبد الله بن سعاف اللحياني، ط. دار حراء - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٢٢ ـ تحفة المحتاج: أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، روجعت وصححت: على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء، ط. المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ١٣٥٧هـ/ ١٩٨٣م.

١٢٣ ـ تخريج أحاديث مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام: محمد بن ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٢٤ ـ تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد: فريح بن صالح البهلال، ط. دار الأثر، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٢٥ ـ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف: عبد الله بن يوسف الزيلعي، ت: سلطان الطبيشي، ط. ابن خزيمة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٢٦ ـ التخويف من النار: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ت: بشير عيون، ط. دار البيان، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

١٢٧ ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي)، ت: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٢٨ ـ التدوين في أخبار قزوين: عبد الكريم من محمد الرافعي. ت: عزيز الله العطاردي، ط. المطبعة العزيزية، حيدر آباد - الهند، ١٤٠٤هـ.

١٢٩ ـ تذكرة الحفاظ: محمد أحمد الذهبي، تصحيح: عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣٠ ـ التذكرة الحمدونية: محمد بن حمدون.، ط. دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٣١ ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: محمد بن إبراهيم ابن جماعة، ط. الهندية، تصوير دار الكتب العلمية.

١٣٢ ـ تذكرة الموضوعات: محمد طاهر بن علي الفتني، الطبعة الهندية، تصوير: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

١٣٣ ـ التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: محمد بن أحمد القرطبي، ت: الصادق إبراهيم، ط. دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٣٤ ـ التذكرة في الوعظ: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: أحمد عبد الوهاب فتيح، ط. دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٣٥ ـ تراجم رجال القرنين: عبد الرحمن بن إسماعيل، المعروف بأبي شامة، عَرَّف الكتاب وتَرْجَم للمؤلف وصححه: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، وعني بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه: عِزَّت العطار الحسيني، ط. دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م.

١٣٦ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: القاضي عياض بن موسى، ت: مجموعة من المحققين، ط. وزارة الأوقاف المغربية. (وأعتمد أحيانا على ط. دار الحياة مع الإشارة إليها).

١٣٧ ـ الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك: عمر بن أحمد ابن شاهين، ت: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

١٣٨ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: عبد الحق بن عبد القوي المنذري، ت: مصطفى عمارة، ط. دار الريان، ١٤٠٧هـ.

١٣٩ ـ تسلية أهل المصائب: محمد بن محمد المنبجي، ط. دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

١٤٠ ـ تسهيل العقيدة الإسلامية: عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، ط. دار العصيمي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.

١٤١ ـ التعريفات الفقهية: محمد عميم البركتي، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٤٢ ـ التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، ط. مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٤٣ ـ تعظيم قدر الصلاة: محمد بن نصر المروزي، ت: د. عبد الرحمن الفريوائي، ط. مكتبة الدار الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٦هـ.

١٤٤ ـ التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان: محمد ناصر الدين الألباني، ط. دار باوزير للنشر والتوزيع - جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٤٥ ـ تغليق التعليق على صحيح البخاري: علي بن أحمد ابن حجر، ت: سعيد القزقي، ط. المكتب الإسلامي، دار عمار.

١٤٦ ـ تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم مسندا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين): عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي، ط. مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٤٧ ـ تفسير أسماء الله الحسنى: إبراهيم بن السري الزّجّاج، ت: أحمد الدقاق، ط. دار المأمون، الطبعة الخامسة، ١٤٠٦هـ.

١٤٨ ـ التفسير البسيط: علي بن أحمد الواحدي، ت: مجموعة طلاب من جامعة الإمام محمد بن سعود، ط. عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

١٤٩ ـ تفسير التستري: سهل بن عبد الله التُستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، ت: محمد باسل عيون السود، ط.منشورات محمد علي بيضون - دارالكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٣هـ.

١٥٠ ـ تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر ابن كثير، ت: سامي السلامة، ط. دار طيبة، الطبعة الأولى من الإصدار الثاني، ١٤٢٢هـ.

١٥١ ـ تفسير القرآن: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت: مصطفى مسلم، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٥٢ ـ تفسير القرآن: محمد بن إبراهيم بن المنذر، ت: سعد السعد، ط. دار المآثر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٥٣ ـ تلبيس إبليس: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: خير الدين وانلي، ط. دار الوعي.

١٥٤ ـ التلخيص الحبير، (التمييز في تلخيص أحاديث شرح الوجيز): أحمد بن علي ابن حجر، ت: محمد الثاني بن موسى، ط. أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

١٥٥ ـ تلخيص العلل المتناهية: محمد بن أحمد أحمد الذهبي، ت: ياسر إبراهيم، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٥٦ ـ تلخيص المستدرك: محمد بن أحمد الذهبي -بهامش المستدرك للحاكم.-

١٥٧ ـ تلخيص الموضوعات: محمد بن أحمد الذهبي، ت: الفريوائي، ط. دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٥٨ ـ تمام المنة في التعليق على فقه السنة: محمد ناصر الدين الألباني، ط. دار الراية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٦هـ.

١٥٩ ـ التمثيل والمحاضرة: عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق عبد الفتاح الحلو، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١٦٠ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: يوسف بن عبد الله بن عبد البر، ت: جماعة من العلماء. ط. وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية، ١٣٨٧هـ.

١٦١ ـ تنبيه الغافلين: نصر بن محمد السمرقندي، ت: سمير حلبي، ط. المكتبة العصرية.

١٦٢ ـ تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر: عبد الرحمن بن علي الجوزي، ت: محمد بن ناصر العجمي، ط. دار البشائر الإسلامية.

١٦٣ ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة: علي بن محمد الكناني، ت: عبد الوهاب بن عبد اللطيف، ط. الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.

١٦٤ ـ تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق: محمد بن أحمد بن عبد الهادي، ت: سامي جاد الله، وعبد العزيز الخباني، ط. أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

١٦٥ ـ التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ.

١٦٦ ـ التهجد وقيام الليل: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: مصلح الحارثي، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

١٦٧ ـ تهذيب التهذيب: أحمد بن علي ابن حجر، ط. دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

١٦٨ ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن المزي، ت: بشار عواد معروف، ط. الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٦٩ ـ تهذيب اللغة: محمد بن أحمد الأزهري، ت: عبد السلام هارون وآخرين، ط. الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، ١٩٦٦م.

١٧٠ ـ تهذيب سنن أبي داود: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: أحمد شاكر ومحمد الفقي، ط. دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ.

١٧١ ـ التوابين: عبد الله بن أحمد ابن قدامة، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٧٢ ـ التواضع والخمول: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: لطفي الصغير، ط. دار الاعتصام، الطبعة الأولى.

١٧٣ ـ التوبة وظيفة العمر: محمد بن إبراهيم الحمد، ط. دار ابن خزيمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٧٤ ـ التوبة: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: مجدي السيد إبراهيم، ط. مكتبة القرآن.

١٧٥ ـ توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم: أحمد بن إبراهيم بن عيسى، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ.

١٧٦ ـ التوضيح لشرح الجامع الصحيح: عمر بن علي ابن الملقن، ت: مجموعة من المحققين، بإشراف خالد الرباط، ط. دار النوادر، بإشراف وزارة الأوقاف القطرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١٧٧ ـ التوقيف على مهمات التعاريف: عبد الرؤوف بن علي المناوي، ط. عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٧٨ ـ التوكل على الله: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: جاسم الفهيد الدوسري، ط. دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٧٩ ـ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد: سليمان بن عبد الوهاب التميمي، ت: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى.

١٨٠ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي، اعتنى به: سعد الصميل، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٨١ ـ الثقات: محمد بن حبان البستي، ط. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.

١٨٢ ـ جامع الإمام الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد شاكر، ط. مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

١٨٣ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن بن جرير الطبري، له طبعتان: الأولى: (من أول التفسير إلى تفسير سورة إبراهيم)، ت: محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار

المعارف - مصر، سنة ١٩٦٩م. والثانية: (من بداية تفسير سورة الحجر إلى نهاية التفسير) ت: عبد الله التركي، ط. دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٨٤ ـ جامع الرسائل: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، ط. دار العطاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٨٥ ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ت: طارق عوض الله، ط. ابن الجوزي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣هـ.

١٨٦ ـ جامع المسائل: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: عزير شمس، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى.

١٨٧ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: يوسف بن عبد الله بن عبد البر، ت: أبي الأشبال الزهيري، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٨٨ ـ الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان: محمد أحمد القرطبي، ت: عبد الله التركي، ط. الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

١٨٩ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: أحمد بن علي (الخطيب البغدادي)، ت: محمد عجاج الخطيب، ط. الرسالة، ١٤١٠هـ.

١٩٠ ـ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية: محمد عزير شمس، وعلي بن محمد العِمران، ط. دار عالم الفوائد، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ.

١٩١ ـ الجامع لشعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: عبد العلي حامد، ط. الدار السلفية - وزارة الأوقاف القطرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١٩٢ ـ الجامع: (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق): معمر بن راشد الأزدي، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. المجلس العلمي - باكستان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

١٩٣ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس: محمد بن أبي نصر الحميدي، ط. مكتبة الخانجي.

١٩٤ ـ الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن محمد، المعروف بـ (ابن أبي حاتم الرازي)، ت: المعلمي، ط. مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، ١٣٧٢هـ.

١٩٥ ـ جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: زائد النشيري، ط. دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

١٩٦ ـ جمل من أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى البَلَاذُري، ت: سهيل زكار، ورياض الزركلي، ط. دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٩٧ ـ جمهرة الأمثال: الحسن بن عبد الله العسكري. ط. دار الفكر - بيروت.

١٩٨ ـ جواب أهل العلم والإيمان: بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: أبي عمر الندوي، ط. دار القاسم، ١٤٢١هـ.

١٩٩ ـ جواهر الأدب: أحمد بن إبراهيم الهاشمي، ط. دار الفكر، الطبعة الثلاثون.

٢٠٠ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، ت: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٠١ ـ الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت: إبراهيم بن باجس، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٠٢ ـ الجوع: لابن أبي الدنيا، ت: محمد خير رمضان يوسف، طبعة دار ابن حزم - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٠٣ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: محمد بن أبن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: زائد النشيري، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

٢٠٤ ـ حاشية ابن عابدين على الدر المختار: محمد أمين بن عمر ابن عابدين، ط. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٦هـ.

٢٠٥ ـ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عِناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: أحمد الخفاجي، ط. دار صادر - بيروت.

٢٠٦ ـ حاشية كتاب التوحيد: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (لا يوجد اسم للدار) الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٢٠٧ ـ الحث على التجارة: أحمد بن محمد الخلال، ت: محمود الحداد، ط. دار العاصمة.

٢٠٨ ـ حجة القراءات: عبد الرحمن بن محمد أبو زرعة، ت: سعيد الأفغاني، ط. دار الرسالة.

٢٠٩ ـ حسن الظن بالله: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: عبد الحميد شانوحة، ط. دار الثقة، ١٤١٠هـ.

٢١٠ ـ الحلم: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: مجدي السيد إبراهيم، ط. مكتبة القرآن، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢١١ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أحمد بن عبد الله (أبو نعيم الأصبهاني)، ط. السعادة، الطبعة، الأولى، ١٣٩٤هـ.

٢١٢ ـ الحماسة البصرية: علي بن أبي الفرج البصري، ت: مختار الدين أحمد، ط. عالم الكتب - بيروت.

٢١٣ ـ حياة الحيوان الكبرى: محمد بن موسى الدميري، ط. دار الفكر.

٢١٤ ـ الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٢١٥ ـ الخراج: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، ت: طه عبد الرؤوف سعد، وسعد حسن محمد، ط. المكتبة السلفية - القاهرة.

٢١٦ ـ خصائص الإمام علي ﷺ: أحمد بن شعيب النسائي، ت: أحمد البلوشي، ط. المعلا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢١٧ ـ خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.

٢١٨ ـ خطط الشام: محمد بن عبد الرزاق كُرْد عَلي، ط. مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م.

٢١٩ ـ خلاصة الأحكام: يحيى بن شرف النووي، ت: حسين إسماعيل الجمل، ط. مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٢٠ ـ الخوف من الله تعالى: محمد شومان الرملي، ط. دار ابن القيم، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٢١ ـ الداء والدواء: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد الإصلاحي، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٢٢٢ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: عبد الله التركي، ط. دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢٢٣ ـ درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية سنة ١٤١١هـ.

٢٢٤ ـ دراسة حديث «نضر الله وجه امرئ..»: عبد المحسن بن حمد العباد، ط. دار التوحيد، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.

٢٢٥ ـ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم (لا يوجد اسم للدار الطابعة)، الطبعة السابعة، ١٤٢٥هـ.

٢٢٦ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: أحمد بن علي ابن حجر، ت: سالم كرنكو (لا توجد بيانات الطبع).

٢٢٧ ـ الدعوات الكبير: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: بدر البدر، ط. غراس للنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

٢٢٨ ـ دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية: محمد السيد الجليند، ط. مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٢٢٩ ـ دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: د. عبد المعطي قلعجي، ط. دار الكتب العلمية - دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٣٠ ـ الدلائل في غريب الحديث: قاسم بن ثابت ابن حزم، ت: د. محمد بن عبد الله القناص، ط. مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م.

٢٣١ ـ ديوان ابن الدمينة: عبد الله بن الدمينة الخثعمي، جمع: ثعلب ومحمد بن حبيب، ت: أحمد راتب النفاخ، ط. مكتبة دار العروبة - القاهرة، ١٣٧٩هـ.

٢٣٢ ـ ديوان ابن الفارض: عمر بن علي ابن الفارض، ط. مكتبة الثقافة الدينية، (لا توجد بيانات أخرى).

٢٣٣ ـ ديوان ابن المبارك: عبد الله بن المبارك الحنظلي، جمع وتحقيق: د. مجاهد مصطفى بهجت، ط. مجلة البيان، ١٤٣٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٣٤ ـ ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره، صنعه عبد الله الجبوري، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٣٥ ـ ديوان أبي العلاء المعري: أحمد بن عبد الله (أبو العلاء المعري)، لا توجد بيانات أخرى للطبعة.

٢٣٦ ـ ديوان أبي تمام: فسر ألفاظه اللغوية، ووقف على طبعه: محيي الدين الخياط، طبع بمناظرة والتزام: محمد جمال.

٢٣٧ ـ ديوان أبي تمام: يحيى بن علي التبريزي، راجي الأسمر، ط. دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٢٣٨ ـ ديوان أبي فراس الحمداني، ط. دار صادر.

٢٣٩ ـ ديوان إسماعيل بن القاسم المشهور بأبي العتاهية، ط. دار بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٤٠ ـ ديوان إسماعيل صبري: إسماعيل صبري باشا، ت: محمد القصاص، وعامر محمد، وأحمد كمال، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٢٤١ ـ ديوان الشافعي (الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس): محمد بن إدريس الشافعي، إعداد وتعليق وتقديم: إبراهيم سليم، ط. مكتبة ابن سيناء.

٢٤٢ ـ ديوان المتنبي مع العرف الطيب: ناصيف اليازجي، صوّب نصوصه وضبطها وقدم له: د. عمر فاروق الطباع، ط. دار الأرقم - بيروت - لبنان.

٢٤٣ ـ ديوان بشر بن أبي حازم، ت: عزة حسن، ط. دار الشرق العربي، ١٤١٦هـ.

٢٤٤ ـ ديوان بهاء الدين زهير: بهاء الدين زهير، ط. دار صادر - دار بيروت، سنة النشر: ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

٢٤٥ ـ ديوان علي بن أبي طالب، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٤٦ ـ ديوان علي جَبَلَة العكوَّك، جمع وتحقيق د. حسين عطوان، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

٢٤٧ ـ ديوان لبيد بن ربيعة: لبيد بن ربيعة بن مالك، ت: حمدو طماس، ط. دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٢٤٨ ـ ديوان محمود الوراق: محمود بن حسن الوراق، جمع ودراسة وتحقيق: د. وليد قصاب، ط. مؤسسة الفنون، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٢٤٩ ـ ديوان معروف الرصافي: معروف الرصافي (لا توجد بيانات أخرى للطبعة).

٢٥٠ ـ ديوان نفحات ولفحات: يوسف القرضاوي، ط. دار النشر والتوزيع الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٥١ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: أحمد بن عبد الله (محب الدين الطبري)، ت: أكرم البوشي، ط. مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٥٢ ـ الذخيرة: أحمد بن إدريس القرافي، ت: ج/ ١، ٨، ١٣: محمد حجي، ج/ ٢، ٦: سعيد أعراب، ج/ ٣-٥، ٧، ٩-١٢: محمد بو خبزة، ط. دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٢٥٣ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: أبو اليزيد العجمي، ط. دار السلام - القاهرة، ١٤٢٨هـ.

٢٥٤ ـ ذكر أخبار أصبهان: أحمد بن عبد الله (أبو نعيم الأصبهاني)، ت: سيد كسروي حسن، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٥٥ ـ الذكريات: علي بن مصطفى الطنطاوي، ط. دار المنارة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٧هـ.

٢٥٦ ـ الذل والانكسار للعزيز الجبار: عبد الرحمن بن أحمد بن ابن رجب، ت: طارق حجازي، ط. دار الرسالة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

٢٥٧ ـ ذم الكلام وأهله: عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، ت: عبد الرحمن بن عبد العزيز الشبل، ط. مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٢٥٨ ـ ذم المسكر: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: نجم عبد الرحمن خلف، ط. دار الراية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٥٩ ـ ذم الملاهي: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: عمرو عبد المنعم سليم، ط. مكتبة ابن تيمية - القاهرة، مكتبة العلم - جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٦٠ ـ ذم الهوى: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي.

٢٦١ ـ ذيل تاريخ بغداد: لابن الدبيثي، ت: بشار عواد معروف، ط. وزارة الإعلام العراقية، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ.

٢٦٢ ـ رحلة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الإشبيلي، ت: محمد بن تاويت الطَّنجي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٦٣ ـ رسالة ابن القيم إلى بعض إخوانه: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عبد الله بن محمد المديفر، ط. دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

٢٦٤ ـ الرسالة التبوكية: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد عزير شمس، ط. عالم الفوائد، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

٢٦٥ ـ الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوازن القشيري، ت: عبد الحليم محمود ومحمود الشريف، ط. دار المعارف.

٢٦٦ ـ رسالة في التوبة لابن تيمية -ضمن جامع الرسائل.-

٢٦٧ ـ الرضا عن الله بقضائه: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: ضياء الحسن السلفي، ط. الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٦٨ ـ الرعاية لحقوق الله: الحارث بن أسد المحاسبي.

٢٦٩ ـ رفقا بالقوارير (نصائح للأزواج): أمة الله بنت عبد المطلب، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

٢٧٠ ـ الرقة والبكاء: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد خير رمضان يوسف، ط. ابن حزم، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

٢٧١ ـ روح البيان: إسماعيل حقي الإستانبولي، ط. دار الفكر - بيروت.

٢٧٢ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود بن عبد الله الألوسي، ط. الطبعة المنيرية، ١٣٥٣هـ، (تصوير دار إحياء التراث العربي).

٢٧٣ ـ الروح في الأرواح والأموات: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: بسام العموش، ط. مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٧٤ ـ روضة الطالبين: يحيى بن شرف النووي، ت: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق - عمان، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٢٧٥ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: محمد بن حبان البستي، ت: عبدالرزاق حمزة، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٧هـ.

٢٧٦ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد عزيز شمس، ط. دار عالم الفوائد.

٢٧٧ ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة، ت: إبراهيم الزيبق، ط. الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٧٨ ـ رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي، ت: شعيب الأرناؤوط، ط. الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ.

٢٧٩ ـ زاد المسير في علم التفسير: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ.

٢٨٠ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عبد القادر الأرناؤوط، وشعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٤هـ.

٢٨١ ـ الزهد الكبير: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: تقي الدين الندوي، ط. دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢٨٢ ـ الزهد والرقائق: عبد الله بن المبارك الحنظلي، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. دار الكتب العلمية، مصورة الطبعة الهندية، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

٢٨٣ ـ الزهد وصفة الزاهدين: أحمد بن محمد ابن الأعرابي، ت: مجدي فتحي السيد، ط. دار الصحابة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٨٤ ـ الزهد: أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، ت: عبد العلي حامد، ط. الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٨٥ ـ الزهد: أحمد بن محمد بن حنبل، ط. دار الكتب العلمية، مصورة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢٨٦ ـ الزهد: سليمان بن الأشعث (أبو داود السجستاني)، ت: ياسر إبراهيم، وغنيم عباس، ط. دار المشكاة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٨٧ ـ الزهد: عبد الله محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٨٨ ـ الزهد: هناد بن السَّري الدارمي، ت: عبد الرحمن الفريوائي، ط. دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٨٩ ـ الزهد: وكيع بن الجراح الرؤاسي، ت: عبد الرحمن الفريوائي، ط. دار الصميعي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٩٠ ـ الزواجر عن اقتراف الكبائر: أحمد بن محمد (ابن حجر الهيتمي)، ط. دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٩١ ـ زوائد الزهد لنعيم بن حماد المروزي (راجع: الزهد لابن المبارك).

٢٩٢ ـ السبعة في القراءات: أحمد بن موسى التميمي، وأبو بكر بن مجاهد البغدادي، ت: شوقي ضيف، ط. دار المعارف - مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٢٩٣ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، ١٤١٥هـ.

٢٩٤ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيئ في الأمة: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، ١٤٢١هـ.

٢٩٥ ـ السماع: محمد بن طاهر المقدسي، ت: أبي الوفا المراغي، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالأزهر، ١٤٢٣هـ.

٢٩٦ ـ السنة: أحمد بن عمرو ابن أبي عاصم، ت: الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤١٩هـ.

٢٩٧ ـ السنة: لأبي بكر الخلال، ت: عطية الزهراني، ط. دار الراية - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٢٩٨ ـ سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. إحياء التراث الإسلامي.

٢٩٩ ـ سنن أبي داود السجستاني، ت: محمد عوامة، ط. دار القبلة ومؤسسة الريان، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.

٣٠٠ ـ سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٣٠١ ـ سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ت: حسين سليم، ط. دار المغني للنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٠٢ ـ السنن الصغرى: أحمد بن شعيب النسائي، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط. المطبوعات الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ.

٣٠٣ ـ السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي، ت: حسن عبد المنعم شلبي، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٠٤ ـ السنن الكبرى: لأحمد بن الحسين البيهقي، ط. مكتبة ابن تيمية، مصورة دائرة المعارف الهندية، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ.

٣٠٥ ـ سنن سعيد بن منصور: سعيد بن منصور الخراساني، وله طبعتان: الأولى: ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. دار الكتب العلمية. والثانية: ت: سعد آل حميد، ط. دار الصميعي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٠٦ ـ سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي، ت: مجموعة من المحققين، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٣٠٧ ـ سيرة الإمام أحمد: صالح بن أحمد ابن حنبل، ت: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط. دار السلف، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

٣٠٨ ـ السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام الحميري، ت: إبراهيم الأبياري وآخرين، ط. مؤسسة علوم القرآن ودار القبلة.

٣٠٩ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه: عبد الله ابن عبد الحكم المصري، ت: أحمد عبيد، ط. عالم الكتب - بيروت - لبنان، الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ.

٣١٠ ـ السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار: محمد بن علي الشوكاني، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى.

٣١١ ـ الشافي في شرح مسند الشافعي: المبارك بن محمد ابن الأثير، ت: أحمد بن سليمان، وأبي تميم ياسر بن إبراهيم، ط. مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣١٢ ـ شأن الدعاء: أحمد بن محمد الخطابي، ت: أحمد بن يوسف الدقاق، ط. دار المأمون للتراث، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.

٣١٣ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد ابن العماد، ت: محمود الأرناؤوط، ط. دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٣١٤ ـ شرح أشعار الهذليين: ت: عبد الستار فراج، ط. دار المعارف.

٣١٥ ـ شرح الديوان: علي بن أحمد الواحدي، تحقيق فريدرخ ديتريصي، طبع برلين سنة ١٨٦١م، تصوير دار صادر.

٣١٦ ـ شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي، ت: شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ.

٣١٧ ـ شرح العقيدة الطحاوية: محمد بن علي ابن أبي العز، ت: عبد الله التركي، وشعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٣١٨ ـ شرح العمدة: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: سعود العطيشان، وصالح الحسن، ط. العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٣١٩ ـ شرح الكوكب المنير: محمد بن أحمد ابن النجار، ت: نزيه حماد، ومحمد الزحيلي، ط. مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ.

٣٢٠ ـ الشرح الممتع على زاد المستقنع: محمد بن صالح العثيمين، ط، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢١ ـ شرح حديث «يا عبادي إني حرمت الظلم...»: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ضمن مجموع الفتاوى).

٣٢٢ ـ شرح حديث النزول: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ.

٣٢٣ ـ شرح حديث شداد بن أوس: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ت: إياد القيسي، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٢٤ ـ شرح ديوان المتنبي: عبد الله بن الحسين العكبري، ت: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط. دار المعرفة - بيروت.

٣٢٥ ـ شرح ديوان عنترة: يحيى بن علي (الخطيب التبريزي)، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: مجيد طراد، ط. دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣٢٦ ـ شرح رياض الصالحين: محمد بن صالح العثيمين، ط. مدار الوطن.

٣٢٧ ـ شرح صحيح البخاري: علي بن خلف ابن بطال، ت: ياسر بن إبراهيم، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

٣٢٨ ـ شرح صحيح مسلم: يحيى بن شرف النووي، ط. مكتبة الرياض الحديثة، مصورة عن الطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.

٣٢٩ ـ شرح معاني الآثار: أحمد بن محمد الطحاوي، ت: محمد النجار، ومحمد سيد جاد الحق، ط. عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٣٠ ـ شرح نهج البلاغة: عبد المجيد بن هبة الله ابن أبي الحديد، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. عيسى البابي الحلبي وشركائه.

٣٣١ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض بن موسى السبتي، ت: علي محمد البجاوي، ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣٣٢ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عمر الحفيان، ط. مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٣٣ ـ الشكر: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: طارق الطنطاوي، ط. مكتبة القرآن، (لا توجد بيانات أخرى).

٣٣٤ ـ الشمائل للترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، ت: ماهر ياسين الفحل، ط. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٣٥ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٣٣٦ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: محمد الحلواني وآخرين، ط. رمادي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٣٣٧ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن علي القلقشندي، ط. دار الفكر، ١٤٠٧هـ.

٣٣٨ ـ الصبر: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٣٩ ـ الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط. دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٣٤٠ ـ صحيح ابن حبان (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان): محمد بن حبان البستي/ بترتيب علي بن بلبان الفارسي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط. الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٣٤١ ـ صحيح ابن خزيمة، ت: محمد مصطفى الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٣٤٢ ـ صحيح البخاري بحاشية السندي: محمد بن إسماعيل البخاري، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٤٣ ـ صحيح الترغيب والترهيب: محمد ناصر الدين لألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٤٤ ـ صحيح الجامع الصغير وزياداته: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٣٤٥ ـ صحيح سنن ابن ماجه: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٣٤٦ ـ صحيح سنن أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

٣٤٧ ـ صحيح سنن الترمذي: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٤٨ ـ صحيح سنن النسائي: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٤٩ ـ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٤هـ.

٣٥٠ ـ صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: محمد ناصر الدين الألباني، ط. دار العصيمي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٥١ ـ صفة الصفوة: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: محمود فاخوري، ط. دار الوعي بحلب.

٣٥٢ ـ صفة الصفوة: عبد الرحمن بن علي الجوزي، ت: أحمد بن علي، ط. دار الحديث - القاهرة - مصر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٣٥٣ ـ صفة الفتوى والمفتي والمستفتي: لابن حمدان، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ.

٣٥٤ ـ صفة صلاة النبي ﷺ لصلاة الكسوف: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٥٥ ـ صفة صلاة النبي ﷺ: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٣٥٦ ـ الصلاة على النبي ﷺ: أحمد بن عمرو ابن أبي عاصم، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط. دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٥٧ ـ الصمت وآداب اللسان: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: أبي إسحاق الحويني، ط. دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٥٨ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: عبد الله بن محمد ابن قيم الجوزية، ت: علي الدخيل الله، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ.

٣٥٩ ـ صيد الخاطر: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، بعناية: حسن المساحي سويدان، ط. دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٣٦٠ ـ الضعفاء والمجروحين: محمد بن حبان البستي، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط. دار الصميعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٦١ ـ الضعفاء: محمد بن عمرو العقيلي، ت: حمدي السلفي، ط. دار الصميعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٦٢ ـ ضعيف أبي داود (الأم): محمد ناصر الدين الألباني، ط. مؤسسة غراس للنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٣٦٣ ـ ضعيف الترغيب والترهيب: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٦٤ ـ ضعيف الجامع الصغير وزياداته: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ.

٣٦٥ ـ ضعيف موارد الظمآن: محمد ناصر الدين الألباني، ط. دار الصميعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٦٦ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، مصورة دار مكتبة الحياة.

٣٦٧ ـ الطب النبوي: أحمد بن عبد الله (أبو نعيم الأصبهاني)، ت: مصطفى خضر التركي، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.طبقات الحنابلة: محمد بن محمد المعروف بابن أبي يعلى، ت: عبد الرحمن العثيمين، ط. العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٣٦٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب بن علي السبكي، ت: الطناحي والحلو، ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ.

٣٦٩ ـ طبقات الصوفية: محمد بن الحسين (أبو عبد الرحمن السلمي)، ت: نور الدين شريبه، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ.

٣٧٠ ـ طبقات الفقهاء الشافعية: عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح، ت: محيي الدين نجيب، ط. البشائر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٣٧١ ـ الطبقات الكبير: محمد بن سعد الهاشمي، ت: علي محمد عمر، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٧٢ ـ طبقات المحدثين بأصبهان: عبد الله بن محمد (أبو الشيخ الأصبهاني)، ت: عبد الغفور البلوشي، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٣٧٣ ـ طرح التثريب في شرح التقريب: عبد الرحيم بن الحسين العراقي، وأكمله: أحمد ابن عبد الرحيم أبو زرعة، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان.

٣٧٤ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد الإصلاحي، ط. دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٣٧٥ ـ طوق الحمامة: علي بن أحمد ابن حزم، ط. دار الكتب العلمية.

٣٧٦ ـ الطيوريات: انتخاب: أحمد بن محمد (أبو طاهر السِّلَفي)، من أصول: المبارك بن عبد الجبار الطيوري، ت: دسمان يحيى معالي، عباس صخر الحسن، ط. مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣٧٧ ـ ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي: سفر بن عبد الرحمن الحوالي، ط. مكتبة الطيب، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٣٧٨ ـ العاقبة في ذكر الموت والآخرة: عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي، خضر محمد خضر، ط. مكتبة الأقصى، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٣٧٩ ـ العباب الزاخر واللباب الفاخر: الحسن بن محمد الصغاني، ت: محمد حسن آل ياسين، ط. دار الرشيد، ١٣٨١هـ.العجاب في بيان الأسباب: أحمد بن علي ابن حجر، ت: عبد الحكيم الأنيس، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٨٠ ـ عجالة الإملاء المتيسرة من التذنيب على ما وقع للحافظ المنذري من الوهم وغيره في كتابه الترغيب والترهيب: إبراهيم بن محمد الناجي، ت: إبراهيم الريس ومحمد القناص، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٨١ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: إسماعيل بن غازي مرحبا، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٣٨٢ ـ العذب النمير: محمد الأمين الشنقيطي، ت: خالد السبت، ط. دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.

٣٨٣ ـ العرش وما روي فيه: محمد بن عثمان بن أبي شيبة، ت: محمد بن خليفة التميمي، ط. مكتبة الرشد - الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٣٨٤ ـ العزلة: حمد بن محمد البستي الخطابي، ط. المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٣٨٥ ـ العظمة: عبد الله بن محمد (أبو الشيخ الأصبهاني)، ت، رضاء الله المباركفوري، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٨٦ ـ العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربه، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٣٨٧ ـ العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية: محمد أمين بن عمر ابن عابدين، ط. دار المعرفة.

٣٨٨ ـ علل الأحاديث في كتاب الصحيح: محمد بن أبي الحسن ابن عمار الشهيد، ت: علي الحلبي، ط. دار الهجرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٨٩ ـ علل الحديث: عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم، ت: فريق من الباحثين، بإشراف وعناية: د. سعد بن عبد الله الحميد، ود. خالد بن عبد الرحمن الجريسي، ط. مطابع الحميضي، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٣٩٠ ـ العلل الكبير: محمد بن عيسى الترمذي، ت: صبحي السامرائي وآخرين، ط. عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٣٩١ ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: إرشاد الحق الأثري، ط. دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور.

٣٩٢ ـ العلل الواردة في الأحاديث النبوية: علي بن عمر الدارقطني، ت: محفوظ الرحمن زين الله، ط. دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٩٣ ـ العلل ومعرفة الرجال: أحمد بن محمد بن حنبل، ت: وصي الله عباس، ط. المكتب الإسلامي ودار الخاني، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.

٣٩٤ ـ العلل: عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن أبي حاتم، ت: محب الدين الخطيب، ط. المطبعة السلفية، تصوير دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

٣٩٥ ـ العلم: أبو خيثمة زهير بن حرب، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٩٦ ـ عمدة القاري: محمود بن أحمد العيني، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٩٧ ـ العمر والشيب: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: نجم عبد الله خَلَف، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٩٨ ـ عمل اليوم والليلة: أحمد بن شعيب النسائي، ت: فاروق حمادة، ط. دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٣٩٩ ـ عمل اليوم والليلة: أحمد بن محمد ابن السني، ت: بشير عيون، ط. مكتبة دار البيان، ومكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٤٠٠ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود: محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي، ط. المكتبة السلفية، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ.

٤٠١ ـ العيال: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: نجم خلف، ط. دار ابن القيم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٤٠٢ ـ العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، ط. دار ومكتبة الهلال، ت: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي.

٤٠٣ ـ عيون الأخبار: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ط. المطبعة المصرية، تصوير دار الكتاب العربي.

٤٠٤ ـ غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: محمد ناصر الدين الألباني، بإشراف زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ.

٤٠٥ ـ غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب: محمد بن أحمد السّفاريني، تحقيق د. صالح بن حنش الغامدي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

٤٠٦ ـ غرر الخصائص الواضحة: محمد بن إبراهيم الوطواط، ط. صعب.

٤٠٧ ـ غريب الحديث: حمد بن محمد الخطابي، ت: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديث: عبد القوي عبد الرب، ط. دار الفكر - دمشق، ١٤٠٢هـ.

٤٠٨ ـ الفاروق في شعر حافظ إبراهيم: سليمان محمد سليمان، ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهارسه: إبراهيم شمس الدين، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٤٠٩ ـ الفتاوى الحديثية: علي بن محمد السخاوي، ت: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، ط. دار المأمون، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٤١٠ ـ الفتاوى السعدية: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط. منشورات المؤسسة السعيدية بالرياض.

٤١١ ـ الفتاوى الكبرى: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: محمد حسنين مخلوف، ط. دار المعرفة.

٤١٢ ـ فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، ط. رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الإدارة العامة للطبع - الرياض.

٤١٣ ـ فتاوى النووي: علي بن إبراهيم (علاء الدين العطار)، ت: محمد الحجار.

٤١٤ ـ فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم: جمع محمد عبد الرحمن بن قاسم، ط. مطابع الحكومة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٤١٥ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي ابن حجر، ط. العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٤١٦ ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري: عبد الرحمن بن أحمد الشهير بابن رجب، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤١٧ ـ الفتح الرباني: محمد بن علي الشوكاني، ت: محمد صبحي، ط. مكتبة الجيل الجديد، صنعاء - اليمن.

٤١٨ ـ الفتح السماوي في تخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي: عبد الرؤوف بن علي المناوي، ت: محمد مجتبى السلفي، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤١٩ ـ فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، ت: د. عبد الرحمن عميرة، ط. دار الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٤٢٠ ـ فتح رب البرية بتلخيص الحموية: محمد بن صالح العثيمين، ط. دار الوطن للنشر - الرياض.

٤٢١ ـ الفتوحات الربانية بشرح الأذكار النواوية: محمد بن علي ابن علان، ط. المكتبة الإسلامية (لا توجد بيانات أخرى).

٤٢٢ ـ الفرج بعد الشدة: المحسن بن علي التنوخي، ت: عبّود الشالجي، ط. دار صادر.

٤٢٣ ـ الفرج بعد الشدة: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد رشاد حسن، ط. دار الفاروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٤٢٤ ـ الفردوس بمأثور الخطاب: شيرويه بن شهردار الديلمي، ت: السعيد بن بسيوني زغلول، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٤٢٥ ـ الفروع: محمد بن مفلح المقدسي، ت: عبد الله التركي، ط. الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٤٢٦ ـ الفروق اللغوية: الحسن بن عبد الله العسكري، ت: محمد إبراهيم سليم، ط. دار العلم والثقافة، ١٤١٨هـ.

٤٢٧ ـ الفروق: أحمد بن إدريس القرافي، عالم الكتب.

٤٢٨ ـ فضائل القرآن: أبو عبيد القاسم بن سلام، ت: مروان العطية وآخرين، ط. دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٤٢٩ ـ فضائل عثمان: عبد الله بن أحمد ابن حنبل، ت: طلعت محمد فؤاد الحلواني، ط. دار ماجد عسيري - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٣٠ ـ فضيلة الشكر لله على نعمته، وما يجب من الشكر للمنعم عليه: محمد بن جعفر الخرائطي، ت: محمد مطيع الحافظ، ط. دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٤٣١ ـ الفقيه والمتفقه: أحمد بن علي (الخطيب البغدادي)، ت: عادل بن يوسف الفزاري، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٣٢ ـ الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني: أحمد بن غانم النفراوي، ت: عبد الوارث بن محمد بن علي، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٣٣ ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: محمد بن علي الشوكاني، ت: المعلمي، ط. مطبعة السنة المحمدية، ١٣٩٨هـ.

٤٣٤ ـ الفوائد: تمام بن محمد الرازي، ت: حمدي السلفي، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٤٣٥ ـ الفوائد: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد عزير شمس، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

٤٣٦ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير: عبد الرؤوف بن علي المناوي، ط. دار الفكر.

٤٣٧ ـ قاعدة في الصبر: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، المجموعة الأولى، ط. المجمع.

٤٣٨ ـ قاعدة في المحبة (ضمن جامع الرسائل): أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: د. محمد رشاد سالم، دار العطاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٣٩ ـ قاعدة في تحقيق التوكل (ضمن جامع الرسائل): أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: د. محمد رشاد سالم، دار العطاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٤٠ ـ القاموس الفقهي لغة واصطلاحا: د. سعدي أبو حبيب، ط. دار الفكر - دمشق - سورية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٤٤١ ـ القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

٤٤٢ ـ القناعة والتعفف: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: مجدي السيد إبراهيم، ط. مكتبة القرآن، (لا توجد بيانات أخرى).

٤٤٣ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام: عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، ط. مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، وصورتها دور عدة مثل: (دار الكتب العلمية - بيروت، ودار أما لقرى - القاهرة)، ١٤١١٤هـ.

٤٤٤ ـ قواعد التفسير: خالد بن عثمان السبت، ط. دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٤٥ ـ القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به: خالد السبت، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٤٦ ـ القواعد النورانية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: أحمد الخليل، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٤٤٧ ـ قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد: محمد بن علي الحارثي، ت: د. عاصم إبراهيم الكيالي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان،

٤٤٨ ـ القول السديد شرح كتاب التوحيد: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت: صبري سلامة شاهين، ط. دار الثبات، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، (واعتمد أحيانا ط. مجموعة التحف النفائس مع التنبيه).

٤٤٩ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد: محمد بن صالح العثيمين، ط. دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٤٥٠ ـ الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف: أحمد بن علي ابن حجر (بهامش الكشاف).

٤٥١ ـ الكافي في فقه أهل المدينة: يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، ت: محمد محمد أحيد الموريتاني، ط. مكتبة الرياض الحديثة - الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٤٥٢ ـ الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عبد الله العمير، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٥٣ ـ الكامل في الأدب: محمد بن يزيد المبرد، ت: محمد الدالي، ط. الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٤٥٤ ـ الكامل في التاريخ: علي بن محمد ابن الأثير، ت: عمر عبد السلام تدمري، ط. دار الكتاب العربي- بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٥٥ ـ الكامل في ضعفاء الرجال: عبد الله بن عدي الجرجاني، ت: يحيى مختار غزاوي، ط. دار الفكر، ١٤٠٩هـ.

٤٥٦ ـ الكبائر: محمد بن أحمد الذهبي، ت: مشهور آل سلمان، ط. مكتبة المنار، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٥٧ ـ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: محمد بن أحمد ابن جزي، ط. دار الفكر.

٤٥٨ ـ كتاب التوحيد: (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب): محمد بن عبد الوهاب التميمي ت: عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد وغيره، ط. جامعة الأمام محمد بن سعود - الرياض.

٤٥٩ ـ كتاب الجهاد: أحمد بن عمرو ابن أبي عاصم (بحاشيته السبيل الهاد لمساعد الراشد)، ت: مساعد الراشد، ط. العلوم والحكم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٦٠ ـ كتاب الصلاة: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عدنان بن صفاخان البخاري، ط. عالم الفوائد.

٤٦١ ـ الكرم والجود: محمد بن الحسين البُرْجُلاني، ت: د. عامر حسن صبري، ط. دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٤٦٢ ـ كشاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البهوتي، ت: محمد أمين الضناوي، ط. عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٦٣ ـ الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري، ت: علي معوض وعادل عبد الموجود، ط. مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٦٤ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار: علي بن أبي بكر الهيثمي، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٤٦٥ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني، ت: عبد الحميد بن أحمد ابن هنداوي، ط. المكتبةالعصرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٦٦ ـ كشف المشكل من أحاديث الصحيحين: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: علي البواب، ط. دار الوطن.

٤٦٧ ـ كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح: محمد بن إبراهيم المناوي، ت: محمد إسحاق محمد إبراهيم، ط. وكالة حجر الفلاسفة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ.

٤٦٨ ـ الكشكول: محمد بن حسين الهمذاني، ت: محمد عبد الكريم النمري، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٤٦٩ ـ الكلم الطيب: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.

٤٧٠ ـ الكليات: أيوب بن موسى الكفوي، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، ط. مؤسسة الرسالة.

٤٧١ ـ الكواكب السائرة بأعيان المئة السائرة: محمد بن محمد الغزي، ت: جبرائيل سليمان جبور، ط. أمين دمج (لا توجد بيانات أخرى).

٤٧٢ ـ الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الثقات: بركات بن أحمد ابن الكيال، ت: عبد القيوم عبد رب النبي، ط. الإمدادية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

٤٧٣ ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي)، ط. دار المعرفة، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.

٤٧٤ ـ اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة (التذكرة في الأحاديث المشتهرة): محمد ابن بهادر الزركشي، ت: محمد لطفي الصباغ، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٧٥ ـ اللباب في علوم الكتاب: عمر بن علي النعماني، ت: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٤٧٦ ـ لسان العرب: محمد بن مكرم ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٧٧ ـ لسان الميزان: أحمد بن علي ابن حجر، ت: دائرة المعرف النظامية - الهند، ط. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ /١٩٧١م.

٤٧٨ ـ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ت: ياسين السواس، ط. دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٧٩ ـ اللطف في الوعظ: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: جماعة من العلماء، بإشراف الناشر، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٤٨٠ ـ المبدع في شرح المقنع: إبراهيم بن محمد ابن مفلح، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٤٨١ ـ المبسوط في القراءات العشر: أحمد بن الحسين بن مِهْران، ت: سبيع حمزة حاكيمي، ط. مجمع اللغة العربية - دمشق، ١٩٨١ م.المتمنين: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٨٢ ـ المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية ﷺ من صحيح الإمام البخاري: محمد بن عمر السفيري، ت: أحمد فتحي عبد الرحمن، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م.

٤٨٣ ـ المجالسة وجواهر العلم: أحمد بن مروان الدينوري، ت: مشهور بن حسن آل سلمان، ط. دار ابن حزم - جمعية التربية الإسلامية بالبحرين، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٤٨٤ ـ مجاني الأدب في حدائق العرب: رزق الله بن يوسف شيخو، ط. مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت، ١٩١٣م.

٤٨٥ ـ مجلة البحوث الإسلامية: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

٤٨٦ ـ مجلة البيان، العدد (٩٤) شهر جمادى الآخر، ١٤١٦هـ.

٤٨٧ ـ مجلة جامعة أم القرى، العدد (٢١).

٤٨٨ ـ مجمع الحكم والأمثال: أحمد قبش بن محمد، (لا توجد بيانات للطبعة).

٤٨٩ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، ط. دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٢هـ.

٤٩٠ ـ مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه محمد، ط. الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٩١ ـ المجموع اللفيف: محمد بن محمد الطرابلسي، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٤٩٢ ـ مجموع رسائل ابن رجب: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ت: طلعت بن فؤاد الحلواني، ط. الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م: جـ ١، ٢، والطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م: جـ ٣/، والطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤: جـ ٤.

٤٩٣ ـ المجموع شرح المهذب: يحيى بن شرف النووي، ت: محمد نجيب المطيعي، ط. الإرشاد (لاتوجد بيانات أخرى).

٤٩٤ ـ مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

٤٩٥ ـ مجموعة الرسائل الكبرى: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ط. دار إحياء التراث العربي (لا توجد بيانات أخرى).

٤٩٦ ـ مجموعة الرسائل الكبرى: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الفكر، ١٤٠٠هـ.

٤٩٧ ـ محاسبة النفس: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: مجدي السيد ابراهيم، ط. مكتبة القرآن، (لا توجد بيانات أخرى).

٤٩٨ ـ محاسن التأويل: محمد بن محمد القاسمي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ.

٤٩٩ ـ المحاسن والأضداد: عمرو بن بحر الجاحظ، ط. دار ومكتبة الهلال، بيروت، النشر: ١٤٢٣هـ.

٥٠٠ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: ياقوت بن عبد الله الحموي، ط. شركة دار الأرقم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٠١ ـ المحتضرين: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٥٠٢ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبد الحق بن غالب ابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٠٣ ـ المحكم والمحيط الأعظم: علي بن إسماعيل بن سيده، ت: عبد الحميد هنداوي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م.

٥٠٤ ـ المحلى: علي بن أحمد ابن حزم، ت: أحمد شاكر، ط. مطبعة النهضة.

٥٠٥ ـ مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، ت: يوسف الشيخ محمد، ط. المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٥٠٦ ـ مختصر الشمائل المحمدية: محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ.

٥٠٧ ـ مختصر العلو للعلي العظيم: محمد بن أحمد الذهبي، اختصره، وحققه، وعلق عليه، وخرج آثاره: محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٥٠٨ ـ مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: محمد ابن عبد الباقي الزرقاني، ت: محمد لطفي الصباغ، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ.

٥٠٩ ـ مختصر منهاج القاصدين: أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، ت: علي الحلبي، ط. دار عمار، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ.

٥١٠ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، ط. أنصار السنة المحمدية، الطبعة الأولى، ١٣٧٥هـ.

٥١١ ـ المدخل إلى السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت.

٥١٢ ـ المدهش: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ط. دار الجيل، ١٩٧٧هـ.

٥١٣ ـ مذكرة في أصول الفقه: محمد الأمين الشنقيطي، ط: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠١م.

٥١٤ ـ المرض والكفارات: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: عبد الوكيل الندوي، ط. الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٥١٥ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن (سلطان) محمد القاري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥١٦ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، ط. دار التراث، الطبعة الثالثة.

٥١٧ ـ مسائل أحمد بن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل، رواية: ابنه عبد الله، ت: الشاويش، ط. المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٥١٨ ـ مسائل الإمام أحمد: إسحاق بن إبراهيم بن هاني، ت: زهير الشاويش، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ.

٥١٩ ـ مسائل الإمام أحمد: صالح بن أحمد ابن حنبل، ت: فضل الرحمن دين محمد، ط. الدار العلمية.

٥٢٠ ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث: محمد بن عبد الله الحاكم، الطبعة الهندية، تصوير: مكتبة النصر الحديثة.

٥٢١ ـ المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمعه ورتبه: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٥٢٢ ـ المستطرف في كل فن مستظرف: محمد بن أحمد الأبشيهي، ط. دار الفكر (لا توجد بيانات أخرى).

٥٢٣ ـ مسند ابن الجعد المعروف بالجعديات: علي بن الجعد الجوهري، ت: عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، ط. مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٥٢٤ ـ مسند أبي داود الطيالسي: سليمان بن داود الطيالسي، ت: محمد التركي، ط. دار هجر، ط. دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٢٥ ـ مسند أبي عوانة: يعقوب بن إسحاق (أبو عوانة الإسفرائيني)، ت: أيمن عارف الدمشقي، ط. دار المعرفة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ.

٥٢٦ ـ مسند أبي يعلى: أحمد بن علي (أبو يعلى الموصلي)، ت: حسين سليم، ط. دار المأمون، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٥٢٧ ـ المسند: أحمد بن محمد بن حنبل، ت: أحمد شاكر، ط. دار المعارف - مصر، ١٣٩٢هـ.

٥٢٨ ـ المسند: أحمد بن محمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، وإبراهيم الزيبق، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٦هـ.

٥٢٩ ـ مسند البزار (البحر الزخار): أحمد بن عمرو البزار، ت: محفوظ الرحمن السلفي، ط. مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٣٠ ـ مسند الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ت: خليل مأمون شيحا، ط. دار المعرفة.

٥٣١ ـ مسند الشاميين: سليمان بن أحمد الطبراني، ت: حمدي عبدالمجيد السلفي، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٣٢ ـ مسند الشهاب: محمد بن سلامة القضاعي، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

٥٣٣ ـ مسند الفاروق: إسماعيل بن عمر ابن كثير، ت: عبد المعطي قلعجي، ط. دار الوفاء - المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٥٣٤ ـ مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، ت: الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٥٣٥ ـ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه: أحمد بن أبي بكر البوصيري، ت: عوض الشهري، ط. عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، (وأعتمد أحيانا على ط. دار العربية - بيروت، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، مع الإشارة إليها).

٥٣٦ ـ المصباح المنير: أحمد بن محمد الفيومي، ط. المكتبة العلمية - بيروت.

٥٣٧ ـ المصنف: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ.

٥٣٨ ـ المصنف: عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة، ت: محمد عوامة، ط. مؤسسة القبلة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٥٣٩ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع: علي بن (سلطان) محمد القاري، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ.

٥٤٠ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: أحمد بن علي ابن حجر، ت: مجموعة من المحققين، وتنسيق سعد الشثري، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٥٤١ ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: عبد الرحمن بن محمد الدباغ، ت: إبراهيم شبوح، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ.

٥٤٢ ـ معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغوي، ت: عثمان ضميرية وآخرين، ط. دار طيبة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.

٥٤٣ ـ معالم السنن: حمد بن محمد الخطابي، ت: محمد حامد الفقي، ط. أنصار السنة المحمدية - تصوير دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٣٦٧هـ.

٥٤٤ ـ معاني القرآن الكريم: أحمد بن محمد النحاس، ت: محمد الصابوني، ط. جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٤٥ ـ معاني القرآن وإعرابه: أبي إسحاق إبراهيم الزجّاج، شرح وتحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب.

٥٤٦ ـ معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت بن عبد الله الحموي، ت: إحسان عباس، ط. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٥٤٧ ـ المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، ت: طارق عوض الله عبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، ط. دار الحرمين، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٤٨ ـ معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي، ط. دار صادر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

٥٤٩ ـ المعجم الصغير: سليمان بن أحمد الطبراني، ت: محمد شكور الحاج أمرير، ط. المكتب الإسلامي - دار عمار، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٥٥٠ ـ المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط. دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.

٥٥١ ـ معجم اللغة العربية المعاصرة: د. أحمد مختار عبد الحميد، ط. عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٥٥٢ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: عبد الله بن عبد العزيز البكري، ط. عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

٥٥٣ ـ معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس القزويني، ت: عبدالسلام محمد هارون، ط. دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٥٥٤ ـ المعرفة والتاريخ: يعقوب بن سفيان الفسوي، ت: أكرم العمري، ط. مكتبة الدار، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٥٥٥ ـ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: محمد بن أحمد (الخطيب الشربيني)، ط. الدار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٥٥٦ ـ مغني المريد الجامع لشروح كتاب التوحيد: عبد المنعم إبراهيم، ط. مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٥٥٧ ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار: عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ت: أشرف عبد المقصود، ط. دار طبرية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٥٨ ـ المغني: عبد الله بن أحمد ابن قدامة، ت: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٥٥٩ ـ مفاتيح الغيب: محمد بن عمر الرازي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٥٦٠ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والريادة: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: علي الحلبي، ط. ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٥٦١ ـ المفردات: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: محمد سيد كيلاني، ط. دار المعرفة، (لا توجد بيانات أخرى).

٥٦٢ ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: أحمد بن عمر القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، ويوسف علي بدوي، وأحمد محمد السيد، محمود إبراهيم بزال، ط. دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب - دمشق - بيروت.

٥٦٣ ـ المفيد في مهمات التوحيد: د. عبد القادر بن محمد صوفي، ط. دار الاعلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ١٤٢٣هـ.

٥٦٤ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: محمد بن عبدالرحمن السخاوي، ت: عبد الله الغماري، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٥٦٥ ـ مقاصد المكلفين فيما يتعبد بها رب العالمين: عمر بن سليمان الأشقر، ط. مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٥٦٦ ـ مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: إبراهيم صالح، ط. دار البشائر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٥٦٧ ـ المقدمات الممهدات: محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ت: د. محمد حجي، ط. دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥٦٨ ـ مكارم الأخلاق: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: مجدي السيد إبراهيم، ط. مكتبة القرآن - القاهرة.

٥٦٩ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: يحيى الثمالي، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

٥٧٠ ـ منازل السائرين: عبد الله بن محمد الهروي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

٥٧١ ـ مناقب الإمام أحمد: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: عبد الله التركي، ط. دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

٥٧٢ ـ مناقب الشافعي: أحمد بن الحسين البيهقي، ت: السيد أحمد صقر، ط. دار التراث، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ.

٥٧٣ ـ المنتخب من الزهد: أحمد بن علي (الخطيب البغدادي)، ت: عامر صبري، ط. دار البشائر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٧٤ ـ المنتخب من علل الخلال: عبد الله بن أحمد ابن قدامة، ت: طارق عوض الله، ط. دار الراية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٥٧٥ ـ المنتخب من غريب كلام العرب: علي بن الحسن الهنائي، الملقب بـ «كراع النمل» ت: د. محمد بن أحمد العمري، ط. جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٥٧٦ ـ المنتخب من مسند عبد بن حميد: عبد الحميد بن حميد الكَسّي، ت: مصطفى بن العدوي، ط. دار بلنسية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

٥٧٧ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ط. دائرة المعارف الهندية، الطبعة الأولى، ١٣٥٧هـ، (وأخرى بتحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، وأشير إليها).

٥٧٨ ـ المنتقى: عبد الله بن علي بن الجارود، ت: أبي إسحاق الحويني، ط. دار الكتاب العربي، ١٤٢٣هـ.

٥٧٩ ـ المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: زين محمد شحاتة، قدم له: عبدالرحمن المحمود.

٥٨٠ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.

٥٨١ ـ منهاج الطالبين: يحيى بن شرف النووي، ت: عوض قاسم أحمد عوض، ط. دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٥٨٢ ـ المنهاج في شعب الإيمان: الحسين بن الحسن الحَلِيمي، ت: حلمي محمد فودة، ط. دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.

٥٨٣ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان: عبد العزيز بن محمد السلمان، الطبعة الثلاثون، ١٤٢٤هـ.

٥٨٤ ـ الموافقات: إبراهيم بن موسى الشاطبي، ت: مشهور آل سلمان، ط. ابن عفان، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ.

٥٨٥ ـ موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر: أحمد بن علي ابن حجر، ت: حمدي السلفي وصبحي السامرائي، ط. مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٨٦ ـ مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: محمد بن محمد الطرابلسي، ط. دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٥٨٧ ـ موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرر السنية.

٥٨٨ ـ الموسوعة الفقهية الكويتية، ط. وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٥٨٩ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، ط. دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ.

٥٩٠ ـ موضح أوهام الجمع والتفريق: أحمد بن علي (الخطيب البغدادي)، ت: عبدالرحمن المعلمي، ط. دار الضياء، مصورة الطبعة الهندية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٥٩١ ـ الموضوعات: الحسن بن محمد الصاغاني، ت: نجم عبد الرحمن خلف، ط. دار المأمون، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٥٩٢ ـ الموضوعات: عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: نور الدين شكري جيلار، ط. أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٥٩٣ ـ الموطأ: مالك بن أنس الأصبحي، ت: بشار عوّاد معروف، ط. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

٥٩٤ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال: محمد أحمد الذهبي، ت: علي محمد البجاوي، ط. دار المعرفة.

٥٩٥ ـ ميزان العمل: محمد بن محمد الغزالي، ت: سليمان دنيا، ط. دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ.

٥٩٦ ـ النبوات: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: عبد العزيز الطويان، ط. أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٩٧ ـ نتائج الأفكار في تخريج الأذكار: أحمد بن علي ابن حجر، ت: حمدي السلفي، ط. ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٥٩٨ ـ نثر الورود شرح مراقي السعود: محمد الأمين الشنقيطي، ت: علي العمران، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٥٩٩ ـ نزهة الأسماع في مسألة الاستماع: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ت: أم عبد الله العسلي، ط. دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٦٠٠ ـ نشوار المحاضرة وأخبار المحاضرة: المحسن بن علي التنوخي، ت: عبود الشالجي، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ.

٦٠١ ـ نصب الراية: عبد الله بن يوسف الزيلعي، ت: محمد عوامة، ط. مؤسسة الريان للطباعة والنشر - بيروت - لبنان/ دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٦٠٢ ـ النصيحة: محمد ناصر الدين الألباني، ط. دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦٠٣ ـ نضرة النعيم: عدد من المختصين، بإشراف الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، ط. دار الوسيلة للنشر والتوزيع - جدة، الطبعة الرابعة.

٦٠٤ ـ نظم مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود: عبد الله إبراهيم الشنقيطي.

٦٠٥ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد المقري، ت: إحسان عباس، ط. دار صادر.

٦٠٦ ـ النكت الظراف على تحفة الأشراف: أحمد بن علي ابن حجر (بهامش تحفة الأشراف للمزي).

٦٠٧ ـ النكت على كتاب ابن الصلاح: أحمد بن علي ابن حجر، ت: ربيع المدخلي، ط. الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٦٠٨ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب النويري، ط. دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٦٠٩ ـ النهاية في الفتن والملاحم: إسماعيل بن عمر ابن كثير، ت: عبد الله التركي، ط. دار عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٦١٠ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: المبارك بن محمد ابن الأثير، ت: محمد الزاوي ومحمود الطناحي، ط. المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ.

٦١١ ـ النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد الحمود النجدي، ط. مكتبة الذهبي.

٦١٢ ـ النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد: جاسم الفهيد الدوسري، ط. دار الخلفاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٦١٣ ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول: الحسن بن علي (الحكيم الترمذي)، ط. دار السعادة.

٦١٤ ـ نور الاقتباس من مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس: عبدالرحمن بن أحمد بن رجب، ت: محمد العمري، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٦١٥ ـ نونية ابن القيم: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق: محمد بن عبدالرحمن العريفي وآخرين، بإشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، ط. عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ. (وأحيانا أعتمد على ط. مكتبة ابن تيمية - القاهرة، وأشير إليها عند الإحالة).

٦١٦ ـ نونية القحطاني: محمد بن صالح القحطاني - ضمن «مجموعة المناهل العذاب» لصالح السعوي - الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٦١٧ ـ نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار: محمد بن علي الشوكاني، ت: عصام الدين الصبابطي، ط. دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٦١٨ ـ الهداية إلى بلوغ النهاية: مكي ابن أبي طالب القيسي، ت: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف د. الشاهد البوشيخي، ط. مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٦١٩ ـ الهداية تكملة فتح القدير: أحمد بن قودر المعروف بقاضي زاده، ط. البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.

٦٢٠ ـ الهداية على مذهب الإمام أحمد: محفوظ بن أحمد الكلوذاني، ت: عبد اللطيف هميم، وماهر ياسين الفحل، ط. مؤسسة غراس، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٦٢١ ـ الهم والحزن: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: مجدي فتحي السيد، ط. دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٢٢ ـ هواتف الجنان: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: محمد الزغلي، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٦٢٣ ـ الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: عبدالرحمن بن قائد، ط. عالم الفوائد، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

٦٢٤ ـ الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، ت: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط. دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٦٢٥ ـ الوجل والتوثق بالعمل: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: مشهور آل سلمان، ط. دار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٢٦ ـ الورع: أحمد بن محمد بن حنبل، رواية: المروذي، وله طبعتان: الأولى: ت: سمير الزهيري، ط. دار الصميعي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ. والثانية: ت: زينب القاروط، ط. دار الكتب العلمية.

٦٢٧ ـ الورع: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: بسام الجابي، ط. دار ابن حزم والجابي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٦٢٨ ـ وصايا العلماء عند حضور الموت: محمد بن عبد الله ابن زبر الربعي، ت: صلاح محمد الخيمي، والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، ط. دار ابن كثير - دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٦٢٩ ـ وفيات الأعيان: أحمد بن محمد ابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر.

٦٣٠ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: عبد الملك بن محمد الثعالبي، ت: مفيد قميحة، ط. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٦٣١ ـ اليقين: عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ت: ياسين محمد السواس، ط. دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٦٣٢ ـ مقال «القصيدة اليتيمة والدَّوقَلة» عبد القادر زمامة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٠ الجزء ٤ الصفحة ٧٥٧، إهداء لشبكة الألوكة.

فهرس الموضوعات

مُقَدِمَة ٥

مُقَدِمَة في بَيَانِ مَنزِلَةِ القَلْبِ، وَأَهَمِيَّةِ الأَعْمَالِ القَلْبِيَّة ١١

توطئة ١٣

معنى القَلْبِ وحقيقتُه ١٤

منزِلة القلب ١٨

مُصلِحاتُ القلب ٢٠

مُفسِداتُ القلب ٢٤

أحوال القلب ٢٧

المراد بأعمال القلوب ٣٠

أحكام الأعمال القلبيَّة مِن حيثُ الثوابُ والعقاب ٣١

أهميَّة أعمال القلوب، والمفاضَلة بينها وبين أعمال الجوارح ٣٢

تفاوتُ الناس في أعمال القلوب ٣٨

لزوم العناية بأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأحوالُ الناس في ذلك ... ٣٩

التلازُمُ بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح ٤٠

الإخلاص ٤٣

توطئة ٤٥

معنى الإخلاص وحقيقته ٤٦
أهمِّيَّة الإخلاص ومنزلتُه ٤٧
الإخلاصُ في الكتابِ والسُّنَّةِ ٥١
مراتِبُ الإخلاص ٥٣
دِقَّةُ الإخلاص ٥٥
ثمراتُ الإخلاص وآثارُهُ السلوكيَّة ٥٨
الآثارُ المعجَّلةُ للإخلاص ٥٩
الآثارُ الأُخْرَوِيَّةُ للإخلاص ٦٨
عاقبةُ النيَّاتِ والمقاصِدِ السَّيِّئة ٧١
الطريقُ إلى تحقيقِ الإخلاصِ ودَفْعِ الرياءِ ٧٥
هل يكون إظهار العمل مُنافِيًا للإخلاص؟ ٨٤
أنواعُ العمل المردود ٨٧
الرياء والسُّمْعة ٨٩
عَلاماتُ الإخلاص ٩٢
مِن أخبار أهل الإخلاص ٩٤
اليَقِينُ ١٠٣
توطئة ١٠٥
معنى اليقينِ وحقيقتُه ١٠٦
أهميَّةُ اليقين ومنزلتُه ١٠٨
اليقين في الكتاب والسُّنَّة ١١٠
مراتب اليقين ١١٢

مراتب الناس في اليقين ١١٤
اختبار اليقين ١١٦
الطريق إلى تحقيق اليقين ١١٨
ثَمَرات اليقين ١٢٢
الأمورُ التي تُنافِي اليقين ١٣١
مِن أخبارِ أهلِ اليقين ١٣٢
التَّفَكُّر ١٣٥
توطئة ١٣٧
معنى التفكُّر وحقيقتُه ١٣٨
الفرق بين التفكُّر والتذكُّر ١٣٩
أهميَّة التَّفَكُّر وفضلُه ١٤١
التفكُّر في الكتاب والسنة ١٤٣
مجالات التفكُّر ١٤٥
معوِّقات التفكُّر ١٥٣
الطريق إلى تحقيق التفكُّر ١٥٥
ثَمَرات التفكُّر ١٥٨
من أخبار أهل التفكُّر ١٦٥
الخُشُوع ١٦٧
توطئة ١٦٩
معنى الخشوع وحقيقتُه ١٧٠
أهميَّة الخشوعِ ومنزلتُهُ ١٧١

الخشوع في الكتاب والسنة ١٧٤
مراتب الناس في الخشوع ١٧٦
أنواع الخشوع ١٧٨
الطريق إلى الخشوع ١٨٠
ثَمرات الخشوع ١٨٥
الأمور المنافية للخشوع ١٨٨
مِن أخبار أهل الخشوع ١٨٩
المراقبة ١٩٣
توطئة ١٩٥
معنى المراقبة وحقيقتها ١٩٦
منزلةُ المراقَبة من أعمال القلوب ١٩٨
المراقَبة في الكتاب والسُّنَّة ١٩٩
مَراتِبُ المراقَبة ٢٠١
الطريق إلى تحقيق المراقبة ٢٠٣
ثَمرات المراقبة ٢٠٧
مِن أخبار أهل المراقَبة ٢١٢
الورع ٢١٥
توطئة ٢١٧
معنى الوَرَع وحقيقته ٢١٨
الفرق بين الوَرَع والزُّهد ٢١٩
الوَرَعُ في الكتابِ والسُّنَّة ٢٢٠

ما لا مَدخَلَ للورَع فيه ٢٢٢
مراتب الوَرَع ٢٢٣
فِقْهُ الوَرَع ٢٢٥
الوَرَعُ الفَاسِدُ ٢٢٧
الطريق إلى تحقيق الوَرَع ٢٣٠
علامة أهل الوَرَع ٢٣٤
ثَمرات الوَرَع، وآثارُهُ السلوكيَّة ٢٣٥
مُفسِداتُ الوَرَع، والأمورُ التي تضادُّه ٢٤٠
أبواب الوَرَع ٢٤٢
أولًا: الورع في المنطق ٢٤٢
ثانيًا: الورع في المأكل والمشرب ٢٤٤
ثالثًا: الورع في المكاسب ٢٤٥
رابعًا: الورع في المخالطة والمجالسة ٢٤٧
خامسًا: الورع في الفتيا والكلام على الأحكام ومعاني القرآن ٢٤٧
سادسًا: الورع في النظر ٢٥٠
سابعًا: الورع في السمع ٢٥١
ثامنًا: الورع في الشَّم ٢٥٢
تاسعًا: نماذج متنوعة من أبواب شتى في الورع ٢٥٢
التوكل ٢٥٥
توطئة ٢٥٧
معنى التوكُّل وحقيقته ٢٥٨

الفروقات في باب التوكُّل ٢٦٠
منزلة التوكُّل ٢٦٣
التوكُّل في الكتاب والسنة ٢٦٨
دَرَجات التوكُّل ٢٧٠
أنواع التوكُّل ٢٧٣
التوكُّلُ وفعلُ الأسباب ٢٧٨
الأدلَّة على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكُّل ٢٨١
هَدْيُ السلفِ الصالحِ في التوكُّلِ وفعلِ الأسباب ٢٨٣
ما يُطْلَب معرفتُهُ في الأسباب ٢٨٥
بعضُ مَظَاهِر ضعفِ التوكُّل ٢٨٧
هل الرُّقيةُ تنافي التوكُّلَ؟ أو تَقدَحُ فيه؟ ٢٨٩
حكم التداوي، وهل ينافي التوكُّل؟ ٢٩٣
الطريق إلى تحقيق التوكُّل ٢٩٥
ثَمَرات التوكُّل ٢٩٩
مِن أخبار أهل التوكُّل ٣٠٧
المَحَبَّة ٣٠٩
توطئة ٣١١
معنى المحبة وحقيقتها ٣١٢
محبة الله ٣١٣
منزلة المحبَّة ٣١٤
المحبة في الكتاب والسنة ٣١٧

المحبة وحدها لا تكفي ٣١٩
المفاضلة بين الخوف والمحبة والرجاء ٣٢١
درجات المحبَّة ٣٢٢
مراتب المحبة ٣٢٣
أنواع المحبة ٣٢٥
علامات محبَّة الربّ للعبد ٣٢٩
الطَّرِيقُ إلى تحقيق محبة الرَّب للعبد ٣٣٠
علامات محبَّة العبد لربه عزّ وجلّ ٣٣٢
الطريق إلى تحقيق المحبة لله عزّ وجلّ ٣٣٥
ثمرات المحبة وآثارها السلوكية ٣٤٠
من أخبار أهل المحبة ٣٤٣
الرَّجَاءُ ٣٤٥
توطئة ٣٤٧
معنى الرجاء وحقيقته ٣٤٨
الفرق بين الرجاء والتمني ٣٤٩
بيان الرَّجَاء الصحيح الذي يُطْلَبُ من العبد تحصيله ٣٥٠
بعض المفاهيم الخاطئة للرجاء ٣٥٣
المُلَازَمة بين الخوف والرجاء ٣٥٨
الرجاء دواء يضعه الحكيم في موضعه ٣٥٩
المؤمن بين الخوف والرجاء ٣٦٢
منزلة الرجاء ٣٦٦

الرجاء في الكتاب والسنة ٣٦٨
عَلِّقْ رَجَاءَكَ بالله وحدَه لا شريك له ٣٧١
درجات الرجاء ٣٧٤
الطريق إلى تحقيق الرَّجَاء ٣٧٥
ثمرات الرجاء وآثاره السلوكية ٣٧٩
من أخبار أهل الرجاء ٣٨٣
الخَوْف ٣٨٥
توطئة ٣٨٧
معنى الخوف وحقيقته ٣٨٨
الفروقات في باب الخوف ٣٨٩
منزلة الخوف ٣٩١
الخوف في الكتاب والسُّنَّة ٣٩٣
المُفَاضَلة بين الخوف والمحبة ٣٩٥
أنواع الخوف ٣٩٦
الطريق إلى تحقيق الخوف من اللَّه ٤٠٠
ثمرات الخوف ٤٠٧
من أخبار أهل الخوف ٤١٢
الصَّبْر ٤١٩
توطئة ٤٢١
معنى الصبر وحقيقته ٤٢٢
منزلة الصبر ٤٢٤

فضل الصبر في الكتاب والسُّنَّة ٤٢٦
المُفاضَلات في باب الصبر ٤٢٩
حكم الصبر ٤٣٣
شروط الصبر ٤٣٥
مجالات الصبر ٤٣٧
الصبر لا يكفي وحده ٤٣٩
أقسام الصبر ٤٤٠
مراتب الناس في الصبر ٤٤٤
مراتب الناس حال المصيبة ٤٤٥
ما ينافي الصبر وما لا ينافيه ٤٤٧
الطريق إلى تحقيق الصبر ٤٥٢
عَقَبات في طريق الصبر ٤٦١
ثَمَرَات الصبر ٤٦٣
من أخبار أهل الصبر ٤٦٧
الرِّضَا ٤٧١
توطئة ٤٧٣
معنى الرِّضا وحقيقته ٤٧٤
الفروقات في باب الرضا ٤٧٥
حكم الرضا ٤٧٧
الفرق بين أفعال الربِّ سُبْحَانَه ومفعولاته ٤٨١
الرضا بالقضاء الديني الشرعي ٤٨٣

منزلة الرِّضَا ٤٨٥
الرِّضا في الكتاب والسنة ٤٨٧
أنواع الرضا ٤٩٠
علامات الرضا ٤٩٢
الطريق إلى تحقيق الرِّضا ٤٩٣
ثَمرات الرِّضَا ٤٩٩
ما لا يُنافي الرِّضا وما يُنافيه ٥٠٦
من أخبار أهل السخط ٥١١
من أخبار أهل الرضا ٥١٣
الشُّكر ٥١٧
توطئة ٥١٩
معنى الشُّكر وحقيقته ٥٢٠
الفرق بين الشكر والحمد ٥٢٤
المُفَاضَلَة بين الشكر والصبر والرضا ٥٢٦
حكم الشكر ٥٢٧
منزلة الشكر ٥٢٨
الشكر في الكتاب والسنَّة ٥٣٠
درجات الشكر ٥٣٢
الطريق إلى تحقيق الشكر ٥٣٤
ثَمرات الشكر ٥٣٩
أسباب الغَفْلَة عن النِّعَم ٥٤٢

من مَظَاهِر الشُّكر وصُوَره ٥٤٥

من أخبار أهل الشُّكر ٥٤٨

الغَيْرَة ٥٥١

توطئة ٥٥٣

معنى الغَيْرة وحقيقتها ٥٥٤

الفرق بين الغَيْرة من الشيء والغَيْرة عليه وله ٥٥٥

منزلة الغَيْرة ٥٥٦

الغَيْرة المذمومة والممدوحة ٥٥٧

أنواع الغَيْرة ٥٥٩

أسباب ضَعْف الغَيْرَة وزوالها ٥٦٣

الطريق إلى تحقيق الغيرة ٥٦٧

آثار الغَيْرة ٥٦٨

من أخبار أهل الغيرة ٥٦٩

الحَيَاء ٥٧٣

توطئة ٥٧٥

معنى الحياء وحقيقته ٥٧٦

الفرق بين الحياء والخَجَل ٥٧٧

مَنْزِلة الحياء ٥٧٩

الحياء في الكتاب والسُّنَّة ٥٨١

هل الحياء غَرِيزَة أو شيء مكتسب؟ ٥٨٣

أنواع الحياء ٥٨٥

الطريق إلى تَحْقِيق الحياء ٥٨٧
الأمور التي تنافي الحياء ٥٩١
ثمرات الحياء ٥٩٣
من أخبار أهل الحياء ٥٩٥
التَّوْبَة ٥٩٧
تَوْطِئَة ٥٩٩
معنى التوبة وحقيقتها ٦٠٠
إطلاقاتٌ أُخرى للتوبة في الكتاب والسنة ٦٠٢
الفُرُوقَات في باب التوبة ٦٠٤
التوبة لا تكون إلّا للّه وحده ٦٠٨
حُكْم التوبة ٦٠٩
مَنْزِلَة التوبة ٦١١
توبةُ العبدِ وَاقِعةٌ بينَ توبتينِ ٦١٤
وقت التوبة ٦١٦
التوبة في الكتاب والسُّنَّة ٦١٩
علامات صِدْق التوبة ٦٢٢
شروط التوبة ٦٢٤
مِنْ آدابِ التوبةِ ومُكَمّلاتِها ٦٣٤
مراتب المُنِيبِين ٦٣٧
الطريق إلى تحقيق التوبة ٦٣٩
عَقَبات في طريق التوبة ٦٤٥

ثَمَرات التوبة ٦٥٠
أسباب دَفْع العُقوبة ٦٥٦
المَحَاذِير في باب التوبة ٦٥٧
من أخبار أهل التوبة ٦٦٣
قائمة المصادر والمراجع ٦٦٧
فهرس الموضوعات ٧٢٣